

عبد الكريم الخطيب

النبي محمد

أشواقنا على سيدنا محمد وآله

دار الفكر العربي



عبد الكريم الخطيب

النبي محمد

إنسان الإنسانية
ونبي الأنبياء

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دار الأوقاف والأوقاف
صاحبها: محمد عبد الرزاق
كنيسة الأوقاف من الجليل
تليخون ٩٣٤٠٩٤

سُمُّ الدُّرِّ عَنِ الرَّسُولِ

أشهد لقد ظلمت نفسي ، إذ أقدمت على هذا العمل ، بعد أن ظلمت سنين كثيرة أتهيبه ، وأحاذر الإقدام عليه !

فإن الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وإن يكن طلبه النفس في كل حين ، ورغبتها في كل حال - فقد كان الهمس به ، والتخافت فيه أحب إلى قلبي ، وأرضى لمشاعري وأرواح لنفسي ، ... إذ كنت أدع الحواطري الانطلاق في معاني السيرة النبوية ومجانيها ، إلى المدى الذي تقدر عليه ، دون أن آخذ نفسي بمنهج ، أو أقف بها عند مورد . بل كان لها أن تروى كل منهج ، وترد كل مورد ، وتنتقل من حال إلى حال كما ينتقل النحل بين ألوان الزهر !

° ° °

ولا أدري ماذا حدث حتى انتقل هذا الحديث الهامس الخافت من سيرة الرسول ، الذي كان يبنى وبين نفسه ينساب في مسارب الضمير ، ويسرح بين حنايا الصدر لا أدري كيف انتقل هذا الحديث الهامس الخافت ، إلى هذه الصورة المسموعة المقررة في هذا الكتاب ، الذي يحمله القارئ بين يديه ؟

فلقد كنت حريصاً أشد الحرص على أن أظل قارئاً أو مستمعاً لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن أكون مقرئاً أو مسمعاً لها يوماً من الأيام !

إني أعرف حق المعرفة جلال هذا المقام ، وأقدره قدره من الاحترام والتوقير ، كما أعرف حق المعرفة ما ينبغي لسيرة الرسول الكريم من حرمة وتعمون من أن يباح حماها لـكل من يقول بعلم وبغير علم ، ولـكل من يرتاد حماها بـزاد أو بغير زاد !

فليس كل من عرف طرفاً من سيرة الرسول ، وضم صدره على حبه والولاء له ، بقادر على أن يصور مشاعره وأحاسيسه . وأن ينقل ما بنفسه من معاني الجلال والعظمة التي تفيض عليه من جلال النبوة وعظمتها إلى كلمات مسموعة

مقروءة ، وأن ينفض ما بصدوره من مشاعر الحب والولاء على الأسطر التي يسود
بها صفحات ، ثم يجعلها كتاباً في السيرة ١١

ولو كان ذلك مما يقع في الإمكان ، أو لو وقع جاء بحجى الرضا والقبول لا يخرج
كل مسلم كتاباً عجياً من أعماقه ؛ في تلك السيرة الكريمة ، ولكانت هذه الكتب
آية الآيات فيما تحمل من معاني الحب الصادق ، التي ضمت عليها صدور المسلمين
للنبي الكريم !

ولكن ما في الصدور شيء ، وما تستطيع أن تحمله الكلمات من هذا الشيء -
شيء آخر ١١

فكيف إذا كانت المعاني من السمو والمكالم ، وكانت المشاعر من الصدق
والعمق على هذا النحو الذي يحده من يطوف بحمى النبوة ، ويطالع أنوارها ؟؟
إن ما تأخذ الكلمات هنا من هذا الجلال ، وما تحمل من تلك المعاني لا يكون
إلا كما يأخذ القلم من ماء البحر ، وإلا كما تمسك اليد من شعاع الشمس ، أو تلتقط
العين من ضوءها !

• • •

فإذا ما تمهيت هذا الموقف ، وأخذتني منه رهبة ، فليس ذلك إلا لأنني أعرف
للموقف جلاله ، وأقدر خطره ، وخطر العثار فيه !

إن العثرة هنا بقاء مشهورة ، تلمظ بها الشفاه ، وتشرع لها الأفلام ، ويكثر
من أجلها الطعن والقتال ! .. فلا يقال للعائر لماً ، ولا تقبل منه معذرة . . إذ
كان ذلك العثار محمولا عند أكثر الناس على أنه تناول على مقام الرسول ،
وتجديف عليه . .

وقد يحسن الظن عنه بعض الناس فيجفر الزلة ، ويثيل من العثرة ، ولمكنه
لا يخلى صاحبها من الرى بالجهل أو الاستخفاف .. وقد يشدق بعض آخر فيسرق
التهم ويرى بالكفر والإلحاد ،

وقل في الناس من يقع على الزلة هنا فيلقاها بالأمح والصفح ، ويجد لها في

باب النفران مدحلا ، حين ينظر إلى الأمر بعينه معاً ، وحين يرى الحسنات
والسيئات جميعاً !

* * *

وعذيري عند نفسي من هذا الموقف الذي سقته إليها ، أو ساقتنى هي إليه —
أفنى وصحت لها . ودعوتها إلى الريث والمهل فيه ، فطاوالت معها الأيام ، ولويت
زمانها عن هذا القعد زمننا طويلا ، لعلها ترصى من سيرة الرسول بما أريد لها
الرضا به ، وهو أن تعيش فيها وحدها ، وأن تلتقى بها على غير مشهد من أحد !
وأكثر من هذا ، فلقد تلطفت بها ، وترفقت في صرفها ، فلم أدعها تهم في
كل واد ، وتسقط على كل مرعى ، حين صرفتها عن وجهها تلك ، وأخذت
عليها الطريق إليها - بل قدمت إليها زاداً عتيداً طيباً ، وهو أن تلتقى مع صحابة
رسول الله وخلفائه الراشدين ، وأن تعيش معهم في السر والعلن ؛ تتحدث إلى
الناس بما تشاء من حديث عنهم ، إن كانت تشتهي الحديث إلى الناس في هذا
الباب ، وتحرص عليه .

وقد كان !

فأرخصت لنفسي العنان لتجيا في سيرة صحابة الرسول ، وخلفائه الراشدين ،
وأن تأخذ الوضع الذي ترخصيه لتتحدث بما تشاء من صور الحديث : مقروءة
أو مسموعة !

وكان ذلك - فيما بدا لي أول الأمر - سياسة ناجحة فيما أردت ، إذ سكنت
تلك النوازع التي كانت تطلع بها على نفسي بين الحين والحين ، وتصرخ بها في
أعماقي ليكون لي في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كتاباً !

وفعلًا .. كاد يقع التصالح بيني وبين نفسي على هذا الموقف ، وأمسكت بالقلم
لأبدأ بسيرة الخليفة الأول ، أبي بكر ، رضى الله تعالى عنه !

وهنا ألفت النفس إلى خاطراً غريباً ، وهو أن أبدأ بسيرة الخليفة الثاني

و عمر بن الخطاب ، !

فسألتها : ولم عمر؟ أترأه يفضل أبا بكر ، ويقدم عليه ؟
قالت . مالك ولهذا الظن ؟ ولم تحمل الأمر على المفاصلة ، والتفاضل بين
خلفاء الرسول ؟

قلت : وهم يفسر هذا ... بيني وبينك على الأقل ؟
قالت : إن ما اجتمع بين يديك من سيرة « عمر » يصلح أن يكون كتاباً ،
يقرؤه الناس ، وربما كان القلم هنا أسرع وأطوع في تصوير الحقائق التي تريد عرضها
أما « أبو بكر » فإني أرى أن سيرته لم تكتمل لديك ولم يبلغ عندك ما تريد منها !
ونخيل إلى أن هذه نصيحة ناصح ، ومتورة أمين !
فأقبلت أكتب سيرة « عمر » فكتبتها ، وأخرجتها كتاباً بين أيدي الناس !

* * *

وأشهد أني حين كنت متوفراً على الكتابة في سيرة « عمر » كنت أكاد أنب
وثباً ، لأبلغ خاتمة الكتاب ، حتى ألتقي لقاء مباشراً مع سيرة الرسول ، وأفرغ
جهدى كله في الحياة معها ، وإعلان الحديث عنها ، ومجاهرة الناس بها !
وإذ ذاك عرفت الكيد الذي كادته نفسى ، وانكشف لى سر التدبير الذى
دبرته ، حين ألفت إلى بهذا الخاطر الذى حملنى على البدء « بسيرة عمر » !
فقلد كانت سيرة « عمر » عندى خير آذن يأذن لى بالدخول إلى السيرة
النبوية ، ويمهد لى الطريقين إليها ، ويفتح كنوز الجلال والعظمة المحجبة في
أنوارها !

فلقد وجدت في سيرة عمر ريح النبوة ، نفاذ الشذى ، فواح الطيب !
ووجدت في عمر العظمة الإنسانية ، والكمال البشرى ، النامى في ظلال
النبوة . المتضىء من مشكاتها .

فكان ذلك إغراء قوياً لى بالتطلع إلى موطن العظمة ، وإلى مصدر الإشعاع !
وليس ثمة شك في أن سيرة صحابة رسول الله وخلفائه الراشدين ، لاتنكف
جوانب العظمة فيها ، ولاتتجلى مطالع الأنوار منها حتى ترد إلى المصدر الذى
أفاض عليها ما أفاض ، من جلال وعظمة ، وإشراق !

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي النور الكاشف الذي ترى فيه مغارس النبوة ، ويستدل به على ما في مجانها الطيبة من ثمر طيب !

* * *

وبعد :

فإذا عذرت لنفسى بالسكينة في سيرة الرسول ، والمعالجة بالحديث في تلك السيرة المباركة الطيبة - فمن يهذر لى عند الناس إن وجدوا زلة أو عثرة ؟؟

حسبي أنها كانت نية خالصة ، أردت بها إرواء نفس متعطشة إلى أن تحيا مع الناس في أكرم حديث ، وأطيب سيرة .

« وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

فاللهم تقبل هذا العمل ، واجعله صلاة وسلاماً دائماً على نبيك المصطفى وحبيبك المجتبي ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين ؟

المؤلف

القاهرة في : ٣٠ رجب سنة ١٣٨٣ هـ

٢٧ ديسمبر سنة ١٩٦٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين
وعلى آله وصحبه ومن امتدى بهديه . وسلك سبيله إلى يوم الدين .
وبعد :

فإنه الطبعة الثانية من كتاب « النبي محمد » لإنسان الانسانية ونبي الأنبياء ،
نعود فلتقى مع أولياء الله وأحباب رسوله ، والمتأسين بسيرته .
وقد كنا ونحن على فية تقديم هذا الكتاب للمرة الثانية بين أمرين :

الأمر الأول : أن نعيد صياغته من جديد ، وأن تدخل عليه ما دخل على
مشاعرنا من أنوار الهدى النبوى ، وما اكتسبت به أبصارنا من أضواء سيرته
المباركة الطيبة ، التي تتجدد بها الحياه كلما تفتأت ظلالها علينا ، وكلما هبت أنفاسها
العطرة في أحوائنا . . وكان ذلك من شأنه أن يجعل من هذا الكتاب كتاباً جديداً
ربما احتلط به الأمر على من قرأه في صورته الأولى : حين يرجع إلى فصل من
فصوله . أو باب من أبوابه . .

والأمر الثانى : هو أن تقدم الكتاب كما هو ، وأن نجعل هذا الذى زودتنا
به السيرة النبوية المباركة من زاد جديد ، كتاباً آخر يلحق بهذا الكتاب ، ويكون
مكملاً له .

وقد أثرت الأمر الثانى . وها هو ذا الكتاب فى صورته الأولى ، لم نزد عليه
إلا بعض العبارات التي نراها لازمة لتوضيح معنى أو استيفاء فكرة . .
نسأل الله أن ينفع به ، وأن يشبنا عليه ، وأن ينزل منزل الرضاء والقبول من
صاحب البيرة صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى
يوم الدين .

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ؟

القاهرة فى : جمادى الأول ١٣٩٦ هـ
أبريل ١٩٧٦ م

المؤلف

صلوات .. وابتهالات الكلمة الطيبة

« ضرب الله مثلاً

« كلمة طيبة .. كشجرة طيبة ..

« أصلها ثابت . وفرعها في السماء ..

« تؤتي أكلها كل حين .. بإذن ربها ..

« ويضرب الله الأمثال للمتقين .. لعالمهم يقذفون » !

° ° °

« محمد .. محمد .. محمد .. محمد .. »

يا للكلمة الطيبة .. المباركة ..

ويا لروعة جرسها .. وصفاء لحنها !

من جوهرها الكريم يصاغ الكلم الطيب .. وتولد الكلمات الحانية !

محمد ، وأحمد ، وحمد . ومدح !

فأى إلهام . وأى تدبير ، وأى قدر اصطفاك — أيها الكلمة المباركة

الطيبة — لابن عبد الله اسماً ، ولخاتم النبيين سمة وعلياً ؟ !

وأى إلهام ، وأى تدبير ، وأى قدر حفظك — أيها الاسم النبيل — في

ضمير الحياة تلك القرون الكثيرة المتطاولة .. لم ينطق بك فم ، ولم يكس

بجلالك وليد ؟ !

حق إذا وضعت أمة بنت وهب وليدها اليتيم ، وملأت عينها من قس

وجهه الوصى ، وثغره الباسم ، وجبينه المسرق — أحست أن وليداً آخر

يتفلس من سدرها ، وينطلق إلى فيها .. وإذ لسانها يتحرك ، وشفتاها

تتصادحان بنغم وادع ، رقيق .. محمد .. محمد .. هذا هو وليدى .

وذاك اسمه .. وإني لأرجو أن يحمد ، وأن يكون محمداً ! !

فمحمد . . الكلمة الطيبة المباركة .
ومحمد . . البى الأسمى . . مبعوث السماء بالهدى ودين الحق . .
محمد . . كلمة . . هى سيدة الكلام !
ومحمد . . لإنسان . . هو سيد الأنعام !

ويلتقى العظيمان :
الذات . . والكلمة !
المسمى . . والاسم !
فيشهد التاريخ معجزة الحياة . . المعجزة الخالدة . . التى تخلق من كلام .
وجرت على لسان !

فلقد تفجرت من الكلمة ينابيع الحكمة ، وصورت آيات البلاغة والفصاحة
فيجسم لبلاغتها البلاء ، ويخرس لفصاحتها الفصحاء .
ولأول مرة فى حياة البشر . تكون الكلمة آية ، وتصبح الآية معجزة
خالدة ، تتحدى الناس على مدى الأجيال ، وتطاول الأزمان !
ولأول مرة فى حياة الرسل تكون معجزة الرسول فى فمه . . كلمات تجرى
على لسانه . فتعنو لها الوجوه ، وتخرس لها الألسنة . . !
« أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ! . . وادعوا
من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

ومحمد . . !
كم أنت موفورة الحظ أيتها الكلمة المباركة الطيبة !
لأنك أبدأ فى قلب كل مسلم ، وعلى لسانه ، وملء فمه وسمعه !
فمن يوم أن ولد ابن عبد الله وأنت فور يبدد الظلام ، وهدى يدفع الضلال .
وحق يدمغ الباطل . . ولما أنت رحمة راحة حيث ضحك قلب ، أو تحرك
بك لسان !

ومن يوم أن ولد ابن عبد الله ، وأنت تستأثرين بالمكان الأول ، في مقام
الذيرور والانتشار ، بين الكلمات الحية العاملة في الحياة . .
لقد اختصك الله - أيتها الكلمة الطيبة المباركة - بهذا الفضل الغدق ، فجعل
ذكرك عبادة ، وصلاة ، ودعاء !

وكان مما فضل الله به عليك - أيتها الكلمة المباركة الطيبة - أن جمع بينك
وبين اسمه تعالى ، وجعل الإيمان به لا يتم إلا ولك نصيب فيه ، وذكر معه !
فالصلاة على « محمد » في شريعة الإسلام مرضاة للرب . . مغفرة للذنوب .
والشهادة برسالة محمد ركن من أركان الإسلام . . لا يكمل إلا بها ،
ولا يقبل إلا معها !

في كل أذان تتردد كلمة « محمد » وفي مفتتح كل صلاة تذكر كلمة « محمد » ،
وفي التشهد من كل صلاة ، وفي مختتم كل صلاة تذكر كلمة محمد !

إن أدنى ما يجب على المسلم أن يذكره من كلمة « محمد » لا يقل عن عشرين مرة
كل يوم في مقام الصلاة المفروضة . . أما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقف المسلم
بها عند حد أبداً ، والزيادة فيها زيادة من خير ، واستزادة من رحمة ورضوان .

إن أى كلمة قد تعيش في الناس زمناً ما . . يطول أو يقصر ، ولكنها
لن تحيا مع الناس حياة ملازمة أبداً . . ولن يرتبط مصيرهم بها في كل حين !
بل تدور معهم دورة ثم ينتهى دورها ، وتختلفها غيرها من الكلمات . . وهكذا
دواليك . . تولد كلمات ، وتموت كلمات ، شأنها شأن الكائنات الحية ، من الإنسان
وحیوان ونبات .

أما كلمة « محمد » فقد عاشت ، وستعيش في الناس أبداً الدهر !

لأنها تنكس كل يوم ألجنة جديدة تهتف بها ، وتستقبل كل وقت أهلاً
وأ نصاراً ، يجتمعون عليها ، وينصون تحت لوائها . .

لأنها كلمة مباركة طيبة . . « تؤق أكلها كل حين بإذن ربها » . .

مانطق بها مؤمن بالله إلا ارتفع في المأل الأعلى ذكره ، وزاد في ميزان

الخير خيره !

ذلك هو بعض « محمد » الكلمة . . الكلمة التي انقسمت إلى ابن عبد الله
الوليد . . اليتيم . . النبي . . الأُمِّي . . رسول رب العالمين !

* * *

أما ، محمد ، الذات . . ذلك اليتيم الفقير الذي عرفته ، مكة ، وليدًا ، وعرفته
البادية رضيعًا ، تم استقبلته مكة غلامًا ، وشهدته نبيًا مرسلًا ، يحمل في فمه دعوة
الحق ، يؤذن بها في الناس : « أن آمنوا بربكم . . وشهدت قومه يلقونه بالسوء ،
ويرمون به بالضر والاذى ، ورأته يلقي ما يلقي في صبر جميل . . لا يبرم ولا يضجر . .
وإن صجرت لذلك الأرض ، وضجت السماء . . ثم فطرت إليه في أسى وحزن
وهو يهاجر إلى المدينة ، حاملاً معه رسالته ، طالماً بها في هذا الأفق الجديد من
آفاق الجزيرة العربية .

— أما ، محمد ، هذا الإنسان الذي عرفته الحياة ، وعرفه الناس ، فما أجد
الكلمة التي تحمل بعض مشاعري لهذا الإنسان العظيم . . الإنسان الذي شاعت
إرادة الخالق أن يكون مبعوثه إلى الناس كافة . هدى ورحمة للعالمين !

غرق أعرابي في لجج الليل المتضاربة في صدر الصحراء العريض ، وضلت
في ناظريه معالم الطريق . فوقف مقيداً بالحيرة والذهول ، لا يدري إلى أي
اتجاه يتجه . ولا إلى أي منصرف ينصرف ! وبجأة طلع القمر فلأ الصحراء
بوجهه المشرق الوضئ ، ولبست الموجودات حلة زاهية من النور الفضي الرفيق !
وتطلع الأعرابي إلى القمر ، وقد ملأت الفرحة كيانه ، واستبدت به .
وجمدت الكلمات على لسانه فما يدري ماذا يقول . . ؟

إنه يود لو أن القمر منه دان قريب . . إذن أضمه إلى صدره ، واحتواه
بين ذراعيه وغمره لثماً وحناناً !

أما والقمر أبعد من أن ينال ؛ فإنه لابد من أن ينفس الأعرابي عن تلك
المشاعر بما يقدر عليه من صور الكلام !

فعاد يتطلع إلى القمر من جديد ، ويملاً عينيه من نوره المتدفق ، وجعلت

شفتاه تحتاجان ببعض كلمات هامة حاملة .. هي خفقات قلبه ، وذوب مشاعره
لأنها كلمات أشبه بتغريدة طائر ، أو قميدة شاعر !

ماذا أقول فيك !

أقول زادك الله جمالا ؟ فأى جمال بعد هذا الجمال ؟

أقول زادك الله علواً ؟ وأين ؟ وهل وراء السماء سماء ؟

ثم سكن الأعرابي في صمت بليغ !

وما موقف هذا الأعرابي من القمر في حاله تلك يكون شيئاً إلى حال من يقف
من رسول الله موقف المطالع لسيرته ، الدارس لرسالته ، المتأمل في دعوته ،
المتابع لهذه الدعوة ، والمتابع لآثارها في الحياة ، وفي أجيال الناس ؛ عصرراً لآثر
عصر إلى يوم الناس هذا ، وإلى ما بعد هذا اليوم !

إن الذى يقف من سيرة هذا الرسول الكريم موقف التأمل المنصف ليحد
أنه أمام ظاهرة رائعة من ظاهرات الوجود ، لم تشهد الحياة من قبل شيئاً لها ،
ولم تقع العين على مثاليها ، فيما يطلع في الوجود من ظواهر وعجائب !

إنسان من الناس .. ولد لأبوين كما يولد سائر الناس ، ثم لم يخلق من الحياة
إرثاً من الملك أو العنى كما يخلق بعض المولودين ، وإنما كان الذى تلقاه هو اليتيم
والفقير ، منذ استقبل الحياة ، بل من قبل أن يستقبل الحياة !

هذا الوليد .. اليتيم .. الفقير .. ماذا تظن به ؟ وماذا تقدر له مع الأيام ؟
لوجرت الحياة به على طبيعتها لكان مصيره إلى الضياع في دنيا الضائعين من
اليتامى والفقراء ، في عالم البادية ، وفي كثف الصحراء !

ولو أحسنا الظن بالحياة في شأن هذا الوليد اليتيم الفقير لما بلغ بنا الظن فيه
إلى أكثر من أن يكون فتى من فتيان قريش .. يقطع أيامه ولياليه في معاقرة
الخمر ، ولعب الميسر ، وفي منازلة النساء ، ومخاللة القيان .. ثم ينتهى به الأمر
في شيخوخته إلى أن يكون شيخاً من شيوخ قريش ، يأخذ مكانه بين رواة
الندوة ، يستمع إلى ما يدور من أحاديث الجد والهزل فيها ، ثم تطويه الأيام
في أطول من سادات قريش وصعاليكها !

ولكن الذى جاء من هذا اليتيم الفقير كان على غير هذا كله .. كان شيئاً لم يقع فى حسابان أحد ، ولم يدر فى خلد إفسان !

وأحسبك تنتظر أحداثاً مفاجئة .. وعجائب مذهلة ! كلا !

لم تتغير طبيعة الحياة من أجل هذا اليتيم الفقير ! .. كل شيء يجرى فى مجراه الممقدور له .. فلم تهبط عليه ثروة مفاجئة تقبّل بها حاله .. ولم يتحول فى قريـس شيء عما عهد فيها من خير وشر ، ومن جد ولهو ، ومن رشاد وغى ، ولم يتغير وجه الصحراء وما يعلوه من جذب وحفاف ، وما يتعاور عليه من زمهرير الشتاء ، وسموم الصيف !

لقد ظل كل شيء كما عهدته الناس .. اليتيم على يثمه وفقره .. وقرين على عهدها فى صحوها ، ونومها ، والحياة على سيرها ، فى نهارجها وأليها !

تجرى الحياة ، ويجرى الناس معها ، وكأن لم يكن شيء قد دخل عليها وعليهم ، يوشك أن يبدل سير الحياة ، وأن يعدل موقف الناس فيها . ويفير أوضاعهم منها !

على حين أن هذا اليتيم الفقير كان يمنع حياته فى رفق ، وعلى مهل !

فهو يصدق القول حيث يكذب الناس . . وهو يؤدى الأمانة حيث يخون الناس ! وهو يعف عن الخسر حيث يتهاف عليها الأنيب واللبان ، ويمزق عن اللوح حيث يتهاك الرجال والغلمان . . وهو يحقر الأوثان ويزوى وجهه عنها حيث يتخاشع لها قومه ، ويسعون إليها مصمحين ومحمسين !

كل ذلك وما إليه من السمائل الحلوة ، والصفات المكرّمة كان يجرى فى وداعة ورفق ، دون أن يثير فى الناس ضجة ويحدث فى الحياة هزة . . لأن ذلك كله كان يجرى عن طبيعة لا تكلف فيها ، ويصدر عن فطرة سليمة لا صنعة معها !

ومن هنا كان إحساس الناس بتلك الصفات فى محمد إحساساً قوياً راسخاً ، واقعاً منهم موقع اليقين ، لأنه دخل عليهم فى هوادة ورفق ، وتأدى إليهم يوماً بعد يوم ، وحالاً بعد حال ، حتى ومنهج واستوى ، كما ينضج ويستوى الطعم الحلو فى الثمر الطيب ، والعطر الذكي فى يانع الزهر !

(محمد) .. الصادق الأمين

(محمد) ... العف النزيه

(محمد) ... العاقل الرشيد

(محمد) ... البر الرحيم

(محمد) ... الزاهد العابد

هذا بعض (محمد) فيما عرف الناس منه ، وهو بعد في يفاعه الصبا . وفي
مبعة الشباب ؛ قبل أن يبلغ عمر الرجال ، وقبل أن يتلقى دعوة السماء ، ويؤذن
بها في الناس : أنى لكم رسول أمين .

ولقد تسأل ويسأل الناس :

من أين لهذا اليتيم الفقير بهذا الأدب العالى الرفيع ؟

ومن أين له بهذه الأخلاق المجتمعة على الفضل والنبل ؟

لأنه قد يتيماً لإنسان أن يستقيم على خلق فاضل حيناً من الدهر .. ولكن
هيات أن يستقيم عليه العمر كله على درجة واحدة من السمو ، دون أن يميل
أو ينحدر !

وهيات أن يجمع بين اثنين أو ثلاثة من الصفات الفاضلة على هذا المستوى
العالى ، وأن يمسك بها جميعها فى قوة وفى استقامة دون أن تهتز ، ويتصرم
عقدها !

فأنى لهذا اليتيم الفقير أن يربى نفسه هذه التربية ! وأن ينسبها هذه النشأة
التي لم تقع لأحد فى قومه ؟ وكيف لهذا الفقير اليتيم أن يحوى الفضائل
الإنسانية كلها ، ويمسك بها جميعها ، فى قوة وفى استقامة ، على جميع الظروف
وفى كل الأحوال ؟

أسئلة ظل الناس سنوات غير قليلة ينتظرون جوابها ، كلما رأوا محمدآ ،
أو جاهدوا إليه ، واستمعوا منه !

حتى إذا جاءت أنباء الهباء تحدث عن أن « محمداً » هو النبي المرسل إلى الناس بالهدى ، والمبعوث فيهم بالرحمة . تنبهوا إلى أن لهذه العلاقة بين « محمد » وبين السماء صلة بتلك الصفات التي اشتمل عليها ، وهذه الأخلاق العالية التي تفرد بها ، وبدأ الناس يعيدون النظر في « محمد » على ضوء هذا الإحساس الجديده الذي دخل عليهم من دعوته : أنه رسول رب العالمين !

والناس — بين مصدق ومكذب بنبوة محمد — . . وقد نفرت نظرهم إليه منذ ذلك اليوم الذي لبس فيه ثوب النبوة ، وطلع على الناس به .

فالذين آمنوا به وصدقوه ازدادت هذه الصفات في أعينهم سمواً وقداً ، وبدأ لهم « محمد » من خلالها إنساناً يحيا في الناس بجسده ، ويحيا في الملأ الأعلى روحه . . إنساناً هو وحده بين الناس جميعاً الذي يملأ الفراغ . . بين الأرض والسماء . . بين الناس والملائكة !

وأما الذين أخذتهم الغزة بالإثم ، وأعمى الحقد أبصارهم ، وطمس الحسد على قلوبهم فإنهم استكثروا أن يكون ذلك الشأن العظيم لمحمد وحده من بين سادة قريش وعظمائها ! فجعلوا يرمونهم بالسحر والكهانة ، وينسبون هذه القوة الروحية التي اشتمل عليها ، وملأ بها قلوب الناس هيبة — ينسبون هذه القوة إلى قوى السحر والكهانة ، لا إلى أمداد السماء ورحمة الرحمن ! . . لأنهم لم يستطيعوا أن ينكروا هذا الواقع الذي تشهد به الحياة كلها ، وهو أن « محمداً » ليس على شاكلتهم ، وإنما هو إنسان نسيج وحده بين الناس . . ولمكنهم مع هذا أبوا أن يضيفوا هذا الذي بان به « محمد » عليهم ، وتفرد به بينهم — إلى الله وأن يقرروا لمحمد بما فضل الله به عليه ، إذ جعله مبعوثه إلى الناس بالهدى ودين الحق !

• • •

لأنه تدبير السماء بلا شك !

ولكن ماذا يدري الناس من أمر السماء وتدبيرها في شريعة محمد ، وفي تدبيره تلك الذنأة الربانية ؟

إن ذلك لم يكن عن معاملة ومجاهرة ، حتى أن « محمد » نفسه لم يكن يعلم من أمر ذلك شيئاً إلى أن آذنه الله بما احتاره له ، حين نزل عليه جبريل في غار حراء ، بأول نبأ من أنباء السماء ! وقد بلغ الأربعين من السنين . . . عندئذ عرف « محمد » أن بينه وبين السماء شيئاً ، وأن هذا الشيء صائر به إلى خير . . . وخير كثير !

أما قبل ذلك اليوم الذى اتصل فيه محمد بالسماء فإنه : لم يكن يدري من أمر نفسه أكثر من أنه واحد من آحاد قومه ، قد ارتبط مصيره بمصيرهم في زمانهم ومكانهم . . . لا يستطيع أن يغير من واقع القوم شيئاً ، وإن يكن قد بدا له من حياتهم ما يكره ، وإن يكن قد حزن نفسه عن أن يدخل عليها ما كره من حياتهم وما أنكر من أمرهم !

• • •

هذه الأخلاق الكريمة الرضية ، وبذلك السيرة الطيبة القويمة عاش « محمد » في قومه وبين أهله !

ومن أجل هذه الأخلاق الكريمة الرضية ، ومن أجل تلك السيرة الطيبة القويمة أحب الناس « محمد » وأحلوه من قلوبهم مكان الإعزاز والإكرام . . . فحيث كان « محمد » ارتفعت إليه العيون تملأه ، حيث تجدد الراحة والرضا في هذا الإنسان الذى يعيدس في الناس أشبه بالنسمة العطرة في الهواجر اللاحقة !

قطعت « محمد » من عمره أربعين عاماً قبل البعثة لم تجرب عليه كذبة ، ولم تعلق به شائبة ، ولم يتحرك لسان بكلمة سوء .

كذلك أمضى « محمد » حياته كلها قبل البعثة بين قومه . لم يقع بينه وبين أحد منهم شر ، ولا قامت بينه وبين إنسان عداوة ، على كثر ما كان يقع بين الناس والناس من شرور ، وما كان يقوم من مشاحنات ، في تلك الحياة التى كل ما فيها أو أكثره قائم على العداوة والشحناء !

يا سبحان الله !

كيف يسلم إنسان يعيدس في تلك المواطن التى يترامى فيها أهلها بالشرر الذى

يوقد في النفوس ليران العداوة . ويؤجج سمير الشر ، فيلتهم ما بين الناس من
أواصر القربى ، وأسباب الحب والمودة ؟ !

فاللون الغالب في هذه الحياة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام هو لون
الدم الذي يسيل ظلمات السيوف وعوالى الرماح . . فما يستطيع لإنسان في هذه
البادية أن يتوقى الشر ، أو يأمن بمبادرة الأحداث ، في أية ساعة من ليـل
أو نهار !

إن القوم هناك قد فرغوا لأنفسهم ، وشدوا عزائمهم كلها إلى الحرب
والطعان . . وآمنوا جميعاً بسلطان القوة ، وأسلبوا وجودهم ووجوههم لهذا
السلطان . . فمن لم يكن ذنباً أكلته الذئاب !

هكذا كان الشر بادياً صارخاً مطلقاً على الناس من كل أفق ، طالماً عليهم
من كل وجه . .

وشهادة القرآن الكريم عن هذه الحال أصدق شهادة . . حيث يقول جل
شأنه — منبهاً العرب إلى النعمة التي جاءهم الإسلام بها ، فنزع عنهم لباس الخوف
وخلع عليهم خلع السلام والأمن — « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً
فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار ،
فأنقذكم منها . . » (١) !

نعم ، . كيف يستطيع لإنسان أن يدفع عن نفسه هذا الشر المحيط به من كل
جهة . وأن يسلم من هذا الأذى المنتدفع إلى الناس من كل صوب ؟ ؟ إنه لا يكفي
في مثل هذه المواطن الفارقة في الشر والعدوان أن يكف المرء بده عن الناس ،
ويحبس لسانه عنهم ، ليسلم منهم . وينجو من أذاهم . فما أكرهم ما يكون هذا
الموقف العف التظيف داعية إلى الهزء والسخرية من لاخلق لهم ، أولئك الذين
لا يقيمون وزناً لخلق كريم ، ولا يحفلون بأصحاب الخلق الكريم . وما أكر
ما يفرى الحلم والاحسان وكثيراً من السفهاء . بالتطاول والسفاهة ، إذ يحسبون
هذا الموقف تعاضلاً وتعالى أو جبناً وعزاً . . وعلى كلا الحالين ، فإن هذا الموقف

يُتيح للسفهاء والضلال فرصاً للتعشر بأصحاب الاستقامة والجد ، ويفتح لهم طرقاً إلى النبل من المستقيمين الجادين ، لينخوضوا معهم في الإثم والضلال كما حاضروا ، حتى لا يكون في المجتمع من يشهد سفههم وضلالهم ، وهو عن السفه والضلال بمعزل !

والعجب في أمر « محمد » مع قومه هؤلاء الذين عاش معهم في عزلة روحية ، وفي هجرة نفسية — أنه مع هذا لم يتحدث إليه وبينهم ما يتبر شراً ، أو يبهت عذاره ، أو يدعو إلى قطيعة . .

فلقد كان « محمد » مع هذا الاحساس الذي يهيش به في قومه آسراً لإنسان في قريش عند فريش . . . أحبه العقلاء لعقله وكرامته ، وهاهنا السفهاء لجلال حلمه ، وكال عقله ، وعظمة نفسه ، فلم يكيدوا إله بكيد ، ولم يقفوا له في طريق ! .

على أن هذا العجب من تلك الحال يرتفع ، ويصبح أمراً مألوفاً ، واقعاً مع منطق الحياة ، ومجريات الأمور فيها ، إذا عرفنا أن الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة التي لبسها « محمد » منذ دنياه الأولى لم تكن ثياباً مستعارة أو حلياً زائفاً ، وإنما هي بعض نفسه ، وطبيعة من طبيعته . . فمن — والحال كذلك — سمة من السمات الذاتية في « محمد » ، أشبه بملاح وجهه ولون جسده ، ثم هي مع هذا الارتباط الوثيق بينها وبين صاحبها — تبدو للبتوسم فيها شيئاً فريداً في الكمال والتام ، لا يرى في غير « محمد » ، ولا يقدر على الوفاء له ، والحفاظ عليه ، بلا وهن ولا انتكاس غير « محمد » ! ومن أجل هذا كان الذي يرى محمداً في صفاته العالوية تلك لا يرى شيئاً غريباً ، وإنما يرى إنساناً سرياً ، زانه الخلق الكريم ، كما يزين الوجه الصبوح صاحبه !

ويحدث الذين أسعدهم الزمان بمناجدة الرسول أنه « كان على الله عليه لو سلم إذا التفت التفت معاً ، وإذا مشى مشى تقلاً (١) » .

لأنه كيان واحد . وليس أوصالاً ممزقة يحويها جسد ، وينتمل عليها إلهاب كما يرى ذلك في أكثر الناس !

(١) الشفا تعريف حقوق المصطفى ، للقاض عياض جره أول من ٥٧

إذا التفت التفت معاً ، ا

طبيعة متجانسة تؤلف بين أعضاء الجسد ، وكما يؤلف النغم الموسيقي بين
عديد الألوان من الألحان ا

كذلك شأفه صلى الله عليه وسلم فى صفات المكال التى اشتمل عليها . .
لنها أشبه بالصفة الواحدة ، تعمّل جميعها مقدّمه ، متفاهمة . . للحن ،
والعدل والاحسان .

وهكذا الشأن فيما بين ذاته وصفاته . . فليست صفاته شيئاً دخيلاً عليه .
لنها بعض ذاته ، ولنها لى المستوى الذى تنقطع دونه الأمانى والاطماع ممن تطعمهم
همهم فى مساماته ، أو تنزع بهم أمانيتهم إلى التشبه به .
ومن هنا سكنت فيمن عاصروا د محمداً ، - قبل البعثة - دواعى
الحسد ، وانقطعت أسباب العداء والبهضاء ا إذ لا يتحاسد الناس فى الميئوس
منه . ولا يتباغضون ا ا

ويتلقى د محمد ، دعوة السماء أنه رسول الله إلى الناس ، وحامل كلماته إلىهم
بشيراً ونذيراً لقوم يؤمنون .

وما أن يصدع د محمد ، بأمر ربه ، ويؤذن فى قومه : أنى رسول الله إليكم -
حتى تغلى مراحل الحق والحسد ، وحتى تتصدع صدور كثيرة ، فتلقى إلى د محمد ،
بكل ما فيها من حنى ، وبغضة ، وشر ا ا

فإذا جد فى الأمر؟ وماذا فى د محمد ، مما لم يعهد القوم فيه من قبل ا ؟
لأنه الصادق غير المكذب ، .

ولأنه الأمين غير المتهم .

ولأنه الطيب الذى لا يخبث أبداً . .

ولأنه الرشيد الذى لا يهتر أبداً . .

ولأنه الجاد الذى لا يهزو والمتقى الذى لا يهزط ا

فإذا عداها بما بدا ؟

أن جاءهم رجل منهم على فترة من الرسل يدعوهم إلى الهدى ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور — أنفكروا ماضيهم فيهم ، وتنكروا لحاضره معهم ! أن كان الرسول إنسانا بشراً يقوم بالسفارة بين الله والناس ، تمتلئ القلوب ضغناً ، وتفيض النفوس حسداً .

إن القوم قد استكثروا على « محمد » اليتيم الفقير أن يكون مثل السماء على الأرض ، وسفير الله إلى الناس ! .

أفرغت الدنيا من أصحاب الجاه ، والرياسة حتى لا تجد السماء غير هذا اليتيم الفقير ، تجعله سفيرها إلى الناس ، وحامل كلمتها إلى العالمين .

إن كل ماعرفوا من صفات السكّال في « محمد » لن يرشحه لهذا المنصب الخطير ، ولا يقيمه على رأس هذه الجماعة التي لاتأخذ الحياة إلا من جانبها المادى ، ولا تحسب حساب الناس إلا به . .

« وقالوا: لولا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ (١) أَمْ يَقْسِمُونَ رَبِّكَ؟ لَمَنْ قَسَمْنَا بِهِمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مما يَحْمَدُونَ (٢) » .

وهب « محمداً » الرجل الأول في قريش ، فإن ذلك لا يخرج به عن أن يكون بشراً ! .

وأنى لبشر أن يطول السماء ، وأن يعرف الطريق إليها ، وأن يأخذ ويعطى معها . ذلك إن يكن فلتقع الواقعة ، وليكن بطن الأرض خير من ظهرها ! ! « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً »

(١) القرينان : مكة والطائف ، والرجل العظيم الذى يزعمونه في مكة هو الوليد بن المعيرة ، وقى الطائف عروة بن مسعود .

(٢) سورة الزخرف آية ٣٢ .

رسولاً (١) . . . وقالوا : لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً (٢) .

* * *

« أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ » .

هيات . . . هيات !

« إنك لرسول الله . والله يعلم إنك لرسوله . . . » (٣) .

« فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » .

« يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ، وَارْتَبُكْ فَاصْبِرْ » .

وهنا يجمع « محمد » من كيانته رصيد أربعين عاماً من الشرائع الطيبة التي احتواها ، ومن الأخلاق الكريمة التي اشتمل عليها . . من الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والاستقامة ، والصبر ، والرضا ، والقناعة ، والرحمة ، والحنان ، والحب ، فيضمها جميعاً إليه ، لتكون له رداءً وسنداً ، مع ما تمدّه به السماء من قوى وأمداد . . فإنه في وجهه عداوة صارخة ، وفي مواجهة عدو مغيب محقق ، وفي قوم قد جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً . . وهو مطالب أن يسمعهم كلمة الله ، وأن يقيم الحجة عليهم . ثم هو يحس أشد الحرص على أن يستنقذهم من العسر . وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، بما يحمل في قلبه الطيب الرضو من خير وعطف ومودة :

« أَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . . « إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَايِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُشَاءُ »

(١) سورة الإسراء آية ٩٤ .

(٢) سورة الفرقان آية ٧ .

(٣) سورة المنافقون آية ١ .

يُضِلُّ وما لهم من ناصرين . . . إنك لا تهدي من أحببت . ولكن الله يهدي من يشاء .

« وما أرسلناك عليهم حفيظاً . . إن عليك إلا البلاغ » .

« اللهم اهد قومي . . فإنهم لا يعلمون »

ومن قلب مغمم بالحسرة ، مخنوق بالآسى . لهذا اللجاج في العناد ، ولهذا الإصرار على الضلال الذى تقيم عليه قريش ، وتؤذى نبيها من أجله ، حتى لتنوشه رماحها ، وتتعاوره سهامها يوم أحد فتدى جهنم ، وتكسر رباعيته . من هذا القلب الرحيم الكبير تفيض معانى الآسى والحسرة ممزوجة بالإشفاق والرحمة ، مصورة فى تلك الكلمات الرقيقة : « اللهم اهد قومي . . فإنهم لا يعلمون » .

يا رسول الله !

يا نبي الرحمة . . !

ماذا يقال فيك فى مقام المدح والثناء — وكل مقاماتك مدح وثناء — بعد أن زكتك السماء ، وقال فيك رب العالمين : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وأى كلام يبلغ صفتك ، ويحلى حقيقتك . لقد منحك الرحمن صفتين من صفاته : الرأفة والرحمة ، فقال فيك جل شأنه : « بالمؤمنين رءوف رحيم » ، !

فلا مدح ولا ثناء بعد أن خلع عليك ربك حلال المدح والثناء !

إن كل قول يقوله المادحون بعد هذا ليس وصفاً لذاتك ، ولا تشخيماً لصفاتك ، وإنما هو تسليح وتمجيد ، وصلاة ودعاء يجد فيه القائلون سعادة ورضى ، ويقبسون منه نوراً وهدى ، ويستمدون منه مضاءً وعزماً !

فإذا وقفت ببابك أقبس من أضواء سيرتك ، وأنشق من عبير هديك ، وأنهل من موارد فيضك وفضلك ، فانما هى وقفة صلوات وتسليمات عليك ،

استجابة لما أمر الله به المؤمنين في قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على
البي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ، وسلموا تسليما » .
فلا مدح ولا تناء ! فانك فوق المدح ، وفوق الثناء ! .
ولكن .

صلوات ، وتسليمات . .

ورحمات ، وبركات . .

الباب الأول الاسم .. والمسمى

« وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يُخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ »
« قرآن كريم »

هل هناك علاقة بين الاسم وصاحبه ! بمعنى أن دلالة الاسم تتحقق في المسمى ، وتفسر في صفاته ، وفي سلوكه في الحياة !

والذى يطلب الجواب على هذا السؤال لا يمكن أن يقع عليه في مقررات علمية ثابتة ، إذ لم تخضع هذه الظاهرة لدراسة علمية منظمة بعد ، وغاية ما عرف الناس من وشائج القرين بين الاسم والمسمى إنما كان عن ملاحظات شخصية لأحوال فردية ، تصدق أحياناً ، ولا تصدق في كل حين !

على أن الذى يعنى بالتعمق في دراسة هذه الظاهرة ، ورصد النتائج التى تلوح من خلال هذه الدراسة — يقع على كثير من عجائب الاتفاق بين المسميات والأسماء ، وقل ألا ينكشف للتأمل في اسم ومسماه شئ من التطابق والتوافق بينهما ، حتى ليكاد يعد ذلك من قبيل الخطأ فى التأويل للحالات التى لا تتضح فيها علاقة بين الاسم وصاحبه ، استناداً إلى الحالات الكثيرة التى تبدو فيها تلك العلاقة واضحة أشد الوضوح ، لا تحتاج إلى كثير من النظر والتأمل !

وعلى أى ، فانا — كما قلنا — لا ندخل هذه الظاهرة مدخل الحقائق المقررة ، أو النظريات المحققة ، وإنما نعدّها من الأمور التى تنطوى على حقائق جديدة بالبحث عنها ، والوقوف على أسرارها .

وقد يبدو لسائل أن يسأل : إذا كان هناك علاقة أو شبه علاقة بين الأسماء ومسمياتها فكيف لا يتجه الناس جميعاً إلى أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتتضح على ذواتهم بعض ما فيها من طيب وجميل ؟

والأسماء مباحة للناس جميعاً ، مبسرة لهم أعظم اليسر ، لا يتكلفون لها ثمناً ، ولا يبدلون من أجلها جماً سداً . . . فلكل إنسان أن يتخير لنفسه أو لولده ما شاء من الأسماء ، غير مضيق عليه ، ولا مضطرب بحساب ، لما يختار ويؤثر من أسماء . . . فلم يعدل كثير من الناس عن الأسماء السكرية الطيبة إلى أسماء كريهة منسوبة ؟ ولم تشيع فيهم هذه الأسماء السكرية الثقيلة لفظاً ومعنى ؟

وندع الجواب على هذا السؤال الآن إلى أن ننتهي من حديثنا عن العلاقة التي قلنا إنها قائمة بين الاسم والمسمى ، وأن نعرض لذلك بعض الشواهد المعتمدة على الملاحظة والتجربة !

يقول ابن قيم الجوزية : ولما كانت الأسماء قوالب للمعاني ، ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينهما ارتباط وتناسب ، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبى المحض ، الذى لا تعلق له بها . فإن حكمة الحكيم تأتى ذلك ، والواقع يشهد بخلافه . . بل للأسماء تأثير فى المسميات . وللمسميات تأثير بأسمائها فى الحسن والقبح ، والخفة والثقيل ، والطاقة والسكراسة . . كما قيل .

وقل أن أبصرت عينك ذا لقب

إلا ومعناه — إن فكرت — فى لقبه

« وكان صلى الله عليه وسلم يستحب الاسم الحسن ، وأمر إذا أبردوا إليه يريد أن يكون حسن الاسم ، حسن الوجه . . !

« وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ المعاني من أسمائها فى المنام واليقظة . .

« فقد رأى — فى منامه — أنه وأصحابه فى دار عقبة بن رافع ، فأتوا برطب من رطب طاب . . فأوله — صلى الله عليه وسلم — بأن لهم العاقبة فى الدنيا ، والرفعة فى الآخرة : وأن الدين الذى اختاره الله لهم قد أرطب وطاب (١) .

(١) تأول الرسول الكريم : عقبة بالعاقبة ، ورافع بالرفعة . . وجعل العاقبة فى الدنيا والرفعة فى الآخرة لأن عقبة جاء فى النطق قبل « رافع » وكذلك الدنيا تسمى قبل الآخرة .

« وتناول - صلى الله عليه وسلم - سهولة أمرهم يوم « الحديدية » من مجيء سهيل بن عمرو إليه (١) . . فقال : « سهل الله أمركم . »

« وكان - صلى الله عليه وسلم - يكره الأمانة المنكرة الأسماء ، ويكره العبور فيها . كما مر في بعض غزواته بين جبلين ، فسأل عن اسميهما ، فقالوا : فاضح ، ومخز ، فعدل عنهما ، ولم يجوز بينهما (٢) .

« وقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه غير اسم « عاصية » وقال : أنت جميلة (٣) !

« وغير - صلى الله عليه وسلم - « حزن » - جد سعيد بن المسيب - وجعله « سهلاً » فأبى صاحب الإسم وقال : « السهل يوطأ ويمتن » (٤) .

وسمى - صلى الله عليه وسلم - « حرباً » سهلاً ، وسمى « المضطجع » المنبعث ، وأرضاً عفرة سماها خضرة ، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبنو الزنية سماهم بنو الرسدة (٥) .

ويقول ابن قيم الجوزية أيضاً : « ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقراءة ما بين قوالب الأشياء وحقائقها ، وبين الأرواح والأجسام - عبر العقل من كل منهما إلى الآخر كما كان إياس بن مهاوية (٦) ، وغيره ، يرى الشخص فيقول : ينبغي أن يكون اسمه كيت كيت ، فلا يكاد يخطئ » .

و ضد هذا ، العبور من الاسم إلى مسماه ، كما سأل عمر بن الخطاب رجلاً عن اسمه ، فقال : جمره ، فقال : واسم أبيك ؟ قال : شهاب ! قال : ممن ؟ قال : من الحرقه ! قال : فمن ذلك ؟ قال : بحرة النار ؟ قال فأين مسكنك ؟ قال : بذات

(١) سهيل بن عمرو هو الذي نذبه قريش ليلقي النبي وهو على جيش المسلمين في الحديدية قرب مكة ، فقد معه صلحاء .

(٢) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٧ . (٣) صحيح مسلم .

(٤) صحيح البخاري - وسنن أبي داود . (٥) ابن أبي داود .

(٦) يضرب به المثل في الذكاء ، ونعاذ البصيرة .

لظى . . قال : اذهب ، فقد احترق مسكنك ، فذهب فوجد الأمر كذلك (١) ،
فعبّر عمر من الألفاظ إلى أرواحها ومعانيها . .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واسمها « يثرب » لا تعرف
بغير غدا الاسم ، غيره « بطيبة » لما زال عنها ما فى لفظ يثرب من التشريب ،
بما فى معنى طيبة من الطيب استحققت هذا الاسم ، وازدادت به طيباً آخر ،
فأثر طيبها فى استحقاق الاسم ، وزادها طيباً إلى طيبها . .
ويقول ابن القيم أيضاً :

« ولما كان الاسم الحسن يقتضى مسماه ويستدعيه من قرب ، قال النبي صلى
الله عليه وسلم لبعض قبائل العرب ، وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده . « يا بنى
عبد الله . . إن الله قد حسن اسمكم ، واسم أبيكم » .
« فانظر كيف دعاهم إلى عبودية الله بحسن اسم أبيهم ، وما فيه من المعنى
المقتضى للدعوة ؟

ويأخذ ابن القيم من الواقع العملى للحياة شاهداً حياً على ما بين الأسماء
والمسميات من علاقة التجانس والتطابق . فيعرض منهداً من مشاهد القتال
بين طائفتين من الناس . . الأولى مؤمنة ، والآخرى كافرة . . تدور بينهما
الحرب فتنتصر الأولى وتنهزم الثانية .

والذى يقع فى نفس المشاهد للمعركة ، أو المستمع لأخبارها أن المعركة كانت
بين الإيمان والكفر ، بين المؤمنين والكافرين . . وأن النصر الذى أحرزه
المؤمنون إنما كان بما فى قلوبهم من قوة الإيمان الذى ثبت أقدامهم ، وما
قلوبهم حمية وقوة !

ولكن ابن القيم ينظر فى ظلال هذه الواقعة فيرى فيها إلى جانب الإيمان
الذى كسب به المؤمنون المعركة دلالة أخرى من شأنها أن تكتب لأصحابها
النصر والغلب . . تلك هى دلالة الأسماء . . التى أدلت بنصيبها هذه المعركة ،
فكان النصر فى جانب الأسماء ذات الدلالات الموحية بالقوة والعزم ، وكان
الاندحار للأسماء ذات الدلالة الدالة على الضعف والخوار !

(١) موطأ مالك .

يقول ابن القيم : وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر (١) . . كيف اقتضى القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ . . .

« فكان الكفار ، شيبه ، وعتبة ، والوليد . . ثلاثة أسماء من الضعف ، فالوليد له بداية الضعف ، وشيبه له نهاية الضعف ، كما قال تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبه » ، وعتبة من العتب — أى اللوم — فدلّت أسمائهم على عتب يحل بهم ، وضعف يناطهم .

وكان أقرانهم : « عليا » و « عبيدة » و « الحارث » (٢) رضى الله عنهم . . ثلاثة أسماء تتناسب أوصافهم ، وهى العلو ، والعبودية ، والسعى الذى هو الحارث فعلوا عليهم بعبوديتهم وسعيهم فى حارث الآخرة (٣) .

* * *

وسواء أكان هناك تلازم خفى بين الاسم ومما به يحيت يمثلان معاً حقيقة واحدة أم لم يكن . . فإن الذى لاشك فيه أن للاسم موحيات تقع فى النفس عند ذكرها لاسم من الأسماء أو كلمة من الكلمات . . . فكلمات الدجاج والنصر ، والغنى والسعادة ، والتسباب ، تبعث فى النفس رضى ، وتشجيع فى القلب غبطة وروحاً ، على خلاف أضدادها من كلمات : الإخفاق ، والهزيمة ، والفقر ، والشقاء ، والهرم ، فإنها تشيع فى النفس انقباضاً ، وتبعث فى الصدر وحشة وكآبة !

(١) يشير ابن القيم إلى المباراة التى وقعت أول معركة بدر ، فقد نذبت قريش لمبارزة ثلاثة نفر ، هم : شيبه ، وعتبة ، والوليد ، فتصدى لهم ثلاثة من الأنصار ، فأبّت قريش منازلهم ، وقالوا نريد من ينزلنا من قومنا ، فتدب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة : على ، وحزم ، وعبيدة بن الحارث .

(٢) المشهور فى كتب السيرة أن الثالث هو حمزة رضى الله عنه وقد جعل ابن القيم هبده بن الحارث اسمين ، هما : عبيدة ، والحارث . . ولهذا أغفل ذكر حمزة .

(٣) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٩ ،

ولذلك حين تسمع اسم سعيد ، ومحمود ، ومحمد ، وحسن ، وغيرك حين يصطك سمك بأسماء .. حرب ، وغضبان ، وأعرج ، ومجنوب ونحوها .. فإنه يلتصق من الأولى روح من ريحها الطيب ، على حين يهب عليك من الثانية ريح بارد ثقيل ، قد يثير قشعريرة تسرى في كيانك كله ، وتملاً نفسك هما وكدرًا . وليس هذا شأن الأسماء ، والكلمات وحدها بل هو الشأن كذلك في المسموعات جميعها من أصوات وألحان .. فهديل اللحم ، وزقزقة العصافير غير نعيق النيران والبوم والفرق بينهما كالفرق بين موسيقى الأفراح والموسيقى التي تصحب الجناز ، وتمش في مركب الموت .

وليس هذا أيضاً شأن المسموع من الأصوات والألحان وحده ، بل هو شأن المنظور من كل شيء .. فالمنظر الحسن الجميل يبعث في النفس ألواناً من مناع الحسن والجمال ، على خلاف المنظر الشائن القبيح ، فإنه يلقى إلى الناس صوراً مفزعة مزعجة ..

وقد جاء توجيه النبي الكريم : « إذا أبردوا إليّ بريداً أن يكون حسن الاسم حسن الوجه » .. جاء هذا التوجيه جامعاً لاختيار ما يحسن في السمع والنظر .

وننظر بعد هذا فيما كان لبني الإسلام من حظ إلى سلام موفور في اختيار الاسم اللائق به ، وبالرسالة التي فدته السماء لها .

فقد بشر به عيسى عليه السلام باسم أحمد ، كما يقص القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » . وإذا كانت نسخ الأناجيل الأربعة التي في أيدي الناس اليوم قد خلت من هذه البشرية على هذا الوجه الصريح ، فإن ذلك لا ينقض ما جاء به القرآن الكريم في الآية السابقة . إذ القرآن هو الحجة القائمة على مافي السكتب السماوية ، لأنه آخرها . وضابط محكمها والمبين عليها ، وفي هذا يقول الله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه » .. وهيمنة القرآن على السكتب السماوية السابقة إنما تجيء من هذا الوجه الذي أشرنا إليه ، وهو أنه آخرها والضابط لها ، كما تجيء من وجه آخر ، وهو أن التوراة والإنجيل قد دخل عليهما من التحريف ، وللتبديل ،

مالا يجعل الأطمئنان إليهما أمراً مسلماً به ، إذ أن الأناجيل ذاتها قد تعددت ، واحتلفت فيما بينها ، وهى على رغم تعددها - اختلافها لا تعتمد على أصل واحد ، ولا ترجع إلى الإنجيل الذى أنزل على عيسى عليه السلام . . وإنما هى روايات تتحدث عن سيرة المسيح ، رواها عنه بعض حواريه ، أو من اتصل بحواريه أو سمع منهم ، وفى هذه السيرة عبارات من عظات السيد المسيح ووصاياه ، وقد يكون فيها بعض آيات من الإنجيل السماوى ، كان السيد المسيح يضمها عظاته ووصاياه ! وإذن فالأناجيل التى ذكرت سيرة المسيح ، تختلف فى تشخيص شخصية المسيح ، وفى تناول مواقفها باحتمال الكتاب الذين كتبوا هذه السيرة ، ونضجوا عليها من عواطفهم ، ومن ألوان ثقافتهم ، مما جعل هذه الأناجيل تختلف ذلك الاختلاف ، كما يختلف إنسان عن إنسان فى تفكيره ، وفى تصوره للأحداث .

وقد جمع العالم المسيحى « فابرى سيوس » أكثر من خمسة وسبعين إنجيلاً ، وطبعها فى ثلاث مجلدات ، وكشف عن أوجه الخلاف بينها .

غير أن المعمول به الآن فى الديانة المسيحية أربعة أناجيل هى : « متى ، ولوقا ، ومرقس ، ويوحنا » حيث استقر العمل بها فى أول القرن الثالث .

وليس من ههنا دراسة تاريخية محققة للأناجيل السماوى ، أو الأناجيل التى أجمعت مجلدتها عنه

ولما الذى يقف عنده ههنا هو أن القرآن الكريم قد ذكر آية صريحة تذكر على لسان السيد المسيح تلك البشرى التى أعلنها فى بنى إسرائيل مبشراً بمولد نبي اسمه « أحمد » . . « إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ثم لا نجد هذه البشرى صريحة تلك الصراحة فى الأناجيل الأربعة التى اعتمدتها المسيحية . وإنما الذى أجمعت فيها إشارات يمكن أن تقول — فى شيء من التعسف والعسر — لتؤدى معنى يفهم منه ظهور نبي عربى يأتي من بعد المسيح ، موصوفاً بصفات الحمد . فمثلاً فى إنجيل

يوحنا . « إن كنتم تحبوني ، فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الرب ليصليكم
البارفليط أحرأ ليحكث معكم إلى الأبد (١) .

وفي هذا الانجيل أيضاً : متى جاء البارفليط الذي سيرسله إليكم الرب ، هو
روح الحق الذي من عند الرب ينبش ، فهو يشهد لي ، وتشهدون أفتنم أيضاً ،
لأنني معكم من الابتداء .

وتفسير كلمة « البارفليط » في القاموس العبري ، بكلمة الحمد ، أو كثير الحمد .
ولعل أعجب ما في هذا الأمر الذي يبلغ مبلغ المعجزة أن يحى عيسى مبشرا
بذي يأتي من بعده اسمه « أحمد » ، ثم يظل هذا الاسم في كتاب مكنون لا يسمه
أحد ، حتى يحى صاحبه « محمد » صلى الله عليه وسلم ، فيلبسه ، ثوبا من أثواب
الحمد التي خلعها الله سبحانه وتعالى عليه .

يقول القاضي عياض :

« فهو — أي النبي — أحمد الحامدين ، وأحمد المحمودين ، ومعناه الحمد
يوم القيامة ، ويعيشه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده . . يحمده فيه الأولون
والآخرون بشفاعته لهم . وسمى أمته في كتاب أنبيائه بالحامدين (١) ، فحقيق أن
يسمى « محمداً » و « أحمد » .

« تم في هذين الإسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته فن آخر .. هو
أن الله جل اسمه حمى أن يسمى به أحد قبل زمانه .

أما « أحمد » الذي أتى في الكتب ، وبشرت به الدنيا ففتح الله تعالى بحكمته
أن يسمى به أحد غيره . ولا يدعى به مدعو قبله ، حتى لا يدخل لبس على ضعيف
القلب أو شك . وكذلك « محمد » أيضاً ، لم يسم به أحد من العرب أو غيرهم .
إلى أن شاع تبيل وجوده صلى الله عليه وسلم وميلاده أن نبياً سيبعث اسمه « محمد » ،
فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو . و « الله
أعلم حيث يجعل رسالته » ثم حمى الله سبحانه كل من تسمى به أن يدعى البهوه

أو يدعيها أحده له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره ، حتى تحققت السمات (١) له صلى الله عليه وسلم ، ولم ينازع فيها (٢) .

وفد أخير القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى اختار لنبيه « يحيى » عليه السلام الاسم الذي سمي به ، فقال تعالى : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً » .

فقد حفظ الله سبحانه وتعالى اسم « يحيى » من أن يسمى به أحد حتى جعله سبحانه اسماً لنبيه الكريم « يحيى » عليه السلام .

كذلك سمى الله سبحانه اسم « أحمد » أن يسمى به أحد حتى كان النبي الكريم « محمد » هو الذي يخلق عليه هذا الاسم الكريم .

على أن هناك آية معجزة من آيات الإعجاز فيما أراد الله سبحانه لنبيه « محمد » من تكريم بهذا الاسم الكريم ، فقد أعلن اسمه على لسان عيسى عليه السلام قبل مولده بنحو ستة فرون ، ثم طله . الاسم في أفواه الخواريين ، وفي صحف الإنجيل ، دون أن يخطر ببال أحد أن يسمى به ابناً من أبنائه على عادة الناس في تلكهم على تسمية أولادهم بأسماء الديين ، والقديسين ، وأهل الفضل والخير من الناس ، عسى أن يسميوا من بركة أصحابها شيئاً ، أو أن يكون لهم من اسمهم الطيب نصيب .

و « أحمد » في ذاته اسم جميل ، سمح ، حلو النغم ، عذب الجرس ، يفري بالتسمي به ، حتى عند من لا يحسن العربية ولا يعرف مدلوله الذي يدل عليه فكيف ظل هذه القرون دون أن يتفق لإنسان أن يقع عليه أو ينتفع به ؟ إن ذلك إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن الله قد أثر نبيه بهذا الاسم الكريم ، واختصه به ، وجعله على أفواه الناس ، إرهاباً بمولد النبي الذي سيجعل هذا الاسم ، وبشرى بين يدي بعثته . وفي ذلك آية للمستبصرين من أهل الكتاب الذين يعرفون صفات هذا النبي الأسمى ويجدون مكتوباً عندهم

(١) السمات : هما الاسمان : أحمد ، محمد .

(٢) « الشفا » للقاضي عياض جزء ١ ص ١٩٠ .

فى التوراة والإنجيل، ثم تصرفهم عنه قوة علوية، وتعتقد ألسنتهم عن أن نتعامل به، وتجعله علماً لإنسان من الناس .

و (محمد) اسم علم ، وهو منقول من صفة .. من قولهم رجل (محمد) وهو الكثير الخصال المحمودة ، والمحمد فى لغة العرب هو الذى يحمد حمداً بعد حمد ، مرة ، بعد مرة (١) .

قال السهيلي : لم يكن محمداً حتى كان أحمد .. حمد ربه ، فنبأه — أى جمعه نبياً — وشرفه ، فلذلك تقدم اسم (أحمد) على الاسم الذى هو (محمد) ، فذكره عيسى ابن مريم باسمه (أحمد) (٢) .

وانظر بعد هذا كيف اختار الله لنبه هذا الاسم الطيب « محمد » فسماه « أحمد » ، قبل أن يولد . و « محمداً » بعد أن ولد .. فهو الحامد لربه ، المحمد من عبادته .. حمد ربه على ما أفاء عليه من فضل ، وما أسبغ عليه من نعم ، وحمده الناس بما جاءهم به من الحق ، وما هداهم إليه من الإيمان ، فهو حامد لله ، « محمد » ، محمود من الله ومن الناس .

وبهذا كان النبى بهذين الاسمين جامعاً لصفات الحمد كلها .. فهو الحامد المحمد المحمود ، فإذا كان بعد ذلك من يحمد الله فهو من حمد « أحمد » يعترف ، وعلى هداه يهتدى ، وإذا كان بعد ذلك فى الناس من يحمده الناس فهو لما يحمد به « محمد » ، تبع ، ولما يبنى به عليه تابع ومقتد .

ثم انظر فى ذات « محمد » نفسه ، وكيف كانت الحامد كلها مجمعة إليه فى أكمل صورها ، وأجمل أوضاعها . فما كان من خلق كريم محمود فهو فى « محمد » على أوفى صورة وأتمها ، وما كان من فعل طيب محمود ، فهو فى « محمد » على أجمل حالة وأحسنها .

(١) نهاية الأرب للتورى جزء ١٦ ص ٧٥ .

(٢) الروض الآف للسهيل جزء ١ ص ١٥٦ .

وليس يجمع هذه الصفات الكريمة اسم أتم وأعدل من اسم « محمد » ، فقد يكون في أسماء : أمين ، وصادق ونبي ، وعظيم ، وطيب ونحوها ما ينبئ عن صفة أو أكثر من الصفات الطيبة التي إن صدقها مسماها ، أو صدقت هي في المسمى بها كان ذلك دلالة على انصاف صاحبها بالصفة التي تدل عليها دون أن ينسحب ذلك ، إلى غيرها من الصفات : حمداً ، أو ذمماً . . فالمسمى بالأمين ، إن طابق الاسم فيه المسمى ، كان نصيبه من الصفات الطيبة صفة « الأمانة » ، وقد يكون له إلى جانبها صفات أخرى لا تحمد كالجهل أو البخل ، ونحوها . . وكذلك قل في الصادق ، والنبي ، والعظيم ، والطيب ، وما شابه ذلك من صفات . . فقد ينال الإنسان منزلة النبى أو العظمة بصفة كريمة أو أكثر دون أن يكون من لوازم ذلك أن يحوى الصفات الطيبة كلها . . أما « المحمد » فلا يكون على تلك الصفة حتى يجمع الجامد كلها ، وحتى نكون كل أقواله وأفعاله على الوجه الذى تحمد فيه عن كل الناس ، وفي جميع الأحوال ، وإن يكون « محمداً » من جمع أكثر المحامد ثم فاته بعضها أو القليل منها .

فإذا نقول بعد هذا في ذلك التوافق بين محمد « الذات » ومحمد ، الاسم لذى سميت به تلك « الذات » ؟ .

قد يقول قائل : وماذا في هذا التوافق ؟ ولم لا تكون الصدقة وحدها هي التي جمعت بين « محمد » الوليد وبين هذا الاسم « محمد » ؟ حتى إذا تألق « محمد » وعلا ذكره في الوجود كان كل شيء مهما صغر ، وكل حدث مهما ضؤل ذاتاً أي شأن . . له تقدير وحساب ، تكثر دلالاته ، وتتعدد مفاهيمه ، ما دام قد اتصل بالنبي ولا بس حياته ؟ ؟

ونقول : إن في ظاهر ذلك القول شيئاً من الحق . . ولكن ليس على إطلاقه في كل ما يتصل بالنبي . .

حقاً إن عظمة العظيم تلتقي على كل شيء اتصل به ألوانا وظلالا تجعل له في مشاعر الناس مكاناً غير مكانه الذى له ، فيبدو صغيره كبيراً ، وقليله كثيراً ، وواضحه غامضاً ، وقريبه بعيداً . .

ولكن ليس ذلك على إطلاقه - كما قلنا - إذ هناك في حياة العظيم أمور هي في ذاتها رائعة ، مبهجة ، مذهلة ، معجزة . . لا يختلف عليها الناس ، ولا يتباعد بينهم شقة الخلاف إن اختلفوا !

وهنا في تسمية « محمد » بمحمد لا يمكن أن يكون ذلك ولبد الصدفة بحال أبداً ذلك أن اسم « محمد » لم يكن من الأسماء المعروفة الشائعة يوم مولد النبي . . وأن الذين تسموا بمحمد كانوا أفرادا . قيل لإنهم خمسة ، وقيل لإنهم سبعة . . وكلهم كانوا في عصر النبوة وبين يديها ، وقد أدرك معظمهم الإسلام فمن أين لآمنة بنت وهب أن تقع على هذا الاسم . الذي ربما لم يكن قد طرق سمعها ، أو جرى على لسانها من قبل أن تتحرك به شفتاها ، حين اختارنه اسما لوليدها اليتيم ؟

ثم لو فرض أن اسم « محمد » كان من الأسماء المعروفة عند العرب ، فإن الاتجاه إليه لم يكن من الأمور المنتظرة في شأن هــ الوليد القرشي ، الهاشمي . إذ أن ضخامة الأسماء . في لفظها ، وفي مدلولها . كان لها الشأن الغالب في تسمية المولودين من أشرف قرينين . مثل : حفظة ، ومرة ، وأسد ، وفهر ، وغالب ، وعبد العزى ، وعبد الدار ، وعبد اللات ، وعبد مناة . .

وما أشبه ذلك من الأسماء التي تلقى في قلوب سامعيها الرعب ، والفزع ، وتسكسو مسماها هيبه وقوة - وقد أشرفنا من قبل إلى موقف « حزن » جده سعيد ابن المسيب من الاسم الذي أراد الرسول أن يسميه به وهو « سهل » ، فأبى ، وقال : إن السهل يوطأ ويمتن ، فكان المتوقع لوليد آمنة بنت وهب أن تمنح له اسما من تلك الأسماء ذات الإشعاع القوى النفاذ إلى مواطن الإرهاب في الناس

فكيف تنفذ الصدفة بين هذه الحوائل جميعها ، وتحمل إلى ذلك الوليد اليتيم هذا الاسم الفريد اليتيم من بين هذا العديد من الأسماء المنصوبة في قائمة أشرف العرب وأبطالها ؟ ثم كيف تظل هذه الصدفة ذلك الزمن الطويل - والصدفة لحظة عابرة . تجيء خلصة وتذهب خلصة - كيف تظل هذا الزمن الطويل محتفظة للنبي بهذا الاسم الذي سمي به ، دون أن يزحزحه عن مكانه لقب ، أو دون أن تشاركه كنية ؟ وما أكثر الألقاب والسكنى : . وقل أن يكون في العرب من

لا يكون له كنية أو لقب ، أو كنية ولقب معاً أو عدة ألقاب وكنى ! تعلب على اسمه فلا يكاد يذكر على لسان ؟

كيف يظل « محمد ، هر ، محمد » . . لا كنية ، ولا لقب حتى يكون هو الذى يكنى نفسه « أبا القاسم » .. بعد أن ولد له مولوده « القاسم (١) » .

كيف يكون للصدفة هذا التصرف المتمكن من الأحداث ، الممتد مع الزمن الجارى على الحكمة والمستطى ؟ كيف وتسان الصدفة أن تكون خلصة خاطفة ، وأن تهجر على غير حساب ، وأن تقع بغير تقدير . هكذا خبط عشواء ؟ ! إن يك ذلك شأن الصدفة فإذا تركت للتدبير والحكمة ؟ وأين تكون مواقع أفصال الله . ومازل رحمته ؟ وأين آيات تدبيره وحكمته ، فيمن يصطفى ويختار من عباده ؟

وأكثر من هذا . !

فإن الفرعين الزكيين اللذين ولدا « محمدا » قد أراد الله لهما اسمين كريمين يليقان بهذا النبي العظيم الذى سيسبب إليهما . فأبوه « عبد الله » وأمه « آمنة » ! والدين الذى جاء به « محمد » هو دين العبودية الخالصة لله : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » ، والشريعة التى يدعو إليها « محمد » شريعة أمن وسلام : « يا أيها الذين آمنوا ادخوا فى السلم كافة » ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » .

فالعبودية والأمن هما الابدان الكريمتان اللتان قدمتا محمداً إلى الإنسانية ، وأطلعنا شمسهما على هذا الوجود !

وأكثر من هذا أينما فإن اسم المرأة التى أرضعته يدخل فى هذه الظاهرة التى نتحدث عنها . . فاسمها « حليلة » ، وموطنها « نجد » وقومها بنو « سعد » ! ولنا أن نقول إن محمداً قد رضع الحلم من حليلة ، إلى ما أفاض عليه ربه من فضله ، وأذافه من رحمته ! وأن شأنه وشأن شريعته العلو والإسعاد .

(١) والقاسم : صفة من صفات النبى .

وإذا كان من الحائز أن يسلم اسم الأب أو الأم أو الموضع من ضلالات
أسماء الجاهلية وشذاعتها ، وسوء مواردها ومصدوها ، فإن مما لا يمكن أن يكون
إلا بتدبير أن تسلم لهذه المسميات أسماءها جميعاً ، فيسلم اسم أبيه ، واسم أمه ،
واسم مرضعته ١ ، ثم لا تكون بحجب تخلو من العيوب والمقايح ، بل تنزين
بأحسن ما يمكن أن ينزين به اسم من صفات ، ويجمع إليه من خير .
ومن عجب أن تكون هذه الأسماء .. عبد الله ، وآمنة ، وحليمة « أسماء
غير شائعة ولا غالبة ، ثم يجتمعن على نسق !

وقليل جداً في العرب - قبل الإسلام - اسم « عبد الله » ، فما عرف العرب
العبودية الخالصة لله ، حتى عند من عرف منهم أن للعالم إلهاً هو الله ، بل كان
ولاؤهم ، وعبوديتهم للأصنام التي عبدوها من دون الله . فضافوا أنفسهم إليها
وقالوا : عبد العزى ، وعبد اللات ، وعبد مناة ، وعبد ود ، وقد كان أقرب
شئ إلى عبد المطلب إذا أضاف ابنه « عبد الله » هذا إلى معبود ، أن يضيفه إلى
صنم من تلك الأصنام .. أما أن يضيفه إلى « الله » ، فذلك أمر لا يعلم تأويله
إلا الله . . .

وكذلك اسم أمه « آمنة » بذت وهب ، واسم مرضعته حليمة السعدية . .
كان أقرب شئ إليهما من الأسماء ماشاع بين العرب الجاهليين : كعفراء ،
وحنساء ، وأم الهيثم ، وما شابه تلك الأسماء . . ولكنه فضل من الله الذي شمل
النبي من قبل أن يولد ، وبعد أن ولد ، واصطفى للنبوة . وفي هذا يقول الله
سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « وكان فضل الله عليك عظيماً » .

وبعيد أننا نلتبس هنا من دلالات الأسماء على مسمياتها شيئاً يضاف إلى
جلال النبوة ، أو يزيح قيامها على أصول ثابتة وطيدة من الحق والعدل والخير ،
فإن ما نقيمه السماء ليس في حاجة إلى شئ يدعمه أو يستنده !

ولكن الذي نلتص به من هذا التوافق المطرد في اجتماع الأسماء الطيبة الزكية
كلها للنبي في شخصه ، وفي أبويه ، وفي مرضعه - الذي نلتص به من ذلك هو ذلك
العناية الصمدانية التي حمت حمى الرسول أن يطوف به طائف سوء ، أو يلم

بن طيف خبيث .. إنه حمى النبوة العظمى ... وإنه لنى حماية الله ورعايته
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

• • •

ونجيب الآن على السؤال الذى افترضناه آنفاً . وهو : إذا كان هناك
علاقه ، أو شبه علاقته بين الأسماء ومجياتها ، فكيف لا يتجه الناس جميعاً إلى
أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتتضح على
ذواتهم بعض ما فيها من طيب وجميل ؟؟

ذلك سؤال يدور فى نفس أى إنسان يقف على هذه الظاهرة ، ويعلم من
أمرهما شيئاً .

والأمر ليس من السهولة واليسر كما يبدو لأول وهلة . إن الأمر فى ظاهره
مطلق إطلاقاً تاماً ، بلا قيود ، ولا حدود .. يتناوله المرء من قريب ، كما يتناول
الهواء برئته ، أو يغترف من النور بعينه . فما على الإنسان إلا أن يعتمد أى
اسم يريد ، فيحرك به شفثيه ، وبسمى به من يشاء ، فإذا الاسم ملك له ، وإذا
المسمى محكوم بهذا الاسم مستظل به !

هذا ما يبدو فى ظاهر الأمر ، ولكن الواقع يشهد لخلاف ذلك . فحين
تستعرض أسماء الناس ، أو « أعلامهم » نجد عجباً عجباً ... فهناك كثرة كثيرة
من الأسماء الجافية ، أو الموحدة ، أو المستقبحة . قد ألقاها الناس على أبنائهم
وكانهم تحت سلطان قاهر حملهم عليها ؛ حتى ليبدو أن الناس لو حاولوا وشأنهم
لما جرت هذه الأسماء على ألسنتهم ، ولفروا منها فراراً ..

فإنك لتجد فى الناس من سمى ابنه . مشحوتاً ، أو شحاتاً ، أو مسروقاً .
أو حابساً ، أو كلباً ، أو حماراً ، وليس بينه وبين الأسماء الجميلة — فى ظاهر
الأمر — حاجز أو حائل .

ولكن الأمر على خلاف هذا .. إن الحياة تفرص على الأحياء أن يشغلوا
كل جانب فيها : الحسن والقبيح . والسهل والوعر ، والخصب ، والجندب ، حتى
نحفظ بتوازنها ، فلا يرجح جانب ويخف جانب ، فتضطرب ، وتفسد ،

ولو كان للناس أن يتطلقوا من غير أن تحكمهم هذه الخيوط غير المنظورة التي تمسك بهم - لكاف وجمتهم جميعاً واحدة . ولاختاروا الحس منها وهجروا التبيح ، ولعمروا السهل دون الوعر ، وأهروا في الخصب دون الجذب ، ولما رأينا أمماً تسكن الصحراء أو تعيش بين الثلوج أو في الأدغال ؟

وليس ذلك شأن الإنسان وحده ، بل إنك لتجد عالم الحيوان محكوما كذلك بهذه القوة الخفية ، ومشدودا بتلك الخيوط غير المرئية ... فهناك طيور تعيش في القفر ، لا ظل ، ولا ماء وليس بينها وبين الماء والظل إلا أن تفرد أجنحتها وتنطلق إلى هذا النعيم الذي حرمت منه ، فتبلى فئ غيرة أو روعة من غدواتها أو روحاتها !

وأكثر من هذا ، فإننا نرى « العصافير » مثلاً في المسكان الواحد ، في البلد الواحد ، بعضها يغشى الدور ، ويخترق الأبواب والنوافذ ، ويتعرض للهلاك في سبيل النقاط حبة أو فتاة خبز ، على حين يسكون على رمية منها مخازن الحبوب في العراء ، وفي مواطن الحصاد والدرس . يغشاها كثير من هذه العصافير ، وينال حاجته منها من قريب !

ولا تسأل : ما هذا ؟ فذلك تقدير العزيز العليم . الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى !

ولا نجد بداً من أن ننقل هنا نظرة من نظرات « الجاحظ » النافذة في هذا الأمر ، فإنه لم تقل منه ملاحظة هذه الظاهرة ، ولم تغب عن باله في دراساته للحياة وللأحياء !

يقول الجاحظ :

« واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ولم يجب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصالحتهم .

« لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مخيرين (١)

(١) في الأصل مجبرين وهو تعجيف .

فى الأمور المتفقه والمختلفه لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ،
وفى هذا ذهاب العيس وبطلان المصلحة ، والبوار والتواء (١) .

« ولم يكونوا مسخرين بالأسباب ، مرتين بالعلل لرغبوا عن الحجابة
أجمعين ، وعن البيطرة والقصابة والدباغة (٢) .

« ولسكى كل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ، ومسهل ذلك عليهم
فالخائف إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق ، أو خرقاً ، قال له :
باحكام ! .

« والحكام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له . يا حاكم !
ولذلك لم يجمعوا على إسلام أبنائهم فى غير الحياكة ، والحجابة ، والبيطرة
والقصابة .

« ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ؛
لما جعل واحداً فقيراً ؛ وآخر طويلاً ؛ وواحداً حسناً والآخر فيديحاً ؛
وواحداً غنياً ؛ وآخر فقيراً ، وواحداً عاهلاً وآخر مجنوناً ؛ وواحداً ذكياً ؛
وآخر غيباً .

« ولكن خالف بينهم ليختبرهم ؛ وبالاختيار يطيعون ؛ وباطاعة يعدون !
« ففرق بينهم ليجمعهم ؛ وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم
على المشيئة .

« فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى . وأحكم ما صنع وأتقن ما دبر !
« لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ولو رغبوا
بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ؛
ولبطل أصل المعاش .

« فسخرهم على غير إكراه ، ورغبهم من غير دعاء !

(١) التواء : الهلاك .

(٢) كانت أمثال هذه الصناعات والحرف مما تأماه النفس العربية .

ولولا اختلاف طبائع الناس وعلمهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ،
ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأسماء إلا أوسطها .

• ولو كان كذلك لتناحروا على طلب الواسط ، وتشاجروا على البلاد
العليا ، ولما ربحهم بلد ، ولما تم بينهم صلح !
• فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة !

• وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حولت ساكني الآجام إلى النياقي ،
وساكني السهل إلى الجبال ، وساكني الجبال إلى البحار ، وساكني الوب
إلى المدر — لأذاب قلوبهم لهم ، ولألقى عليهم فرط النزاع ..

ثم يقول :

• وليس على ظهرها — أي ظهر الأرض — إنسان إلا وهو عجب بعقله ،
لا بسره أنه لما أخيره . ولولا ذلك لما تنوا كدأ ، ولذا بر حسدا ! .

• ولكن كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد في شيء فهو يرى أنه محسود
في شيء !

ثم يصير الجاحظ إلى ما نحن فيه من الأسماء والمسميات فيقول :
• ولولا اختلاف الأسباب لتنازعوا بلدة واحدة ، واسما واحداً ، وكشي
واحدة .

• فقد صاروا — كما ترى — مع احتيار الأشياء المختلفة إلى الأسماء القبيحة ،
والألقاب السمجة !

• والأسماء مبذولة ، والصناعات مباهة ، والمتاجر مطلقة ، ووجوه الطرق
متخللة .

• ولكنها مطلقة في الظاهر ، مقسمة في الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون
بالذي دبره الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فبيحان من حجب إلى واحد أن يسمى ابنه محمداً ، وحجب إلى آخر أن
يسميه شيطاناً ، وحجب إلى آخر أن يسميه عبد الله ، وحجب إلى آخر أن
يسميه حماراً .

و لأن الناس لو لم يخالف بين علمهم في اختيار الاسماء ، و جاز أن يجتمعوا على شيء واحد ، كان في ذلك بطلان العلامات ، و فساد المعاملات (١) .

هذا ، و لا يدع أعداء الإسلام و نبي الإسلام وسيلة يتوسلون بها إلى الظهن في رسول الله صلى الله عليه و سلم ، إلا أن يسكروا بها ، و لو غرقوا في الزور و البهتان . و حتى لقد نازعوا في اسم رسول الله صلى الله عليه و سلم . و جعلوا ينسجون حوله من الأوهام و المضلالات ، ما يشيرون به القبار في وجه الشمس ليحجبوا أصداءها و هيئات هيئات !!

و لقد كان من جرأتهم على الحق أن ادعوا أن النبي الكريم لم يكن اسمه أول الأمر « محمد » ، بل لقد سماه جده عبد المطلب « قثم » ، و روى في هذا تلك الأسطورة المفضوحة .

يقول المستشرق : « لميل در منقش » :

وهنا نذكر أن الاسم الأصلي للنبي محمد هو « قثم » ، ثم لم يلبث هذا الاسم أن عدل عنه بعد ولادته بوقت قصير أو حين بعثته !! - إلى محمد ، الذي هو لقب نبوي أكثر منه أن يكون اسماً !!

و يعلم الأستاذ عادل زعير على هذا بقوله :

« هذا أعرب ما انتهى إليه المستشرقون ، و أول من ذهب إلى ذلك ، سبرنجر ، مستنداً إلى ما جاء في باب تسمية الرسول ، من « السيرة الحلبية » ، فقلا عن كتاب : « الإمتاع » : أنه لما مات قثم بن عبد المطلب ، قبل مولد النبي صلى الله عليه و سلم بثلاث سنين ، و هو ابن تسع سنين ، حزن عليه أبوه حزناً شديداً . . فلما ولد رسول الله صلى الله عليه و سلم سماه « قثم » حتى أخبرته أمه آمنة ، أنها أمرت في منامها أن تسميه محمداً ، فسماه محمداً . و تم يقول الأستاذ زعير : « فـ هذه الرواية البادية الوضع ، والتي ندل أقل فظرة إليها عند قبولها على علالتها - على أن عبد المطلب عدل عن اسم « قثم » إلى اسم « محمد » بعد ولادته بدقائق معدودات . و تابع ، هرشفاد ، و سبرنجر ، على رأيه ذلك ، و لم يلبث كثير من المشركين أن وجدوا في هذا فتحاً جديداً لهم ، و بلغ بعضهم من التعسف و التزج ما صاينهم

به . أن ماورد في القرآن من ذكر لمحمد وأحمد قد أضيف إليه فيما بعد ، وذلك رداً على الحجة القائلة : إن أمر الرسالة ما كان ليستقيم ، لو عدل بعد الرسالة إلى اسم محمد .

وفي القرآن الكريم « وإذ قال عيسى ابن مريم ، يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما ببيدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ونفساً على الإسلام ما كان من اشتغال كلمة البارقليط ، اليونانية التي وردت في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا « والتي يدل معناها على (محمد) » .

ونقول : « إن ما استدلل به المستشرق « سبرنجر » ، بما نقله من بعض الروايات المدسوسة في كتب السيرة ، ينطق بالكذب والتلفيق :

فأولاً : ما قيل من أن عبد المطلب جد النبي - صلى الله عليه وسلم - كان ولد دولد اسم « قثم » ، وأنه لما مات هذا الولد حزن عليه ، ثم لما ولد لآمنة بنت وهب « محمد » سماه « قثم » ، إحياء لذكرى ابنه الميت ، وذلك بعد ثلاث سنوات من موته - هذا القول يكذب بعضه بعضاً . إذ كيف ينتظر الأب ثلاث سنين حتى يولد « محمد » ، ليسميه « قثم » - أفأكان في أبناء عبد المطلب من يولد له ولد خلال هذه المدة ؟ وكيف وكان له عشرة أبناء ؟

وثانياً : إذا كان عبد المطلب قد سمي حفيده محمداً « قثم » ، ثم عدل عن ذلك بعد أن علم من أمه أنه قد أمرت في منامها أن تسميه محمداً ، فعدل عن ذلك وسماه محمداً - إذا كان ذلك كذلك فكيف يحفظ هذا الاسم المقترح ، الذي لم يشع في الناس ولم يكن إلا حديثاً عابراً بين عبد المطلب وآمنة - كيف يبقى له ذكر في الحياة بعد هذا ؟

أما القول بأن رسول الله قد ظل يحمل اسم « قثم » ، إلى أن كانت البعثة : فكان ذلك الاسم لقباً نبوياً له على حين ظل اسم « قثم » هو العلم عليه - فإن هذا القول تكذبه الشواهد كلها ، ولو أن ذلك كان له أثر من الصحة لما كان الحديث قريناً إلى النبي إلا بهذا الاسم « قثم » ، ولما عدلت عنه أبداً !! فهل كان شيء من هذا ؟

« سبحانك ما يكون لنا أن نميتك بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم » .

* * *

نعود بعد هذا ، فقرر أن الاسم الذي سمي به النبي ، والاسم الذي بشر به عيسى قبل مولده ببضعة قرون . هذا الاسم ليس بمحدد اسم ، وإنما هو دلالة من دلالات النبوة ، ومعجزة من معجزاتها . .

فقد سمي الله باسم ، أحمد ، أن يسمى به أحد قبل النبي . ثم سمي اسم ، محمد ، أن يظهر إلا بين يدي النبوة ، وألا يسمى به إلا ببضعة نفر من العرب ، طمعوا أن يكون أبناؤهم النبي المنتظر ، الذي أظل زمانه ، وبدأت تباشير مبعده ، ثم سمي الله كذلك من سمو بهذا الاسم أن يدعوا النبوة أو يدعيها لهم أحد !

ولو أراد أتباع ، محمد ، الذين آمنوا بشريعته ، وعرفوا حقيقة نبوته ، وشاهدوا عن قرب أنوار السماء تفيض عليهم من بيدهم . . لو أنهم أرادوا أن يتخيروا له الاسم الذي يروونه جديراً به ، مناسباً لجلال النبوة وعظمة النبي ، لما وجدوا أعدل ، ولا أكرم ، ولا أنسب من اسم ، محمد ، ! .

فسبحان من له الخلق الأمر ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض ، ومن إليه يرجع الأمر كله ! . .

« ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين » .

الباب الثاني

النبوة . . والنبي

هل النبوة ضرورة إنسانية :

نازع كثير من الناس - قديماً وحديثاً - في أمر النبوة . وهل هناك ضرورة إنسانية تدعو إلى أن يقوم في الناس أنبياء ورسول يسفرون بين الله وبين الناس ، حاملين إليهم وصايا السماء وشرائعها ؟

والناس في هذا مذاهب وشيع :

فالمؤمنون بالشرائع السماوية يعتقدون أنهم إنما أخذوا شريعتهم عن رسول من عند الله . وأن هذا الرسول إنسان من بينهم ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنما اختاره الله منهم ليحمل إليهم شريعته .

وأما غير المؤمنين بشرائع السماء فلا يتصورون أبداً أن يكون بين الإنسان من الناس صلة بالعالم العلوي ، لاختلاف الطبيعة في كل من العالمين : الأرضي والعلوي . . هذا إذا صح - عند القائلين بهذا الرأي - وجود للعالم العلوي . . أما النادون فلا يعترفون أصلاً بوجود للعالم العلوي . أو عالم الروح . ولذا فالرأي عندهم في رسل الله هو الإنكار الصريح للرسالات السماوية ، وللرسل ، والله أيضاً !!

* * *

ولا نريد أن نقف طويلاً عند هذه الآراء المتخالفة في شأن الرسل ، وفي طبيعتهم ، وفي الضرورة الإنسانية الداعية إليهم ، وفي إمكان اتصال الإنسان بالمالأ الأعلى إذا دعت السماء لنيل رسالتها إلى الناس !

لأزيد أن تقف طويلاً هـا ، حيث أن لنا وقفه في هذا الشأن عند الحديث
عن الرسالة المحمدية !

ولكن أريد أن أعرض - في إيجاز - وجهة نظر المؤمنين بالرسول والمنكرين
لهم ، لنجعل من ذلك مدخلاً إلى الحديث عن نبوه النبي الأعظم محمد بن عبد الله ،
عليه صلوات الله وسلامه !

ولا حديث لنا مع المؤمنين برسل الله وأنبيائه في هذا الأمر ، فذلك هو
إيماننا وعقيدتنا . . وإنما تقف معهم صفاً واحداً في وجه المنكرين للنبوات ،
على اختلاف مذاهبهم وتعدد آرائهم . . ولا حديث لنا أيضاً مع الماديين الملحدون
الذين ينكرون ما وراء المادة ، ولا يعترفون بالإله الخالي ! إذ أن الحديث في
شأن الرسل والأنبياء القائمين بالسفارة بين الله والناس لا مساغ له إلا في ظل الإيمان
بالله ، عند الذين يؤمنون به ! وإنما حديثنا مع أولئك الذين يعترفون بوجود
الله ، ويؤمنون به ، ولكنهم لا يتصورون قيام رسل بين الله والناس ولا يرون
داعية تدعو إلى نبي أو رسول يحمل إلى الناس وصايا السماء !

والذين يذهبون هذا المذهب هم طائفة من الفلاسفة والحكماء الذين تلبس عليهم
الأمر في شأن الرسل ، وأبت عليهم عقولهم أن تستسيخ هذه المهمة النبيلة ، التي
قام عليها أنبياء الله ورسله .

وهؤلاء الحكماء والفلاسفة ينظرون إلى هذا الأمر نظرتين متباعدتين :
نظرة تحقر الإنسان ، فلا تراه أكثر من كائن حيواني كسائر الحيوان . .
لا يعدو أن يكون فصيلة من فصائل الحيوانات ، وسلالة من سلالاتها . . فهو -
والأمر كذلك - مقضى عليه أن يحيا حياته في هذا الركب ، أو في هذا القطيع ،
دون أن يدعى لنفسه شأناً يتغير به وضعه . ويعزله عن المجتمع الحيواني ، في هذا
الكوكب الأرضي !

تلك هي نظرة الفلاسفة المشائين الذين نظروا إلى الحياة بمنظار أسود فأروا
الوجود كله مجللاً بالشواد ، ورأوا الإنسان دودة غارقة في أكوام من التراب .
وفي بحار من الأوحال .

وكثير من الفلاسفة الأقدمين آمنوا بالله ولسكنهم لم يؤمنوا برسل الله ، ولم يرضوا إلا أن أن يلتقى بالمالا الأعلى ويتعامل معه ! وكأن هؤلاء الفلاسفة الذين يذهبون هذا المذهب قد نظروا فيه إلى أنفسهم . فحين وجدوا أنهم وهم الفلاسفة ، وأكمل الناس عقلا - لم ترفعهم عقولهم إلى المالا الأعلى ، ولم نتج لهم الوصول إليه . فكيف يكون ذلك لإنسان ليس له عقل الفيلسوف ولا فلسفته !

يقول ابن تيمية عن هؤلاء الفلاسفة : « والمتفلسفة من اليونان والهند منازل عن وجود كمال الخلق - أى الخلق البشرى - ، وإن أقروا ببعض صفات الأنبياء ، فإنما أقروا منها بما لا يختص بالأنبياء ، بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم ، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبياء ألبتة (١) » .

وقد عاشت هذه النظرة التى تمسك بالإنسان أن يرتفع إلى ما فوق هذا التراب - عاشت فى أجيال الناس حىلا بعد جيل ، وكان لها دورات عاصفة فى عقول كثير من الفلاسفة والمفكرين .

يقول نيتشه : « لا تريد ملكوتاً فى السموات . فمضى بشرى . . تريد ملكوتاً أرضياً » .

نص بشرى ! أى نحن من دواب الأرض . لا ينبغي أن نرفع أبصارنا إلى السماء ، ولا أن نجاوز هذا الملكوت الأرضى !

فالإنسان فى مفهوم هذه الفلسفة السوداء محكوم عليه أن يظل فى هذا الوضع الدليل المبين فى الحياة ، كائناً زائياً ، ليس فيه قبس من العالم العلوى وليس هو كما تحدث عنه الديانات السماوية خليفة الله فى الأرض ، والاعود بالعودة إلى العالم العلوى الذى خرج منه !

ويقول نيتشه : أيضاً : « إذا كان الله قد خاق الإنسان : فإنما خلقه قرداً يلهو به فى أبدية الطويلة ! »

هذه هي إحدى النظرتين اللتين تنظر بهما الفلسفة المأثومة إلى الإنسان وهي نظرة تستكثر على الإنسان أن تكون له صلة بالسماء ، وأن يكون في الناس من يطول يديه إلى الأعلى . ويتعامل معه .

أما النظرة الأخرى فهي على خلاف النظرة الأولى في تقييمها للإنسان . . وفي تقديرها للرسالة السماوية . . ومن ثم كانت هذه النظرة ذات شعبتين : شعبية تخلق بالإنسان ، وتجاوز به قدره ، وتراه في مستوى يستغنى به عن وصاية السماء ، وعن تدبيرها لحياته ، وتوجيهها لسلوكه . وتصحيحها لعقيدته . فلا ضرورة إذن لمبوت من السماء يحمل إلى الناس شريعة ، ويقيم لهم ديناً . . وحسب الناس في هذا أن يقوم فيهم قاده ، ومصلحون ، وفلاسفة . . منهم وإليهم . . من الأرض وفي الأرض !

وشعبه أحرى ترتفع بمقام الرسالة ، فتري أن الإنسان مهما يبلغ من العلو والصفاء فلن يكون له أن يحمل رسالة سماوية عن طريق الاتصال المباشر بالله أو ملائكته !

فإذا كان من الحتم أن تنزل على الناس شريعة سماوية فليكن الذي يحملها إليهم مبعوثاً من عالم العلو . . ودعوى من يدعون أن المسيح هو الله ، أو هو ابن الله ، قائمة في ظل هذا الإحساس الذي يتدافع في صدور الذين يرفعون مقام الرسالة عن أن تتناولها يد إنسان من الناس ، أو أن يستأثر بهذا الشرف العظيم واحد منهم لأنها أكبر من أن يستقل بها فرد ، وأعظم من أن يختص بها إنسان !

ولهذا تتحول بعض الرسل عند بعض الناس عن طبيعة غير طبيعة البشر . . وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهمون قول الذين كفروا من قبل . . قاتلهم الله أنى يؤفكون ؟ ، وقد كشف القرآن الكريم عن هذا اللون من التفكير الانساني في

• واسه دعوة الرسل . فيقول سبحانه وتعالى في قوم صالح : « فقلوا أنشأ ما واحدأ فقبه ؟ إنا لذن لفي صلال وسعر ! أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر (١) » . . . ويقول حل شأنه في فرعون وقومه : « فقلوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٢) » . . . ويقول سبحانه في قوم نوح : « ولئن أطعتم بشراً مثلكم لأكفكم إذن لخاصرون (٣) » . . . ويقول جل وعلا في كفار قريش : « أكان للناس عجبأ أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لسحرج مبين (٤) » . . . ويقول سبحانه : « وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا . لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا كبرأ (٥) » . . . ويقول سبحانه وتعالى : « ولوجعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون (٦) » .

بشيرة الرسل :

لو وقع للناس ما يمتنون من أن يكون الرسول ملكا لما استقام للناس معه أمر ولا صلح بينه وبينهم سأن . . . إنهم سيفتقنون به ، ويدهلون عن رسالته ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : « وما منع للناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ، قل لو كان في الأرض الملائكة يمشون مطمئن لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (٧) » . . . وكيف يطمئن للملائكة مقام بن الناس ؟ إن الملك لا يمكن أن يظهر للناس في أية صورة غير صورة الإنسان إلا كان مبعث فتنة للناس . . . إنهم سيتدافعون إليه تدافع الفراش إلى ضوء الصباح ، يدور حوله في لهفة جموفة إلى أن يسقط نصبا وإعياء ! .

كذلك لا يستقيم أمر الناس إذا جاءهم الرسول ملكا في صورة إنسان .

- | | |
|--------------------------|------------------------|
| (١) سورة القمر ، ٢٤/٢٥ . | (٢) سورة المؤمنون ٤٧ . |
| (٣) سورة المؤمنون ٣٤ . | (٤) صورة يونس ٢ . |
| (٥) سورة الفرقان ٢٦ . | (٦) سورة الأنعام ٩ . |
| (٧) سورة الإسراء ٩٥ . | |

لأنه لا يعبر عما في نفوسهم شيئاً من أمر الرسول البشرى ما دام الملك يلتاقهم في صورة آدمية . . فإنه في حالة تلك الإنسان ، يرونه رأى العين في صورة بشرية ، ولا تختلف عما ألفوا من صور الآدميين . . وبهذا كان رد القرآن على هذا المقترح الغبي الأحمق . . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رسلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون ، (٢) أى أنه لو جاءت الملائكة رسلاً إلى الناس لما جاءوا إلا في صورة بشرية ، لأن مجيئهم في صورتهم المسكية لا يجعل لهم بين الناس مكاناً يطمسونه فيه ، ومجيئهم في صورهم البشرية لا يجعل لهم عند الناس شأنًا غير شأنهم مع الرسل الآدميين . وإذن فلا معنى لأن يكون الرسول ملكاً مادام لا يمكن أن يحى إلا في صورة بشر !

وأنت ترى التناقضات القرآن إلى تقرير بشرية الرسل واضحا في هذا الأسلوب المفحوم — في موقف الخصومة والجدل . . وهو موقف واحد هنا ، يقف فيه الكفار المعاندون موقف المنكر على الرسول أن يكون بشراً ، وأن دعوى من يدعى من أناس — أيأ كان — أنه رسول ادعاء لا يقبل . . وكان من صنيع القرآن في دفع هذا الضلال ، وكشف المستترين به ، أنه جعل القضية قضية جدية يمكن النظر فيها . والاستماع إلى دعوى الخصوم عليها . . فلم يلحقها من أول الأمر بالكلمة الحاسمة ، وأنها ضلال مكشوف ، لا يستأهل الوقوف إزاءه ، والنظر فيه . بل بسط لهم القرآن مجال القول ، وأراحهم أن لقضيتهم شأفاً ، وأن عليهم أن يفتحوا آذانهم لسماع الحكم فيها . . ولو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ، (٢) ! فأنه قادر على أن يبعث إليهم ملكاً . . ولكن هل يمكن أن تستقيم حالهم معه ؟ هل يحرق أحد أن يقول نعم ؟ فإن قال سفيهه أحمق ؟ نعم ، قيل له : على أية صورة يلتقك الملك ؟ أعلى صورته النورية ؟ إنك لن تراه ؟ ولن تتعرف إليه ، ولن تأخذ شيئاً عنه ! أم على صورة بشرية ، يخاطبك بلسان بشر وبهيئة إنسان ؟ فذلك يمكن

(١) الأنعام آية ٩ .

(٢) الإسراء آية ٩٥ .

أن يكون هذا . . . ولكن من يدلك على أنه ملك في صورة إنسان ؟ هو كما يبدو لك إنسان ، لا فرق - في ظاهر الأمر - بين الإنسان الملك ، والإنسان الرسول ، وإذن فما يدخل عليك من أمر الرسول البشر سيدخل عليك من أمر الرسول الملك . . وهذا ما يكتشف عنه القرآن الكريم في قوله تعالى : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

الله يصطفى من الملائكة رسلاً . . ومن الناس :

لهذا اقتضت حكمة الله أن يبعث إلى الناس رسلاً من الناس حتى يكون بين الرسول ومن أرسل إليهم لف وأنس . فلا يحدون في رسولهم شيئاً لم يألفوه . . على خلاف ما لو جاء الرسول إليهم في أية صورة غير صورة الإنسان . . لأنه حينئذ سيكون مبعث عجب ودهس ومشار فتنه وابتلاء ، أضعاف ما يقع لهم من الرسول الانسان . . ولهذا أنكر القرآن على المشركين أن يعجبوا من أن يبعث الله فيهم رسولا منهم : « أكان للناس عجباً أن أرحمنا إلى رحل منهم أن أنذر الناس . (١) ، ولهذا كان فيما آمن الله سبحانه وتعالى به على الأمة العربية أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم . . حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، (٢) وهو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليه آياته وبزكيتهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٣) . وكذلك كان فضل الله على الأمم السابقة . كل رسول جاء إلى أمة كان منها ، ولبسائها . . وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليبين لهم ، (٤) ،

صفة الخلق :

وإذا كان الرسول بشراً فما ظنك أن يكون في الناس ؟

(١) سورة يونس : آية ٢ . (٢) سورة التوبة : آية ١٢٨ .

(٣) سورة الجمعة : آية ٢ . (٤) سورة إبراهيم : آية ٤ .

أتراه واحداً من آحاد الناس لا امتياز له في عقل أو خلق ؟ أم تراه إنساناً فانكا جبّاراً ، ملأ قلوب الناس فرعاً ورعباً ؟ أم أنه متخاذل ضعيف يلقى من الناس الذل والهوان ؟

وكلا . . فإن الرسول ليس إلى هؤلاء ، ولا أولئك !

إن الرسول قبل أن ترشحه المباء لتحمل الرسالة ، وقبل أن يلقى الناس بها ، ينبغي أن يكون فيه أمارات ودلائل تشهد له برجاحة العقل ، وكال المروءة ، والعفة ، وحسن الاحدوثة بين الناس ! فلا يعرف الناس منه قبل بعثته فيهم إلا ما يحمّدون ويكبرون !

هكذا رسل الله في أفوامهم . . خيار من خيار . . لم تجرب عليهم كذبة ، ولم تظهر فيهم ريبة . . وما تكذيب قومهم لهم ، وتظاؤلهم عليهم بعد الرسالة إلا عن حسد واستكبار ، وإلا عن نسقاق وعناد ! وقد كتف القرآن الكريم عن شهادة ثمود في نبيهم صالح ، وهي شهادة — على رغم ما واجهوه به من عناد وتحد وإعنات — لم تستطيعوا إنكارها ، لأنها أكبر وأظهر من أن تنكر . . « قالوا يا صالح قد كنت فيما مرجوا قبل هذا (١) » أى قد كنت قبل رسالتك موضع أمل ورجاء لما نرى فيك من الخير والصلاح . . فلما جاءهم يدعوهم إلى الهدى ويبلغهم رسالة ربه أنكروا ما كانوا قد عرفوا منه . . !

وقريس . . مع النبي الكريم . . كان عندها الصادق الأمين . . فلما حاته دعوة السماء أنكروا ما عرفوا . . ولهذا يهزبه الله سبحانه وتعالى بقوله : « فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يحدثون ، . . ويقول له أبو جهل : (والله لا نكذبك ، ولكن نكذب ما جئت به) . !

إن حكمة الله اقتضت أن يكون الرسول المختار لهذه المهمة الجليلة خلاصة الإنسانية وهاماتها ، في كل عصر ، وفي كل مكان تبزغ فيه شمس النبوة وتتألى أنوار الرسالة . . فيكون النبي أو الرسول هو الرجل الأول في السكال الإنسانية

بين قومه ، ويكون هو الإنسان الذى تشتمل فيه كالات الجذس البشرى لعصره ،
وتجتمع فيه كل فضائله !

والرسول بهذه الصفات التى اجتمعت له جدير بأن يكون صلة بين السماء
والأرض ، وسفيراً بين الله والناس !

لأنه لا بد أن يكون الرسول الذى يوكل إليه لإبلاغ رسالة سماوية إلى الناس
على أكل صورة إنسانية ، وأتمها فى ظاهر وباطن معاً ، كي يتقبل الناس دعوته
ويستجيبوا لما يدعوهم إليه !

وشتان بين أن تسمع الكلمة الطيبة الرشيدة من إنسان تعرف فيه الظهور
والتقوى ، وتجذ فى سيرته وسلوكه الآثار الطيبة لهذه الكلمة الطيبة التى يلتصق
بها ، ويدعوك إلى الاستماع إليها ، والاستجابة لها — شتان بين هذا وبين أن
تجىء إليك هذه الكلمة ذاتها على لسان إنسان هازل عابث ، لا ترى فى حاله
ما يحملك على احترامه وتوقيره .. لأنه لن يكون لكلمته هنا ثمن . ولا أثر !
لأنها كلمة — على ما بها من حسن — ميتة ، فقدت ما فيها من حرارة وحياة ؛
حين انطلقت من هذا السكبان الحرب ، كما تنطلق القذيفة الفاسدة من « المدفع » ،
لا تبلغ غاية ؛ ولا تصيب هدفاً !

والرسول هم حملة الكلام الطيب كله إلى الناس .. على ألسنتهم تجرى الحكمة
والموعظة الحسنة ، فتثمر ثمرتها الطيبة فى العقول ؛ وفى القلوب ؛ لما يجذ
الناس فى هذه الكلمات من ريح النبوة ؛ وما يذنبون من شيم سداها الطيب
الظهور !

لأن فى كيان رسول الله قوى روحية تنبىع فى وصاياهم وتشريعاتهم القوة
والنفوذ إلى أعماق النفوس ؛ فتملك ناصيتها ؛ وتأخذ بزمامها !

وأظهر دلالة يستدل بها العقلاء من الناس على صدق الرسول ؛ ويفرقون
بينه وبين أدعياء النبوة من السكبان والمشعوذين أن الرسول لا يدعو الناس
إلى فضيلة من الفضائل إلا كان قائماً عليها فى كل أطوار ؛ حياته قبل النبوة وبعدها ؛
ولا ينهى الناس عن رذيلة من الرذائل إلا كان مجانباً لها ؛ عزوفاً عنها ؛ فى كل

وواقع الحياة يشهد لهذا الذي نقول به . . فصادفت دعوة من دعوات الإصلاح في أي محال من مجالات الحياة ؛ الاجتماعية ، أو السياسية ، أو الفكرية حظاً من النجاح إلا بمقدار ما في الداعين إليها والقائمين عليها من صدق ومن إخلاص ؛ يراه الناس في هذا التوافق بين مدلول الدعوى وسلوك الداعي ؛ وعلى عكس هذا ما يصادف كثيراً من الدعوات من تفسخ وانحلال ؛ أو من انتكاس واضطراب ؛ إنما هو بما يكون بين مفهوم الدعوة وبين القائم عليها من جواهر وخلجات ، يأخذ فيها كل من القول والعمل طريقاً غير طريق صاحبه .

وقد ذم الله سبحانه وتعالى هذا الخلق الذى يخالف فيه المراء بين قوله وعمله . .
فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا . . لم تقولون ما لا تفعلون ؟ . . كبر مقتداً
عند الله أو تقولوا ما لا نفعلون » (١) .

وإذا كان الخلق على تلك الخدمة من الاستعانة في حال الإتيان الفرد ؛ وفي خاصة نفسه ؛ فما ظنك به إذا كان هذا الخلق في إنسان ينصب نفسه لدعوة عامة ؛ يبشر بها في الناس ؛ أو يحملهم عليها ؛ إنه لاستعانة محسدة ؛ وبلاء غليظ !

وانظر كيف رفع الله سبحانه وتعالى قدر رسوله « محمد » فخره عن جماعة الشعراء ؛ ودفع عنه هذه الفرية التي كان يرميه بها كفار قريش ؛ وهو قولهم إنه ساعر ؛ لما رأوا في القرآن من جلال وروعة لم يجدوا لها تفسيراً لما يتلو عليهم الرسول من كلام الله ؛ إلا أن يضيفوه إلى « النعر » الذي هو غاية ما عرفوا للكلام من تأثير وسلطان على النفوس . . فكان رد القرآن على هذا بقوله تعالى : « إنه لقول رسول كريم ؛ ذي قوة عند ذي العرش مكين ؛ مطاعهم أمين ؛ وما صاحبيكم بمجنون ؛ ولقد رآه بالأفق المبين ؛ وما هو على العيب بصينين » (٢) ؛ وفي قوله تعالى : « وما هو بقول ساعر ؛ قليلاً ما يؤمنون ؛ ولا يقول كاهن ؛

(۱) سورة المنافقون آیه ۱ .

(٢) سورة التکویر آية : ٢٢/٢٤ .

قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين « (١) . وفي قوله سبحانه : « وما علمناه الشعر ؛ وما ينفعنى له ؛ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (٢) .

ورفع مكانة النبي عن مواقف الشعر والشعراء إنما هو لما يغلب على الشعر من خيال هو في الحقيقة صورة كاذبة للواقع .. ولما يغلب على الشعراء من جريهم في حياتهم على غير ما تنطق به ألسنتهم من شعر .. : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » (٣) . والافتداء لا يقولون إلا ما يفعلون . فما ينبغي لنبي أن يكون شاعراً ؛ لأنه يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر . والشاعر محمول على أن يرضى مشاعره ؛ بما يخلط بين الجد والهزل ؛ وبين الحق والباطل ؛ والهوى والضلال : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » بل إن الشاعر في أصدق أحواله وأعدلها إنما ينسج شعره من حيوط الخيال ، إذ كان واقعاً دائماً تحت تأثير وجدانه ، ونداء مشاعره ... وهيئات أن تسلم الحقائق — إذا تحكم فيها الوجدان ، وتسلط عليها العهور — من أن تتغير معالمها . ثم هيئات أن يأخذ الشاعر نفسه بما يقول ، أو يجرى في حياته على ما أوحى إليه شياطين شعره . إنه يعلم أن ما يقول من شعر ليس إلا أمانى وأحلاماً ، إن صح بعضها في حال ، فلن يصح أكثرها في معظم الأحوال ، ولهذا قيل : « أعذب النهر أكذبه » .

• • •

(١) سورة الحاقة آية : ٤١/٤٣ .

(٢) سورة يس آية : ٦٩

(٣) سورة الشعراء آية : ٢٢٤ — ٢٢٦ .

الباب الثالث

المعجزة .. والإعجاز

ومع ماى الرسول من سمات نفسية ، وروحية ، وعقلية يعرف بها فى قومه ، ويأحبها المسكان الأول فيهم ، فإنه يطلب دائماً بآيات وبراهين نشبت دعواه التى يدعيها بأنه رسول من عند الله ، يحمل إلى الناس كلمة الله !

ولهذا كانت رسل الله تزود دائماً بالمعجزات القاهرة التى تجيء إلى الناس على غير ما ألفوا ، وتخرج عليهم بما لا يستطيعونه ، أو يجدون له تفسيراً ، إلا أن يذهب إلى الله ، ويحب شهادة على صدق الرسول ، وتأييد دعواه !

المعجزة :

فالمعجزة حدث فريد يجرى على غير مألوف الحياة ، ويخرج على ما بين الأسباب والمسببات من نلازم !

وفد ذكرت السكتب المقدسه كثيراً من المعجزات التى أجراها الله على أيدى الرسل ، كطوفان نوح ، وناقة صالح ، وعصا موسى ، وكلمة عيسى فى إحياء الموتى ، وهى معجزات مادية تقع فى مجال الحس والمشاهدة ! وتقوم الشواهد على عجز الناس عن مجاراتها . والوقوف إزاءها ! فنخرس الألسنة ، وتخضع الأعناق ؟ ومع هذه الحجة القاهرة التى تنطوى عليها المعجزة ، فإن اللاحاح يذهب بالناس ، أو يكسب منهم إلى التهرب من الواقع ، والاحتماء وراء التهم الملققة ، والمعاذير التافهة ، ليجلسوا من هذا الموقف الذى انكشف فيه أمرهم ، فأسقط فى أيديهم ، ولم يكن لهم من سبيل إلا الإيمان أو الفرار !

ويصور القرآن الكريم بعض هذه المواقف المتهافئة المتخاذلة التى يقفها

المكابرون المماندون في وحه المعجرات القاهرة التي لا يمحدها إلا الصنفاء السفهاء من الناس !

فهؤلاء بنوا لإسرائيل مثلاً . . لقد رأوا من المعجرات ما ينطق الحيوان ، ويحرك الجماد . العما يلقيها موسى من يده فإذا هي ثعبان مبيد ، وينضرب بها البحر فيمتلق ؛ فإذا كل فرق كالطود العظيم ، وينضرب بها الحجر فتتفجر منه عيون الماء . . اثنا عشر عينا ، بعدد أسباطهم الاثني عشر .

لقد رأوا كل هذا بأنفسهم رأى العين ، ومع هذا فقد ظلت غيرم اليك تحجبهم عن الإيمان بالله ، وبرسوله . . فكانت قوتهم تلك الآثمة التي حكاهما القرآن عنهم في قوله تعالى . « ولذا قلتم يا موسى ان تؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . فأخذنكم الصاعقة وأنتم تنظرون (١) .

فأى عناد بعد هذا ! وأى لجاح في الضلال والزيغ بعد هذا الضلال والزيغ ؟

ومن قبل كانت دعوة نوح إل قومه ، ورحته عليهم بحيث لا يستطيعون لها دفعا ، فكانوا إذا دعاهم إلى الإيمان بالله جعلوا أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوا فيؤمنوا ، ودخلوا في ثيابهم كي لا يروا فيمتأثروا . . !

يقول الله سبحانه على لسان نوح : « وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغفوا أصواتهم وأصروا ، واستكبروا استكبارا (١) . . . » .
لأنه الفرار من هذا النور الذي يطلع عليهم من فم النبي الكريم ، فلا يحدون دفعا له إلا هذا العمل المنجول : « جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغفوا أصواتهم » .

ويذكر القرآن الكريم ما كان عليه بعض كفار قريش من العناد والإصرار على الكفر والإقامة على مناقاة الرسول مهما تكن الآيات والمعجزات التي تساق إليهم . فيقول سبحانه وتعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون (٢) ،

لأنه العناد واللجاج فيه ؛ ولأنه الكبر والتسك به ، والحرص عليه . وإن

(١) سورة البقرة آية : ٥٥ . (٢) سورة نوح آية : ٧ .

(٣) سورة الحجر آية : ١٥/١٤ .

يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشيد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل النقي يتخذوه سبيلا (١) ،

امكانيات المعجزات .

تقف بعض المذاهب الفلسفية من « المعجزة » موقف الشك أو الإنكار ، وكثير من الفلاسفة لا يسلّمون بإمكانها ، وإن كانوا يؤمنون بالله ، ويهتفون بالخالق المبدع لهذا الوجود !

وحجة الفلاسفة أو الفلاسفة على إنكار المعجزة أو الشك فيها حجة داسعة متوافقة ، لا تستند إلى حقيقة علمية ولا تعتمد على شهادة من واقع الحياة ، أو من صحف التاريخ !

« المعجزة » عند المؤمنين بالمعجزات حدث خارق للعادة ، لم يحر على سنن الحياة ، ولا فاموس الطبيعة على الوجه الذي ألفه الناس ، وعرفوه !

إنها حرق لتواميس الطبيعة ، وخروج على أوضاعها !

والفلاسفة المنكرون للمعجزات يرون أن كل ما يقع في الحياة ، مألوف ، وغير مألوف ، هو جاز على طبيعتها ، واقع على ما تقضى به سننها !

إن التلازم بين الأسباب والمسببات لا يمكن أن ينفك أبداً ، وإن الأمور التي تقع من غير أن تكون لها أسبابها هي في الواقع نتيجة لأسباب ملازمة ، إذا تحققت الأسباب تحققت هذه الأمور . .

وإن الأحداث التي تبدو غريبة أو خارقة لمألوف الحياة هي في الواقع أحداث طبيعية ، لم نعرف أسبابها التي لا بد أن تكون قائمة وراءها ، وأنه متى عرفنا أسبابها أصبحت غير غريبة ، وزايلها العجب الذي أخذ الناس منها .

ومعجزات الرسل - على هذا - كما يرى الفلاسفة ليست إلا أموراً طبيعية تحرى مع فاموس الطبيعة ، وترتبط بالأسباب كما يرتبط غيرها من الأمور ، وإن دهنس

الناس منها ، وتسليمهم بها إنما لخناء أسبابها عنهم ، وظهورها بينهم ، منقطعة عن كل علة ، غير مستندة إلى سبب .

وإذن فالمعجزات - على هذا التقدير - أمور واقعة في حيز الإمكان ، وإن أى إنسان يستطيع أن يخرج على الناس بمثل هذه المعجزات إذا أمسك بين يديه بأمر لم يعهده الناس ، ووقع هو على أسبابه دونهم ؟ لأنه يستطيع أن يجعل من هذا الذى بين يديه معجزة يتحدى بها الناس ، ويعجزهم عن الإتيان بمثلها !

فلو فرسنا أن مخترع البخار ، أو الكهرباء طلع على الناس لأول عهدهم بما اخترعه وأراهم آلة تتحرك بالبخار ، أو مصباحاً يضيء بالكهرباء ، وأراهم أن ذلك خاصة من خصوصياته ليس لأحد أن يأتي به أو يمثله ، ثم أفهمهم أنه إنما استمد هذه القوة من الله ، وأنه رسوله إليهم ، لو أن واحداً من هؤلاء المخترعين فعل ذلك لوجد كثيراً من الناس من يصدقونه ويحجب له ، ويؤمن بما يدعوه إليه !

وتصوير المعجزة ، هذا التصوير ، ووضعها بهذا الموضع فيه تلبيسات ومعالجات .

فأولاً : لم ننس الحياة مخترعاً من المخترعات ولد كاملاً . بل يبدو لأول ظهوره في يد مخترعة خفيها لم تتضح معالمه . ولم تتحدد ملامحه . ثم يدرج شيئاً فشيئاً نحو النضج والكمال ، ولا يزال مع الأيام موضع زيادة وحذف حتى يبلغ غايته !

وثانياً : أن المخترع مهما يكن شأنه من الغرابة والعجب عند ظهوره . فإنه لم يكن منقطع الأسباب عن سوابق كثيرة من المعارف الإنسانية استند إليها وتعلق بها . فهو لبس من صنع إنسان ، وإنما هو من صنع الإنسانية المعاصرة له ، والسابقة واللاحقة .

وثالثاً : لم يجرؤ مخترع من هؤلاء المخترعين أن يقول إن هذا مما تعجز الحياة عن أن تترك مثله ، أو تكشف المستور عن سره .

ومن أجل هذا لم تكن مخترعات المخترعين ، ولا أعمال العباقرة في العلوم والفنون والآداب مما تدعى له المعجزة ، أو مما يتحدى به في مقام الإعجاز ، إذ كاتب كل هذه المخترعات وهذه الأعمال مما يبازع الناس في مساماتها والحاف بها أو سبقها ، ولم يحدث قط لإزاء اختراع من المخترعات ، أو عمل من هذه الأعمال الخالدة أن انقطعت عرائم الناس دونها ، أو وفدت منازعهم عن محاربتها ، وبحلولة الإنيان بمثلها ، أو أحسن منها ..

وليس هذا أمراً مستغرباً ، لأن هذه الأعمال - منها كان لها من روعة - هي من صنع بشر ، يظهر فيها الطابع الإنساني ، وتشتم منها ريش الإنسان ، الأمر الذي يدرى الناس بها . ويدنيهم منها ، ويقرب بعينها إليهم .. فلا تنقطع آمالهم دونها ، ولا تسكن عزائمهم إلى التسليم بالعجز عنها .

وليس كذلك المعجزة ، فهي تأتي من أول ما تأتي كاملة لا يدخل عليها بعد هذا زيادة أو نقص ، لأنها لا تقبل الزيادة ولا النقص . إنما من صنع الخالق ، وما كان لمخلوق أن يدخل شيئاً على صنعة أرادها الخالق ، معجزة ،

ومن هنا كانت المعجزة ، مصحوبة بالتحدي من جهة ، وبدعوى النبوة من جهة أخرى . فهي شهادة صدق على نبوة النبي ، وأنه مرسل من عند الله ، وأن العمل الذي جرى على يديه هو من عند الله ، والدليل على أنه من عند الله ، أن أحداً من الناس لا يستطيع أن ينقضه أو يأتي بمثله .

يقول ابن تيمية : ، ثم إنه تعالى جعل مسح الرسل ، آيات من علامات وبراهين ، وهن أفعال يفعلها مع الرسل ، يخصهم بها ، لا توجد لغيرهم . . فيعلم العباد لاختصاصهم بها أن ذلك إعلام منه للعباد ، وإخبار لهم أن هؤلاء رسل . (١) .

ويقول أيضاً : ، إنما تكون - أي المعجزة - آية إذا كانت من فعل الله مع التحدي بمثلها ، ودعوى النبوة . . فلا لالتها على وجه لا يمكن أن يشترك في ادعائه الصادق والكاذب ، فإذا ظهرت على هذا الوجه كانت آية لمن فعلت على

يده ولهذا لم تمكن أسرار الساعة آية لأحد ، وإن خرق العادة . إذ لم يكن معها دعوى نبوة ... ولأن موت زيد عند قول الرسول : أيتى أن يمت الله زيدا عند دعائى بموته ... فإذا مات عند دعوته صار ذلك آية له ، وإن كان فعل الموت فى الإنسان وغيره من الحيوان معتاداً !

ويقول ابن خلدون :

« ومن علاماتهم — أى الأنبياء — وقوع الحوارى لهم شاهدة بصدقهم ؛ وهى — أى الحوارى — أفعال يعجز البشر عن مثلها ؛ فسميت بذلك معجزه ! وليست — أى المعجزة — من جنس مقدور العباد ؛ وإنما تقع فى غير محل قدرتهم ! ثم يقول :

والنفس فى كيفية وقوعها ودلائلها على تصديق الأنبياء خلاف :

« فالمتكلمون » بناء على القول بالفاعل المختار — أى بأن الإنسان هو الذى يخلق أفعاله — فاملون بأنها - أى المعجزة — واقعة بقدرته الله لا بفعل النبى .. وإن كانت أفعال العباد عند المعجزة — من المتكلمين — صادرة عنهم ؛ إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ؛ وليس لنبى فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدى بها بإذن الله ؛ وهو أن يستدل بها النبى قبل وقوعها على صدقه فى مدعاه ؛ فإذا وقعت تنزل منزلة القول الصريح من الله بأنه أى النبى — صادق ؛ ونكون دلالتها على الصدق قطعية ! فالمعجزة الدالة بمجموع الخارق والتحدى ؛ وذلك كان التحدى جزءاً منها .

« وأما الحكماء — ويريد بهم الفلاسفة المؤمنون — فالخارق عندهم من فعل النبى ... وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ؛ منها صدور هذه الخوارق بقدرته ؛ وطاعة العناصر له فى التكوين .. والنبى عندهم — أى الفلاسفة — مجبول على التصريف فى الأكوان مهما توجه لإليها ؛ واستجمع لها ؛ بما جعل الله له من ذلك .

، والحواري عندهم يقع للنبي . كان - أى الحارفي - للتحدى أم لم يكن ؛ وهو شاهد بنفسه ؛ من حيث دلالة على تعترف النبي بالأكوان ؛ والذي هو أى التصرف - فى الأكوان - من خصائص النفس البهوية ؛ لا بأن ينزل منزلة القول الصريح بالتصديق . فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هى عند المتكلمين ؛ ولا يكون التحدى جزءاً من المعجزة ! ولم يصح - أى التحدى - فارفا لها عن السحر والمكرامة .

وفارفا عندهم عن السحر ؛ أن النبي محبوس على أفعال الخير ، مصروف عن أفعال الشر ؛ فلا يلم الشر بخوارقه ؛ والساحر على الضد ؛ فأفعله كلها شر ، وهى فى مقاصد الشر !

وفارفا عن المكرامة أن خوارق النبي محضة ؛ كالصعود إلى السماء ؛ والنفوذ فى الأجسام الكثيفة ؛ وإحياء الموتى ؛ وتكليم الملائكة ؛ والطيران فى الهواء . وخوارق الولي دين ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله ؛ مما هو قاصر عن تصريح الأنبياء . (١) .

وأنت ترى فيما نقل ابن خلدون من آراء المتكلمين والفلاسفة أن الفريقين متفقان على أن « المعجزة » خارقة للعادة لا يقدر الناس على مثلها !

كما ترى أن اقتران المعجزة بالتحدى شرط لازم عند المتكلمين ؛ على حين أنه غير لازم عند الفلاسفة ! وهذا الخلاف متفرع عن الأصل قامت عليه المعجزة عند كلا الفريقين ...

فإذا قرر المتكلمون أن « المعجزة » من فعل الله ؛ وليست من فعل النبي .. فإنه ينبغى على هذا أن « المعجزة » لا تقع إلا حين تقتضيها ضرورة ، وهذه الضرورة إنما هى الشهادة على صدق النبي ؛ وأنه مبعوث السماء ومؤيد منها بما ينهد له بصدق دعواه .. حيثئذ تنزل « المعجزة » التى يقترحها القوم . كما اقترح الحواريون على المسيح أن ينزل عليهم مائدة من السماء .. وفى هذا يقول القرآن الكريم : « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع

ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال: انقروا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا تريد أن تأكل منها وتطمئن قلوبنا . وعلم أن قد صدقتنا ، ويكون عليها من التهادين ، (١) .
فهمؤلام حواريو عيسى والمؤمنون برسـالله . ولكنه يؤمان متلبس بالسك والريية .. فهم من أجل هذا يقترحون عليه آية ، ويحددون له صفتها .

وانظر في هذه الطبيعة الساكرة الخبيثة التي تندس في كيان اليهود .

فهم الدين يقترحون المطلوب ، ويحددون صفتها حتى لا يكون هناك مجال للتلبس إن كان فيهم من أدعاء النبوة ، فلو أنهم طلبوا معجزة مطلقة فقد تختلط معجزة النبي بشعوذة المسعوذ . . ولكن إذا اقترحوا أمراً على صفة محددة ، وجاء على هذا الوصف كان لا شك أنه معجزة . وأن الذي يتعامل معهم فبي .

هذه واحدة .. وأخرى .. هي أنهم — فيما حكى القرآن عنهم — قالوا لعيسى: هل يستطيع ربك . . ولم يقولوا ربنا ، لأن إيمانهم بالله مازال متردداً في مراع الظل والسمك . . ولو كانوا مؤمنين بالله حقاً لما قالوا في حق الله سبحانه وتعالى . هل يستطيع ، فتعالى الله أن يعجزه شيء في الأرض أو في السماء ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، (٢) .

وثالثة من فعات اليهود هنا . . هي أنهم كما وصفهم القرآن ، أحرص الناس على حياة ، . وعلى كل مافى الحياة ، فلم يذهبوا مذهب كفار مكة عندما أرادوا أن يتشبتوا من دعوى النبي فقالوا فيما حكى القرآن عنهم : ، وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، (٣) لم يذهبوا هذا المذهب ، بل طلبوا ، مائدة ، حافلة بألوان الطعام وأطاييه ، مائدة . . . ، يريد أن تأكل منها ونطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا . ونكون عليها من التهادين ، .

(١) سورة المائدة آية ١١٢ / ١١٣ . (٢) سورة يس آية ٨٢

(٣) سورة الأنفال الآية : ٢٢ .

فكم عصفوراً صيد بحجر واحد من هذه الرمية المأكرة ؟
وقد تقع المعجزة ابتداء من غير طلب محدد لها ولصفتها ، كما هي في ناقة صالح ، وعصا موسى !
وهذا كله بناء على رأى المتكلمين في أن « المعجزة » من فعل الله ، وليس للنبي شأن بها إلا أنها تجري على يديه . . . وهذا تحيى معلنة التحدى !
أما الفلاسفة فإنه ينبنى على رأيهم القائل بأن « المعجزة » من فعل النبي وأن أعمال النبي كلها غارقة للعادة — ينبنى على هذا أن النبي نفسه « معجزة » وأن الخوارق تجري عليه من غير قصد ولا التفات إلى التحدى بها !
هذا خلاصة ما بين المتكلمين والفلاسفة من خلاف في شأن المعجزة على حسب ما نقل ابن خلدون عن الفريقين .

امكان اتصال الانسان بالمالا الأعلى :

« المادية » في كل عصر هي التي تعزل الإنسان عن العالم العلوى ، وتأتى عليه أن يرتفع عن هذا التراب الذى يعيش عليه .
ولا نريد هنا أن نشرح فلسفة الماديين ، وما تقضى به هذه الفلسفة في شؤون الإنسان ، وخاصة ما يسميه المؤمنون الجافب الروحى منه . . . فقد عرضنا في كتابنا الثانى من « قضية الألوهية » (١) مذاهب الماديين ومقولاتهم عن عالم ما وراء المادية ، وبسطنا القول في إيراد حججهم على ما وراء الحس . .
والذى يعيننا هنا أن نقررره هو أن الماديين إذ ينكرون العالم الروحى كله ينكرون تبعاً لهذا رسالات السماء — إذ لا سماء ، ولا رسالة عندهم — كما ينكرون الأنبياء ، والديانات ، ويعدون الحديث عن الأنبياء والديانات أحاديث ملفقة ، وادعاءات كاذبة ، لا تنف أمام النظر العقلى ، ولا تثبت أمام البحث العلمى !

(١) « قضية الألوهية بين الفلاسفة والدين : » « الله والإنسان » للؤلف . الناشر دار الفكر العربى .

ولا نجادل الماديين ، ولا نقف معهم موقف الخمرمة في هذه القضية .
فقد قلنا ما عندنا في هذا في أكثر من موضع .

ولإنما نود أن نقف هنا وقفة قصيرة مع الذين يؤمنون بالعالم الروحى ،
ويقولون بأن وراء المادة عالماً آخر غير مادى أرحب وأوسع مما لا يقاس به
هذا العالم المادى ، ولا يحسب بحسابه

هؤلاء الذين يؤمنون بما وراء المادة بينهم أعداد غير قليلين يشكون
في قيام صلة بين العالمين — المادى ، وغير المادى — ثم يسألهم هذا الشك إلى
شك آخر فى « النوحى » الذى يتلقاه رسل الله من السماء ! ومن ثم فهم شاكون
فى الرسل ، وفى الديانات السماوية التى يحملها رسل الله إلى الناس .

وكان الفيلسوف العربى « المعرى » من هؤلاء الشاكين فى النبوات ،
وفى رسالات السماء . . وقد ترددت أصدااء هذا الشك فى كثير من شعره
فى اللزوميات .

يقول المعرى — جاعلاً « العقل » هو النبى الذى يقوم بالهداية ، وهو
النبى القائم فى كيان كل إنسان :

أيها المغرور إن خصصت بعقل

فأسألنه فكل عقل قبي (١)

وواضح من هذا أن « المعرى » لا يجعل هذا الحكم للعقل عند كل الناس ،
بل لعقول الصفوة الممتازة منهم ؟ ولهذا قال : « إن خصصت بعقل » . فهو يخصص
ولا يعمم ، فلا يجعل العقول بهذه المنزلة إلا عنده هو ، وعند أمثاله من الحكماء
والفلاسفة .

وللمعرى مواقف كثيرة يزرى فيها بالشرائع السماوية ، ويهون ، بل يستخف
من آثارها فى حياة الناس . ويود لو نبذ الناس التعالق بتلك الشرائع ، ورجعوا
إلى ما يوجب به العقل ، أو بمعنى آخر ، إن الناس لو أسلموا لأنفسهم لأراء الفلاسفة
والحكماء ، واستثمروا لإلههم ، لمكان ذلك أجدى عليهم مما يتلقون من الشرائع

التي يقوم عليها السكمان والرهبان ، والفقهاء ، وغيرهم من علماء الدين في كل ملة . . يقول :

والعقل يبحث . . والشرائع كلها خبر يقلد لم يقسه قائس
متمجسون ، ومسلمون وممشر متصرون ، وهائدون رسائس (١)
وبيوت نيران تزار تعبدًا ومساجد معمورة وكنائس
والصابئون يعظمون كواكبًا وطباع كل في الشرور حبايس (٢)

وغيره المعري ، كثير من الفلاسفة من سبقوه أو جاءوا بعده يرون هذا الرأي . . وقد أشرنا إلى بعض هؤلاء الفلاسفة وإلى آرائهم في الرسائل السبوعية .

ونعرض هنا وجوهاً من الرأي ، يدافع بها أصحابها عن الرسائل السبوعية وعن صدق الأنبياء في تلقيها عن الله .

رأي ابن خلدون :

وابن خلدون يبذل جهداً مضنياً موفقاً في إقامة صرح مشين من الأدلة على إمكان الوحى ، والتقاء السماء والأرض عن طريق مخلوق أرضى ، هو قمة المخلوقات العالم المادى ، ومن هذه القمة يمكن أن يلبس السماء ، ويلبغ أضواءها . وهذا المخلوق هو الإنسان الذى يضمع قدميه على الأرض ، ويبتال برأسه السماء ! وقد امتد نظر ابن خلدون إلى آفاق بعيدة في الوجود . وفي هذه النظرة رتب الموجودات وتدرج بها في مازل و الترنى و درجة درجة حتى انتهت إلى الإنسان ؛ الذى جملة غاية ما يمكن أن تشر ، المادة ، من ثم طيب ؛ يمكن أن يرتقى ، درجة أخرى ؛ ينزع بها عن وجوده كثافة المادة وظلامها ، فيكون من العالم الدوراني الشفاف . . عالم الملائكة . . وبهذا يمكن أن يتلقى الإنسان — فى شخص النبي — بالملك فى شخص جبريل . . ويتلقى عنه رمالة السماء !

(١) الرسائس : جمع رسيس ، وهو المبطل . (٢) اللازويات جزء ٣ صفحة ٣٢

يقول ابن خلدون :

« ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ، ثم الحيوان . في هيئة بدئية من التدرج . . آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش ومالا بذره : وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم ، متصل بأولى أفق الحيوان مثل الجلازون والصدف ، لم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه المسكوفات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق المدى الذي بعده .

ثم ينتقل ابن خلدون بنظره إلى عالم الحيوان . . فيقول :

« واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان ، صاحب الفكر والروية .

ثم يعرض ابن خلدون بعد هذا أثر العالم العلوى في الموجردات كلها ، ويجعل لهذه الموجودات تحركاً يتدرج بها من حال إلى حال حتى تصل إلى الإنسان ، ثم يتدرج إلى العالم الإنسانى في أفرادها ، حتى يبلغ نهاية الأفق الذى يلامس فيه الملاء الأعلى ، ويتهيأ للانتقال إليه .

يقول :

« فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى المسكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة « وقتاً من الأوقات في لحظة من اللحظات وذلك بعد أن تسكمل ذاتها الروحانية بالفعل » (١) .

وأياً كانت هذه النظرة ، وأياً كان حظها من الصحة والصدق ، فإنها تدبّر عن حاجة الإنسان إلى قوة فوقه ، يتعامل معها ، ويفيد منها « ويطمح إلى بلوغها أو مدانها .

اختلاف المعجزات باختلاف الأمم :

ترى ماذا يكون لو أن معجزات الرسل كانت جارية على أسلوب واستعداد

في صورة واحدة . يتلقاها رسول بعد رسول . فتظهر للمسلمين كما ظهرت
لأسلافهم . معجزة قاهرة ، تخرس معها الألسنة ، وتخضع لها الأعناق ؟
ماذا يكون لو أنها معجزة واحدة تنتقل مع الرسل رسولاً رسولاً ؟
وتظهر في الأمم أمة أمة ؟ ماذا لو حدث هذا ؟

عصى موسى مثلاً لو أنها كانت في يد نوح ومن بعده من الأنبياء : هود ،
وصالح . وشعيب ، وإبراهيم ، وعيسى ، ومحمد . لو أنها كانت لهؤلاء الأنبياء ،
وجرت على أيديهم في أقوامهم أما كان لها في نفوس هؤلاء الأقوام ما كان لها
في قوم موسى ؟

وبمعنى آخر : أما كانت معجزة كافية للتحدي والإعجاز ؟

ويمكن أن يقال في ترجيح هذا الرأي الفرضي - : إن تطويع المعجزة
الواحدة ليد الأنبياء ، وانتقالها من سابق إلى لاحق ، فيه تأكيد لها ، وشهادة
مجددة على أنها ليست وليدة الصدفة ؛ ولا أنها فلتة من فلتات الحياة وقمت
ليد إنسان من الناس . فأتخذ منها أداة للتعالي على الناس مما في يديه . وإذلال
كبريائهم وفضح مدعياتهم من العلم والقوة .

فإذا تظاهر ظهور هذه المعجزة مرة بعد مرة في أزمان مختلفة ؛ مع احتفاظها
بكل ما فيها من ملامح ومميزات - كان في ذلك ما يحسم الشك فيها ، ويقطع باليقين
بأنها من عند الله ، وأنها لا تظهر إلا لمن اختارهم الله رسلاً إلى عباده .

هذا ما يمكن أن يقال في هذا الوجه من الإعجاز ..

ولكن هذا الوجه على ما يبدو من وجاهته مدفوع من وجوه :

فأولاً : يحىء المعجزة على صورة واحدة متكررة يفقدها كثيراً من التأثير
العقلي والنفسي الذي كان لها على الناس عند وقوعها لأول مرة . فإن ظهورها
في الناس بعد احتياجها - الطويل أو القصير - لا يثير فيهم تلك المشاعر العاصفة
التي كانت تثيرها عند ظهورها أول مرة .. إذ أن الناس في المرات التالية للمرة
الأولى يلقونها وقد عرفوا عنها كثيراً من صفاتها وأفعالها فلا تقع من

نفوسهم الموقع الذى كان لها فى نفوس من شهدوها لأول مرة عرفتها الحياة فيها ... وهكذا التأن فى كل أمر يعيش فى الحياة ، وتمتكر دوراته فيها
.. فالشمس على ماهى عليه من عظمة وجلال ، قل ١٠ يلتفت إليها الناس ،
وقل ما يرون ما فيها من عظمة وجلال ١ وذلك لتكرار دوراتها بين المشرق
والمغرب ١ حتى لقد صار ذلك منها أمراً مألوفاً ، وكل مألف تلقاه النفس لقاء
فاتراً ، غير واقفة عنده ، أو ملتفتة إليه ١١

وثانياً : تكرار المعجزة الواحدة ، فى صورة واحدة يوقع فى كثير من
النفوس أنها ليست من عند الله . وإلا لما وقعت قدرة الله عندها . مهما كان
مبلغها من الدلالة على قدرة الخالق وسلطانه . ١

إن الفنان العبقري لا يرضى أن يحسب فى الفنانين العباقرة بأثر واحد من
آثاره . ولا تنسخ له الحياة مكاناً بين العباقرة الفنانين حتى يأتى بأكثر من شاهد
يشهد له على مكانته وأصالته . ورسوخ قدمه ١

فالعامل الفنى الواحد - مهما يكن فيه من لمسات العبقرية ونخيلها - ليس
إلا نبأ تلقى الناس إلى أن فناناً يوشك أن يولد ، ويخرج إلى الحياة . . . ويتربص
الناس بعد هذه النبأ مولد الفنان فيما يقدم من أعمال . . فان وقف عند العمل
الأول تزاورت عنه الأبصار ، وحسب عمله الأول فلتة من الفلتات ، أو مصادفة
لم يكن له تدبير فيها ١

والناس فى جناب الله ، وفى قدرته يتوقعون أعمالاً لا تتقف عند حد
فى مجال الاستدلال على قدرة الله . . فكل شيء مسخر لله ، خاضع لأمره ،
مستجيب لدعوته ..

« إنما أمرنا شيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

والرسل هم السفراء بين السماء والأرض . . بين الله والناس ١
والذى يتوقعه الناس هو أن يروا هؤلاء السفراء فى حلل جديدة من
الرواء والحلال . . كل حلة منفردة بألوانها وأصباغها ، لا تشبه لاحقتها

سابقتهما . فإذا جاء الأمر على خلاف هذا ، وجاء السفراء واحداً لآخر واحد في حلة يأخذها اللاحق عن السابق ! ساء ظن الناس - وحق لهم أن يسوء ظنهم بهؤلاء السفراء ، وأن يشكوا في صدق دعواهم أنهم رسل من عند الله . فإن ما عند الله كثير لا ينفد ، ولا يجيء على تلك الصورة التي لا تدل إلا على العجز والفقر ! ! ومن شأن المعجزة أن يتحدث الناس بلسان فصيح عن قدرة الله ، وعن حاله وعظمته ، وأن ترى الناس الله الذي له ملك السموات والأرض .. الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ..

وثالثاً : المعجزة في حقيقتها لسان يتحدث الناس على قدر عقولهم ، وباللغة التي يتعاملون بها .

وسواء أكانت المعجزة حسية أم عقلية . فإنها لكي تكون حجة على الناس - ينبغي أن تقدر بقدرهم ، وتحسب بحسبهم ، أو بمعنى آخر ينبغي أن تجري معهم على مقتضى الحال كما يقول علماء البلاغة . . فإذا كانت من الناس بحيث تبعد الشقة بينهم وبينها صعوداً أو هبوطاً - لم تلتق بالناس ، ولم يلتقوا بها ، فذهبت مذهباً ، وذهبوا هم مذهباً آخر وكانت وهم كما يقول الشاعر :

أيها المذبح الثريا سميلا عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان

وإذا كان الناس مختلفون في طبائعهم . متفاوتون في ذكائهم ؛ حسب أزمانهم وأوطانهم ، فاللسان الذي يخاطبون يجب أن يكون مختلفاً بحسب هذه الطبائع ، متفاوتاً بتفاوت هذا الذكاء ، حتى يكون لساناً مفهماً يجد من يستمع إليه . ويلقى عنه !

من أجل هذا كانت معجزات الرسل واقعة على حسب كل أمة واستعدادها العقلي والنفسي . . وكان لكل رسول معجزة أو أكثر تناسب حال قومه ، وتجيء إليهم من الجانِب الذي بلغوا فيه غاية ما عندهم من فطنة وذكاء وماليهم من قوة وجهد !

وكان من هذا أن جاءت معجزات الأنبياء على هذا التقدير . . محسوبة بحساب الأمم واستعدادها .

يقول الجاحظ : « وعلى قدر جهل الأمة ، وغباء عقولها ، وسوء رغبةها ، ونخب عاداتها ، وغلظ مخنتها ، وشدة حيرتها — تكون الآيات . » كفلو البحر ، والمشى على الماء ، وإحياء الموتى ! » (١)

وسنرى فيما نستقبل من أبواب هذا الكتاب بياناً شارحاً للحكمة في اختلاف المعجزات . ومناسبتها لأحوال الأمم كما سنرى لماذا كانت معجزة النبي ﷺ ، معجزة عقلية ، تخاطب العقل الإنساني في أعلى مستوياته وأدناها جميعاً ، فيما حمل القرآن من آيات بينات .

• • •

الباب الرابع

مصادر الرسالة الإسلامية

محمد ، والقرآن ، والصلة التي يجمع بين محمد والقرآن . تلك هي موضع البحث والنظر لمن يريد أن يتعرف على المصادر التي أقامت السريعة الإسلامية على تلك الصورة ، التي تعرفها الحياة ، ويدين بها المسلمون .

من أجل هذا كانت هذه الدراسات الكثيرة لشخصية محمد ، ولطيفة القرآن ، ولما بين محمد والقرآن من صلة — كانت هذه الدراسات منظوراً إليها من آفاق مختلفة ، متعددة ، سواء أكان ذلك من المسلمين أنفسهم ، أم من غير المسلمين .

فقد استبد بكثير من المسلمين الشعور الديني ، وغلبتهم العاطفة الدينية ، وصور لهم الوهم الخاطيء أن يأنفوا بتخصية الرسول بألوان وأصباغ ليترضوا بها مشاعرهم الساذجة ، فجاءت هذه الأصباغ الغريبة وتلك الألوان الصارخة على غير ما فدرؤا وعلى غير ما أرادوا .. إنها تنزل من جلال النبوة وجمالها بمنزلة أصوات دخيلة مزعجة في تشيد علوى ملائكي ! بل إنها — في أحسن أحوالها أشبه بالمصاييح الموقدة تحت أشعة الشمس ، في وجه النهار المشرق !

وكما استبد الخماس الديني ببعض المسلمين ، فجاءوا إلى شخصية الرسول بهذه البضاعة الرخيصة ؛ كذلك استبدت الكراهية للإسلام ، والحقده على نبي الإسلام ببعض الناس فحاولوا أن يلقوا على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام ظلالاً معتمة من الريب والفسكوك ، وأن ينزعوا عنهما ما عليهما من عظمة قدسية ، وجلال رباني .. فجاء عمائمهم هذا على غير ما قدرؤا ، وعلى غير ما أرادوا فإن ما يئنيه الله أن يهدمه الناس ! وهل يحجب الدخان المتصاعد من الأرض والغيار الشائر من أعاصيرها وعواصفها وجه الشمس عن الحياة يوماً أو بعض يوم ؟ بل إن الشمس لتزداد في العين بهاء وجمالاً إذا أسفرت من وراء الغمام ، وتبدت من خلال السحاب !

على أن كثيراً من الدراسات التي تناولت شخصية الرسول ، وحقيقة القرآن ، من علماء المسلمين ، وغير المسلمين قد جاءت مقصودة في أغلب أحوالها ، تنزع منزع انوقوف على الحقيقة والتهدي إلى مواطن الحق .

ولا نريد أن نقف هنا على تلك الدراسات المستقيمة المائلة التي قصد بها أصحابها وجه الحق في سيرة الرسول ، وفي شريعة الإسلام ، فإن طريقها واضح لا تهمي سبله على من يلتمس الحق ، ويطلب الوصول إليه .

ولنأخذ الذي نريده هنا هو أن نعرض بعضاً من هذه الوجوه الشائبة الممسوخة التي أدخلها على سيرة الرسول ، وعلى حقيقة القرآن هؤلاء الجملة المتقطعون من المسلمين ، أو أولئك الجملة المتعصبون من غير المسلمين .

وأهم ما يعنيننا في موقفنا من تلك القضية أن نضل بآمن من هذه التيارات المتدافعة من المتطوعين والمتعصبين ، فلا تغلبنا العصبية للعقيدة ، ولا يحملنا الشنآن للمعادين للإسلام على أن نجور في الحكم ، أو نستبد بالرائي . وذلك مانستعين الله عليه ، ونرجو السداد والتوفيق فيه .

شخصية الرسول

كانت شخصية الرسول موضع نظر عميق ، وبحت متصل من أولياء الإسلام ، وأعدائه على السواء .

ذلك أن الإسلام وإن كانت تعاليمه منزلة من السماء ، لا دخل لمحمد فيها — إلا أن تناول محمد ، لهذه التعاليم ، وقيامه عليها ، وتطبيقه لها قد جعل بينه وبين هذه التعاليم رابطة وثيقة ، بل إنه جعل منهما كيافاً واحداً . .

فأى مايقع في القرآن من ضروب السكال والجلال — وكله كال وجلال — يضمني على محمد ، كالأ وجلالا . . كما أن أى سنأ يضى من حياة محمد ، — وكل حياته سناً وضياء — يزيد القرآن ألقاً وإشراقاً على ألقه وإشراقه .

وعكس هذا يأخذ هذا المأخذ ، فإن أى عوج يبدو في شخصية الرسول —

وهيأت هيئات — يتسرب إلى القرآن ذاته ، ويساله في الصميم منه . . وإن أى
«أخذ يؤخذ على القرآن — وهيأت هيئات — ينال من محمد ، في شخصيته ،
وفي مكانته !

ولأنه لاختلاف بين المسلمين وغير المسلمين على شخصية «محمد» التاريخية ، فهو
شخصية تاريخية معروفة الزمان ، والمكان ، تشهد لها الوثائق التاريخية نهادة لم
يقدمها التاريخ لأية شخصية أخرى غير «محمد» .

من أجل هذا لم يستطع أشد أعداء الإسلام عداوة ، وأكثرم جرأة على
الحق ، وعدواناً على الحقائق أن يبذر بذرة واحدة من بدور الشك حول شخصية
«محمد» من : حية وجوده في الحياة ، في زمانه ومكانه الذي وجد فيه ، كما لم
يستطع أحد أن ينكر الانقلاب النامل الذي قام به «محمد» في الجزيرة العربية ،
وفي الحياة الإنسانية ، وما أثار في العقول من أفكار ، وما ألقى في القلوب
من معتقدات .

ولكن الذين نصبوا أنفسهم لمحاربة الإسلام لم يسلموا بهذه الحقيقة على
إطلاقها ، ولم ينطقوا بكلمة الحق فيها . . إذ أنهم لو سلموا «محمد» بما عرفت
الحياة منه ، وبما حفظ التاريخ له لسلموا الإسلام بأنه دين الله ، وبأنه وحى
السماء ، وشريعة الحق . ودون ذلك أهوال وأهوال . . فإنهم والإسلام في حرب ،
ولن يسلموا له أو يستسلموا إلا بعد أن يرموا بأخر سهم بين أيديهم ، ولما بعد
أن ينفثوا ما في صدورهم من حقد وحسد . .

تخطيط وهديان :

كان أقرب شيء إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يلقوا ظلالاً من
الريب والشكوك حول سيرة الرسول ، وأن يعيشوا من صدورهم المريرة نفضات
من الحقد الأسود المحموم فيتبر دخاناً يزحف على تلك الشخصية ، فيغير من
حقيقتها ، أو يخفي من معالمها . . فذلك وإن بدا لأول أمره أنه عمل طائش لا يلقى
من الناس إلا استهزاء واستخفافاً ، إلا أنه مع الزمن ، ومع ترداد هذا الافتراء
قد يصبح يوماً ما حديثاً يروى في الناس ، ثم لا يعدم على الأيام أنصاراً ، ثم قد

لا يعدم من أولئك؛ لأنصار من يدخل به على التاريخ ، ويفسح له مكانا فيه ..
فها أكثر المفتريات التي ولدت في الحياة مولدا غريبا شائها ، ثم استطاعت مع
الزمن أن تندس في تفكير الناس ، وأن تجد من العقول « الرخوة » المريضة
طواعية لها ، وقبولا لقوالها الممسوخة المعوجة ! .. وكفى التاريخ من أكاذيب
وأباطيل ومفتريات غلبت الحقائق ، وأزالها عن مكانها .

كان أقرب شيء إذن إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يذهبوا
هذا المذهب ، وأن يحكموا رميتهم من هذا الجانب ، فإنها إن صحت أصابت
من الإسلام مقتلا لا يقوم بعده ، وأنهوا هذه الحرب التي لا تنتهي بينهم
وبين الإسلام .

ولسكن الأمر — أمر محمد — أكبر من أن يتغشاه كذب ، أو يظهر
عليه افتراء !..

ولا تحسبن الذين حاربوا الإسلام ، وحاربوا في الإسلام بجيوش زاحفة
في الحملات الصليبية ، وغير الحملات الصليبية التي شرع لها العلماء والفلاسفة
أقلامهم ، وأقاموا لها دراسات أكاديمية ودارسين محرفين للمفتريات والأكاذيب
المطلية بطلاء العلم ، والمموهة ببريق البحث عن الحقيقة — لا تحسبن هؤلاء
جميعا قد غفلوا عن هذا السلاح ، سلاح التشوين على شخصية محمد وإذابتها
بالدعوى الباطلة ، والأسانيد الملفقة ، ليحيلوا شخصية محمد بعدها خرافة عاشت
في خيال العرب مع كثير من الخرافات التي تأثروا بها في حياتهم . ولسكنهم
كانوا كلما حاولوا خلق عناصر الضلال والبهتان لينسجوا من خيوطها نسيجها يلفون
فيه شخصية « محمد » وجدوا أنهم إنما ينسجون بيتاً من بيوت العناكب ، يحاولون
أن يسدوا به وجه السماء ، وأن يحجبوا ضوء الشمس في رابعة النهار ! فكان إذا
ولد لهم من هذه الأكاذيب مولود وأدوه ، وواروه التراب .. أشبه بالأجنة التي
تلفظها الأرحام قبل أن تدب فيها الحياة !

إن حقيقة « محمد » التاريخية لم تكن يوما من الأيام موضع شك أو مثار
خلاف بين المسلمين وغير المسلمين على كثرة ما كان بينهم من خلاف متصل ، وجدل
ملتب في كثير من أصول الشريعة وفروعها ..

عظمة محمد :

وعظمة « محمد » ليست محل شك عند كل من يعول عليه من أهل المعرفة ، وأصحاب الرأي من غير المسلمين ؛ فضلاً عن المسلمين الذين يرتفعون بمقام نبيهم إلى مستوى من العظمة لا يرتفع إليه بشر ، ولا يدنو منه إلا أنبياء الله ورسله الكرام .

وعظمة « محمد » عظمة بارزة ، أكبر من أن يشكرها مكابر ، أو يعمى السبيل إليها مضلل أو مخادع .

لقد فرضت على أعداء الإسلام أن ينفذوا لمحمد بأنه واحد من آحاد العظماء في تاريخ الإنسانية ، ورأته من روادها ، ومصلح من مصلحيها .

ولكن أبي كثير من هؤلاء أن يعترف لمحمد بأنه نبي ، وأنه تلقى شريعته من السماء . . صنفاً منهم على شريعة الإسلام أن تفيض من هذا ينبوع العلوى ، وأن تتصل أسبابها بالسماء . وهم بهذا إنما يريدون أن تذهب هذه الشريعة مع مذاهب من شرائع سنن المصلحون من الناس . . ممن كانت شرائعهم مستمدة من إلهاماتهم الروحية دون أن تصلها بالسماء أسباب . . وبذلك يذهب « محمد » كما ذهب العظماء في متاحف التاريخ .

لقد ذهبت شريعة « حورابي » وبهت ظل القانون الروماني . وعفى الزمان على الإسكندر . ونبليون وغيرهما . . ذلك على خلاف الشرائع السماوية ، ورسل تلك الشرائع . . وإن دخل على بعض تلك الشرائع ما دخل من تبديل ، وتحوير . . فإنها على ما دخل عليها لا تزال محتفظة بطابع سماوى ، يضاف عليها الجلال ، والخلود !

عظمة الانسان ، وعظمة النبي :

ولا شك في أن « محمدآ » لو لم يكن نبياً ، لكان إنساناً مرموقاً في قومه ، ولكان له شأن بينهم .

ولكن مهما يكن من شأن الأخلاق الكريمة ، والصفات الطيبة ، والذكاء البهيمى الذى يشتمل عليه كيان أى إنسان في الجزيرة العربية ، فإنه ان يتجاوز

هذه الحدود التي كانت تدور فيها قواهم الروحية ، أو النفسية ، أو العقلية ، أو الجسدية . .

فلقد كان يمكن أن يكون « محمد » — لولا أن أكرمه الله بالنبوة ، واصطفاه بالرسالة — كان يمكن أن يكون واحداً من أولئك الذين كان لهم مكافئة في قومهم ، وكانوا بموضع التحلة والاحترام فيهم .

وانظر فيمن عرف في الأمة العربية — قبل البعثة النبوية — بحال أوجبت له التقدير والاحترام ، وأضفت عليه نوب الزعامة والقيادة . . فإنك تجد في الحكماء مثلاً « أكرم بن صيفي » . وفي الخطباء البلغاء « قيس بن ساعدة » . وتجد في الشعراء : امرأ القيس ، وعنترة ، ولييد ، وعمر بن كلثوم ، وغيرهم من أصحاب المعلمات . . وتجد في الأبطال الفرسان عنترة ، وعمر بن عبدود ، والحارث بن شهاب . . وتجد في الكهان شقياً ، وسطيحاً ، وغيرهم كثير من تلك الاسماء التي حفظها تاريخ الأمة العربية في الجاهلية لذوى النباهة والشأن من رجالها .

كان « محمد » لولا النبوة — يمكن أن يكون واحداً من أصحاب المعلمات ، أو الحكماء ، أو الخطباء ، أو الفرسان ، أو الكهان . . أو أن يكون فارساً ، أو شاعراً ، أو سطيحاً . . ولكن يظل مع ذلك في هذا المستوى الذي عاش فيه « حكماء قومهم ، وشعراؤهم وخطباءهم وكهانهم ، وأصحاب المسكنة المرموقة فيهم .

وماذا تعطى بلاد كالبلاد العربية المجردة أكبر من هذا ؟ بل ماذا تعطى أعدل البلاد جواً ، وأحسبها أرضاً ، وأوفرها خيراً ؟ ماذا تعطى في مجال العظمة ، وماذا تقدم للحياة من عظماء ؟ بل ماذا تعطى الحياة الانسانية كلها من عظمة وعظماء ؟ إن كل نتاج أرضي مهما يكن من الصفاء ، والقوة ، والسلامة لا يمكن أن يكون شيئاً إلى جانب تلك الثمرات الطيبة التي تنتجها السماء من العالم الأرضي فتسكب فيها سحاعات من النور العلوي ، وتطلق فيها شرارة من روح القدس فتكون هذه الثمرات الزكية الطيبة أنبياء الله ورسله إلى عباده ! إن عظمته النبي عظمة إنسانية سماوية معاً . . التي فيها الانسان في أكرم خصائصه وأصفى صفاته

بالعالم العلوى ، فهل من مناهله ، واقبوس من أنواره ، وتزود لروحه من شعاعات الحق التى لا تخبو أبداً !

موقف .. وموقف :

لم يستطع أعداء (محمد) - قديماً وحديثاً - أن يكرروا هذا الذى بين يديه ، وعلى لسانه من علم وحكمه . . كما لم يستطع أعداؤه - قديماً وحديثاً - أن يفضوا الطرف عنه ، وأن يحجبوا عن أبصارهم أضواء هذا الجلال الذى يحف به ، أو أن يكرروا شعاعات تلك العظمة التى يجد ريحها كل من يخالطه أو يدنو منه ، أو يطالع سيرته !

ولكن الذى ياباه هؤلاء الأعداء - قديماً وحديثاً - على محمد هو أن يكون متمسكاً بالسماء ، مثقياً عن الله تلك الرسالة التى يدعو الناس إليها ، ويبشر فيهم بها ! لأنهم يرضون لمحمد أن ينزل من منازل العظمة الانسانية حيث يشاء ، ويسلمون له أن يكون ما يشاء فيهم ، وفى مناصب السيادة والقيادة عليهم ، ولكن على أن يعزل نفسه من منصب النبوة ، ومن مقام الرسالة ، وأن يحجى إليهم عن طريقه الشخصى ، فإن ما فيه من الصفات الكريمة يؤهله للزعامة المطلقة فيهم !

وقد عرضنا للدوافع التى تحمل الناس على هذا الموقف من أنبياء الله ورسله ، واستكثارهم على بشر منهم أن يطاول السماء ، ويتعامل معها (١) !

وكان موقف قرين من (النبى) هذا الموقف الضادى فائماً على هذا التقدير ، ومقدراً بهذا الحساب . . وهو أن يكون لبشر معاملة مع السماء . . . إن هذا لآقا قول البشّر » . . . و أنزل الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشرا . .

وقد تولى القرآن الكريم فضح مقولات المعاندين من كفار فريش حالاً بعد حال : فحين قالوا عن النبى لأنه ساحر كان رد القرآن :

« هل أتبئسكم على من تنزل الشياطين ؟ نزل على كل أفاك أئيم .
يلقون السمع ، وأكثهم كاذبون » .

وما جرت قريش على « محمد » حالاً كذب فيه ، ولا عدت عليه في حياته
كذبة واحدة !

وحين قالت قريش عن النبي إنه شاعر أجابهم القرآن : « والشعراء يتبعهم
الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » ..
والقرآن — كما تعرف قريش — ليس بشعر ، والنبي — كما تعرف قريش —
لا يهيم في أي واد من أودية الضلال ، ولا يقول ما لا يفعل أبداً .. والشعراء
يهيمون في أودية الخيال . ويقولون في أشعارهم ما لا تصدقه أفعالهم .

أنشد « الرزدق » سليمان بن عبد الملك قوله :

ثلاث واثنتان فبن خمس وسادسة تميل إلى شمام
فبن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال سليمان : ويحك يا فرزدق ! أحلت بنفسك العقوبة ! أفررت
عندي بالزنا ، وأنا إمام ، ولا بد لي من أن أحبك .. فقال الفرزدق : بأي
شيء أوجبت على ذلك ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن كتاب الله هو الذي
يدرأ عنى الحد ! قال : وأين ؟ قال : قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ..
ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » .. فأنا قلت
بأمر المؤمنين ما لم أفعل ؟

ما أشبه الآية بالجراحة

والموقف الذي رَفَقَهُ قريش من النبي ، قد وقفه أعداء الإسلام بعد هذا
من « محمد » ورسالته ..

فلقد نازع خصوم الإسلام في نبوة « محمد » وإن لم ينازعوا في مكافته من
القيادة والزعامة والإصلاح ، بين القادة والزعماء والمصلحين من الناس .

والذي يرى إليه هؤلاء الخصوم الذين يشككون في نبوة محمد أو يكذبونها
إنما هو — كما قلنا — تجريد السريعة الإسلامية من عناصر الخلود المستمدة من
السماء ، ووضعها في دائرة الأنظمة الوضعية التي تخضع للتحويل والتغيير — الجزئي

أو الكلى .. بأيدي الناس ! وهذا تتمتعى الشريعة الاسلامية من هذا السياج
القدسى الذى حفظها من عبث العابثين ، وحماها من أن تمتد إليها يد بمحو
أو تبديل !

ولقد حاول خصوم الاسلام محاولات محمّدة مضنية أن يدخلوا على الاسلام
من هذا الطريق ، وأن يشككوا فى بعض آيات القرآن بإضافة أو حذف
فما استطاعوا أن يدخلوا عليه حرفاً ، أو يخرجوا منه حرفاً على مدى يزيد على
ثلاثة عشر قرناً !

والآيات التى أرادوا أن يشككوا فيها آيات معدودة . . وليست من الآيات
التي تمس أصلاً من أصول الشريعة . . . ولكن الشك فى أى آية يسحب الشك
إلى القرآن كله .. وهذا ما قصد إليه الذين جاءوا إلى الإسلام مهاجمين
من هذا الطريق . . .

إن قداسة القرآن وحدة متكاملة ، فإذا تطرق الشك إلى أنة جزئية فيه كان
ذلك داعية إلى الشك فى كل أجزائه ، وهذا يتداعى ذلك البناء الشامخ
المقدس ، وينهار !

محمّد . . بعد القرآن :

ورحين أعيانهم أن يزيفوا شيئاً من تلك الوثيقة المقدسة الخالدة عمدوا إلى
مصدرها الذى صدرت عنه ، فأثاروا حول نبوة النبى دخائلاً متكاثراً من الشكوك
والريب . . وغايتهم من هذا أن يقطعوا الصلة بين القرآن وبين السماء ، وأن
يضيفوه إلى « محمد » كما أضيفت مملقات الشعراء إلى أصحابها ، وكما نسبت أسجاع
السكران إلى أربابها !

يقول « بارثولوميو » الرهاوى : موجهاً هذا الحديث الخطابى إلى مسلم :
« قل لى بربك .. ماذا تعنى بالنبوة والرسالة ؟ !

« والله يعلم أنكم ما كنتم تستطيعون أن تعرفوا » ، ولم يعلمكم المسيحى !

« إنك تقول : إن نبيكم ظل اثنين وثلاثين عاماً (١) لا يتكلم كلام الأنبياء ، ولا هو كان أثناء رسولا ، ولا معلماً ، ولا عرف شيئاً عن الله ، وأنه عرفه بعد تلك العرة ...

ثم يمضى في هذه السفسطة ... فيقول :

« إذا كنت تفكر بتمام الجدة أن شيئاً قد حصل بوساطة « محمد ، لإبان تلك السنوات الاثنتين والثلاثين الأولى من حياته .. فكيف لا ينبغي لي أنا المسيحى أن أنكر أحداث تلك السنوات الخمس عشرة التالية (٢) ؟

ثم يخلص من هذا الهزل إلى هزل ... يقول فيه :

« ولكن أخبرني أولاً - ناشدتك الله - كيف استطاع - محمد - أن يعرف الله ؟ وبأية وسيلة عرفه ؟

« وإذا كنتم تسمونه نبياً فأروني ... ماذا تنبأ به ؟ وبأى لفظ تنبأ ؟ وما هى وصاياه ؟ وما هى الآيات والعجائب التى صنع ؟ » (٣) .

هذا لون من ألوان التشويش على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام ... لم يكن صاحبه يحمل شيئاً من العلم بالموضوع الذى يجادل فيه . . . ويكفى أنه يحمل من حياة « محمد ، تلك الخطوط العريضة - كما يقولون - من سيرته . . . تلك الديرة التى لم يختلف على حدودها الزمنية عدو أو ولي « فمحمد ، إنما جاءته النبوة بعد أن بلغ الأربعين من عمره ، لا اثنين وثلاثين سنة كما يقول هذا السيد المتعالم ! ! كما أن نبوة محمد قد ظلت ثلاثة وعشرين عاماً ، لا خمسة عشر عاماً حسب دعواه .

(١) الحق أنه طل أربعين عاماً ، لا اثنين وثلاثين . . . فقد جاء وحى السماء بعد أن بلغ الأربعين من عمره .

(٢) أنها ليست خمس عشرة سنة ، ولكننا ثلاث وعشرون .. هى سنوات النبوة من بعثة النبي على رأس الأربعين من عمره ، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى فى الثالثة والستين .

(٣) حضارة الإسلام لجوستاف جرونباوم ص ٦٨

ويكفي في سقوط كل مدعيات هذا المدعى أن كان من الجهل بموضوع هذه القضية إلى الحد الفاضح .

نعم . إن الرجل وإن لم يكن يحمل من العلم شيئاً في موضوعه هذا ، إلا أنه كان يحمل طاقة كبيرة من الحقد على الإسلام ، والكرهية له .. ولكن الحقد والكرهية وحدهما لا يفيان شيئاً في التشويش على الحق ، ولا في زحزحته عن موضعه .

ولو أن مع هذا الحقد ، وتلك الكراهية شيئاً من العلم لما كان هذا الخلط ، وذاك الهراء ، ولا استطاع الرجل بما عنده من علم أن يقتصد في هذا النباح ، أو أن يخرج في صورة أقرب إلى صوت العقلاء من الناس .

ومن البديهي ألا تقف من هذا الكلام موقف الجدة ، ولا أن ترد على تلك الأسئلة التي سألتها - متبجحاً - في صورته تهجم واستهزاء .. لأن ذلك كان يمكن لو أننا نجد لهذا الكلام شيئاً من الاحترام في عقولنا ، أو قدراً من الاعتبار في تقديرنا ؟ .. فلندعه بمضى كما يمضى صوت النائحة في جوف الصحراء ، ولننظر في صرخة أخرى من تلك الصرخات المجنونة .. فما أكثر تلك الأصوات التي تنطلق من صدور محنقة ، حاقدة ، على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام .

يقول « ثيوفانيز » المتوفى سنة ٨١٧ م في صدد انتشار الإسلام :

وهكذا انتشر الخبر - خبر محمد - من النساء - يقصد خديجة - إلى الرجال ، فباع أولاً أبا بكر الذي جعله فيما بعد خليفة بعده !

وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته أو قل فرقته المارقة أن تحصل بالقوة أو قل بالحرب على السيادة على منطقة يشرب ، وذلك بعد أن قضى في البداية عشر سنوات ينشر دعوته سرراً ، ثم قضى عشر سنوات أخرى ينشرها حرباً ، وانتهى الأمر إلى إعلانها صريحة ، وحكم البلاد تسع سنوات ١١

وكان يعلم أنصاره بأن من قتل عدوه أو قتله عدوه فهو داخل الجنة ١١

وكان يصف الجنة بأنها موطن سرور جسدي ، وشرب وخمر ، وعناق للنساء وأن بها أنهاراً من خمر ، ومن عسل ولبن ، وأن هناك نساء غير اللواتي

لهم اليوم عناقن مديد دائم ، وله سرور مقيم ، (١) .
وأغرب ما في هذا القول - وكله غريب - أن تقوم فرقة مارقة بإقامة دولة
مترامية الأطراف ؛ وأن تقيم حضارة عريقة راسخة تفتد سماعاتها القوية في ذلك
الظلام المطبق الذي كان يخيم على أوروبا ، فيفتح لها معالم الطريق إلى الخروج من
ظلمات العصور الوسطى إلى عصر المدنية الحديثة . فإن القوة العاشمة لا يمكن
أن تقيم بناء قويا متاسكا يبق على الزمن بعد أن تزيله تلك القوة ؛ وتمتدح عنه ...
وقد بقى الإسلام أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، يزداد على الأيام أنصاره ؛ وتنفسح
في العالم رقعته ، وسيبقى هذا الدين أبدي الدهر مصدر هدى ، وإشعاع علم ومعرفة ،
لكل عاقل رشيد .

ولا تنقف عند تلك المقررات الباطلة التي يدعيها هذا المدعي عن الدوافع التي
كانت تدفع المسابدين إلى الاستشهاد في سبيل الله . وإعزاز دين الله ، ونصرة نبيه ، .
فإن هذا الرجل - شأنه شأن صاحبه من قبل - يستملى قلبه من صار محموم ؛
وقلب مريض ! فلندعه إلى محموم آخر في هذا الصف الطويل ، ممن يهدون هذيان
الحجى من صدور تغلى حقدآ على الإسلام وعلى نبى الإسلام !
يقول ولیم الطرابلسی المتوفى سنة ١٢٧٣ م في رسالة له عن حالة العرب
والنبى محمد ، وشريعتهم ، وعقيدتهم :

« إن العرب يمتقدون أن جبريل نقل الإرادة الإلهية إلى النبى ! ثم صاغ
المؤمنون ما كان ينطبق به كتاباً » .

ثم يملق على هذا الذى يمتقده العرب حسب رأيه فيقول : « إن للكاثوليك
على ذلك رأياً آخر فهم يرون أنه بعد أن مات محمد أراد أنصاره أن يعالجوا
العقيدة والشريعة معالجة شاملة قائمة على تعاليمه .. فلما تبينوا أن الرجل الذى يسط
به العمل (٢) لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل - طلبوا إلى
اليهود والمسيحيين الذين أسلموا أن يساعدوه !

(١) حضارة الإسلام ص ٩٨

(٢) لعله يقصد بهذا الرجل زيد بن ثابت الذى جعله أبو بكر على رأس تلك الجماعة التى
وكل إليها جمع القرآن ، وقد كان مجموعاً عند كتاب الوحي وعبرهم ، كما كان محفوظاً في الصدور .

وهنا تبدو للرجل أن الفرصة سانحة بعد أن احتلق لها هذه الفرية بإدخال جماعة من أسلموا من اليهود والنصارى في عملية جمع القرآن — فيقول :

« وعند ذلك رأى هؤلاء — أي الذين أسلموا من اليهود والنصارى — من الأفضل أن ينتقوا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد ، وأن يمزجوها بالكتاب كما اتفق (١١) وبذلك أصبح الكتاب على قدر عظيم من الرواق والجمال المنقول من الكتب المنزلة ، ما بين مسيحية ويهودية أما الجانب الإسلامي الأصيل فليس إلا تشويها وتحريراً ٩١ . » (١)

وشخصية القرآن التاريخية — إن ساخ هذا التعبير — شخصية لامراء فيها ، ولا اختلاف عليها بين المسلمين ، وخصوصاً المسلمين ؛ فهي أكبر من أن يحجبها هذا اللغو ، وهي على الصحة والسلامة بحيث تقفل كل ميكروب خبيث يدخل عليها .

وجميع الذين تعرضوا لدراسة تاريخ القرآن من علماء الغرب والذين يعتمد عليهم ، ويؤخذ برأيهم — لا ينكرون هذه الحقيقة ؛ وهي أن القرآن قد جاء به « محمد » ، وأن الجمع الذي قام به أبو بكر ؛ ثم عثمان من بعده ، لم يكن إلا نقلاً له من تلك الوثائق الكثيرة ، التي كانت بأيدي كتاب الرحي ، وعند كثير من الصحابة وغيرهم ؛ وهي مع كثرتها كانت جميعها على الصحة والسلامة الكاملة ، يشهد بعضها لبعض ، ويؤكد بعضها بعضاً . وذلك بالإضافة إلى شهادة الحفظ للقرآن كله ، عند كثير من القراء ، من صحابة رسول الله . .

من أجل هذا لم يجرؤ عالم من علماء الغرب أن يقف لهذه الحقيقة موقف المناقض لها ، أو المناوش عليها . وإنما الذي كان من مقولاتهم هنا : أن هذا القرآن من كلام « محمد » ، وليس وحى السماء ، وربما قالوا إنه استمد مصادره هذا القرآن من ورقة بن نوفل أو غيره من الأحرار والرهبان .. ولكنه على أي حال يضاف إلى « محمد » وينسب إليه !

ولم يقل أحد قبل هذا الرجل أو بعده أن جماعة ممن أسلموا من اليهود

والنصارى شاركوا فى وضع القرآن أو جمعه . . ولم يقل أحد كذلك بأن فصلا ، أو فصولا من التوراة - فى عهدها القديم والجديد - قد أضيف إلى القرآن عند الجمع .

لم يقل أحد بهذا القول الرخيص ، لأنه قول يفضح صاحبه ، ويعرّيه من كل سمة من سمات العلم . فإن الذين شاركوا فى عملية جمع القرآن فى عهد أبى بكر وفى عهد عثمان - معروفون معروفة وثيقة فى التاريخ ، لا اختلاف عليها .^(١) وأغرب ما فى هذا أن أصحاب هذه الدعوى من الغربيين يستندون إلى أقوال كفار قریش فى أول الدعوة الإسلامية ، حين أعجزهم أمر القرآن ، فلم يقبلوا أن يكون وحياً من السماء نزل على محمد . . ثم راحوا يلققون أقوالا فى المصدر الذى يرجع إليه هذا الكلام العجيب الذين يسموهم د محمد ، إياه . . فقالوا تلك المقولات التى حكاها القرآن عنهم فى معرض السخرية بهم والتسخيف لآرائهم فيما نزل من الحق يقول الله تعالى : « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » ، (١) . . ويقول سبحانه : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء ، وأعانه عليه قوم آخرون . . فقد جاءوا ظلماً وزوراً ، وقالوا أساطير الأولين اكتبها فى تملى عليه بكرة وأصيلا . . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض لأنه كان غفورا رحيما » ، (٢) . . فهذه أقوال أخذها القرآن من أقوال أصحابها وردّها عليهم فى حينها . . فكيف تصبح اليوم حجة على القرآن نفسه ؟ ثم هذا هو القرآن ، وتلك هى التوراة !

فما الفصول التى أضيفت إلى القرآن ؟ وما مكانها منه ؟

وهل يخفى ما بين أسلوب القرآن ، وترجمات التوراة من تفاوت واختلاف ؟

وهل يستطيع بشر أن يدخل على القرآن بآية واحدة ثم يجد لهذه الآية مكاناً مطمئناً فيه ؟

(١) سورة الحجر آية ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦ .

إن القرآن نسيح وحده في الفصاحة والبلاغة ، وإن أى كلمة غريبة تدخل عليه
تتعتق وتموت ، ولا تجد لها بقاء فيه !

ولو كان في مقدور أحد أن يدخل على القرآن بشيء ليس منه ، وأن يفسد
معامله عند المسلمين لكان ذلك إلى قريش ، وإلى غيرها من فصحاء العرب وبلغائهم
الذين حاربوا الإسلام حرباً مريرة طويلة ، أرخصوا فيها نفوسهم ، واستباحوا
من أجلها كل شيء .. ومع هذا فقد عرفوا أن هذا الباب موصد بينهم وبين
القرآن ، وأن كلامهم مهما يكن من بلاغة وبيان ؛ فهو بمنزلة الحصى من كريم
الجواهر ويقيمها .

فكيف يصح لهؤلاء الدخلاء على العرب والعربية ، الداخلين في الإسلام من
اليهود والنصارى أن يترجموا فصولاً من التوراة ، ثم يدخلوها على القرآن ، ثم
تجد مكانها آمناً مطمئناً فيه ؟

وهذه هي التوراة ، وهذا هو القرآن مرة أخرى !

اقرأ فصلاً أو فصولاً من التوراة ، ثم اقرأ سورة ، أو سوراً من القرآن
فإنك تجد طعماً غير الطعم ، ومذاقاً غير المذاق ، فإذا حاولت أن تجمع هذا بذاك
أو ذاك بهذا ، وإن تراوج بينهما وجدت أمراً غير مستقيم لك ولا مطاوع
لصنيعك ... كمن يؤلف بين أنغام تخرج على غير اتفاق أو ترتيب ... أنغام مختلفة
المقامات ، والاتجاهات فانه على فرض أن التوراة — بعديها القديم والجديد —
هي التوراة التي نزلت على موسى ، وهذا ما تنقضه شواهد التاريخ ، ويشهد به
حال التوراة ذاتها — على فرض صحة التوراة وأنها والقرآن يخرجان من مشكاة
واحدة ، فإن أسلوب الأداء يختلف أشد الاختلاف كاختلاف اللغة العامية الدارجة ،
ولغة الشعر في أعلى طبقاته أو هو أشد .

فالذى يقول : إن فصولاً من التوراة قد أضيفت إلى القرآن فزادته رونقاً
وجالاً ليس أكثر تجنياً على الحقيقة ، ولا أشد نكراً في القول ممن يقول : إن
فصولاً من قصة أبي زيد الهلالي أو سيف بن ذي يزن قد أدخلها شوقي كما هي

بحالها في روايته : « عنبرة ، أو « مجنون ليل » ١١ وشتان بين الحالين ..
هناك وهناك .

وشبيه بهذا القول — من حيث الإسفاف والسقوط في مجال البحث العلمي —
ما يقوله المؤرخ البيزنطي « ثيوفانيز » الذي نقلنا بعض آرائه آنفاً ...

فقد ألف هذا المؤرخ كتاباً سماه « حياة النبي » . وكان مرجعاً هاماً
— كما يقول . « جرونيوم » لمن تلاه من الكتاب الغربيين !

يقول هذا المؤرخ : « ولما كان « محمد » المذكور فقيراً ، ويتيم ، فانه قرر أن
يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوى فرباه ، هي خديجة ، بأن جعل نفسه وكيلاً لها ،
لقاء أجر يتناوله ، يتولى شئون إبلها ، ويقوم بأشغالها في مصر^(١) وفلسطين ١١
« ولم يمض طويل زمن حتى فاز برضا السيدة — وكانت أيماً — بفضل طرائقه
الصريحة . فاتخذها زوجاً له ، وبذلك حصل على إبلها ، وسائر ممتلكاتها ، ١١
وندع هذا التلغيق من القول فيما ينسب إلى النبي من تطلعه إلى المال ، ومن
استيلائه على إبل السيدة خديجة . وسائر ممتلكاتها ، ويكفي أن يخصص نخصوم
الإسلام الذين ينظرون هذه النظرة إلى « محمد » — يكفي أن يحصوا تركه هذا
النبي ، وما خلفه وراءه لذريته وأهله ١ لقد توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه
مرهونة عند يهودى في حاجة أهله ١ . أفهذا شأن من في نفسه آثاره لحب المال
والثراء ؟ أفهذه تركه من تعلق قلبه بحب المال وجمعه ؟ وقد فتح الله عليه البلاد ،
وأفاء إليه الخير الوفير من فيها ؟

قلنا : ندع هذا .

فلندعه إلى قول آخر لهذا المؤرخ ، بعد هذا القول .

يقول :

« وقد اختلط — أى محمد — فى فلسطين باليهود والمسيحيين . وبواسطتهم
حصل على بعض الكتب المنزلة ١١

(١) لم يكن للرسول الكريم رحلة إلى خارج الجزيرة العربية غير رحلته إلى الشام .. مرة
وهو علام مع عمه أبى طالب ، ومرة في قافلة قريش في تجارة للسيدة خديجة ، ولم يكن للمصر
هذا الشرف برحلة السى إليها في تجارة أو غير تجارة .

ثم ماذا ؟

« وأصيب كذلك بمرض عصبي ! !

« فلما علمت زوجته بأمره حز في نفسها - وهي العريضة الأصل - أن
قد أصبحت اليوم مرتبطة بإنسان لا يقتصر أمره على أنه فقير . بل هو
أيضاً مريض ! !

« فراح يهدئها بقوله : إني تلم في رؤية ملك من الملائكة اسمه « جبريل » ،
ولما كنت لا أقوى على تحمل مرآه ؛ فإني تخور قواي ، وأقع على الأرض !

« وكان يقيم بتلك النواحي راهب قد نفى لكفره . واتخذته صديقاً (١) ،
فأخبرته خديجة بكل شيء ، كما أبلغته اسم الملاك .

« وأراد الراهب أن يقنعها تماماً ؛ فقال لها : لقد قال الصدق ، فما ذلك
الملاك إلا الناموس الذي يرسل إلى النبيين كافة (٢) . »

ثم هتان هنا أراد هذا المؤرخ - الذي لم يحترم حرمة التاريخ - أن يرمي
بهما نبي الإسلام ؛ وذلك ليفسد إلى غرض آخر خبيث ؛ وهو أن القرآن إنما
هو هذيان تقيض به نفس محمد ؛ ويتحرك به لسانه في نوبات الصرع ؛ وأن هذا
الهديان إنما هو من أخلاط ما وقع عليه في الكتب المنزلة التي استعملها معه
من فلسطين .

ولم يجرى هذا المؤرخ بجديد ؛ بل أخذ هذا القول عن كفار قريش ؛
واتهامهم لرسول الله بأنه ساحر أو مجنون . ويقول لهم : إنما يعلمه بشر ! .

وقد سجل القرآن الكريم هذه المزاعم الباطلة ، وكبت قائليها .. ثم لم يمض
إلا زمن قليل حتى زالت العتاة عن قلوب كثير منهم ، فاهتدوا إلى الحق ،
ودخلوا في دين الله !

(١) يشير إلى ورقة بن نوفل ، وهو قرشي ، عمت إلى السيدة خديجة بقرابة قريبة .

(٢) حضارة الإسلام ص ٦٧

ولما يذكر القرآن الكريم تلك المزايم الباطلة ، فإنما ليسجل على أصحابها هذا الادعاء ، ثم ليفضحه ، ويفضحهم معه ، على مدى الأزمان المتطاولة !

فإذا حكى القرآن قولهم : « إِن تَنبَهُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا »^(١) وقولهم : يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ^(٢) رد عليهم بقوله : « ن . وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى حَقٍّ عَظِيمٍ »^(٣) . وليس هذا مقام يرتقى إليه بشر !
ولما ذكر القرآن قولهم : وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا .^(٤) رد عليهم بعدها بقوله تعالى : وقل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض .. لأنه كان غفوراً رحيمًا^(٥) ، ولذا قالوا : ولما يعلمه بشر^(٦) ، رد القرآن بقوله : ولسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين^(٧) .

ومع هذا فكيف يحتمل التاريخ - إن احتملت الحياة - رجلاً مجنوناً ، يخلط القول ، ويهذى به ؟ ثم كيف تقبل الأجيال المتتابعة هذيان مجنون ، وشريعة مجبول ؟ أهذا يقع في الحياة ، وفي الناس من يعقل ، ويعي ؟ اللهم إن ذلك لا يكون حتى تنقلب الأوضاع في الحياة ، ويصبح المجانين على رأس القافلة !
فهل انقلبت أوضاع الحياة حقاً ؟

نعم ! !

ويقولها صريحة أحد مسيحي القرن العاشر الميلادي .. إذ يقول :
« عندما شاهد ذلك الراهب الفاسق^(٨) سداجة القوم رأى أن يمتحنهم عقيدته وشريعة على غرار مذهب « آريوس » وغيره من ألوان الكفر والزندقة التي تحرم من أجلها !

-
- (١) سورة الإسراء آية ٤٧ (٢) سورة الحجر آية ٦ (٣) سورة القلم آية ٤١
(٤) سورة الفرقان آية ٥ (٥) سورة الفرقان آية ٦ (٦) النحل ١٠٣
(٧) سورة النحل آية ١٠٣

(٨) هناك راهبان التقى بهما النبي ، بجيرا « الراهب » في رحلته إلى الشام وقد ألم به ساعة أو بعض ساعة ، وورق بن نوفل وهو ابن عم السيدة خديجة ، وكان يقيم بمكة ، ولعله المصنوع هنا

« فراح يسطر كتاباً هو الذى يسمونه القرآن ، وهو شريعة الله ، ناثراً فيه كل ما أودع من مروق . . فعمل فيه أن الله لا كلمة ، ولا روح ، وأن المسيح لم يكن رباً ، وإنما هو فى كبير وحسب . .

« وجمع فيه - أى القرآن - شتات قدر صيغهم من أمثال هذه الترهات ؛
« وعند ذلك أعطى كتابه لتلميذه « محمد » ، وأبلغ أولئك البلهاء أن ذلك الكتاب أنزل على « محمد » من السماء ، حيث كان فى حفظ « حبريل » الملك ، فصدقه بما قال ، وبذلك مكن الراهب لذلك القانون الحديد (١) .

من الخير ألا نقف عند هذا القول ، ولا فلتنت إليه . . ! فقد وقفنا أكثر مما ينبغى عند هذه المقولات الهزيلة المريضة . . التى ربما ينضح على النفس بعض صورها المنسكرة ، كما يقع ذلك لمن يكثُر مخالطة المجافين ، ويستمتع إليهم . . فلقد كادت تنمى إلى خواطر مضللة من هذا الخلط العجيب من القول . . وكدت أسأل نفسى . وماذا لو وقع هذا ؟ ألا يجوز أن يؤثر الأسناد تلميذه ويقدمه على نفسه ، فيعطيه ثمرة عقله ، وعصارة قلبه ؟ وهل احتفى الإيثار من هذه الدنيا ؟ لا ، إن الدنيا بخير !

وما أن صحوت من هذا السكابوس المجنون حتى ابتزعت نفسى اقتزاعاً من هذه الهوة المظلمة ، وأسالتها إلى الواقع المحسوس !

إن « ورقة بن نوفل » قد مات بعد قليل من بعثة النبي . . لم يشهد أحداث الدعوة ، ولم يدرك وقائعها ، فكيف يضمن القرآن الذى وضعه بين يدي « محمد » — كيف يضمنه أحداثاً لم تقع إلا بعد أن مات وصار تراباً فى التراب ؟ كيف يذكر هذه الأحداث التى كان ينزل بها الوحي فى حينها محمداً الزمان والمكان . .

فهذه غزوات النبي مثلاً . بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وحنين . . إنها مشاهد حية وقعت بين النبي والمسلمين من جهة ، وبين أعداء النبي والإسلام من جهة ، وقد سجل التاريخ أحداثها من أوثق المصادر ، بعد أن ذكرها القرآن فى حينها ،

وشرع المسلمين منها أحكاماً ، وكشف لهم عن كثير من خفايا هذه المواقع وما أصاب المحاربين من نصر أو هزيمة .

فهل كان قس بن ساعدة شاهد هذه المعارك في بدر ، وأحد ، والأحزاب وحنين ؟ لقد طواه الموت — كما قلنا — قبل ذلك بزمان غير قليل . فكيف إذن يذكرها في القرآن الذي وضعه لمحمد ؟

ثم هذه الأحداث التي وقعت من اليهود في المدينة ، والمكائد التي كادوا بها للنبي وللمسلمين . . لقد ذكر القرآن بئىء غير قليل من التفاصيل ما كان من اليهود ، وما نزل بهم من عقاب . . فهل شهد « ورقة » هذه الأحداث ؟ وهل شهد « ورقة » حديث الإفك ؟ وهل شهد واقعة ابن أم مكتوم وإعراض النبي عنه ؟ إن القرآن قد نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة ، فجعل تشريعاته وأحكامه في مواجهة الأحداث التي وقعت خلال هذه المدة ليرى الناس الشواهد العملية لأحكام الشريعة ، فيكون ذلك شرحاً للنص ، وتطبيقاً له ، وشاهداً به . . وفي هذا ما فيه من تمكين لأحكام الشريعة في قلوب الناس وعقولهم . . !

وأكثر من هذا ، فإن الكفار والمشركين كانوا يأخذون على النبي أنه لم يجهم بالقرآن جملة واحدة ، كما كانت المكتب السماوية تنزل من قبل ، فذكر القرآن قولهم هذا في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا تنزل عليه القرآن جملة واحدة ١١ ، (١) تم رد عليهم بقوله تعالى . « كذلك . . لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » (٢) ١١ فكيف يتفق هذا الذي كانت تطلبه الكثرة من النبي وهو أن يجهمهم بالقرآن جملة واحدة ، وهو يجهمهم به آية آية ، أو سورة سورة — كيف يتفق هذا مع القول بأنه تناول القرآن مرة واحدة من « ورقة بن نوفل » ؟

وصدق رسول الله إذ يقول : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ! فلو كان هناك بعض الحياء في تلك الوجوه التي لا يخذش حياءها شيء لما بلغت الجرأة إلى حد التجدي الصريح للمعاقبة السافرة ، التي يشهدها الناس ، ويرونها رأى الدين !

مع الجاهل والمبغضين :

على أن من العزاء للنفس ، من هذا السخف الذى يصادفه المرء وهو يقلب آراء الدارسين لشخصية الرسول من علماء الغرب — أن يحد في بعض هذه الدراسات عمقا ، وجدا ، ومقصداً إلى الحق ، وإن كانت تظهر في أحوال كثيرة بعض التفتتات المسمومة التي تعبر عن أحقاد قديمة متوارثة للإسلام ولنبي الإسلام — كذلك نجد دراسات كثيرة من بين هذه الدراسات قد تفرح أصحابها تماماً من العصبية والهوى ، فوضعوا النبي بمكانه اللائق به ، وأحلوا الإسلام بالمتزلة الجدير بها .

فإذا خرجنا من هذا الجو الخافق ، جو السكرامية ، والحق ، والمكذب ، والبهتان ، إلى هذا الجو النقي ، انطلقنا فيه لحظات قصيرة نبلغ بها ما نشاء ، حيث لا نقف عند تلك الحفر والأحاديث ، التي كانت تلقانا في جولاتنا مع تلك الجماعة الضالة المضللة !

لهذا فإننا سنكتفي بالنقاط بعض الثمرات الطيبة من آراء أولئك العلماء المحمدين المنصفين ، دون أن نعرض لها بالتعليق أو الشرح . فهي في ذاتها في غنى عن التعليق والشرح !

لا هاردين :

يقول « لاهاردين » شاعر أوروبا العظيم ، في كلمات قليلة بليغة ، مشحونة بعاطفة مشبوبة من الإجلال والإكبار لنبي الإسلام ، ولما أقام في الأرض من معالم الحق والخير . .

يقول :

« إنه — أي محمد — نبي أصغر من إله ، وأكبر من إنسان ، »

وهذا على ما فيه من حق ، فإن فيه من المغالاة ما لا يقول به مسلم في حق النبي . فإنه مهما يكن شأن النبي من السمو والكمال ، فإنه لا يقاس إلى جانب كمال الله وعظمته ، ولكن الرجل شاعر يجمع به خيال الشعراء ! !

ويقول الفيلسوف الألماني العظيم « جيته » ، وهو يستعرض الدين الإسلامى بوصفه نوره مهيبة ، ومؤدبة .

يقول مخاطباً « أكرمان » : أنت ترى أن هذا التعليم لا يخفق أبداً . .
ونحن — بكل مالنا من نظم — لا نستطيع ، بل أقول بوجه عام — إن أحداً من البشر لا يستطيع أن يذهب أبعد من هذا : (١) .

فهذا قول فيلسوف غزا العالم بفلسفته ، ولقح العقل الحديث بأرائه !

ول ديورانت :

وهو صاحب الموسوعة التاريخية « قصة الحضارة فى العالم » وقد كان موقفه فى هذا الآفى العالى الذى يطل منه على البشرية كلها — كان ذلك الموقف باعثاً له على أن يقتل فى نفسه كثيراً من دواعى العصبية والهوى ، لحجاء نظرانه وأحكامه قريبة من مواقع الحق والعدل . . وحسب السيرة النبوية أن تجد من يقف منها موقفاً محايداً : فإنه عندئذ سيعود بمخزن عظيم من المتاليات التى يرفعها للناس ، منارات للهدى ، ورايات للحق والعدل .

يقول « ول ديورانت » :

« وإذا حكمنا على العظيمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس — قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ . فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى ، والأخلاقى ، لشعب ألقى به فى دياجير الهمجية وحراره الجوى ، وجذب الصحراء . وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلاح آخر فى التاريخ كله .

« وفل أن نجد إفساناً غيره حقيقى كل ما كان يحلم به (٢) .

« وقد وصل إلى ما كان يبغيه عن طريق الدين . . ولم يكن ذلك لأنه

(١) تجديد التفكير الدينى الإسلامى ص ١٦ .

(٢) لم يكن النبى من أصحاب الأحلام ، وإنما كان مبعوث ، يحمل رساله سماوية ، ومطلوب منه أن يؤديها على أكمل وجه .

هو نفسه شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ! فلقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم ، وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ؟

« وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جرداء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عديدها ، متفرقة كلتها . . . وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة . . . وقد كبح جماح التعصب والخرافات . . . وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم : ديناً سهلاً واضحاً ، وصرحاً حلقياً قوامه البسالة والازفة القومية !

« واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة . وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم (١) » .

هكذا يقول في الاسلام ، وفي نبي الاسلام ، كل منصف : مسلماً كان أو غير مسلم ، لأن ذلك هو الحق الذى لا يتغير وجهه أبداً ، إذا استقبلته قلوب سليمة ، وعقول واعية مستبصرة !

ويقول . ول ديورانت « أيضاً عن حياة حياة النبي محمد » :

« وكانت حياة محمد ، فيما عدا النساء والسلطان (٢) غاية في البساطة . . . فقد كانت المساكن التى أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن . . . لا يزيد اتساعها على اثنتى عشرة أو أربع عشرة قدماً ؛ ولا يزيد ارتفاعها عن ثمانية أقدام : وسقفها من جريد النخل ؛ وأبوابها من شعر المعز : أو وبر الجمل . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية : تفرش على الأرض ؛ ووسادة من ليف .

(١) قصة الحضارة المجلد الثانى — الجزء الرابع ص ٤٧

(٢) حياة النبي كلها نسق واحد من البساطة والاعتدال ، ونظرة الغريبيين هموماً إلى النبي وإلى الشريعة الإسلامية في شأن تعدد الزوجات نظرة خاطئة ، وقد عرضنا لها في فصل خاص من هذا الكتاب . . . أما السلطان الذى يستنيه المؤرخ من البساطة التى كانت عليها حياة النبي فإنه سلطان روحى ، لا دخل للقوة المادية ، ولا المظاهر الدنيوية فيه .

« وكثيراً ما كان يتباهى وهو يخفف ثيابه : ويرقع ثوبه . وينفخ في النار ؛ أو يكس أرض الدار ؛ أو يحلب عنزة البيت في فئائه ؛ ويبتاع طعامه من السوق ؛ وكان يأكل طعامه بيده ؛ ويلبس ألبامه ١١

« وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير : وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان . . . (١) .

ثم يقول أيضاً :

« ولم يتعاط الخمر التي حرمها هو (٢) على غيره؟ . . . وكان لطيفاً مع العظماء ؛ بشوناً في وجد الضعفاء . . . عظيماً مهيباً أمام المتعاضمين المتسكين . . . متسامحاً مع أعرائه — ومع الناس جميعاً — . . . يشترك في تشييع كل جنازة تمر به . . . ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . . . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم الخاص . . . يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ؛ ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يحسد لديه من الوقت والقوة ما يمكنه من القيام به بنفسه .

« ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال ؛ رغم ما كان يرد إليه من البقية وغيره من الموارد . . . أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل ، ؟

« وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد . لا يطبق الروائح السكرية ، ولا صاعلة الأحراس ، ولا الأصوات العالية . . .

« ولكن لعله كان يشهر بأنه بهذه التصحية القليلة جهل كل تشريعاته تصطبغ بالصيغة الدينية الرهيبة (٣) .

(١) أهذه حياة أصحاب السلطان ؟ وكيف يقوم سلطان في صورة حياة متواضعة كهذه الحياة ؟ إن يكن سلطان فهو سلطان روي كما قلنا ، لا يفرسه صاحبه على الناس بمظاهر الزور ، ولا قوة الحند ، وإنما تفرسه أخلاقه ، وما يشع منها .

(٢) إن الذي حرم الخمر هو الله في كتابه الكريم ، وإن كان النبي قد حرمها على نفسه بفطرته قبل البعثة .

(٣) قصة الحصار ج ٢ / المجلد الرابع ص ٤٤ .

ستائل لين بول :

يقول هذا العالم الفيلسوف عن القرآن :

« إن أسلوب القرآن في كل سورة من سوره أسلوب أبى ، يفيض عاطفة وحياة .

« إن الألفاظ ألفاظ رجل أخلص للدعوة ، وإنما لا تزال حتى الآن تحمل طابع الحماسة والقوة ، وفي ثناياها تلك الجذوة التى ألقيت بها لأنها ألفاظ قدت من قلب إنسان يستحيل أن يكون منافقا ، وهذا القلب قلب رجل كان له أخطر الشأن في تاريخ الإنسانية » (١) .

فوستيل دو كو لا نتر :

يقول هذا المؤرخ الفرنسى ، فى الفصل الثانى من كتابه « التمدن القديم » :

« لم يتدخل المسيح بأى وجه من الوجوه فى أمور القضاء ، والتملك والإرث ، وما يخص المدنية من الأحكام ، ليعلم العالم بأن ابتداء المدنية الجديدة والحياة الجديدة ، والتربية الصحيحة ، سيكون من مدينة علم الإسلام ، الذى سيجعل العالم أهلا للعلم والمدنية » .

بار تلهى سفت هيلر :

يقول فى كتابه ترجمة القرآن : وهو يتحدث عن حال فومه الأوربيين :

« لقد أصلحت مفسدات أمرائنا وأشرافنا فى القرون الوسطى ، بمباشرة المسلمين ، وتقليدهم ، واقتبس فى أسلافنا من المسلمين الآداب الحسنة ، والأخلاق والصفات الجميلة ، والسجايا المحمودة » (٢) .

جوستان لوبون :

يقول هذا المؤرخ الكبير :

« لقد أثر التمدن الإسلامى على العالم تأثيراً محيراً للعقول ، ونفوذ الأخلاق

(١) محمد رسول الله - تأليف ابيبن ديبنيه ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود

(٢) ونقول : لقد أصبحنا نأخذ عن الغرب ، كل خلق مردول ، وكل صفة ذميمة .

فهل لنا من عودة الى مابع ديننا الحنيف ؟

الإسلامية وتربيتها قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية التي كانت تغلق راحة السلطة الروحية ، في طريق التمدن . ولقد فتحت أفكار المسلمين الجبارة ، أبواب العلوم والفنون والفلسفة ، التي كان الأوروبيون في جمل عنها ، وكان المسلمون أساتذتنا طوال ستمائة سنة .

كارليل :

ويقول الشاعر والأديب العظيم كارليل :

« إن القرآن هو التشريع الأساسي ، لكل زمان ومكان ، ومعدن القضاء ، وقوانينه المتبعة في شئون الحياة ، لتهدى وتنير الطريق لاتباعه ، فيجب على كل عاقل أن يفكر في آياته الحكيمة ، ليخلص بنوره من ظلمات الحياة . »

وليم هيود :

يقول هذا العالم الكبير في كتابه المسمى « حياة محمد » .

« إن القرآن ممتلئ بأدلة من الكائنات المحسوسة ، والدلائل المتعلقة على وجود الله ، وأنه هو الملك القدوس ، وأنه سيجزى المرء بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وإن اتباع الفضائل واجتناب الرذائل فرض على العالمين ، وإن الواجب على كل مكلف أن يعبد الله تعالى ، وهي — أى العبادة — صلة سمعده . »

صبورث اصهوث :

ويقول هذا العالم في كتابه « حياة محمد » أيضاً :

« إن محمداً لمؤسس أمة وعلمه هداية وهذا أمر لم يوجد له سبق من قبل ، وإن يوجد وهو أمي » لا يعرف القراءة والكتابة ، وقد جاء بكتاب منتمل على دستور الثرائع والعبادات وأخبار الأمم ، وهو نقي العبارة من الألفاظ المستهجنة ، بآهر الحكمة والحقائق ، وهو معجزة له ، والحق يقال : إنه لمعجزة . »

وهذا بعض ما تنطق به أفواه قوم قد رضوا من صغرهم كراهية الإسلام، وامتلات رؤوسهم بالمفتريات الكثيرة عليه . . ومع هذا فقد نفذوا ببسائرهم إلى شيء من حقائق الإسلام، فبددت ما كان قد لفها من ظلام، فشهدت شهادته الحق في رسول الله . وفي كتاب الله .

ثم ما قولنا نحن في رسول الله ، وفي كتاب الله ؟ ثم ما مدى ما تطوله أيدينا من هذا الخير العظيم الممدود لنا ؟

• • •

ونقف عندا القدر من الآراء المنصفة للسيرة النبوية ، وللرسالة التي حملها النبي إلى الناس . . .

وقد تركنا كثيراً من المفهومات الخاطئة لطبيعة النبوة ، ولرسالة النبي التي وقع فيها كثير من هؤلاء العلماء ، على الرغم ، ما كان عندهم من استعداد طيب . . حسب رأينا فيهم - للبحث عن الحقيقة في غير هوى أو عصبية . . ذلك أننا لانحاسبهم هنا على عقيدتهم الدينية ، فهم - أى أكثرهم - لا يعترفون في الأديان جميعاً ولا يؤمنون بما وراء المادة . .

ونظرتهم إلى الأنبياء نظرة قائمة على أنهم أصحاب دعوات إصلاحية نابعة من أنفسهم وليس بينهم وبين العالم العلوى صلة . . وكذلك كانت نظرتهم إلى « محمد » يرونه ممسحاً اجتماعياً عظيماً ؛ وإنساناً على مستوى عال من الخلق والعقل

وإذا كنا لانسلم لهم بهذا ، كما لا يسلم لهم الواقع التاريخي ؛ ولا يسمح به منطق الحياة التي دخل عليها الأنبياء برسالاتهم - فإننا نحمد لهم أنهم دفعوا كثيراً من هذه التهم الباطلة التي ولدها الحقد والكراهية في تلك القلوب المريضة التي تحمل للإسلام ولأهله بعة موروثة - فقد أكد هؤلاء الكتاب الأحرار الحقائق المقررة عن نبي الإسلام ؛ وعن رسالته ، ونفوا عن حمى نبوته تلك الأكاذيب الزائفة التي كانت تزحف عليها من متعصبة الصليبيين من الكهنة والحكام ؛ والبلهاء . .

فقالوا عن محمد ، ما قال التاريخ فيه ؛ وهو أنه أعظم لإنسان عرفته الحياة ؛ وأن شريعته أكل شريعة ظهرت بين الناس .

ويكفي أن نعيد هنا قولة « لمارتين » الشاعر الأوربي الكبير عن النبي الكريم ... يقول : « إنه نبي أصغر من إله ؛ وأكبر من إنسان ! »

دعوات الحق ؛ ونزوات الباطل :

وإذ كان لكفار قريش أن يلقوا النبي بالكذيب ، ويرمونه بالتهم ، ويقولون عنه فيما يقولون : إنه شاعر ؛ وإنه لمجنون ؛ أو إنه مدع كذاب - إذا كان لهم أن يقولوا هذا في النبي ؛ وأن يضلوا عن وجه الحق فيه أول ما يلقاهم بأمره ؛ وأنه تأخذهم الدهشة لهذا الأمر فيكذبون إنساناً عرف بينهم بالصدق ؛ ويتهمون رجلاً لقبوه بالأمين ، ولم يحاولوا أن يربطوا بين حاضره وماضيه ، وأن يوازنوا بين الحق الذي يدعوه إليه والباطل الذي هم فيه - نقول إذا كان لقريش أن تقف هذا الموقف من النبي أول الأمر ؛ وقبل أن تلجأ الأيام لسلامة موقفه ، وصدق دعواه - فإنه لا ينبغي لأحد له مسكة من عقل ؛ أو إثارة من وعي أن يمارى في رسالة محمد ، الآن وأن يشك في صدقه ، وفي نبوته ... !

فلقد انفسح الزمن لهذه الرسالة ، وعاشت في الحياة قروناً متتابعة ، ونزلت من قلوب الملايين من الناس وعقولهم منزلة الإيمان ، فعاشوا فيها ، وخضعوا لها وجرت حياتهم عليها ... ثم هي مع هذا تزداد على الأيام ألقاً ، وإشراقاً ، وتظهر في الأحداث والنكبات أنها الملاذ الذي يلاذ به ، والملاجئ الذي يلجأ إليه .. ويختبر الناس أفراداً وجماعات وأممًا وجودها فيهم ، وحالها معهم ، فيجدون أمراً واقعاً لا يتخلف أبداً ، على اختلاف الأزمان والأوطان - يجدون أنهم إذا كانوا قائلين على هدى هذه الشريعة ، متصلين بها ، آخذين بأمرها ونهيها - استقام أمرهم ، وعلا في الحياة شأنهم ، وكانوا في الناس هامة وشامة ! .

وأنهم إذا بعدوا عن هذه الشريعة ؛ وفارقوا حماها عصفت بهم الأحداث ؛ وركبتهم الذلة ، وتخطفتهم الناس ! .

فهم - عرف أصحاب الشريعة هذا ، وآمروا عن تجربة وخبرة ، وعن شهادة التاريخ القريب والبعيد أنهم بقدر قربهم أو بعدهم من الشريعة الإسلامية يكون حظهم من الحياة ، وتكون مكانتهم بين الأحياء .

ذلك أمر لا يحتاج في الاستبدال عليه إلى علم العلماء ، ولا إلى فلسفة الفلاسفة بقدر ما يحتاج إلى فطرة هادئة ، وقلب سلم من الحقد ، ليكنف عن مدلوله ، وليشهد شهادة لا ترد بأن الشريعة التي جاء بها محمدى شريعة سماوية عامة ، جاءت لتكون الحكومة التي يحكم إليها الناس على اختلاف أزمانهم وأوطانهم .

إن كفار قريش كانوا أكثر فقهاً وأحد بصرأ ، وأصدق تقديراً من أولئك العلماء أو أدعياء العلم الذين يشككون في نبوة محمد وفي رسالته التي جاء بها .

لقد دخل المعاندون ، والمكابرون ، والمكذبون من كفار قريش وغيرهم من العرب - دخلوا في دين الله أفواجا بعد أن لبثوا بضع سنوات يرقبون سير الدعوة ، وسيرة صاحبها ... فلما استبان لهم أنهم في وجه نبوة ، وأنهم مع رسالة سماوية ، ألقوا عن أعينهم غواشى الكبر ، والحمية ، فانحلت عقدة ألسنتهم وشهدوا أن الرسول حق ، وأن ما جاءهم هو الهدى المنزل من رب العالمين .

فن عجب أن يلبث هذا الضلال الذى كان محوماً في عقول من كذبوا النبي أول أمره - من عجب أن يلبث هذا الضلال متوارثاً ، يتلقاه الأخلاف عن الأسلاف . .

إن عصر العلم الذى نعيش فيه إنما قام على كشف حقائق الوجود ، وتجلية غوامضها ، كإقام على وضع هذه الحقائق بمكانها اللائق في هناهيج الحياة . والشريعة الإسلامية ، ونبي هذه الشريعة أبرز وأوضح ما عرفت الحياة من حقائق .

وشريعة الإسلام ونبي الإسلام يقفان من العلم موقفاً صريحاً واضحاً ؛ كما تقف ظواهر الطبيعة في أجلى صورها ، لا يحجبها كهنوت ؛ ولا يقوم عليهما سدنة ؛ فلذلك ذى بصر ؛ ولكل ذى بصيرة أن تملأ عينيه بهما ؛ وأن يرود بصيرته فيهما ، وليس يضير المعدن الكريم أن تتناول له أيدي الخبراء ؛ وأن تبلوه بمالديها

من وسائل الاختبار ؛ فإن ذلك المسؤل ؛ وهذا الابتلاء هو الذى يبين عن حقيقته ؛
ويجلى عن كرم معدنه !!

أما المعادن الرخيصة ؛ أو الزائفة فإنها تنكشف . ويمضح عوارها عند الحك
والاختبار ؟

فمن الذى المفضوح أن يقول فائل فى نبى الإسلام إنه أقام دولته على الخداع
والحتل ، أو نشر دعوته بالقوة والسيف .. فإن هذه كلها وسائل زائفة ، لا تنمى
جذورها . ، ولا تنضج أعوادها ، ولا يترغ لها زهر ، ولا يبنع منها ثمر ..

والإسلام قد عمقت فى الحياة جذوره ؛ وامتدت وعمقت فروعه ، ونضرت
أعواده ، وفتحت أكماله ، وطابت مغارسه ونمازه .

وهذا فيصل ما بين الحق والباطل فى كل أمر ، وفى كل شأن من شئون
الحياة المادية والروحية على السواء !

الكريم ، والأصيل من كل شيء يحيا ، ويمتد فى الحياة !

والحسب الدخيل من كل شيء .. دخيل على الحياه ... أشبه بالسراب
بحسبه الظمان ماء حتى إذا جاء لم يجده سيئاً .

ولله شوقى ، إذ يقول :

الجهل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة ، وإنما أخطاه عنصرها فأت ولیدا

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع
الناس فيمكث فى الأرض (١) .

النبى والتمنبى :

يقول ، كارليل ، فى كتابه من الأبطال :

أى يستطيع رجل مخادع أن يؤسس دولة ؟

ويجيب :

« كلا ، وربى !

« إن رجلاً محادداً لا يستطيع أن يقيم بيتاً من آجر ... لأنه إن لم يكن علياً
بخواص الطوب ، والمونة ، وسائر مواد البناء الأخرى لما استطاع أن يقيم بيتاً ...
وإن يقيم - إذا أقام - إلا أكواما منقضة ، لا يمكن أن تقوم اثنتى عشر قرناً^(١) .
تضم بن جدرانها ما يربو على مئة وثمانين مليوناً^(٢) من الناس .. إن بناء المحادد
يشهّر لاشك لساعته^(٣) . »

إن هذا القول الوجيز البليغ هو تليخيص أمين دقيق لقضية الباطل فى تلبسه
بالحق ، وتزييه بزيه . إن البناء الذى يقوم بيد الحق بناء راسخ مكين ، يزداد على
مر الأيام رسوخاً وتمكيناً ، وليس كذلك ما يبنى الباطل ، وما يقيم من معالم ...
لأنه بناء متداع ، تسرى فى أوصاله حمى الفناء منذ اليوم الأول الذى يقوم فيه .

يقول « جان جاك روسو » فى كتابه « العقد الاجتماعى » :

« كل إنسان يستطيع أن ينقش كلمات على حجر ، أو يرشو كاهناً وثلياً ،
أو يدعى اتصالاً سرياً بأحد الآلهة ، أو أن يدرب طيراً ليهمس فى أذنه ، أو يجد
وسيلة دنيئة للتمويه على الناس - إن من لا يستطيع غير ذلك يكون فى وسعه
أن يجمع حوله - صدقة - جماعة من الخمقى ، ولكنه لن ينشئ إمبراطورية
أبدية .. وسرعان ما يختفى عمله الجاهل معه !

« إن المظاهر الجوفاء لا تنتج سوى صلات عابرة ، وليس هناك ما يكفل لها

الدوام سوى الحكمة !

إن الشريعة اليهودية ما زالت حية !

١ ، بل قامت نحو أربعة عشر قرناً ، وستقوم ما بقيت الحياة ؛ وما بنى فيها من قرون .

(٢) ان من تضمهم جدران الشريعة الإسلامية اليه م أكثر من أربعمئة مليون من

المسلمين .

(٣) محمد رسول الله من ١٢٣٠

والشريعة الإسلامية التي حكمت نصف العالم مدى عشرة قرون (١) ،
ما برحت حتى اليوم تملأ عن عظمة أولئك الذين وصعواها (٢) ، وقد لا يرى
فيهم أولئك الذين أعمتهم الكبرياء الباجية عن الفلسفة ، أو روح التحيز العمياء .
سوى دجالين حسنى الخط ؟

ولكن السياسة الحسنة تعجب في أنظمتهم بتلك العبقرية العظيمة القادة التي
تنصدر المذنبات الخالدة (٣) .

لأنه لكي تنجح دعوة من دعوات الإصلاح لابد من أن تقوم على دعامين:
الدعامة الأولى : هي سلامة الدعوة ، وملاءمتها للطبيعة الإنسانية ، وتجاوبها
مع المشاعر السامية في الناس ، وتقديرها للضعف البشري ، الذي يعجز معظم
الناس عن مجاهدته ودفعه في أكثر الأحيان .

والدعامة الثانية : قوة الشخصية التي تتولى القيام على هذه الدعوة ، وشرح
حقيقتها ، وتطبيق مبادئها .

فبقدر ما يكون في الدعوة من عناصر الحق والخير ، وعلى حسب ما يكون
عند الداعي من طاقات روحية ، ونفسية ؛ يكون الثمر الذي يجني من هذه الدعوة ،
ويكون الخير الذي يصيب الناس منها .

ومن هنا كان ذلك النجاح العظيم الذي أحرزته الدعوة الإسلامية ، وكان
هذا المحصول الوفير من الثمر الطيب الذي عرفته الحياة ، وسعدت به الأمم .

ومصدر الدعوة الإسلامية ليس هو محمد ، وإن كان هو حاملها ،
والقائم عليها ، والشارح لحقيقتها . فالدعوة الإسلامية ليست من صنع محمد ،

(١) ذلك في الوقت الذي كان يعيش فيه جان جاك روسو ، أما اليوم فقد مضى على
الشريعة الإسلامية ما يقرب من أربعة عشر قرناً .
(٢) واضع الشريعة هو الله وحده ، وليست من وضع أحد ، كما يصح على ذلك معظم
أكتاب الغرب .
(٣) النقد الاجتماعي لجان جاك روسو ص ١٢٥ .

وليس من تكبيره وتدبيره . . لأنها من صنع السماء ، ومن تدبير رب العالمين .
أرسلها إلى الناس هدى ورحمة ، كما يرسل الغيث إلى البلد الجديب .

أما دور « محمد » في تلك الدعوة فهو دور الزارع المجد الخبير بمواسم
الزرع ، العليم بطبيعة النباتات . . . تلقى هذا الغيث الغدق فأقام له السدود ،
وأحرى الجداول ، وشق الأرض ، وألقى البذر ، وطل قائماً على مازرع ،
يحرسه من الآفات ، ويحميه من العاديات ، وينقيه من الحشائش الغريبة ، حتى
يخرج شطأه ، ويستغلظ ويستوى على سوقه ، ثم يزهر ، ويثمر أطيب ما عرفت
الحياة من ثمر .

هذا ما يقوله عالم متمكن ، ومؤرخ نصب نفسه لتاريخ الإنسانية كلها -
يقوله في « محمد » نبي الإسلام ، وفي الحياة التي كان يحيها ، والأثر الذي
تركه فيها .

أما ما يقوله عن القرآن فهو أيضاً قول رجل منصف متمكن من موضوعه
الذي بين يديه .

يقول د ول ديورانت « .

« والقرآن يبعث في النفوس الساذجة — أي ذات الفطرة السليمة —
أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها
تحرراً من الوثنية والسكنوتية .

« وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ،
وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي ، والوحدة الاجتماعية ، وحضهم
على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ،
ومن الظلم ، والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء . . وبعث في نفوس الأذلاء
الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والعدل عن الشهوات ،
لم يوجد لها نظير في أية بقعة من 'بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض .

« ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ،

بلا شكوى ولا ملل ، وبصمتهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهد التاريخ كله .

« وقد عرف الدين ، وحدده تحديداً لا يجحد المسيحي ، ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمتعه من قبوله ! » ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب ، والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء ، والضراء وحين البأس (١) . »

ثم يقول :

« ولم يعرف عن محمد ، أنه كتب شيئاً بنفسه ، ولم يكن هذا لم يحل بينه وبين المجيء بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفاً قلما يصل إليه أرقى الناس تعلماً (٢) . »

ومن نظرات ، ول ديورانت ، إلى القرآن قوله :

« لم يكن النبي مشرعاً علياً ، فلم يضع لأمته كتاباً في القانون ، أو موحراً فيه ، ولم يسن تشريعه على نظام مقرر (٣) ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف ، فإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض (٤) ، أزاله بوحى جديد ، ينسخ القديم ، ويجعله كأن لم يكن ؟ » .

❦ ❦ ❦

(١) سورة البقرة : آية ١٧٧ .

(٢) قصة الحضارة جزء ٢ ، مجلد ٤ ص ٢٢

(٣) يلاحظ عالياً أن الفلاسفة الغربيين يضيفون إلى النبي القرآن الكريم ، ويعملونه من وضعه هو ، لا وحياً أوحى إليه !

والحق إن « محمداً » لم يكن هو الذى رسم خطة التشريع السماوى للشريعة الإسلامية ، وإنما هى من صنع الله . زلت أحكامها بتدبير سماوى ، في مناسبات ربطتها بالحياة (٤) لم تقع تناقض في التشريع بحال أبداً ، وحاشا لله أن تناقض أحكامه ، ولكن التدرج في التشريع — وذلك ضرب عال من البرية الحكيمة — اقتضى أن تجيء الأحكام في خطوات متدرجة . . . واحدة بعد أخرى .

هذا ، وقد تتجمع الدعوة والداعى فى كيان واحد ، فىكون القائم على الدعوة هو المنشئ لها ، والمفكر فيها والمصور لحقيقتها .. وهذا شأن الدعوات التى لا يقوم عليها أنبياء الله ورسله ! .

فالمصلحون الذين ظهروا فى الناس بأرائهم ، وأعمالهم فى مجال الحياة السياسية أو الاقتصادية ، أو الاجتماعية ، أو الفكرية ، أو الروحية ، إنما اعتمدوا على شخصياتهم ، وما فى كياناتهم من قوى عقلية أو نفسية تدفعهم إلى ذلك رغبة فى الإصلاح ، أو منافع شخصية يجنون من ورأيها جاهاً أو سلطاناً !

وهذه الدعوات الإصلاحية المعتمدة على الجهد الإنسانى وحده دون أن تكون مستندة إلى السماء ، مهتدية بهديها . موجهة بوحياها - هذه الدعوات تنقسم بسمتين : (الأولى) أنها محدودة الزمان والمكان .. فإن صوتها مهما علا لا يتجاوز مدى المجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه صاحب الدعوة ، ولا يكاد ينفذ إلى ما وراء الحدود المكانية لهذا المجتمع ، إلا إذا كان فيه نعمة إنسانية يستنصرها الناس استشعاراً فيه ، وأنه إذا قدر لدعوة من الدعوات أن تتجاوز حدودها المكانية لمجتمعها فإنها لن تتخطى عصرها الذى ظهرت فيه . وأنها إذا تخطت هذا العصر إلى الأعصار الذى تليه فإن ظلها سينكسر حالاً بعد حال ، حتى يتبخر مع الزمن وتصبح تاريخاً من التاريخ .

(والثانية) من هاتين السمتين اللتين تنقسم بها الدعوات الشخصية أنها لا تسكاد تتجرد من الأهواء الذاتية ، ولا تسكاد تنفصل عن الدوافع الشخصية ، بل كثيراً ما ينتهى أمرها إلى أن تكون هوى خالصاً ، فتوجه بكلياتها وجزئياتها إلى خدمة الداعى : وتحقيق مآربه !

ومن الحق أن نقرر أن هذا أمر طبيعى ، فالناس هم الناس ، وحسب الذات طبيعة غالبية فى كل إنسان ، مهما غالب فى نفسه هذه الطبيعة ، ومهما حاول أن يعلو عليها بالمثل العليا ، التى يترسمها فى الإيثار والتضحية وغيرها ، لأنه سيقبل له مع كل هذا ذاته التى لا يمكن أن ينفصل عنها أبداً ، ولهذه الذات مطالب ونزعات لا تموت إلا بموته !

ومن هنا كان ذلك التمتع والتخطيط الذي يصحب الدعوات الإصلاحية القائمة على الإنسان وحده ، المنقطعة عن أمداد السماء .. إنها أنسبه بمجرى النهر؛ فدينبع من عين صافية رقراقة ، ثم بعد أن يخرج من منبعه يحتك بالجنادل والصخور ، ويتحلل الأعشاب والزورع ، فتعلوه الكدرة ، ويزايله صفاؤه الذي كان له !

أنبي أم عظيم ؟ :

ونعود مرة أخرى فنسأل : أحمد نبي أم عظيم ؟ أى أكانت دعوته صادرة عنه ؛ كما تصدر الدعوات عن المصلحين والعظماء ، أم كانت دعوته تلك التي قام بها من فروع آخر غير تلك الدعوات التي تعتمد على الجهد البشرى وحده ؟

من اليسير الواضح أن نجيب على ذلك السؤال من غير تردد ؛ بأن دعوة محمد ، كانت شيئاً آخر غير دعوات المصلحين من القادة والزعماء ، وأرباب الإصلاح من غير رسل الله وأنبيائه .. !

فقد اتسمت دعوة محمد ، بسمتين حلت منهما أية دعوة من دعوات الإصلاح البشرى .. فامتدت في الزمان والمكان إلى أبعد حد فيهما ، ولا تزال الأيام بعد مضي نحو أربعة عشر قرناً تزيد في امتدادها . ونحن نعرف أن الدعوات البشرية تطرّد اطراداً عكسياً في امتدادها مع الزمن . فكلما امتد بها الزمن انكسرت ، وتبخرت شيئاً فشيئاً ..

ثم من جهة أخرى قد خلت دعوة محمد ، من الدوافع الذاتية والأهواء الشخصية .. فلم يكن لمحمد في هذه الدعوة شيء لحسابه الشخصي ، وإنما خلصت جميعها لحساب الحق والخير الذي ينفع الناس جميعاً .. من كل أمة ، وفي كل جيل !

هذه حقائق ثابتة الدعوة الإسلامية ، لا تحتاج إلى إقامة البراهين عليها ، ولا مظاهر الحجج لها ..

فما وقف سير هذه الدعوة منذ قامت .. ولا حال بينها وبين غاياتها حائل من حدود الزمان والمكان !

وما وقفت الدعوة الإسلامية من صاحبها - محمد - عليه الصلاة والسلام -
موقفاً مميزاً له ؛ أو مترضياً لمصلحة ذاتية عنده !

فهذه هي الدعوة تزداد مع الأيام رقعتها على الأرض ، ويزداد أنصارها ،
وتتكشف للعالم كله أضواؤها ؛ فيحترف لها أعداؤها - راغبين - بأنها الشريعة
الصالحة للحياة الإنسانية ، على امتداد زمانها ومكانها !

وهذا هو نبي الإسلام والقائم على الدعوة . . يحمل أثقالها ، ويلقى من
أجلها ما يلقي من ألوان الازدي ، ثم إذا آتت أكلها . وكثر خيرها ، لم يأخذ من
ذلك شيئاً ، وعاش حياته على خبز الشعير ؛ لا يشبع منه وليس له من إدام إلا
الخل والزيت لا يجمع بينهما !

ثم هذا هو دستور الشريعة الإسلامية يضع « محمداً » حيث يضع الناس
جميعاً . . يعاتبه ، ويحذره ، وينصح له . . فما محمد بمعزل عما يوجب العقاب والتحذير
والنصح من رب العالمين . . يقول تعالى معاتباً لِنبيه : « عيس وتولى أن جاءه
الأنعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتستغفه الذكري ! أما من استغنى فأنت
له تصدى (١) » ، ويقول سبحانه في شأن أسرى بدر : « ما كان لنبى أن يكون له
أسرى حتى يشخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله
عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٢) » ، . .
ويقول سبحانه وتعالى لنبيه في شأن استغفاره لذوى قرباه . . ما كان للنبى والذين
آمَنُوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد - ما تبين لهم أنهم
أصحاب الجحيم (٣) » ، ويقول سبحانه وتعالى في هذا الشأن أيضاً : « استغفر
لهم ، أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله
لهم (٤) » .

(١) سورة عيس آية ٦-٦ .

(٢) سورة الأنفال آية ٦٧ ٦٨ .

(٣) سورة التوبة آية : ٢١٢ .

(٤) سورة التوبة آية ٨٠ .

أفلا كان ، محمد ، هو صاحب هذا التشريع أكان يضع نفسه هذا الموضوع ؟
أو كان يأخذها بهذا الزجر والردع على سماع الدنيا وبصرها ؟

إن عزل المشرع عن التدخل في وضع التشريع الذي يدعو الناس إليه ،
ويأخذهم به هو في الواقع أعدل سياسة وأحكمها في إنجاح هذا التشريع ، وفي
حمايته من الهزات والانحرافات ،

يقول « جان جاك روسو » :

« ورغم أن عمله — أي المشرع — هو تأسيس الدولة ، فهو ليس جزءاً
منها ، بل يقوم بوظيفة خاصة وسامية ، لا شيء مشترك بينها وبين حكم الناس . .
إذ أنه إذا كان من يحكم الناس يجب ألا يحكم القوانين . . فكذلك من يحكم
القوانين يجب ألا يحكم الناس ، وإلا كانت قوانينه خادمة لأهوائه ، ولا تؤدي
في كثير من الأحيان إلا إلى دوام مظالمه . . فهو لن يستطيع تجنب أن تؤدي
وجهات نظره الخاصة إلى انحرافه في عمله المقدس !

ثم يستشهد جان جاك روسو لهذا بوقائع تاريخيه ، فيقول :

« وقد بدأ « ليكوريوس » بالتخلي عن العرس عندما وضع القوانين
لوطنه » . ويقول :

« وكان العرف السائد بين معظم المدن الإغريقية أن تعهد إلى أجنب بوضع
قوانينها »

ثم يأخذ « روسو » في الكيف عن خطورة التشريع الذي يصادف مكاناً
من قلوب الناس وعقولهم ، وأن هذا لا يكون إلا إذا استند التشريع إلى قوة
سماوية ، وإلا إذا قام على أساس من الدين . .

يقول « روسو » :

وهكذا يبدو أنه يوجد في عملية التشريع شيئان غير متفقين : مهمة فوق
طاقه البشر . . تقوم بتنفيذها سلطة ليست شيئاً مذكوراً .

« إن الحكماء الذين يتحدثون إلى العامة بلغتهم — أى لغة الحكماء — لا يفهمهم العامة — فهناك الآلاف الكثيرة من الأفكار التي لا يمكن ترجمتها إلى لغة الشعب ، كما أن التطرف في التعميم ووجهات النظر البعيدة تسمو أيضاً على إدراك الناس . إذ لا يتذوق كل فرد غير نظام الحكم الذي يتفق مع مصلحته الخاصة ، ولا يقدر — إلا بمعوكة — المزايا التي تعود عليه من الحرمان المستمر الذي تفرضه القوانين الطبيعية . . ومن هنا كان المشرع لا يستطيع أن يستعمل القوة ولا الإقناع ، وعليه بالضرورة أن يلجأ إلى سلطة من نوع آخر ، سلطة تقود بلا عنف ، وتقتنع بلا حجة ! .

« وهذا هو السبب في أن آباء الشعوب اضطروا في جميع الأزمنة إلى الالتجاء إلى السماء ، وأن ينسبوا إلى الآلهة حكمة هي في الحقيقة حكمتهم هم ، حتى يقبل الناس الخضوع لقوانين الدولة ، كما يخضعون لقوانين الطبيعة ، ويرون في خلق المدنية السياسية نفس القوى العاملة في خلق الإنسان . فيطيعون بحرية ويتحملون في وداعة ؛ وطاعة السعادة العامة ! .

وهذا العقل السامى الذي يسمو على فهم العامة هو ما يضع المشرع أحكامه في أفواه الخالدين ، ليقدوا بوساطة السلطة الإلهية أولئك الذين لا يستطيعون التخلص من عجز الهالكين .

« ولكن لا يستطيع كل إنسان أن يجعل الآلهة تتكلم ، ولا أن يجعل الناس تعبدقه عندما يدعى أنه يتحدث باسمها . . فروح المشرع العظيمة هي التي يجب أن تكون دليل رسالته (١) . »

لو أن « محمداً » كان هو واضع الشريعة الإسلامية ، ولم يكن الله هو الذي نزل عليه كتابها — لكان كما وصفه « لامارتين » في قوله : « نبي أصغر من إله ،

(١) المفرد الاجتماعي لجان جاك روسو ص ١٢٣ .

وأكبر من إنسان ، ، ولما كان لمحمد أو لاتباع محمد أن يقولوا فيه ما قال النصارى
فى المسيح ابن مريم من أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة .

ولكن محمدآء يعرف حق المعرفة أنه بشر ، وأن الشريعة التى جاء بها ليست
من صممه ، وإنما هو رسولها ، ومبلغها إلى الناس . . . قل سبحان ربى هل كنت
إلا بشراً رسولاً (١) .

الباب الخامس

خاتم النبيين

« الله أعلم حيث يجعل رسالته »
« قرآن كريم »

- ١ -

داع من السماء ، يحمل بين يديه النور والهدى إلى الناس !
ورسول من الله ، يقوم بالسفارة بين الله ، وبين عباد الله !
ما ظنك أن يكون هذا السفير ؟ وماذا يرتسم له في خيالك من صور ؟
إن كثيراً من الناس قد ارتفعوا بمقام هذا السفير إلى أن يكون هو الله ذاته
« تجسد » في صورة بشر ، أو أنه « ابن الله » ، جاء إلى الناس في صورة إنسان !
وإن كثيراً من الناس أنكر أن يكون هذا السفير بشراً ، حين طنوا أن هذه
السفارة أكبر من أن تكون لبشر . . فكذبوا برسل الله ، وأبوا أن يعتمدوا
الوثائق التي بين أيديهم إلا أن يشهد عليها شاهد من السماء !! ، وقال الذين
لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا !! لقد استكبروا
في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا (١) .

وما رأيك إن كان هذا الرسول بشراً .. يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟
أتراه واحداً من عامة الناس من لا امتياز لهم في عقل أو خلق ؟ أم تراه
واحداً من هؤلاء الذين بسطوا سلطانهم على الناس بالسيف والقتل والغلب ؟ .
كلا فإنه لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ! إن حكمة الله تقضى بأن يتخير

(١) سور الفرقان آية ٢٠ .

لهذه السفارة ، خلاصة الإنسانية . وهامتها . فلا تصطفي لها في أى عصر إلا الرجل الأول في السجل الإنساني ، فيسكون هو الإنسان الذى تشمل فيه كمالات الخلق البشرى لعصره ، وهو بهذه الصفة يكون بالمقام الذى يسامت فيه الملائكة ، ويمافح الملائكة الأعلى . وهو بهذا المقام جدير بأن يكون وصلة ما بين السماء والأرض ، وسفيراً بين الله والناس .

— ٢ —

وذلك هو الشأن فى نبوة محمد ؑ !
لقد رشحته السماء لأعظم رسالة حملها نبي ، ولأكمل دعوه قام بها رسول !
إنه يحمل أحر كلمة من الله إلى الناس !
هى الكلمة الأخيرة . . الكلمة الخاتمة فيما بين السماء والأرض ! فليس بعدها كلام . . إنها الخاتمة !

وهو خاتم النبيين . ليس بعده نبي . . وليس وراءه بتيسر ولا نذير !
وإذ كان ذلك كذلك . . فإن لنا أن نقول إن محمد ؑ هو منتخب الإنسانية كلها . وهو مجتمع كالاتها فى أكل حالاتها وأتم صورها . .
ذلك لأنه جاء إلى الإنسانية حين بلغت رشدتها ، وحين أراد لها الله أن تستقل بوجودها وأن تستقيم على الطريق الذى يملئها تفكيرها . دون أن يقوم عليها من السماء رسول يدعوها إلى الله ، ويرسم لها مناهج الإيمان ، وقواعد السلوك !

إن الإنسانية — لعهد محمد — كانت قد تجاوزت طور الصبا ، وبلغت أشدها ورشدتها ... ، وهى بهذا جديرة أن تستقل بنفسها ، وأن تستهدى بما أودع الله فيها من عقل ، وبما حملت إليها السماء من وصايا .

قد كانت رسالات الرسل . . قبل محمد — رسالات محلية ، أشبه بالوصاية على الأفراد . يظهر الرسول فى جماعة من الجماعات ، أو قوم من الأقوام ، يقيم لهم وجودهم المموج ، ويضئ لهم طريقهم المظلم ، ثم لا يلبث أن يخلفه فيهم رسول يخلفه رسول وهكذا .

حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وأراد الله للناس أن يستقبلوا بوجودهم ، وأن يفكروا لأنفسهم ، بعد أن بلغوا الرشد وصاروا في عداد الرجال — كانت رسالة الإسلام ، وكان رسولها الأمين . محمد بن عبد الله . . رسول الله وخاتم النبيين ! ومن هنا ندرك السر في أن الرسالة الإسلامية كانت رسالة « عقلية » ، « منطقية » ، تخاطب العقل ، وتجيء لإقناعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين الاستدلالية ، التي يستقيم عليها تفكير الناس جميعاً ... عامتهم وخاصتهم على السواء !

إن الرسالة الإسلامية لم تستند إلى معجزة قاهرة تطفئ على عقول الناس ونفثال تفكيرهم ، ونضل لإرادتهم حين لا يملكون لها رداً ، ولا يستطيعون لها نقضاً . وإنما استندت إلى الكلمة وما فيها من عقل ومنطق . . فلم تطلب إلى الناس أكثر من أن يفكروا . وأن يستخدموا عقولهم المعطلة ، وأن يتقبلوا — في غير عناد أو تحرج — ما يتأدى إليهم من عقولهم ... فإنهم إن فعلوا ذلك فلن تبعد أيديهم وبين الرسالة الإسلامية شقة الخلاف ، بل إنهم والرسالة سيلتقيان على طريق واحد ، إذا فكروا وأخلصوا التفكير !

« قل إنما أعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مثنى وفردى ... ثم تفكروا » (١) . هذا هو عنوان الرسالة الإسلامية ، وهذا هو مفتاحها : استخدام العقل ، واحترام معطياته .

ليستعمل الإنسان عقله ليفكر فيما تحمل الرسالة الإسلامية من مقررات . . ليفكر وحده ، بينه وبين نفسه ، متأملاً ، متعمقاً ، أو ليفكر مع غيره ، يعرض الأمر ويقلبه . . مؤيداً . . أو معارضاً !

إنه في كلا الحالين سيصل إلى مقررات إن لم تكن حقاً خالصاً ، فهي أقرب شيء إلى الحق . . لأن العقل بطبيعته — إذا خلا من آفاب العناد والاستكبار — يذهب إلى الحق ، ويهتدى إليه ؛ لأنه شرارة من الحف وقبس من أقباسه ! فالعقل في مواجهة الرسالة الإسلامية محمول على أن يفكر ؛ وأن يتحرك

في كل مجالاته ، غير مقيد بشيء أو مشدود إلى شيء .. بل إن الرسالة الإسلامية لتغري العقل إغراء على التفكير ، بما تنادى به من دعوات عالية إلى إيقاظ العقل وتنبيهه ، وبما تقدم إليه من صور ، وما تفتح له من مجالات ؛ تدعو أكثر الناس ببلادة وغباء إلى استخدام عقولهم ، واستدعاء تفكيرهم ! وقل انظروا ماذا في السموات والأرض (١) .

ذلك على حين كان العقل قبل الرسالة الإسلامية بمعزل عن دعوات الرسل ، وبمنقطع عن معجزاتهم القاهرة ، التي لا تستقيم على منطق العقل ، ولا تدخل في معطيات التفكير !

لإنها أمور خارقة للعادة ، لا تقع إلا على يد رسول . فيقع بها الإعجاز القاهر ، ويقوم التسليم !! الإعجاز الغالب القاهر ، المنفجح للعقل . والتسليم القائم على الدهش ؛ والخيرة . والعجز !

وذلك هو شأن الأسلوب الحكيم في التربية ... فالصغير الذي لا يحتمل عقله أحكام المنطق . ولا يخضع تفكيره الصغير لمعطيات ما بين الأسباب والاسباب من روابط — من الخطأ البين . بل ومن القسوة عليه أن يؤخذ بمنطق العقل ، ويحمل على العقل .. وإنما الذي يصلحه ويصلح له هو أن يخاطب بلغة الحس ، وبمنطق المسادة .. فإذا نما عقله شيئاً ؛ كان من التدبير الحكيم أن يخاطب بأسلوب المنطق العقلي . والمنطق الحسي معاً ، وأن يزاوج له بينهما بنفس تسكر فيها العناصر العقلية كلها نماعقله ، واتسعت مداركه ، حتى إذا بلغ مبلغ النضج والرتد أمكن أن يكون عقله هو موضع الاعتبار في مخاطبته ومحاسبته .

والإنسانية — في تقديرنا — بدأت وجودها كما يبدأ كل كائن حي وجوده ، نبتة صغيرة ، ثم شجيرة لا زهر فيها ، ثم شجيرة مزهرة ، ثم شجرة مزهرة مشمرة !!

الرسالة الإسلامية إذن هي الرسالة التي أدركت الإنسانية حين بلغت رشدها ،

وحين رفعت عنها وصايا السماء ، التي أقامتها على الناس عن طريق أنبياء الله
ورسلة السكرام .

ونسواهد التاريخ تؤيد هذا وتشهد له . .

فالإنسانية لعهد « محمد » كانت في آخر مرحلة من مراحل سيرها نحو النضج
العقلي . . كانت بمثابة طفل قد درج في مدارج الحياة حتى بلغ مبلغ الرجال . .
وكان عليه بعد هذا أن يستوفى حظه من الحياة . وأن يأخذ مكانه فيها ، غير
مستند إلى أحد .

ودع عنك ما يقال من أن الإنسانية قد ارتسكت وردت على أعقابها
زمن البعثة النبوية . وأن الشر كان قد استشرى في الناس وأن الظلام قد أطبق
عليهم ، ولفهم في قطع كشيقة من الجهل والضلال ، وأن معالم الحضارات التي
أقامتها الإنسانية في وادي النيل على يد الفراعنة ، وفي بابل وآشور على يد
المكلدانيين والآشوريين قد ذهبت معالمها ، وضلت في ظلمات الجهل شواهداها ،
وحيت آياتها . . وأن لمعات العقل اليوناني التي أضاءت العالم القديم قد ذهب
الجهل بنورها ، وعقمت الحياة عن أن تلد سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو
مرة أخرى . !

دع عنك هذا . . فالدنيا بخير . . والحياة ولود ، لا يصيبها العقم أبداً . .
وهي سائرة إلى الأمام ، لا ترجع إلى الوراء بحال ! .

ربما قد تقع بعض النكسات في الحياة الإنسانية فتضطرب حياة الناس ،
وتسوء أمورهم . . ولكنها نكسات عارضة ، لا تلبث أن تزول ، وتعود إلى
الحياة طبيعتها ، وإلى الناس سلامتهم ! والرجل حتى في حال انعكاسه خيراً من الطفل
في حال صحته وسلامته !

ولا نريد أن نضرب الأمثال لهذا ، ولا أن نذكر مخلفات القرون من
العباقرة والعظماء ، ونعقد المقارنات بين أجيال الناس في الحياة لنعرف أن الحياة
تخطو نحو النضج العقلي ، والسكال الإنساني . لا نريد أن نضرب الأمثال لهذا ،
وحسبنا أن نشهد واقع الحياة في عصرنا هذا ، وما بلغ العقل الإنساني فيه من

قوه ، استطاع بها أن يخضع تلك القوه الهائلة من قوى الطبيعة ، وأن يتحكم فيها ، وبسيئرها على نحو لم تعرفه الحياه ، ولم يشهده الناس من قبل .

إن القرون الطويلة التي عاشها الناس على هذه الأرض لم يتمكن لهم من أن يستخدموها فوه البخار ، أو قوه الكهرباء ، ولم تفتح لهم الطريق إلى تحطيم الذرة ، وإلى بناء المراكب الكوكبية التي تدور الآن في فلك الشمس كما تدور الأنهار حولها .

إن هذه المتوحات العظيمة التي حققها العقل الإنساني في هذا العصر لم يكن الشهاده التي لا ترد على أن الحياه الإنسانية تنجح دائماً نحو الأمام ، وأنها تصيف كل يوم معارف جديدة إلى معارفها السابقة ، وأن رصيدها من المعرفة يزداد مع الأيام يوماً بعد يوم ! فبقدر ما تزيد الأيام في عمر الإنسانية يزداد رصيدها من العلم والمعرفة .

فإذا قلنا إن عصر النبوة كان هو العصر الذي بلغت الإنسانية فيه رصيدها ، وتخطت فيه مرحلة الطفولة والصبا ؛ كان لقولنا هذا مستند من واقع عصرنا هذا الذي يعد امتداداً لعصر النبوة ! فإن أربعة عشر قرناً في عمر الحياه الإنسانية لا تعد شيئاً إلى جانب عمرها الطويل . . وأن هذه الآف والأربعائة سنة منذ عصر النبوه إلى اليوم ليست إلا مرحلة أو بعض مرحلة من حياه الإنسانية ، وطوراً من أطوار وجودها !

فما بلوغه الإنسانية في هذا العصر من تقدم في مجالات العلوم والفنون ، وما أقامته من صروح للحضارة والمدنية هو في الواقع من صنع هذا الطور الإنساني الذي كان عهد النبوه إيذاناً ببدايته ، والذي قلنا إنه كان الطور الذي بلغت به الإنسانية أول مراحل الرجولة .

يتحدث الجاحظ في كتابه « حجاج النبوه » عن طبيعة الرسالة الإسلامية ، وأنها توجه إلى مجتمع يأخذ الأمور بجميعها بالعقل ، وينظر في أفعالها وما تؤول إليه . .

يقول : « كذلك وعيد محمد ، بنار الأبد وعيد موسى بنى إسرائيل بالقاء

الهلأاس على زرعهم ، واهم على أفمدمهم ، وتسليط الموتان على ماشيتهم ،
وإخراجهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم عدوهم . .

« فكان تعحيل العذاب الأدنى - أى القريب - فى استدعائهم ، واستئثارهم
وردعهم على ما يردىهم (١) ، وتعديل طباعهم كتأخير العذاب الشديد على غيرهم .
« لأن النديد المؤخر - من العذاب - لا يجر إلا أصحاب النظر فى العواقب
وأصحاب العقول التى تذهب فى المذاهب (٢) » .

يريد الجاحظ أن يقول إن دعوة محمد كانت إلى مجتمع عاقل مدرك ، ينظر فى
عواقب الأمور ، ولا كذلك كانت دعوة موسى التى تعامل مجتمعاً فى دور طفول ،
لا يأخذ الأمور من جانبها الوافى المعجل .

تنتهى من هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى . وهى أن « النبى ، الذى يجرى إلى
الناس فى هذا الطور من حياتهم ينبغى أن يكون أكمل الأنبياء ، لأنه فى فئة
الإنسانية فى طورها الذى بلغت فيه رشدها ! إذ كان النبى فى كل عصر ، وفى
كل أمة هو ممثل الإنسانية فى هذا العصر ، وفى تلك الأمة ، وهو خلاصة كل
طيب وجميل فيها ! وفى هذا يقول النبى الكريم : « بعثت من خير قرون بنى آدم ،
قرناً فقرنا ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه . . » .

على أننا لسنا فى حاجة إلى هذه المقاييس النظرية ، وتلك الاستدلالات
اللفظية لندند إليها فى الوصول إلى القول بأن نبى الإسلام هو « صفوة » الإنسانية ،
وهو منها بمكان الرأس من الجسد ، أو العقل من الإنسان ، !

لسنا فى حاجة إلى هذا ، فإن نبى الإسلام فى حياته ، وفى سيرته ، وفيما ترك
فى الحياة من آثار هو آية الآيات على الكمال ، الذى حوى الكمال البشرى كله !
وذلك ما شهد له به أعداؤه قبل أصدقائه ، فى كل عصر ، وفى كل أمة !

والحقائق التاريخية التى تتحدث عن سيرة الرسول حقائق ثابتة موثقة ،

(١) فى الأصل : يريد بهم : وهو لا يستقيم مع سياق الكلام

(٢) من رسائل الجاحظ ٢٤١

لا تقبل السك أو الجدل .. إذ كان نبى الإسلام فى المجتمع الذى طهر فيه بالمسكان الذى تحصى عليه فيه حر كاته ، وتعد عليه فيه أفضاسه ، على صورته لم يعرف التاريخ لها مثيلا فى حياة إنسان من الناس ، أو حدث من الأحداث !

ولله فى هذا حكمه وتدبير !

فقد أراد الله سبحانه وتعالى لتنبه الكريم أن يكون فى هذه البيته التى يسكنها الناس فيها كل شيء ، ويتعـرى للحياه فيها كل شيء ! بثمة عارية من كل مايستر أو يـك ، فلاقصور ، ولافلاع ، ولا حصون يستطيع من يعيش فيها أن يقيم له دنيا كما يشاء ويرضى ، دون أن يطاع الناس من أمره على دقيق أو جليل !

ولنما حياة البادية حياة عارية من كل هذا ، والناس فيها عراة أو شبه عراة . والحيام التى هى سكن الناس فى هذه المواطن لا تكتم سرا ، ولا ترد سمعا ولا بصرا .. لأنها أشبه بالتياب التى يرتديها الناس .. قد تنفع فى انتقاء الحر أو البرد ، ولسكنها لا تنفع شيئا فى الاحتجاب عن الناس ، والقيمة دونهم ! وكذلك تلك المدن الصغيرة التى قامت فى هذه البادية .. لأنها لا تخرج عن كونها مجموعة من الحيام ، وإن كانت جدرانها من الأحجار ، وسقفها من سعف النخيل !

هذه واحدة .. وأخرى .. هى أن أهل البادية فى فراغ عمل ثقيل ، وخاصة سكان القرى الذين لا يتغلون بتيء ، حتى برعى الإبل والغنم ! أما أهل مكة - البلد الحرام - فقد فرغ أهله من كل عمل .. الرعى يقوم به عبيدهم ، وغلبانهم والتجارة قافلة فى الشتاء إلى اليمن ، وقافلة فى الصيف إلى الشام ، يندب لها جماعة منهم .. والحرب التى كانت شغل سكان البادية لم يكن لأهل هذا البلد شأن بها ، لأنهم أهل بيت الله ، لا يعتدون ، ولا يعتدى عليهم !

فهذا الفراغ الذى يعيش فيه سكان البادية ، وسكان القرى بخاصة ، وأهل مكة بوجه أحص - هذا الفراغ الطويل الثقيل قد جعل الناس يشغلون بالتافه من الأمور ، ليقطعوا به الوقت ، ويحملوه مادة حية للحياة .. تمسك وحودهم فيها ، وتخيل إليهم أنهم جادون عاملون !

فإذا وقع في القوم حدث جديد التفتوا إليه جميعاً ، وقاموا له وفعدوا ، وإن يكن مثل هذا الحادث لا يانفت لإليه غيرهم من أهل الحياة الجادة العاملة ..

وشواهد هذه الحال قائمة في حياة الريف ، وسكان القرى . . فالناس هناك يجتمعون وينفضون لأقل نبأ أو حدث يقع بينهم . . فإنك لترى الناس جميعاً مشتركين في مداورة الأحاديث وتقليبها عن كل حدث يعينهم أو لا يعينهم .

فإذا ظهر في صحراء العرب ، نبي « فما ظنك بما يقع في حياة الناس من هذا الحدث ؟ تصور الجبال تتبادل مواضعها ، أو الشمس تغير مشرقها ومغربها . . أو تصور ماشئت من المذهلات والأعاجيب في الأحداث ووقعها على الناس ، فإنك إن نداني الصورة التي وقعت لقريش ومن حولها حين طلع عليهم ، محمد ، بقوله : إنه رسول . . رسول رب العالمين !

لقد وقع انقلاب شامل في حياة الناس ، فأخلوا أنفسهم من هذا الفراغ الذي كانوا فيه ، وفرغوا بكل جوارحهم ، وعقولهم ، وقلوبهم لهذا الحدث العظيم :

والذي يعني أن ن سجله هنا من هذه الظاهرة هو أن ، محمد ، كان منذ اليوم الذي أعلن فيه عن نبوته ، وكشف للقوم عن كلمة السماء إليه ، وهو يمثل حياة الناس في مكة ومن حولها . فرداً فرداً ، رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً ، لم يستطع إنسان أن يخرج بنفسه من هذه السوق التي لا تنقض أبداً . والتي لا يبيع فيها ولا شراء إلا تبادل الأحاديث في ، محمد ، ، وتداول الآراء فيه . .

ولك أن تحصى عيون أهل مكة وما حولها عيناً عيناً ، وآذانهم أذناً أذنًا ، وألسنتهم لساناً لساناً ، وأرجلهم رجلاً رجلاً ، وأيديهم يداً يداً ، ثم إن لك بعد ، هذا أن تصنيفها كلها إلى حساب ، محمد ، مدة الثلاثة عشر عاماً التي عاشتها في مكة قبل الهجرة والسنوات العشر التي عاشتها في المدينة بعد الهجرة . إن هذه الجوارح جميعها لم تكن تعمل خلال تلك المدة إلا لحساب ، محمد ، ، ومن أجل ، محمد . . له أو عليه . موالية أو معادية .

فهل تظن بعد هذا شيئاً يخفى على القوم من حياة محمد ، أو يفلت من بين أيديهم ؟

وهل تستطيع أن تقع على حدث في الحياة ، أو على شخصية من الشخصيات وقعت تحت ملاحظة الناس ، وتحت أسماعهم وأبصارهم ، وفي قلوبهم وعقولهم مثل ما كان محمد من أهل مكة والمدينة وما حولها .. لا أظن أحداً يحجب عن التاريخ القريب أو البعيد بساھد واحد يقوم لإزاء هذا الحدث أو يناديه !

فإذا أضفت إلى هذا ما كان من صحابة محمد ، وامتزاجهم به هذا الامتزاج الروحي والمادي ، في الحل والترحال ، في الحرب وفي السلم ، في المسجد وخارج المسجد ، في يقظته ونومه ، في طعامه وشرابه ، في حديثه وصمته . . في قيامه وقعوده ، في مزيه وركوبه - كان من كل أولئك أعداد لا تحصى لها من الوثائق والسجلات المتنامية المطابقة ، التي تسجل حياة محمد ، لحظة لحظة ، ونفساً نفساً وحالاً وحالاً !

ومرة أخرى .. هل تستطيع الحياة أن تأتي بمثل هذا التسجيل المكشوف لحياة إنسان من الناس ، أو واقعة من الوقائع ؟ هيئات هيئات . . فإن ذلك لم يقع ، وإن يقع إلا مرة واحدة من الناس . . هو رجل الانسانية وواحدھا !

وما وجه الحكمة في هذا ؟

نستطيع أن نجد لهذا التدبير السامى في شأن محمد ، على هذا الذي كان من كشف شخصيته للناس ، ووقوفهم على جميع أحواله - نستطيع أن نجد لذلك أكثر من وجه ، وأكثر من دلالة وحكمة . .

فأولاً : هذا الكمال الإنساني الذي اشتمل عليه محمد ، ينبغي أن يشهده الناس ، وأن يملأوا وجودهم به . إذ أنه ليس في الحياة مثل هذا الكمال البشري المتاح للناس أن يشهده ، وأن يأخذوا بحظوظهم كاملة معه ، فإذا أفلت منهم فلن يتقوها له مثال بعد هذا . وفي ذلك ما فيه تضيق لهذا الخير الكثير ، الذي يناله الناس من الاتصال به والأخذ منه !

أرأيت إلى الشمس كيف تسفر للباس ، بوجهها المشرق الرصع من مطلع الصباح إلى مهبط الليل ؟ ثم أرأيتها بعد ذلك تغذى القمر بأصواتها فتجعله حليفة لها بعد أن يحجبها الظلام ، ليبدو ظلمته ، ويزيل وحسه الحياة ؟

لأنها ووليدها القمر آيتان من آيات الله للباس ، ورحمتان من رحمته بهم ..
لأنهما أكبر من أن يكونا لامة من الأمم ، أو لجيل من الأجيال .. لأنهما للأمم جميعاً ، وللأجيال جميعاً .. لأنهما يسعان الحياة كلها في أعماها ، وأزمانها ، وفي كل ما من شأنه أن يحيا عليهما ، ويعيش بهما !

« ومحمد » في ذاته هو للإنسانية آية كبرى من آيات الله ، ورحمة شاملة من رحمته ، ومن حى اللباس في هذه الآية الكبرى ، ومن حقهم في هذه الرحمة الشاملة أن تنكشف لهم هذا الانكشاف التام ، وأن تسفر لهم هذا السفور المبين ، ليأخذوا بحظوظهم كاملة منها ، فيطلع فيهم طلوع الشمس ، يحيي الموات ويبدد الظلمات .. فإذا لحق بالرفيق الأعلى كانت سنته فيهم ، وسيرته معهم فرأى يؤنس وحسنتهم ، ويكشف معالم الطريق لهم !!

ونانياً : من وجوه الحكمة في كثف شخصية « محمد » وتجليتها للباس أن رسالة « محمد » كما قلنا من قبل رسالة عقلية ، تعتمد على الحجة الواضحة ، والمنطق القويم ، وأن « محمداً » وقف من هذه الرسالة وقفة المدافع عنها ، في وجه خصومة عديدة عنيفة ، قد اتخذ أصحابها من الكلام بصاعة وصناعة ، فكان لابد أن يكون « محمد » قائماً من وراء رسالته ، يدفع كيد خصومها ، ويدحض باطلهم ، ويكشف عن سفاهتهم وضلالهم !

ومن أجل هذا كانت الرسالة الإسلامية من بين الرسالات السماوية كلها رسالة « مدحمة » .. لم تنزل مره واحدة ، وإنما طلت نحو ثلاثة وعشرين عاما .
تنزل آية آية ، أو سورة سورة ، حسب دواعي الموقف ، وحاجات الناس .

ولو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لكانت مهمة الرسول سهلة ميسره ..
لذا تكون في هذه الحالة على صورة متعارف عليها ، بين أوليائها وخصومها ، وتسكون الخصومة فيها خصومة على واقع معروف ، وكان يكفي في هذا أن يدفع

النبي بها كامله إلى الناس ، ويدعهم وشأنهم بها ، أو يعيد تكرارها عليهم مرة ومرة ، دون أن يجيئهم بجديد يفتح باباً جديداً للعدل والخصام .

وكان نزول القرآن على هذه الصورة المجزأة ، وفي هذا الزمن المتطاوّل ، مقتضياً أن يقف النبي دائماً في يقظة وانتباه ، يتلقى اعتراضات الخصوم ، ويستمع إلى ادعاءاتهم فيديرها في صدره ، ويردها في خاطره ، ويترقب في لحظة وإشفاق كلمة السماء ، وما تلقى إليه من آيات ، يلقي بها القوم على الوجه الذي أراد الله سبحانه أن يلقاها به . وهكذا ظل الرسول طوال ثلاثة وعشرين عاماً في هذا الموقف ، بين السماء والأرض ، وبين الله والناس ، لم يفرغ لنفسه ساعة من ليل أو نهار .

مهمة شاقة عيینه ، وموقف صعب عسير ، لا يقوم على الوفاء به إلا من ربه العناية الربانية ، وأعدته الإعداد الكامل لهذا الأمر العظيم !

وطبيعة هذه المهمة تقتضى أن يتكئف حال « محمد » كله للناس ، وأن يكون كل وجوده فيهم ، فلا يلقاها من وراء حجاب ، ولا يجعل بينهم آذناً يفتح الباب ويفلقه . وإنما هو للناس جميعاً ، يلقيه في أى وقت ، وعلى أى حال يكون . . حتى لقد بلغ الأمر بالنبي وأهله أن أودوا في حياتهم الخاصة بما كان يطرقهم من الناس ، فلم يجدوا لحظة لطعام أو منام ، واستجيا النبي أن يرد الناس عن هذا الذي كان يؤذيه ، فتولى الله سبحانه وتعالى تنبيه الناس إلى هذا . فقال سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق ، (١) »

وثالثاً : من وجوه الحكمة في كشف شخصية « محمد » وتجليتها بين الناس أن الرسالة المحمدية ليس فيها معجزة من المعجزات المادية ، وإنما معجزته التي

بين يديه هي القرآن الكريم ، والمهجرة فيه شائعة بين آياته وسوره ، يعجز كثير من الناس عن إدراكها على وجه محقق . فإن ذلك يحتاج إلى نظر دقيق ، وبصر نافذ .

فكان لابد لكي تتضح هذه المهجرة القرآنية من أن يكون الذي يقوم عليها هو في ذاته معجزة ، في كالاته ، وفي مقررات دعوته التي يدعو إليها ، فإذا دعا إلى معروف ، أو نهى عن منكر ، رأى الناس في حياته تطبيقاً كاملاً واضحاً لما يأمر به أو يهيئ عنه ، وبهذا يرى الناس الدعوة في صورتها الكلامية ، وفي تطبيقها العملي .

هكذا كانت رسالة محمد . . تخير لها الله سبحانه من صور الكلام أصدق وأروع وأبلغه ، وهو القرآن ، وتخير لها من صور الأداء أتم صورة ، وأكملها . وأعد لها وهو محمد بن عبد الله .

وكثير من الناس آمنوا بمحمد قبل أن يتلو عليهم آيات الكتاب ، وقبل أن يسمعون كلام الله . آمنوا بما آمن به ، وتابعوه دون أن يسألوه شيئاً عما عنده من دلائل النبوة ومعجزاتها . . لأنه هو عندهم آية الآيات ، ومعجزة المعجزات في أمره كله . ظاهره وباطنه . وإن الإنسان العاقل الذي يعرف مواطن الخير وينشده حظه منه لنفسه ليرى في محمد الرائد الموفق لكل ما يدعو إليه ، فإنه لا يدعو إلا إلى الخير ، ولا يهدى إلا إلى الرشاد .

وقد كان إيمان السيدة عائشة بمحمد هو إيمان متابعة له وتطبيقاً لما عرفت منه وخبرت من أحواله : وعايذت من صفاته . في أمانته وصدقه واستقامته ، وعزوفه عن ديبات الأمور وسفاسفها . وهي - لصلتها بمحمد وبمخاطبتها له - أكثر الناس وأقدرهم على تعرف هذه الصفات واختبارها عن قرب ومدانة .

لما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء لأول مرة بالوحي اضطرب النبي لهذا الأمر وكرب له ، وذهب إلى خديجة وهو في هذا الحال ؛ فسأله ما به ، فلما أخبرها الخبر ، وقال لها : لقد خسيت على عقلي . . قالت له : أبشر يا بن عم ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . . إنك لتصل الرحم وتحمل

الكل وتسكب المدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ،^(١) ،
فاستدلت بكل عقلها وسلامة فطرتها ، أن الأعمال الصالحة ، والأحلاف
الفاضلة ، والشيم الكريمة تناسب أتكافها ، من كرامة الله وتأيدته ، وإحسانه ،
ولا تناسب الحزى والخذلان ،^(٢) .

وكذلك كان إيمان أبي بكر . . وكثير غيره من العقلاء الراشدين :
ففي حديث الإسراء كثير لفظ فريتس ، وعلت صيحات سمهاها تتردد في
أرجاء مكة . ترمي (محمداً) بالزور والبهتان . . ولسكن ألصق الناس به ، وأعرفهم
بحاله ، لم يزداهم ما أرجف به المشركون ، وما تخرس به المتخرسون إلا إيماناً
على إيمانهم ، من غير أن يسألوا النبي شيئاً ، أو حتى من قبل أن يلقوه وهذا الخبر منه .
روى عن عائشة رضى الله عنها . قالت : « لما أسرى بالنبي صلى الله عليه
وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدثون بذلك . فارتد ناس ممن آمنوا به
وصدقوه . . وسعوا إلى أبي بكر فقالوا : هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه
أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل الصبح ! ! قال : نعم . إني لأصدق
فيما هو أبعد من ذلك : أصدق به نخب السماء في غدوه أو روجه . »
وقد يقول بعض الناس في إيمان السيدة خديجة : إنه إيمان حب وطاعة ،
أدته المرأة المحبة المطيع لزوجها !

ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً مثل هذا في إيمان أبي بكر ، الذي كان
له من أصالة الرأي ، وعلو المسكان في قومه وألفة العروبة التي تملأ صدره ،
ما ينأى به عن أن يكون لمعة يتبع كل ناعف ، ويحب كل داع . إن أبا بكر حين
تابع « محمداً » عرف كثير من رجالات قريش وأولى الرأي فيهم أن أبا بكر
لا يتابع محمداً إلا عن حق بأن له ، وربما لم يستتب لغيره . وعن شواهد حال في
« محمد » جعلته يعلم له من أجلها بمقام النبوة ، من غير أن يطلب إليه شهاداً .

(١) الشفا ص ٧٠

(٢) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم جزء ٢ ص ١١٤

أو دليلاً .. لأن أبا بكر - عند قومه - بالمكان الذى يجعله أهلاً لأن يقضى فلايرد قصاؤه ، ويحكم فلا تدفع حكومته ، ولا يخرج أحد عن حكمه ، ولو كان ذلك فى أعظم الأمور شأنًا ، وأجلها خطراً . وما أن آمن أبو بكر وتابع محمداً ، حتى تابعه فى هذا الإيمان نفر من عرفوا فى قرين بالحكمة ، وسداد الرأى .

فمن آمن بدعوة أبى بكر من قبل أن يتعرف إلى دلائل النبوة ويثبت معها : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف .

وهؤلاء جميعهم من أهل الشورى الذين جعل « عمر » الخلافة من بعده فى واحد منهم ، وكانوا سبعة منهم على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر ، على أن يكون شريكاً فى الرأى لا فى الخلافة .

فإذا عرف أن هؤلاء السبعة الذين رشحهم عمر للخلافة من بعده هم الخلاصة الخاصة فى مجتمع الصحابة ، وكان خمسة منهم أسلوا على يد أبى بكر وبمتابعته عرف فصل أبى بكر وقدره بين الرجال .

نعم إن سيرة محمد كانت مروفة لهؤلاء النفر ، فهم أهله وعشيرته ، ولم يكن الذى عرف أبو بكر من أخلاق محمد بالذى احتص به دون قرين . فإن قرينما كانت تعرف من « محمد » مثل ما يعرف أبو بكر وغیره ، وكان يلتقب فيهم بالصادق الأمين . ولكن أبا بكر كان أسبق إلى التصديق بنبوة محمد ، وأففذ بصيرة فى ربط ماضى « محمد » بحاضره ، وفى استدناء النبوة من السكال البشرى الذى كان لمحمد .

ولهذا الذى كان يعرفه أهل مكة من صفات السكال فى « محمد » وجد أبو بكر لدعوته آذاناً تسمع بما يدعو إليه من أمر « محمد » ، إذ كان ذلك مسبوقاً بما قر عند الناس بما عرفوا من مكارم الأخلاق فى الصادق الأمين .

والقول بأن الإيمان السيدة حديجة ، بمحمد كان إيمان حب للزوج المحب المطاع قوله ينقضه إيمان أبى بكر بمحمد إيماناً مستمداً من أخلاق « محمد » ، ومن سيرته

فى قومه خلال أربعين عاما مضت من حياته ، لم تحرب عليه كدبة ، ولم يؤخذ عليه فيها عيب ، أو تلحق به تنائبة ...

ثم إن السيدة خديجة ، قد عرفت فى قومها بالعقل ، والحكمة ، والاعتزاز بشخصيتها ، واحترام نفسها ، وما كان لها أن تتابع « محمداً » عن هوى . وهى التى زهدت فى الزواج زمناً ، حين لم تجد الرجل الذى تراه كفتاً لها ، على كثرة من تقدم لخطبتها من سادات قريش وسراتها . ثم ما أن التفت « بمحمد » حتى رضيت به زوجها ، لامتصات الطيبة السكريمة التى تحدث بها الناس عنه . رخصتها هى فيه ، حين اتجر لها فى مالها ، فى رحلة من رحلات قريش إلى الشام .

ولم يكن هذا شأن من خالطوا « محمداً » وعاشروه من أهل وعديق ... بل إن ذلك كان شأن أهل النظر والبصيرة ممن يطالعون وجه « محمد » ، أو يلتقون أحبار محمد على السماع ، ويعرفون منها بعض الجوانب المشرقة من حياته ، وكل جوانب حياته مشرق وضئ !

حدث أبو سفيان بن حرب - على ما كان يريه وبين النبى من عداوة قبل أن يدخل فى الاسلام ، وما بقى فى قلبه من بقايا هذه العداوة بعد أن أسلم - حدث أبو سفيان هذا فقال :

« إن هرقل - ملك الروم - أرسل لى فى ركب فريس ، وكانوا تجاراً بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد (١) فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأثوه وهم بإيليا (٢) ، فدعاهم فى محله ، وحوله وجوه الروم ، ثم دعاهم . ودعا لترجمانه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى قال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسباً . . فقال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سأئل عن هذا الرجل - أى النبى - فإن كذبنى ، أى أبو سفيان - فكذبوه - .

(١) أى فى المدة التى كان قد جعلها صاحب الحديبية مرة سلام بين المسلمين وكفار قريش .
وهى عشر سنين .

(٢) بلد بأطراف الشام من جهة الجزيرة العربية .

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذبنا لكذبت عنه (١) ، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبته فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قلت : لا .

قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أين يدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون ،

قال : فهل يرتد أحد منهم من سخطه لدينه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تهيمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن معه في مدة (٢) لا ندري ما هو

فاعل فيها ؟

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم .

قال : فكيف كان قتاله إياكم ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا

وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ،

واتركوا ما يقول آبائكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف ، والصلة .

فقال لترجمانه : قل له ، سألتك عن نسبته فذكرت أنه ذو نسب فيكم ، وكذلك

الرسول تبعث في نسب قومها . . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى

(١) هكذا في البخاري ، والفعل « كذب » بتعدى على .

(٢) يقصد مدة الصلح

بقول قيل قبله .. وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت :
فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، . وسألتك : هل كنتم
تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن
ليذر الكذب على الناس . ويكذب على الله . وسألتك : أشراف الناس اتبعوه
أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . . وسألتك :
أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .
وسألتك أيرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدحل فيه ، فذكرت أن لا ،
وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك : هل يغدر ، فذكرت
أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : هم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم
أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبها كم عن عباده الأوثان ، ويأمركم بالصلاة
والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين .
وقد كنت أعلم أنه خارج (١) ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم كيف أخلص
إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه (٢) . ،

فهذا ما شهد به أبو سفيان — قبل أن يدحل في الإسلام — من أحوال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صفاته وشمائله ، التي كان عليها قبل أن
يوحى إليه ، وهي أحوال وشمائل قد استدل منها هرقل ، — على السماع —
على أنها أحوال وشمائل لا تكون إلا لنبي !

وعن الترمذي أن عبد الله بن سلام قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه
وسلم المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس
بوجه كذاب » .

وعن أبي رزمة التيمي قال : أنبت النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعى ابن لى ،
فأريته ، فلما رأته ، قلت هذا نبي الله ! .

وروى مسلم أن «ضاداً» لما وفد على النبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (٣)

(١) أى سيبت نبي في هذا الوقت

(٢) من صحيح البخارى

(٣) كان من سنة الوفود التي نفذ على النبي لإعلان الاسلام أن يقوم خطاؤها وشعراؤها بين
يديه ، يقولون ما أعدوا لهذه المناسبة . فيسب النبي من أصحابه من برد عليهم ، وكان
أحياناً ينولى هو ذلك — صلى الله عليه وسلم .

« إن الحمد لله ، نحمده و نثنيه ، من يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ... » ، قال ضاد : « أعد على كلماتك هؤلاء ، فلفظ بلغن قاموس البحر » (١) .. هات بذلك أبايعك ..

وعن الجلندي — ملك عمان — لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام ، قال والله لقد داني على هذا النبي الأسمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول أخذه به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يهزج ، ويفي بالعهود ، وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبي ..

لو لم تمكن فيه آيات مبنية كان منظره ينبيك بالخبر

محمد ... والوحي :

كان أ كبرهم أولئك الذين صوبوا سهامهم إلى سيرة النبي أن يقطعوا صلته بالسماء ، وأن ينفوا عن القرآن أنه كلام الله . وأنه كتاب سماوي لشريعة الإسلام ! .

ثم لا حرج عندهم بعد هذا في أن يسلبوا ولحمد ، بكل شيء . ليكون مشرعاً عظيماً... وليكن فاتحاً كبيراً .. وليكن مصلحاً ناعماً... وليكن كما يشاء ويشاء له أتباعه ، إلا أن يكون نبياً ، ورسولاً ، وإلا أن يكون كتابه منزلاً من السماء متلقى من رب العالمين .

وقد قلنا من قبل إن غاية هذا المسكر الحديث أن ينفي عن شريعة الاسلام صفة القداسة ، وأن ينزلها منزلة الشرائع والمذاهب الوضعية ، ليكون ذلك داعية إلى الجرأة على العبث بها . وجعلها في معرض التحريج والتعديل ...

هذا ويتخذ الغربيون من الحالات التي كانت تعترى النبي عند نزول الوحي

(١) قاموس الشيء عمقه ،

ذريعة للطعن في حقيقة الوحي ، والتشكيك في الصلة التي يمكن أن تكون بين
و محمد ، وبينه .

ومن عجب أن يعول الزريون في دراستهم لأحوال النبي مع الوحي على
الاحاديث والأخبار التي رواها الثقات من المسلمين عن الرسول أو شاهدها
منه عند الوحي — من عجب أن يكون هذا هو مصدر علمهم بالحالات التي
كانت تعرض للنبي ، ثم يجعلون هذه الأحوال دليلاً على نفي الوحي الذي كانت
هذه الحالات أعراضاً له . وشواهد عليه .

وقد يكون من المستساغ أن يخفى هؤلاء الغربيون أيديهم من الاحاديث
والأخبار التي تحدث عن الوحي ، وعن الأحوال التي كانت تعرض للنبي منه ،
ثم لينسجوا من مقولاتهم ما يشاءون للطعن في حقيقة الوحي ، وفي صحة ما يوحى
به .. فذلك على ما فيه من تلفيق ، وتزييف أقرب إلى المنطق من معالجة الحقائق
الثابتة ، وتحويلها إلى مخلوقات من الباطل الصريح ...

إن خلق الشيء ابتداءً أيسر من إقامته على أنقاض شيء آخر ... هو بناء
من أول الأمر ، ولو كان ذلك البناء على شفا جرف هار .. أما الخلق الآخر فهو
هدم وبناء معاً .. يهدم ثم يبنى ؟ الأول عمل واحد ، والآخر عملان ؟

والزريون كما عرفنا في مواقف كثيرة يختارون دائماً في محاربتهم للإسلام
هذا الأسلوب في خلق الأباطيل ، ورمى الإسلام بها .

فهم يعمدون إلى الحقائق الثابتة من أوثق المصادر الإسلامية ، ثم يتناولونها
كما يتناول الحيوان فريسته بمخالبه وأنيابه ، حتى إذا سال دمها ، وخمدت أنفاسها
وتناثرت أشلاؤها ، حاولوا أن يجمعوا من أشلاء هذه الحقائق كائناً آخر هو
هذا الباطل ، الذي يريدون أن يقيموه مقام الحق !!

وهم هنا في حقيقة الوحي يعمدون إلى الاحاديث المروية عن الرسول ،
والأخبار المشاهدة من أحواله مع الوحي ، ثم يصوبون إلى هذه الاحاديث
وتلك الأخبار سهاماً مسمومة ، يحرفون بها الكلم عن مواضعه ، لينسجوا الباطلهم
مكاناً يشوه الحقائق ويشوش عليها .

فمن الأحاديث والأخبار المروية عن الوحى الذى كان ينزل على النبى ،
والصور التى كان يأتى عليها ، والأحوال التى كانت تعرض للنبي منها . . من هذه
الأحاديث :

ما يروى عن السيدة عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه
وسلم : « كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : أحياناً يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ،
وهو أشده على ، ثم يفصم عني وقد وعيته ، وأحياناً ملك^(١) فى صورة الرجل ،
فأعنى ما يقول^(٢) » .

ويروى عن السيدة عائشة أيضاً أنها كانت تقول : « إن كان لينزل أى
يوحى — على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغداة الباردة ، ثم تفيض جبهته
عرقاً^(٣) » .

وعن عبادة بن الصامت قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه
الوحى كرب لذلك وتربد وجهه ، .

فالحالة التى كان يتلقى فيها النبى الوحى حالة تستدعى مجاهدة روحية ، ونفسية
وجسدية ، كى يتيح له هذه المجاهدة حالاً مناسبة للعالم الروحى الذى يتصل به . .
إنه لقاء بين طبيعتين مختلفتين . . طبيعة بشرية ، وطبيعة ملكية . ولا بد أن يحدث
هذا اللقاء احتكاكاً ، وتفاعلاً ، وفوراناً . . فى الطبيعتين على السواء . .

يقول ابن خلدون فيما يعرض للأنبياء عامة عند تلقى الوحى . . « وعلامة
هذا الصنف — أى الأنبياء — من البشر أن توجد لهم فى حال الوحى غيبة عن
الحاضرين معهم ، مع غطيظ ، كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين ، وليست
منهما فى شيء ، وإنما هى فى الحقيقة استغراق فى لقاء الملك الروحاني ، بإدراكهم
المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالملكة ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية :
لما يسماع دوى من الكلام فيتمهمه ، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء

(١) فى البخارى : وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً ، فيكلمنى فأعنى ما يقول .

(٢) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

(٣) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

به من عند الله ، ثم تنجلي عنه تلك الحال . وقد وعى ما ألقى إليه . . ويدركه أثناء ذلك من الشدة والخط ما لا يعبر عنه . . ففي الحديث : « كان مما يماج من التنزيل شدة » . وقالت عائشة : « كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفضم عنه ، وإن حبيته ليتفصد عرقا . . » وقال تعالى : « لانا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ، ويقولون : له رئي ، أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما ساهدوه من ظواهر تلك الأحوال (١) .

ثم يقول ابن خلدون : « وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، قد جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحظة . فطرة فطرهم الله عليها ، وجبلة صورهم فيها ، وفزهم عن موانع البدن وعوائقه ماداموا ملايسين لها بالبشرية ، بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحازون بها تلك الوجهة — أى الوجهة الممسيكية — وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تمكف بتلك الوجهة ، وتسيح (٢) نحوها . . فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا — بتلك الفطرة التي فطروا عليها ، لا باكتساب ، ولا صناعة . . فلماذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم ، وتلقوا في ذلك الملاء الأعلى ما يملقونه ، وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها ، لحكمة التبليغ للعباد . . فطرة يسمع دويأ كأنه رمز من السكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه ، فلا ينقضى الدوى إلا وقد وعاه ، وفهمه . وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي إليه رجلا فيكلمه ويعنى ما يقوله . . »

« والتلقى من الملك . والرجوع إلى المدارك البشرية . وفهمه ما ألقى عليه — كله في لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس في زمان ، بل كلها تقع جميعاً ، فتظهر كأنها سريعة ، ولذلك سميت وحياً ، لأن « الرحي » في اللغة الإسراع .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٨

(٢) في الأصل تكشف ، وسيف ، وهو تحريف .

« واعلم أن الأولى وهى حالة الدوى هى رتبة الانبياء غير المرسلين - على ما حققوه - أى العلماء - والثانية - وهى حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب - هى رتبة الانبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى ، وهذا معنى الحديث الذى فسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله الحارث بن هشام ، وقال : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحياناً يأتينى مثل صلصة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى ، فأعنى ما يقول . . . » .

ولما كانت الأولى أشده لأنها مبدأ الخروج فى ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر . . . ولذلك كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والعطية ما هو معروف . . . وسبب ذلك أن الوحي - كما قرناه - مفارقة البشرية إلى المدارك الملمكية ، وتلقى كلام الملك ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها ، وانسلاخها عنها من أفقها إلى الأفق الآخر ، وهذا معنى اللفظ الذى عبر عنه فى مبدأ الوحي فى قوله : « فغطى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى . فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء وكذا ثانية وثالثة ، كما فى الحديث .. »

وقد ينفى الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشياً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ، ولذلك كانت تنزل نجوم القرآن ، وسوره ، وآيه - حين كان بمكة - أقصر منها وهو بالمدينة .

« وانظر إلى ما نقل - أى روى - فى نزول سورة « براءة » فى غزوة تبوك ، وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه ، وهو يسير على ناقه ، بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السوره من فصار المفصل فى وقت ، وينزل الباقي فى حين آخر . . . وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهى ماهى فى الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن ، والذاريات ، والمدثر ، والضحي ، والعلق ، وأمثالها . . . (١) .

وواضح من هذا كله أن الأحوال التي كانت تظهر على النبي في وقت تلقى الوحي هي من مستلزمات هذا الاتصال الذي يقع بين إنسان ومملك .. بين طبيعتين مختلفتين ؛ يراد منهما أن يتلاقيا ، وأن يتجاوبا ..

والجدير بالنظر هنا ما لاحظته ابن خلدون من التفرقة بين حالات الوحي التي أشار إليها النبي حين سئل : كيف يأتيه الوحي ، فقال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني . وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعني ما يقول . ، فالحالة الأولى وهي حالة الإدري هي رتبة الأنبياء غير المرسلين — كما يقول ابن خلدون — والثانية ، هي حالة تمثيل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكل من الأولى . .

هذه بعض الأحاديث والآخبار التي روتها كتب السيرة في شأن الوحي واتصال النبي به ، والتي اتخذ منها الغربيون مادة لخلق المفتريات والأكاذيب ، للظعن في رسالة الرسول ، والتسكيك في صدق ما جاء به ، إذ كان عندهم أن ذلك الذي نطق به النبي وسماه قرآنا ، ليس إلا هذيان محرم ، وإلا نقيآت مصروع ، أو مجنون .

وشاهدكم على هذا ؛ تلك الأحوال التي كانت تعرض للنبي حين ينزل عليه الوحي ، ويلقى بما أمر الله به أن يلقيه إليه ١ .

وأعجب ما في هذا الموقف من أولئك القائلين بهذا القول أنهم يلتقطون من الآيات والأحاديث والآخبار كلمات يقطعونها من الكيان الكلي للحقيقة . ويمزولونها عن السياق الذي تجري فيه . ثم يبنون عليها ما يبنون من أوهام وأكاذيب !

والذي كان يقتضيه الأسلوب العلمي في البحث عن الحقيقة هنا هو التثبت أولا من هذه الآثار ، والوصول إلى حكم قاطع فيها وفي مصادرها .. أهى صادقة أم كاذبة .. ؟ ثم يأتي بعد ذلك دور التطبيق لها ، والتعامل بها .. فإما أن تقبل

جميعها ، أو ترد جميعاً . . أما أن يؤخذ من الخبر بعينه ، ويترك بعينه ، فذلك هو التانيق الذى لا تقوم به حقيقة أبداً ،

فهذه الأحاديث والأخبار التى يأخذ هؤلاء الكتاب تساهدهم منها . . ما رأيتهم فيها ؟ وما مقدار اطمئنانهم إليها ؟ أهى من الوثائق التاريخية المحررة فى نظرهم ؟ أم هى أحاديث موضوعية مكذوبة ؟ فإن كانت الأولى كان المنطق يقضى بأن يأخذوا بها ، وبكل ماجاء فيها ، وإن كانت الثانية طرحتها ، وبحشوا عن وثائق أخرى ، يجدون فيها الصدق الذى يطمئنون إليه . . أما أن يجعلوا هذه الأخبار بهذا المكان الذى تتلاعب به عواصف الأهواء ، فيؤمنون ببعضها ويكفرون ببعضها ، ويأخذون بعضاً ويدعون بعضاً ، حسب ما تدعو دواعى الهوى من أنفسهم فذلك أسوأ موقف يقف به عالم أو باحث . . وقد أنكر الله سبحانه هذا الموقف الخبيث من اليهود ، وتوعدهم الخزي فى الدنيا : والعذاب الشديد فى الآخرة .

فقال تعالى : « أفؤمنون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » (١) .

والخزي الذى توعد الله به اليهود فى الدنيا بسبب فعلتهم هذه ، هو خزي يمسبب كل من يقف هذا الموقف فى مواجهة الحق ، حين يقيم استدلالات الباطل على ما يختلس من معالم الحق .

الحق والباطل :

ولو أننا تركنا هذه المفتريات جانبا ، وضربنا صفحاً عنها ، دون أن نلفت إليها أو نلفت الأنظار إلى زيفها وزورها لما وقع عندنا أن أحداً يعقل - مجرد العقل - ويفهم - أدنى الفهم - يأخذ بهذه المقولات ، ويضيف شيئاً منها إلى سيرة النبي الكريم .

فإن أدنى درجات النظر إليها تمسحها ، وتكشف عوارها ..
وذلك ، أنها إنما استمدت حياتها ووجودها من مصادر إسلامية ، تؤمن
بالنبي ، وتؤمن بالرسالة التي جاء بها من عند الله ..

وليس يصح في عقل عاقل أن تجيء المصادر الإسلامية بما يتهم الرسول
بالصرع والجنون ! ثم إنه من جهة أخرى ما كان للتاريخ أن يحتفظ في صدره
بهذا السجل المصنم من الأخبار والأعمال المصروع أو مجنون ؟ وما كان لجماعة
من الجماعات الإنسانية أن تتعلق بمجنون أو مصروع هذا التعلق ، وتفتديه بالمهيج
وبالمسال والولد !

يكفي هذا وحده في فضح هذا الزور . وللباس أهله لباس الخزي والذي ألبسه
الله اليهود الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه !

« وما صاحبكم بمجنون » .

لقد استخزي بعض من كتاب الغرب أن يقف هذا الموقف الاحق ، وأن
يبدى للناس عارياً لا يستره شيء في ضوء الشمس وفي رابعة النهار .. فإن الذي
يجعل القرآن أو الحديث دليلاً ومستنداً ثم يعود إلى هذا الدليل والمستند فيمزقه ،
ويلقى به في عرض الطريق أشبه بمن يلبس حلة زاهية معجبة يخرج بها على الناس
ثم ينزعها عن جسده ، ويرمى بها في التراب ، ولو أنه خرج إلى الناس عارياً من
أول الأمر لكانت فعلته تلك أقل شناعة ، وأهون خطباً .. ولوجد .. على أقل
تقدير - من يعتذر له أي عذر .. كأن يقول قائل : مسكين ! ليس عنده مايستره !
أو خائف مذعور أعجله الخوف والذعر عن أن يرتدى مايستره ! أما أن يكون
وملابسه تأخذ مكانها من جسده ، ثم ينزعها ، وينخلع عنها ، لا لشيء إلا لأنه
لا يريد لها - فذلك هو الضلال البعيد ، والخزي المبين !

ولذا كان كثير من كتاب الغرب قد استبدت به حمى الكراهية للإسلام ،
فلم يبال أن يضحي بحيائه ، ولم يستنكف أو يعجز من ملابسه على أعين الناس ؛
فإن بعضاً من الكتاب الغربيين لم يحدوا في قلوبهم الجرأة على أن يفتقروا هذا الموقف ،

وأن يدعوا على رسول الإسلام أنه مصاب بالصرع والجنون . فائمين شهودهم على هذا الادعاء من كتاب الله وسنة رسول الله ! .

فهذا الكاتب الفرنسي : « لميل درمنجم » يقول في كتاب « حياة محمد » في معرض الحديث عن الصرع أو الجنون الذي يرميه به إخوانه من كتاب الغرب - يقول :

« غفل المشغولون بأمور النفس الحصريون الذي افترضوه - أى القرآن - من الصرع ، والاستيحاء ، والخيال المتقدم - غفلوا عن حياة الخيام في الصحراء ، وعما يجب أن يبديه الرجل فيها من الخلق والدهاء لينقى زعماً بسيطاً لعصبية من الأعراب .

« حياة محمد مستظمة ، موزونة . قبل بعثته بما يشمل النظر - أى في جميع أموره كلها التي تقع تحت الملاحظة والنظر - وما انفكت تكون كذلك بعدها إلا في حالات الوحي » .

ثم يحىء الكاتب بشاهد من التوراة ، لحال نبي من الأنبياء في حال الوحي وما كان يعتريه في تلك الحالات من تيارات جسدية ونفسية .. يقول :

« قال أرميا : « انسحق قلبي في وسطى ، ارتخت كل عظامي ، صرت كإنسان سكران ، ومثل رجل غلبته الخمر ، ومن أجل الرب ، ومن أجل كلام قدسه » . ومثل هذا ما قاله « عاموس » المدثر ببردته كمحمد » .

ثم يقول :

« ولم تنشأ رؤى محمد ووسنيه عن مرض فيه ، بل كانت تبدو عليه علائم المرض بسبب الرؤى والوحي » .

ويقول :

« وهناك عوارض مشتركة بين مريض الأعصاب أو المهوس ، وبين الموحى إليه الصادق : الأول منفعل غير فاعل . والآخر مبدع فاعل ..

ويقول :

« والحق أن ، محمداً ، كان مبرأ من مثل هذه الأمراض على الدوام ، فقد كان تام الصحة إلى أن بلغ سن السكال ، ولم تبدأ العوارص عليه بعد هذه السن إلا عند تقبل الوحي .

« وكان لمحمد بالوحي آلام كبيرة . وكان لمحمد بالوحي حالات مؤثرة ، كره أن يطالع الناس عليها ... ولاحظ أبو بكر ذات يرم - والحزن ملء قلبه - .
« النبي في الحية النبي ، فقال له النبي : « شيبتي هود وأخواتها : الواقعة ،
« الخافعة ، والقارعة ، .

« وكان النبي يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه ، فيطبه بالمراهم . وكان يتدثر
« حين الوحي فيسمع له غطيط وأنين (١) .

هذا ما يقوله إميل درمنجيم في كتابه « حياة محمد ، ... !

ولا تحسبن أنه يكتب عن محمد بماطمة من عواطف الحب والولاء لهذا
النبي العظيم ، بل إنه لا يقل عن غيره من كتاب الغرب تعصباً على الإسلام
ونبي الإسلام ، فإن كتابه هذا مليء بالغمزات المسمومة ، والوخزات المخدرة .
ولسكنه هنا أمام هذه الحقيقة السافرة لم يستطع أن يخفى تحت أضوائها شيئاً . .

ولا نريد أن نعيد القول مرة أخرى في دفع هذه المفتريات التي افترها
الغربيون على رسول الله . وصوروا بها الحال التي كانت تعرض له عند الوحي .
فإن هذه المفتريات كما قلنا ، لا تنمساك عند تقليدها والبحث فيها ، بل إنها لتنهار
كما ينهار بناء من الرمل على الرمل .

أعجبون مصروع يبنى دولة ، ويذشر نظاما ، ويقم ديناً يعيش في أجيال
الناس ، منذ قام إلى اليوم ؟ دون أن يصاب بنكسة أو خلل ؟ أعجبون مصروع
يثبت لهذه العواصف العاتية المزعجة وحيداً في وجه أمة صحراوية النفوس ،
صخرية الطباع ، ثم لا يكون منه في حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول
هذه العواصف إلى أنسام عذبة ، وريح رخاء ؟

(١) حياة محمد لأميل درمنجيم . . ترجمة عادل زعير . ص ٢٨٢

أجنون مصروع ذلك الذى يحمل تلك الشعلة السماوية المقدسة بين يديه ،
ثم يلقى بها الأعاصير الهوح .. هكذا أكثر من عشرين عاما حتى تبدأ العاصفة ،
وتسكن ، ويجتمع الناس على أضواء تلك الشعلة ، ويقبسون منها ؟

ثم !

تم أجنون مصروع مختلط هذا الذى يأسر قلوب معاشره ، ويملك أنفسهم ،
فإذا القلوب خافقة بحبه ؛ وإذا النفوس لاتعرف غذاءها إلا من يباع الحب
والولاء ، والتفانى ... ؟؟

إن التاريخ لا يذكر فى سجله يوما أن إنساناً كان له فى الناس رصيد من
الحب والولاء ما كان لمحمد من ولاء وحب !

فى بيعة الرضوان ، ومعسكر الرسول بالحديبية ، يريد دخول مكة ؛ زائراً
للبيت الحرام - بعث قريش عروة بن مسعود الثقفى ، ليجد مع النبى سبيلاً
إلى الخروج من هذا الموقف . إقالنى والمسلمون معه يريدون دخول مكة ،
وقريش تأبى عليهم ذلك . . وقد التقى عروة بالنبى . وتحدث إليه ، ورأى عن
قرب ما للرسول الكريم عند أصحابه ، وما فى نفوسهم من حب وولاء . لا يتوضأ
النبى إلا ابتدروا وضوءه ، ولا ييصق بصاقاً إلا قسبوا إليه ، ولا يسقط من
شعره شيء إلا تهافتوا عليه ، رأى عروة هذا رأى العين . . فلما عاد إلى قريش ،
قال : يامعشر قريش : إني قد جئت كسرى فى ملكه ! وقبصر فى ملكه ؛
والنجاشى فى ملكه ، وإني والله مارأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد ، فى أصحابه
ولقد رأيت قوما لا يسلووه لشيء أبداً . . فروا رأيكم ، (١) .

وخذ هذا الحادث شاهداً مع الآلاف المؤلفة من أمثاله :

وقع خباب بن عدي فى يد قوم من أعداء المسلمين قبل الفتح ، وأراد
هؤلاء القوم (٢) أن يتقربوا إلى قريش بهذا الأسير ، وبصاحب (٣) له ، ليكون

(١) السيرة لابن هشام جزء ٣ ص ٥٦

(٢) هؤلاء القوم هم حى « عضل والقارة » من قبيلة فزارة ، وبضر الل بعدتهم .

(٣) صاحبه هو زيد بن الدثنة .

فى ذلك بعض الشفاء لما فى قلوبهم من موقعة بدر ، وصرعاهم فيها . . . وحين
قدم خباب للقتل ، قال له أبو سفيان : « أيسرك أن « محمداً » هـا ، تضرب
عنقه ، وأنت فى أهلك ؟

فقال خباب :

لا ، والله مايسرنى أنى فى أهلى ، وأن « محمداً » فى مكانه الذى هو فيه ،
تصيبه شوكة تؤذيه (١) . .

فانظر إلى هذا الحب الذى لم تعرفه الحياة من قبل ! .

رجل بن الطمع والسيف ، يهيج فيه أبوسفيان غريزة الحب للأهل والولد
فى تلك الساعة ، والموت منه بمصرده ؛ على أن يكون « محمد » مكانه فى ساحة
الموت ، فيندفع خباب يهدير فى غيظ وحنق : لا ، والله . . لا أرضى أن يكون
محمد فى مكانه وتصيبه شوكة تؤذيه .

أهذا هو ميزان المجانين والصرعى فى حساب الإيثار والتضحية ؟ إن يكن
ذلك هو الواقع فمرحى بالجنون وبالصراع .

ثم هناك شاهداً آخر ، ربما كان أكبر فى دلالة على معنى الإيثار والحب
مما فعل « خباب » وإن كان المبدول هناك النفس ، والمبدول هـا حركة من حركات
النفس المطوية على أسمى معانى الإيثار ، والحب ، والولاء .

فهذه « أم حبيبة » زوج النبي ، وبنت أبي سفيان ، يلقاها أبوها فى منزل
الرسول بالمدينة ، قبل أن يدخل الإسلام ، وقد جاء موفداً من قريش ليوثق
الهدنة التى كانت بين قريش وبين المسلمين ، وليزيد فى أمدها .

وليس هذا هو المهم فى الأمر ... وإنما المهم هو الآتى :

عندما دخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة ، زوج النبي ، أراد أن يجلس ،
ولم يكن غير فراش الرسول شىء يمكن أن يصلح للجلوس — فهم أن يجلس

على هذا الفراش ، ولسكن ابنته ردتة عمه وطوته دونه ، فقال : يا بنية . . ما أدرى ... أرغبت في عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك . . نجس ! ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر (١) ؟ » .

أفهدا لإخلاص وحب تبذله امرأة لزوح مختلط أو مجنون ! فلا تمكن أحداً أن يجلس على فراشه ؟ ومن هذا الأحد ؟ إنه أبوها ، ومن هذا الأب ؟ إنه أبو سفيان ، سيد سادات قريش ، وصاحب عيرها ، ونفيها . . . تم بعد هذه الغيبة الطويلة التي لم يرف فيها إلا به أباه ، السيد المطاع ! إن حرارة اللقاء بين الإبنة والأب لم تذهلها عن هذا الذي يقوم في نفسها من فارق كبير بين إيمانها بالرسول الزوج ، وحبها لأبيها الزعيم !

وخذ مثلاً ثالثاً ، وما أكثر الأمثال هنا . . . ولسكن هذا المثل فريد في بابه ، ولا فطن أنه يقع على تلك الصورة إلا في هذه الحالة التي وقع فيها .

فالمرأة هي المرأة دائماً في موقفها من ضررتها ، لا ترجع في خصوصيتها لضررتها أو ضررتها إلى عقل ، ولا تحتكم إلا منطق ، ولا تنفي إلى حق . . وإنما هي عداوة دائمة بسبب وبلا سبب ، وحصام متقد بحق ، وبغير حق . . إن المرأة هنا تدافع عن وجودها بكل سلاح . . . فمن غير المعقول أن تستحلب المرأة ضرة لها تشاركها حظها من زوجها . . . ولسكن هذا هو الذي حدث . . وقد حدث على نحو غريب فريد . . أشبه بالخوارق من الأمور .

وأم حبيبة ، زوج النبي وبنت أبي سفيان هي صاحبة هذه الواقعة !

جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعرض عليه أن تزوجه من أختها (رمة) بنت أبي سفيان . . . فقالت : يا رسول الله . . هل لك في أختي . . بنت أبي سفيان ؟ فيقول الرسول الكريم : « أفعل ماذا ؟ » فتقول : « تزوجها » !

فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « أو تحبين ؟ » فتقول : « ليست بمخلية »^(١) وأحب من يشاركني في الخير أختي ؟ فيجيبها : « فإنها لا تحل لي »^(٢) .

لأنه حير كثير يتلقاه بعير حساب من يعيشت في صحبة الرسول ، ويسكن إلى جواره ... وقد سعدت أم حبيبة بهذا الخير الوفور ، وفاض بين يديها ، وملائم عليها وجودها ، وهي واحدة من نساء تسع كن يشاركنها هذا الخير ، إلى جانب هذا المجمع الكبير من صحابة رسول الله ، الذين كانوا يردون موارد العذبة الصافية ويرتوون منها . . ومع هذا فقد كان في هذا الخير القدق متسع ل هؤلاء جميعاً ولغيرهم . فأرادت أم حبيبة أن يكون لأختها نصيب من هذا الخير ، وحظ من تلك السعادة

وليس الخير الذي تريد أم حبيبة أن تنال أختها منه هو من حظوظ الحياة المادية ومتعها . فقد كانت الحياة المادية في بيت الرسول حياة قاسية فيها جوع ، وحرمان كثير . . وكان ما في بيت أبي سفيان من مطالب الحياة شيء كثير ، وليس في بيت النبی شيء منه . و « أم حبيبة » عرفت الحالين . . حالها في بيت أبيها ، وما ذاقته فيه من ألوان الحياة الرخية الناعمة . . فهل كانت تطلب لأختها التي تود لها حياة أطيب وأكرم من حياة أبيها — هل كانت تطلب لها إلا هذا الغذاء الروحي الذي ذاقته هي عن قرب ، وعرفت ما يجد الإنسان فيه من سعادة غامرة ، ونعيم سابغ ؟

وهل يجد أحد في جوار مجنون أو مختلط شيئاً يستريح له ويمناً به ؟ أيعرف الناس شيئاً من هذا قد وقع في الحياة على تلك الصورة من مجنون أو مصروع^(٣) ؟

نعم . . إن علماء الغرب قد أفتاهم علمهم بهذا في موقفهم من نبي الإسلام ، ودراستهم لأحواله في أصنى ساعات حياته — وكل حياته صفاء — وهي ساعة اتصاله بالوحي ، وتلقيه كلمات رب العالمين . . ١

(١) أى أنها لا تحل مكانها ، بل تظل حيث هي في مكان الراج للرسول .

(٢) زاد المعاد جزء ١ — ص ٥٦ .

ثمار الصرع والجنون :

وإذا غفرنا لعلماء القرون الماضية أخطاءهم المتعمدة أو غير المتعمدة — في تخريب جهاتهم للعوارض الجسدية التي تعرض للمخاض والصرع ، وفي خلطهم بين حالات الصرع والجنون ، والحالات التي تشرق فيها النفس حين تلبسها لمسة من لمسات العبقرية والذكاء — إذا غفرنا لأبناء القرون الوسطى هذا الخلط ، فإننا لا نجد سبيلاً يتح به الغفران لأنباء هذا العصر ، حين يجرون على ما يرى عليه أسلافهم في هذا الشأن . . إذ قامت الدراسات النفسية في العصر الحديث بكشف أعماق النفس ، ورصد أحوالها حالاً بعد حال ، وقد أعان التقدم العلمي الحديث — وخاصة علم التشريح ووظائف الأعضاء — أعان هذا اللقاء أضواء كثيرة على النفس الإنسانية ، والتعرف على كثير من أسرارها .

على أن الأمر هنا لا يحتاج إلى تعمق في الدراسات النفسية ، ولا إلى استدعاء لكل المقررات الحديثة في علم النفس ، ليعرف الفرق بين عوارض الصرع والجنون وبين حالات الإشراق النفسي ، والصحو الوجداني . .

وللسيخ — عليه السلام — كلمته المأثورة : « من ثمارهم تعرفونهم ، . . » ويكفي هنا أن يلتقي المرء نظرة على الحصاد الذي تحصده الحياة من عالم الصرع والجنون ! إنه حصاد فلكي ، ليس فيه شيء ينفع به . . إنه أشبه بالنار ترعى في هسيس كل ما يتولد منها دخان . لا حرارة فيه ، ولا نور معه . . !

ماذا يجري على أفواه المخاض والصرع ، وماذا يخرج من بين أيديهم ؟ عتب وهراء . لا يقف عنده أحد ، ولا تلتقطه أذن !

وحسب من يطلب شاهداً حياً لهذا أن يذمى مصحفاً الأمراض العصبية ، ويؤيس مع أهله ساعة من نهار ! إنه سيهرق مرقاً بما ثقل حمله ، ورخص ثمنه ، من ترهات قد لصقت به ، وارتسمت في رأسه . من هذا الضجيج والصخب ، ومن هذا الهديان والعبث ! هذا ، في حين أننا نجد أعمالاً رائعة خالدة لأناس كانت تلبسهم حالات من العوارض الجسدية التي تخيل إلى من يراهم أنهم على حال غير الحال المألوفة في حياة الناس !

إن كثيرا من أصحاب العبقریات وأرباب الفنون تمرض لهم أحوال يضطرب لها كيانهم الجسدى ، ويعترهم فيها ذبذبات أشبه بنوبات الصرع . ولكنهم مع هذا تجدهم فى أصفى أحوالهم الذهنية ، وفى ألمع حالاتهم العقلية . أهم فى تلك الحال يعانون حالا من أحوال « الإنتاج » الفكرى الرفيع ، الذى لا يلبث أن يتمخض عن مولد رائحة من روائح الفن ، أو عروسا مجلوه من عرائس الفكر !

وإن الفرق واضح أسد الوصوح بين تخطيطات المجانين والصرعى ، وبين تهويم المتنافين والعباقرة ورنحاهم !

يذكر تاريخ الأدب العربى عن « البحترى » أنه كان إذا أريد شهود فى مجلس يستمع إليه الناس فيه ، استبد به الطرب ، وغلبته الذنوة ، وجعل يندو ويروح « ويتمايل يمينا وشمالا ، ويهدر كما يهدر البعير ، وهو يقول لسامعيه : ما لكم لا تعجبون ؟ ما لكم لا تطربون ؟

منظر عجيب .. لا يشك من لم يك يعرف « البحترى » من قبل ، أنه فى حضرة رجل مجنون أو معتوه !

ولسكنها حال من الواحد أشبه بحال من لعبت برأسه الخمر ، واستبد به السكر !

إنها حال — كما قلنا — تتألى فيها ملسكات الإنسان ، فتصفو بهمه ، ويسحو وينداه ! ولا تقاس هذه الحال — مهما تبلغ من السكال والاعتدال — إلى ما يكون عليه النبى فى حال الاتصال بالوحى والتلقى عنه ..

إن النبى فى حال الوحى فى نشوة روحية غامرة .. إنه يعب عباً من أنوار السماء .. إنه يشرب من خمر لا لغو فيها ولا تأثيم !

إن التفرقة بين تخطيطات المجانين والصرعى ، وبين هزات الانتشاء الروحى والإشراق النفسى — ليست بالأمر العسير الذى يحتاج إلى علم غزير ، وإلى دراسات عميقة . إذ أن شقة الخلاف بين الحالين بعيدة ، ومدى التفاوت بينهما طويل تمتد ، وبأدنى نظر يستطيع الرء أن يعرف الحق والباطل ، ويميز بين السليم والسقيم !

ابن صياد واختبار النبي له :

وقد كانت للبي الكريم تجربة كانتفة لحال من الهوس الذي يركب بعض الناس ، ويلقى على ألسنتهم أخلاطاً من القوا ، يختلط فيها العقل بالجنون ، والحكمة بالهوى ، والحق بالاضلال . فيجب بعض الناس أن ذلك عن تلقيات غيبته ، ويلتمسون لذلك تفسيرات وتخريجات ، يقيمون عليها ما عوج من القول ، وما اضطرب من الرأي !

و ابن صياد هذا يهودى ، كان من أصحاب النطحات والتخرصات فى زمن النبي ، وقد ائمت حاله أنظار كثير من الناس ، وأرثهم فيه رأيا . وتحدث كثير من المسلمين أنه المسيح الدجال . وكثر القول فيه ، والاختلاف عليه بين معتقد فيه ، ومتهم له ، أو متوقف فى أمره !

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يختبر حاله ، ويبلو ما عنده ... ليكشف حقيقة أمره للمسلمين .

ففى صحيح مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بمسيبان فيهم ابن صياد ، فمر المسيبان : وجلس ابن صياد ! . فمكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره ذلك . فقال له صلى الله عليه وسلم : تربت يدك ... ألتشهد أنى رسول الله ؟ فقال : لا . بل تشهد أنى رسول الله ! فقال عمر بن الخطاب : ذرنى يا رسول الله حتى أقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يكن الذى ترى (١) ، فلن تستطيع قتله .

وفى رواية أخرى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بابن صياد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد خبأت لك خبيئاً فقال : « دغ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ ، فلن تعدو قدرك ، فقال عمر يا رسول الله : دعنى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعاه

() الذى نرى : أى الذى تظن ، وكان عمر يحسب أنه الدجال .

فإن يكن الذى تخاف أن تستطيع قتله .. وعن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط قبل ابن صياد ، حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطعم بنى مغالة^(١) وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهره بيده ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن صياد : أتشهد أنى رسول الله ، فقال : أشهد أنك رسول الاميين ، ثم قال ابن صياد : أتشهد أنى رسول الله ؟ فرفضه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : آمنت بالله وبرسله ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا ترى ؟ قال ابن صياد : يأتينى صادق . وكاذب . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلط عليك الأمر ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لى قد خبأت لك خبيئاً ، فقال ابن صياد هو الدخ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ فلن تعدو قدرك ، فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله . أضرب عنقه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يكنه^(٢) فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله .

« وعن سالم بن عبد الله ، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول : انطلق بعد ذلك — أى بعد الحال التى رآها الرسول من ابن صياد — رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بن كعب الأنصارى لى النخل التى فيها ابن صياد ، حتى إذا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل ، طفق — أى الرسول — يتق بجذوع النخل ، وهو يختل^(٣) أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو منقطع على فراش فى قطيفة ، له فيها زمرة^(٤) ، فرأت أم ابن صياد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يتق بجذوع النخل فقالت لابن صياد « يا صاف » وهو اسم ابن صياد : هذا محمد .

(١) الأطم بناء مرتفع ، وبنى مغالة بطن من الأنصار .

(٢) أى إن يكن هو السجال .

(٣) أى يحق أمره عليه ، ويحييه من حيث لا يشعر به .

(٤) الزمرة : الصوت الحى ، لا يكاد يسمع .

فشار (١) ابن صياد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركته بين .. » .

قال سالم ، قال عبد الله بن عمر ، فقسام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : إني لأندر كوه ، ما من نبي إلا وقد أنذره قومه ، لقد أنذره ، نوح قومه ، ولسكن أقول لكم فيه فولا لم يقله نبي : تعلموا — أى اعلوا — أنه أعور ، وأن الله تبارك وتعالى ليس بأعور (٢) .

واس صياد هذا دعى كاذب ، فدر ركبته جنة ، فجعل يخط ، ويخرف ، فتند منه بعض كلمات ، ترق فيها بوارق يحسبها كثير من الناس من متنزلات العيب ، وما هي في حقيقتها إلا من لمعات الخيل والجنون ؛ وكم للخيل والجنون من لمعات — ولسكنها لمعات أشبه بلبعان السراب ، يحسبه الظن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وقد فتن الناس على عهد الرسول بابن صياد هذا ، لما كان يأتي من ضروب الخلط التي تهرق منها بروق كواذب ، وحسبوا أنه هو الدجال الذي أنذره الرسول به وحذرهم إياه .

وسرعان ما انكشف أمر هذا الدعي ، واعتزله الناس خوف الفتنة ، وانقاء الشر ، الذي قد يلقاهم منه .

وأحس ابن صياد بهذا ، وضاق به السبل ، حتى لقد حدثته نفسه بأن يطلب الموت لها ، فيستريح وتستريح . وسعى إلى الناس ينفى أنه الدجال الذي كشف الرسول للمسلمين عن صفاته !

عن أبي سعيد الخدري قال : صحبت ابن صائد إلى مكة ، فقال لي : أما قد لقيت من الناس ؟ يزعمون أني الدجال ؟ أأست سمعت رسول الله صلى الله عليه

(١) أى هب مذعوراً .

(٢) ذلك أن ما يدعيه الدجال أنه إله ، والعور نقص ، والله تعالى منزّه عن النقص ، وله الكمال كله .

يقال إنه كتاب سماوى — يكون فى تلك الحال كتاباً مختلطاً ، جمع ما نزل من السماء ، وما فبع من خواطر النبي وتصوراتہ ۱۱

ومن عادة الباقدين الزريبين دائماً اعتمادهم على مصادر إسلامية ، يتخذون منها شواهد لمقولاتهم ، ومستندات لمدعياتهم ، حين يعددون إلى الأخبار السقيمة ، والروايات الهزلية التى دخلت على المصادر الإسلامية فى غفلة من جامعى الأخبار ، وفقلة الأحاديث ، الذين يأخذون من كل فم ، دون تمحيص ، أو تحقيق ، غير مقدرين أن هناك من يقف بالمرصاد لتلقف هذه الأخبار ، واعتمادها ، وجعلها حجة على الإسلام ، وأدلة قاطعة فى مقام الاتهام .

والذى يرجع إلى كتب السنة — مثلاً — يجد كثيراً من الأحاديث المروية عن رسول الله ، محملة بكثير من غبار الكذب والدمس على رسول الله . . فإن الذين نصبوا أنفسهم لهذه المهمة الجليلة لجمع أحاديث الرسول كانوا إزاء هذه الأحاديث التى تشتم منها رائحة الدمس والكذب — كانوا بين أمرين : إما أن يحكموا عليها بما يعليه عليهم ، فيردوها على أصحابها ، ويدعوها هملاً يضيع فى متاهات الحياة ، ويطوى فى أدراج الزمن ، وإما أن بسحلوها كما سمعوها ، ويدعو لسكل ذى نظر أن ينظر إليها ، ويقول رأيه فيها !

وقد كان رأى الأول هو الذى أخذ به بعض جامعى السنة ، فلم يتحرجوا هذا التهرج الذى كان من بعضهم — فى البحث والتقصي ، ومقابلة الأخبار ، وغرابة الشكوك فيها ، وفى من تؤخذ عنهم . . وإنما كان يكفيهم فى هذا أن يسمعوا من رجل مسلم خبراً يقول إنه يروى عن رسول الله ، وأنه سمعه من فلان عن فلان ، إلى آخر السلسلة من الرواة ، التى تنتهى إلى رسول الله — وكان عذرهم عند أنفسهم فى هذا ؛ أنهم لو تركوا مثل هذه الأحاديث المشكوك فيها كان ذلك حكماً قاطعاً منهم بإعدامها ، وقد يكون فيها نظر لناظر ، وربما كان فيها تأويل للتأويل ! ممن يأتى بعدهم من العلماء . .

وعن هذا الإحساس قبل كثير من رواة الأحاديث أحاديث ليست موثقة عدهم . ولا فى موضع الاطمئنان منهم ، وجعلوا أمر الفصل فيها والحكم عليها

لجماعة المسلمين جميعاً . وليس لجامع الأحاديث وحده ، الذى — مهما يكن حظه من العلم والفقه — أن يحيط بكل شيء علماً !

• • •

اتخذ العربيون من هذه الأحبار الضعيفة حجة فيعمونها على ادعاءاتهم الكاذبة على الإسلام ، يفتشون منها سمومهم ، ويكيّدون بها كيدهم !
فمن ذلك ما روى من أن الى صلى الله عليه وسلم قرأ مره سورة «الحج»
وحين بلغ قوله تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أتبع ذلك بقوله : « تلك الغرانيق (١) العلا ، وإن شفاعتها لترتجى » ، وفى رواية : « إن شفاعتها لترتجى ، وإسما لمع الغرانيق العلا » وفى رواية ثالثة أنه قال : « والغرائقة العلا ، تلك الشفاعة ترتجى » .

فهذه ثلاث روايات فى هذه الواقعة :

الرواية الأولى هكذا : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتها لترتجى » .

والرواية الثانية تجيء هكذا : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، إن شفاعتها لترتجى ، وإسما لمع الغرانيق العلى »

والرواية الثالثة : « أفرايتم اللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، والغرائقة العلا ، تلك الشفاعة ترتجى » .

والقرآن الكريم يقول : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر ، وله الأنثى » ، تلك إذن قسمة ضيزى (٢) . . إن هو إلا أسماء « سميتوها أفتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (٣) .

(١) الغرانيق : جمع غرنيق ، أو غرنوق ، أو غرانيق وهو طائر مائى يشبه السكرى ، ويطلق على الشاب الأبيض الحجل .

(٢) أى قسمة جائرة إذا جعلوا لهم الذكور ، ولله الإناث ، والذكور فى عرفهم غير الإناث حتى أنهم لقد كانوا يشدون السات .

(٣) سورة النجم آية ١٩٠-٢٢

ومدلول الروايين الأولى والثانية بنبيء عن أن رسول الله قد ذكر في تلاوته
لسورة النجم آلهة فربش بخير ، وحمل لها عبد الله مكاناً علياً ، حتى إنها لتشفع
عنده ، لمن يلتمس الشفاعة ، ويستأهلها منها . .

وتقول الرواية . . إن النبي حين بلغ آحر السورة سجد ، وسجد معه المسلمون
والكفار لما سمعوه أننى على آلهنهم « ١ »

وقد تداخلت مع هذه الروايات روايات أخرى ، وكأها تريد أن تفسر
هذه الواقعة ، وتجد لها منحراً تتجه إليه .

فيقول بعض الروايات : إن الشيطان ألقى على لسان النبي هذا القول الذى
قاله فى حق تلك الآلهة — اللات ، والعزى ، ومناة — وأنه صلى الله عليه وسلم
كان قد ألم به صبح وحزن شديد لما بينه وبين قومه من هذا الخلاف المستحكم ،
وتلك العداوة الصارخة ، فتمنى فى تلك الحال أن لو نزل عليه شىء يقارب بينه
وبين قومه ، أو ألا ينزل عليه شىء ينفرهم عنه ، ويباعد شقة الخلاف بينه
وبينهم . . ولهذا فإن النبي حين تلا سورة النجم ، وبلغ فيها الموضع الذى تذكر
فيه تلك الآلهة ألقى الشيطان إليه هذه الكلمات ، التى ترفع من شأنها ، وتعمل
لها مكان الشفاعة عند الله . . ثم تستطرد الرواية فتقول : إن جبريل عليه السلام
جاء النبي ، فعرض عليه السورة ، فلبس بلغ الكلمتين اللتين أدخلهما الشيطان
عليه ، قال له : ما جئتك بهما ١١ فحزن لذلك النبي صلى الله عليه وسلم ،
فنزل قوله تعالى تسليمة له : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ،
إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ؛ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله
آياته والله عليم حكيم (١) » ، وقوله : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا
إليك لتفترى علينا غيره ، وإذن لا نخذوك خليلاً ، ولولا أن ثبتناك لقد
كدت تركس إليهم شيئاً قليلاً ؛ إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات
ثم لا تجد لك علينا نصيراً (٢) » إلى قوله : « إلا رحمة من ربك ، إن فضله

(١) سورة آية ٥٢ .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٦ - ٨٨ .

كان عليك كبيراً ، قل لئن احتممت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (١) .

وقد كانت هذه الروايات مثار بحث وجدل ، بين علماء المسلمين أنفسهم ، ثم بينهم وبين غيرهم ، ممن يترصون بالإسلام ، ويتمنون له العثرات ! وقبل أن نقول رأينا في هذه القصة ، وما تفرع لها من ذيول .. نحرص رأياً للقاضي « عياض » في كتابه « الشفا » .

فقد كان للقاضي « عياض » نظر عميق دقيق في هذه المسألة . فيه عقل ، وفيه فقه ، وفيه لون واضح مشرق ، من ألوان النقد ، والنفحص . يقول القاضي « عياض » :

« إن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين :

أحدهما : توهين أصله (في سنده ، وفي معناه) .

والثاني : على تسليمه — أي على فرض التسليم بصحته .

المأخذ الأول

(١) توهين اصل الحديث :

« أما المأخذ الأول ، وهو توهين أصل الحديث — فيكفيك أنه حديث لم يخرج به أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل .. وإنما أولع به ، وبمثله ، المفسرون والمؤرخون ، المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء ، والتفسير ، وتعلق بذلك الملمحدون ، مع أضعف ثقلته (٢) ، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته ..

(١) سورة الإمراء آية ٨٨ .

(٢) أي نقلة حديث الفرائق .

فقائل بقول إنه في الصلاة (١) ، وآخر يقول ؛ قالها في نادى فومه ، حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول . قالها ، وقد أصابته سنة ، وآخر يقول : بل حدث نفسه فسمها ، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتكم ، وآخر يقول : بل أعلوهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال : والله ما هكذا نزلت.. إلى غير ذلك من اختلاف الرواه ، ومحكيات هذه الحكاية عنه من المفسرين ، والتابعين ، لم يسندوها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب (٢) .. وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية .

(ب) توهين معنى الحديث :

ثم يقول القاضى عياض : « هذا توهينه — أى الحديث — من جهة النقل ، فأما من جهة المعنى فقد فامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ، ونزاهته عن فعل هذه الرذيلة ، إما من تمثيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله ، وهو كفر ، أو أن يتصور عليه الشيطان وينبئه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي أن من القرآن ما ليس منه حتى ينهبه جبريل عليه السلام ، وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم . . أو أن يقول ذلك في نفسه من قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر .. أو سهواً ، وهو معصوم من هذا كله .. وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على قلبه أو لسانه ، لا عمداً ، ولا سهواً ، أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقى الشيطان ، أو يكون الشيطان عليه سبيل ، أو أن يقول على الله ، لا عمداً ولا سهواً ، ما لم ينزل عليه .. وقد قال تعالى : ولو تقول عليا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين » (٣) .

(١) يشير الى بعض الروايات التي تقول إن النبي قرأ سورة النجم وذكر ما ذكر عن الغرائب في أثناء الصلاة .

(٢) أى صاحب لرسول الله « ص » .

(٣) سورة الحاقة آية ٤٥ ، ٤٦ .

ووجه ثان .. وهو استحالة هذه القصة ، نظراً ، وعرفاً .. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى ، لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، متمزج المدح بالدم ، متخاذل الأليف والنظم ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا من بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى منأمل ، فكيف بمن رجح حله ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام عليه ؟؟

ووجه ثالث : أنه قد علم من عادة المفاقيين ، ومهاندئ المشركين ، وضعفة القلوب والجلهالة من المسلمين نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعميرهم المسلمين والشهامة بهم الفينة بعد الفينة ، وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام — لأدنى شبهة .

ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا — مكابرة — في قصة الإسراء ، حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة ، وكذلك ماروى في هذه القصة ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت (١) ، ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت !! فما روى عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل — ذلك — على بطلها ، واجنشات أصلها ، ولا شك في إدحال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع .. ذكر الرواة لهذه القصة أن فيها نزلت — الآية — « وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك ، لتفتري علينا غيره ، وإذن لا تجدوك خيلياً ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » (٢) . وهاتان

(١) أي أنه لو وقعت حادثة « الغرائيق » على الوجه الذي رويته لكانت أعظم فتنة تحب فيها قريش وتضع . ويقول فيها اليهود ويتقولون .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٣ ، ٧٤ .

الآيتان تردان الخبر الذي رويوه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ، وأنه لولا أن ثبتته — الله — لسكاد يركن إليهم .

« فتمنمون هذا ومنهمو به أن الله تعالى عصمه من أن يفتري ، وثبته ، حتى لم يركن إليهم قليلا ، فكيف كثيرا ؟ »

وهم — أى الرواة — يروون فى أحبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء . بمدح آلهتهم ، وأنه قال صلى الله عليه وسلم : افتريت على الله وقالت ما لم يقل . . وهذا ضد مفهوم الآية ، وهى تضعف الحديث لو صح . فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضاوك وما يصلون إلا أنفسهم ، وما يضروك من شئ » (١) ، وقد روى عن ابن عباس — أنه قال — « كل ما فى القرآن «كاد» فهو لا يكون » (٢) قال الله تعالى : « يكاد سا بركة يذهب بالأبصار » ولم يذهب . و « أكاد أخفيها » (٣) ولم يفعل !

قال القنيرى القاضى : « ولقد طالبته — أى النبى — قرئت وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، وما كان ليفعل » .

المأخذ الثانى

التسليم بصحة الحديث :

يقول القاضى عياض : « وأما المأخذ الثانى فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعادنا الله من صحته . . ولسكن على كل حال ، فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ، منها الفث والسمن . . فنها :

(١) سورة النساء آية ١١٢ « كاد » .

(٢) أى ماجاء من القرآن بلفظ « كاد » لعنا أنه لا يقع . ولا يكون .

(٣) أى « الساعة » فى قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها » .

١ - ما روى عن قتادة ومقاتل .. « أن النبي صلى الله عليه وسلم أصابته سنة عند قراءته هذه السورة ، فخرى هذا الكلام على لسانه بحكم اليوم »^١ وهذا لا يصح ، إذ لا يجوز على النبي مثله ، في حالة من أحواه ، ولا يخلقه الله على لسانه ، ولا يستولى الشيطان عليه في نوم ، ولا يقظة ، لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو .

٢ - وفي قول « السكبي » إن النبي صلى الله عليه وسلم حدث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه .. وفي رواية « ابن سهاب » عن أبي بكر بن عبد الرحمن ، قال : وسها - أي النبي - فلما أحبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان .

ويرد القاضى عياض هذه الروايات بقوله :

وكل هذا لا يصح أن يقوله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا سهواً ولا فصدأ ، ولا يتقوله الشيطان على لسانه .

٣ - وقيل : لعل النبي صلى الله عليه وسلم قاله - أي هذا القول - أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتزبيح للكفار ، كقول ، إبراهيم عليه السلام : « هذا ربي »^(١) على أحد التأويلات^(٢) . . (وأن النبي حين قال ذلك قاله) يعد السكت ، وبيان الفصل بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته .

يقول القاضى عياض : وهكذا يمكن مع بيان الفصل وقريئة بدل على المراد ، وأنه ليس من المتلو - أي ليس من القرآن - ..

ولا يعترض على هذا بما روى أنه كان - أي هذا القول - في الصلاة ، فقد كان الكلام قبل فيه - ما غير موضع^(٣) . . . والذي يظهر وينرجح في

(١) يشير إلى ما حكاه القرآن عن إبراهيم في قوله تعالى : « فلما رأى القمر بارعاً قال هذا ربي » فلما أفس قال : لأحب الآفلين .

(٢) من التأويلات التي يذهب إليها المفسرون في قول إبراهيم عن القمر « هذا ربي » ، وعن الشمس : « أهداري » أنه قال ذلك على طريق الاستهزاء المراد به السجيرة والاستهزاء أي « أهدا ربي » ؟ استصغاراً لشأنه !

(٣) أي كان الكلام أول ما فرصت الصلاة مباحاً فيها ، ثم حرم بعد ذلك .

هذا التأويل عند المحققين على تسليمه — أى التسليم بصحة الحديث — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً ، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته ، كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات ، محاكياً فزعة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا لمليه — لك النبي — من السكمار ، فظفوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم وأساءوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعيها كما عرف منه .

وفد حكى موسى بن عقبة في « معازيه » نحو هذا ، وقال : إن المسلمين لم يسمعوها ، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين ، وفلوبهم . . ويكون ما روى من حزن النبي صلى الله عليه وسلم إنما لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة . . وقد قال الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما ينقضى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » (١) فعن « تمنى » تلا ، قال الله تعالى : « لا يعلمون الكتاب إلا أماني » أى تلاوة . وقوله سبحانه : « فينسخ الله ما يلقي الشيطان » أى يذمه ، ويزيل اللبس به ، ويحكم آياته .

٤ — مما يظهر في تأويله — أى هذا الحديث — أن مجاهداً روى هذه القصة . . والنراقة العلا . .

يقول القاضي عياض : فإن سلمنا القصة ، قلنا لا يبعد أن هذا كان قرآناً (٢) والمراد « بالنراقة العلا ، وأن شفاعتهم لترتجى » الملائكة (٣) على هذه الرواية ، وبهذا فسر السكبي « المراقبة أنها الملائكة ، وذلك أن السكمار كانوا يهتقدون

(١) - سورة الحج آية ٥٢ .

(٢) أى يقرأ على هذا الوجه : « أفرأيتم اللاب والعري . ومائة الثالثة الأخرى » ، والنراقة العلا ، تلك إشاعة ترجى .

(٣) يقول الله سبحانه وتعالى : « وكم من ملك في سموات ، لا تنفى سماعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .

الأوثان ، والملائكة بنات الله ، كما حكى الله عنهم ^(١) ، ورد عليهم في هذه السورة بقوله « ألكم الذكر وله الأنثى » ، فأنكر الله على هذا من قولهم . . . ورجاء المنفعة من الملائكة صحيح . . فلما تأوله المنركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ، ولبس عليهم الشيطان ذلك ، وزينه في قلوبهم ، وألقاه لآلهم نسخ الله ما ألقى الشيطان ؛ وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللغظتين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلا للإلباس ، كالنسخ كثير من القرآن ، ورفعت تلاوته ، وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة وفي نسخه حكمة ، ليضل به من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وما يضل به إلا الفاسقين ، و « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » ^(٢) .

ه - وفيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة ، وبلغ ذكر « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها ، فسبقوا إلى مدحها بدينك الكهنة . ليخطوا في تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم ويتنعموا عليه ، على عادتهم ، وقولهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغفلون » ونسب هذا العمل إلى الشيطان ، لعله لهم عليه . . وأسأعوا ذلك ، وأذاعوه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، فخرن لذلك من كذبهم ، وافترائهم عليه ؛ فسلاه الله تعالى بقوله : « وما أوسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فبفسح الله ما يلقى الشيطان ؛ ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » ^(٣) . . وبين للناس الحق من الباطل ، وحفظ القرآن ، وأحكم آياته ، ودفع ما لبس به العدو ، كما ضمنه تعالى في قوله : « لما نحن نزلنا الذكر . وإننا له لحافظون » ^(٤) .

(١) في قوله تعالى : « وإهم ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » .

(٢) سورة الحج آية ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) سورة الحج آية ٥٢ .

(٤) من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض ص ١١٦ .

تلك هي القصة التي جاءت في بعض كتب السيرة ، ونقلها بعض المعسرين ، وهي كما ترى أشبه برواية مهلمة النسيج ، متهدمة البناء ، أراد مخرجوها أن يخفوا عواردها ، ويسترُوا هزالها فألقوا إليها كثيراً من الرقع ، حتى لكاد يختفي الأصل ، ولا يرى إلا تلك المرقعات التي أضيفت إليها ١ .

فالمسألة التي قامت عليها القصة مادة فاسدة ، لا يتخلق منها شيء يصلح أن يعيد في الحياة ، وأن يكتب له بقاء مع الأحياء .

إن فيصل الرأي في هذه المسألة هو في كلمة واحدة : نبي ، أو غير نبي .

فإن كان « محمد » غير نبي .. فهذا موقف له حسابه وتقديره ، وللكلام الذي يقال هنا حساب وتقدير .. فإذا كان « محمد » عند بعض الناس ليس نبياً ، فليس لنا مع من يرى هذا كلام .. فيما ينسب إلى « محمد » من أخطاء ، وما يلحق إليه من تهم .. إنه والحال كذلك يتحدث عن إنسان ، مجرد إنسان يجوز عليه ما يجوز على الناس من أخطاء ١ .

أما إن كان « محمد » نبياً ، فإن الذي يمتنع هذا ، ثم يلحق به ما يجري في حياة الناس من أخطاء وعثرات ، وتخبطات ، فهذا مما لا يستقيم بحال أبداً مع صفة النبوة . فإن النبي مبلغ عن الله ، وهو هذه الصفة موصوم من الخطأ والنسيان فيما يتصل برسالاته ، وما هو من أصول شريعته أو فروعها ، إذ أن أي انحراف في هذا معناه سوق الناس إلى سبيل مهووجة مليئة بالعثرات والحفر ، على حين أن دعوة السماء إنما تدعوهم إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ١ .

ذلك هو ما يجب أن يتأكد ، ويتقرر أولاً عند من يؤمن بالأنبياء .. لأنهم إن يكونوا على غير تلك الحال التي توجب لهم العصمة ، وتحمل الرسالة التي يحملونها من أية شائبة تعلق بها ١ .

وإن فن النبالة ، والجهل ، وسوء الفهم للنبوة — أن يقول قائل إن « النبي » ويقولها هكذا « النبي » — حين قرأ سورة النجم ، لم يأت ، أو أحدثه سنة أو عليه مخاطرة في نفسه ، أو ألقى إليه الشيطان ، فلهذا الاعتصام التي كانت تبعها (م ١١ — النبي محمد)

قريش ، وأثنى عليها ، ورفع منزلتها ، وجعل لها شفاعة عند الله !! أهدأ كلام يلتقى أوله مع آخره ؟

نبي يقرأ قرآنًا منزلاً من السماء . . ثم تعدو عليه عرادی الشر فتغير من آيات الله ، وتبدل من شريعته ؟!

أهدأ قول يقول به عاقل ؟ وماذا يترك للجانيين بعد هذا ؟

قد يكون سائلاً أن تنفي عن محمد صفة النبوة ، على سبيل المكابرة ، أو من باب الكفر والإلحاد ، ثم يقال إنه قال في معبودات قريش ما قال !! إن ذلك يكون من شأنه هو ، ولحسابه هو ، وليس للسماء فيه شأن أو حساب !

أما وأن محمداً نبي فإنه في عصمة .. فوق الخطأ ، وفوق النسيان !
عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قلت يا رسول الله . . أأكتب عنك كل ما أسمع منك ؟ قال : « نعم » .. قلت : في الرضا والغضب : قال : نعم ، فإنني لأقول في ذلك كله لإحقاقه (١) .

ولاتسأل بعد هذا عما فتح ذلك الباطل من حديث « الفرانين » ، وأمثاله — على المستشرقين ومن لا لهم ؛ من مجالات فسيحة يصلون فيها ويجولون وينمزون ويلبسون .. إذ اتخذوا من هذا الحديث المختلق الملقح حجة لإدانة الإسلام ، وسلاحاً لتجريح القرآن ، ووصفه بالصفة التي تجعله أحاديث متصيدة من هنا وهناك . بعضها من السماء ، وبعضها من الشيطان !

فأى كتاب هذا الذي تنازعه تلك القوى ، وتترزعه تلك الجهات ؟ وأي شريعة تقوم على هذا البناء الذي تامل فيه يدان متفايرتان . . يد تبني والأخرى تهدم ؟ وأي نبي هذا الذي يدعو إلى عبادة الله ، وإلى عبادة معبودات من دون الله ؟

هكذا يريد المستشرقون أن تكون شريعة الإسلام ، وعلى تلك الصورة يودون أن يكون مفهوم القرآن .. دستور الشريعة . وترجمان أحكامها . .
« يريدون ليظفروا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٢) » .

الباب السادس

الداعى وموطن الدعوة

مفارقات ، ومقابلات :

داعية أمى .. ماقراً كتاباً ، ولا خط يمينه سطرًا ..

وقوم أميون .. أعراب بادية ورعاة لابل وشاه ..

وموطن مقفر جدد .. لا يمسك ماء ، ولا يخرج حباً ..

ماذا يقع فى حسابك من دعوة الداعى فى هذا الموطن القفر ، ومع هؤلاء
الرعاة الأجلاف ؟

ولا ننظر فى حسابك هذا إلى أن الداعى هو محمد ، ولا أن الموطن هو
الجزيرة العربية ، ولا أن القوم هم أمة العرب !

وإل نل نظرك هذه لآية داعية أمى ، فى أى بلد قفر ، وفى أى مجتمع يعيش
عيش البادية ، ويحيا حياة المحجراا !!

وانظر حينئذ ماذا يقع فى تقديرك لدعوة هذا الداعى .. فى بيئته تلك ،
وفى أقوامه هؤلاء ؟

أخرج بك التقدير لهذه الدعوة — فى أحسن أحوالها — عن أن تكون
نسمة عابلة بليلة هبت فى أعقاب يوم طويل من أيام السموم ، فاستروحت بها
الفوس ساعة ، ثم ذهب وذهب ريحها ؟ !

أو أن تكون نفما شجياً مؤنساً فى وحشة الليل ، وفى هجمة سواده
الحالك .. ثم لا يلبث هذا النغم أن يذوب ، ويفرق فى هذا السكون
المطبق العميق ؟ !

أو أن يكون دوحه ظلياة ينزل بها السفر المتعبون ساعة من نهار ، يتقنون
لفتح الهاجرة ووهج الحجير ثم يتركونها ليستقبلوا هواجس الشمس المحرقة ،
ولفتح السموم المستعرة !

لأنه إن يكون لهذا الداعى فى هذه الأحوال وفى تلك المواطن إلا هذا الأثر
المحدود الموقوت ، الذى يلعب البرق فى سواد ليل حالك ، ثم ينطفىء فى شمة
هذا الليل ، وينوص فى ظلامه الدامس !

أرأيت الشعراء ، والمفنين ، والحداة ، وأرباب الآداب والفنون . . ماذا
بقى فى هذه المواطن من آثارهم ؟ وماذا خلد فى الحياة من أعمالهم ؟ ذكريات
عابرة ، ووفيات قصيره يقفها المعجبون بتلك الآثار كما يقفون على الدمن
والأطلال !

حساب غير هذا الحساب :

ولكن الأمر يختلف أشد الاختلاف ، ومحصل النظر يجيء بما لم يقع فى
التقدير والحسبان حين يستقبل الإنسان بظره مطلع النبوة ، فى الأمة العربية ..
فى الصحراء البرية !

هناك نجد الداعى على غير ما عرف الناس من الدعاة .

وهناك نجد الصحراء ، وساكنى الصحراء على غير ما عرفت الحياة من الصحارى
وساكنى الصحارى !

ومن ثم كان هذا ، الحصول ، الموفور من معطيات الخير ، وثمراته ، فيما
غرس الداعى من غراس وفيما أخرجت الأرض من طيبات ، وفيما حصل الناس
من خير ، وفيما بلغوا من كمال .. كل ذلك قد جاء على أتم وأكمل ما قدر للبشرية
فى هذه الحياة من تمام وكمال .

وندع كل أمى غير محمد .

وندع كل صحراء ، وكل من يسكن الصحراء . . غير صحراء العرب ،
وسكان صحراء العرب .. ندع هذا كله ، ولا نطيل الوقوف عنده . ولا تردده
النظر إليه .. فلنا لن نحصل هناك على شيء ذى بل بهما طال وقرفنا ويرداه

نظرنا . إذ لا جديد بعد النظر الأولى في هذا القفر .. الذى يضم كيانه كل شيء ،
ويحوى الداعى ومن دعا .. !

وليكن وقوفنا كله عند هذا الداعية العربى الأسمى ، وعند هؤلاء العرب
الأميين . . فى هذا الموطن القفر الذى استوطنوه .

ماذا هناك ؟

هناك آيات بينات ، ومعجزات قاهرات ، وأحداث خطيرة مثيرة ، واثقالات
شامل فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعا .

نبى أمى . . وقوم أميون . . وأرض مجدبة . . وحياة غليظة جافية .

ومع هذا فإنه من كل هذه « الأميات » مجتمعات ، تلد الحياة أكرم
مواليدها ، وتخرج فى الناس أطيب ثمراتها . . فتتفجر ينابيع الحكمة من فم
هذا النبى الأسمى ، وتقع فى عقول الناس وفى قلوبهم موقع الماء العذب فى
الارض القفر ، فإذا الناس غير الناس ، وإذا الحياة غير الحياة . . وإذا أعراب
البادية ، ورعاة الإبل شامة فى الناس ، وأساتذة فى العلم ، وساسة للأمم ،
وإذا هذا البلد القفر مطلع النور ، ومشرق الهدى ، ومهوى الأفضة ، وقبة
أنظار العالم ، وموضع اهتمامه . . . من عدو وصدى .

ما معنى هذا التوافق ؟

ولأنه لمن غير الطبيعى أن تجتمع هذه « الأميات » كلها فى موطن واحد ،
وتلتقى كلها على غاية واحدة ، ثم يكون منها هذا الفتح المبين ، فى ميادين الخير
والفلاح كلها . . . فى العلم ، وفى الخلق ، وفى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى كل
ما يسمو بالإنسان ويرفع قدره ، ويحفظ عليه وجوده الكريم فى الدنيا ،
 ويفتح له الطريق إلى رضوان الله فى الآخرة .

من غير الطبيعى أن يكون لهذه « الأميات » من الخير ، والسكال والسمو
فى اجتماعها ما لم يكن لأضدادها مجتمعة أو متفرقة . .

فما كان لداعية غير أمي ، بلغ ما بلغ في العلم والحكمة . . في أمة متحضرة
تؤخر بالمدارس والجامعات ، وتفيض بالخيرات والثمرات - أن يحىء بمثل ما جاء
به النبي الأمي من علم وحكمة ، ولا أن تثمر دعوته هذا الثمر الطيب المبارك ،
الذي أخرجته الجزيرة العربية من بين صخورها ورمالها ، وأنضجته على سموها
وزمهريرها !

هذا هو واقع الحياة التي يحياها الناس : فلا يسئو الخصب والجذب ، ولا يتعادل
الحضر والبدو ، ولا يتوازن القاريء والمكاتب والأيى الذي لا يقرأ ولا يكتب ! .
ذلك إذا جرت الحياة في طريقها المرسوم .. ولكن حين يصطفى الله من يصطفى
من خلقه ، تفتصب لذلك أسباب خفية لا نعلمها ، فتهدى لهذا المصطفى سبيل الخير ،
وتمهده طريق الفلاح ، من حيث لا يتوقع الناس ، ولا ينتظرون !

ولقد اصطفى الله « محمداً » لأعظم رسالة ، واختصه بأفضل دعوة ، فجعله
مبعوثه إلى الناس كافة ، بل إلى الثقلين من الإنس والجن ؛ وجعل رسالته خاتمة
الرسالات ، والكلمة الأخيرة بين السماء والأرض !

ولم تكن تلك النعمة السماوية التي اختص الله بها نبيه الكريم محجوبة عن
موطن هذا النبي وقومه ، فكان لهم من هذه النعمة ميراث القريب من قريبه ،
وحق الجار على جاره !

وعلى هذا ، فافنا إذ نجد في « النبي » الأمي ما نجد من جلال النبوة وعظمة
النبي . . نجد كذلك عروفاً طيبة كريمة ممتدة من هذا الجلال وتلك العظمة إلى
هذه المواطن وأهلها ، فإن رحمة الله واسعة ، وفضلته عظيم (والله يختص برحمته
من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

وسنرى كيف التقي النبي الأمي بقومه الأميين ، في تلك الصحراء القاحلة ،
فكان هذا اللقاء مقدوراً بقدر ، موقوتاً بميقات ، ليجمع بين أمية الرسل ،
وأمية المرسل إليهم ، وجذب الموطن وفقره ، وكان من هذا اللقاء الخير كله ،
والنور كله ، والهدى كله .. وذلك لا شك شاهد عدل من شواهد صدق الرسالة ،
وآية ناطقة من بيئات آياتها . . !

هذا النبي الأُمي :

إنسان موطنه الصحراء ، ومرباه في اليتيم والفقر ، وثقافته على الأمية والبداوة ،
ومسرحه ومراحه بين الجبال وعلى الرمال !

هذا هو « محمد » بن عبد الله فيما كان يراه الناس ، وفيما كان يرى هو من نفسه
فبل أن يختاره الله لدينه ، ويصطفيه لرسالته !

فما كان « محمد » في مولده ، وفي نشأته ، وفي صباه ، وفي شبابه واكتفاله إلا
واحداً من آخاد قومه ، وإلا ذبته من نبت الصحراء في هذا البلد القفر ، وفي هذا
الموطن الصحراوي الجديد .

ولكن ما يكاد هذا الإنسان يبلغ الأربعين من عمره حتى يصبح حديثاً عالياً
في فم الوجود كله ، ثم لا ينقطع هذا الحديث أبداً . . إلى اليوم وإلى ما بعد
اليوم . . فسيظل « محمد » حديثاً متصلاً في أوليائه وأعدائه جميعاً ، ما دامت
الحياة ، وما عاش الناس في الحياة ،

نعم . . قد كانت في حياة « محمد » قبل الأربعين شواهد ومخايل ترفع مقامه
في قومه ، وتعلي منزلته فيهم ، ونفرض احترامه عليهم . . ولكن لم يكن ذلك
بالقدر الذي يعزله عنهم ، ويقطع الصلة بينه وبينهم . .

فإن « محمداً » — على ما كان فيه من صفات كريمة بارزة ، وأخلاق رضية
عالية قبل بعثته — لم تأخذ هذه الأخلاق وتلك الصفات لو ما صارخاً في حياته ،
ولم يتخذ هو منها موقفاً حاداً في قومه . . فعاشت فيه هذه الصفات وتلك
الأخلاق كما يعيدش اللؤلؤ الكريم في أحماق البحر ، إلى أن يلقاه القدر بمن
يكف عنه ، ويجليه . . هبة للتأطرين ، وعجباً معجباً للتوسمين !

ونعم . . كان « محمد » — قبل البعثة — حديثاً طيباً فواحاً بالحمد ، نفاحاً بالثناء ،
من كل من خالطه ، وانصل به من قرب أو بعد . . فلقد كان في خلقه السماح
الرضى ، وفي لسانه العف الطهور ، وفي سيرته المحمودة المستقيمة . . كان في كل
هذا المثل الذي يتمثله أصحاب المثل الفاضلة ولايحة ففونه ، وكان القدوة التي
ينزع إليها أصحاب الهمم العالية ولا يستطيعونها . . ومع ذلك فقد كان هذا

الحديث الطيب عن محمد ، يجرى على ألسنة الناس ، في هيئة ورفق ، ويدور في خواطرهم على ترفق ومهل ، فلم يجتمع له الناس يوماً اجتماع المتفرجين على أمر عجب ، أو - حدث غريب . . وإنما ظل محمد ، ياقى الناس ويلقونه ، دون أن يروا فيه إلا ما يرون من نسمة عطرة ، تترشح الصدور وتنعش النفوس ! وإلا ما يتوسم المتوسم من روض أنيق معجب ، في صحراء قاحلة !

النبأ العظيم :

ولسكن ما لم تلق محمد ، رسالة السماء وأذن في الناس أنه رسول رب العالمين حتى وقع هذا الانقلاب الشامل ، الذى لم تسهد الحياة له مثيلاً ، ولم يعرف له الناس شبيهاً ، فيما حدث من أحداث !

وحين تلقى أهل مكة هذا النبأ أول ما تلقوه وجهاً له ، وجدوا . . تسألهم في هذا شأن من هطلى عليه أمر مدهل لم يسكن في حساباته ، فتنبذ معه مشاعره ، وتحمد له أنفاسه ، ثم لا يلبث أن يضطرب كيانه ، وتعلو رعداته ورعشات ، وكذلك كان أهل مكة . . فما أن زالمتهم صدمة المفاجأة حتى اضطربوا وماجروا ، وركبتهم رعدة حمى خبيثة راعشة ، كان منها تلك الأصوات المجلجلة لتسكسر العظام ، وتصادم الأسنان ! حتى لقد تجاوز صداها حدود مكة إلى من حولها من العشائر والقبائل !

وشيثاً شيثاً تجمع من أبخرة هذه الحمى ما جعل مراحل الحقد والحسد تغلى في الصدور ، وتز بين الأضلاع ، ثم لم تلب أن تصدعت تلك الصدور ، وأخذت تنفجر !

وبدأت أصوات الانفجار تسمع متقطعة . . هنا وهناك . . من السباقين إلى الشر ، والمسارعين إلى داعى السفاهة والغنى . . ثم تتابعت تلك الانفجارات وتمازجت ، حتى لكانها بركان عظيم فتج فوهته ، وجعل يرمى باللهب والحمم !

هدوء العاصفة :

وكسكل شيء . . له غاية ونهاية . . فقد انتهى هذا الغليان إلى غايته ، وبلغ مداه ، فبدأت العاصفة ، وسكن البركان !

فلقد حرس الله الدعوة السماوية أن تحترق بلهب هذا البركان وتتحول إلى رماد ، كما عصم نبيه أن ينتقم لنفسه من قومه ، فيدفع هذه النار الممتدة إليه من ألسنتهم وأيديهم ، فتأخذهم ، وتدمدم عليهم . . بل صبر وصابر ، واحتمل من الشدائد ما احتمل ، حتى سكبت ثورة البركان وبرد حممه !

وقد صنع الله للدعوة الإسلامية من هذه المحمة ما صنع من خير . . فلو أن هذه الشرور البادية الصارخة التي ألقت بها قرش في وجه هذا الربي الكريم جرت على طبيعتها وامتدت إلى غايتها لكان حرياً بها أن تفسد ما بين النبي وقومه ، كما أفسدت مثل هذه الشرور بين كثير من الأنبياء وأقوامهم ، ولكان نصيب هذه الرسالة الكريمة الاندفاع وكانت خاتمة هؤلاء القوم الهلاك ، كما ضاعت كثير من رسالات الأنبياء ، وكما هلك كثير من أقوامهم ؛ لما كان منهم عن عناد وإعنات . وإنه لمعجزة أخرى من معجزات الدعوة الإسلامية ، وآية من آياتها أن تشر هذا التراب الطيب الكريم على فوهة هذا البركان ، وأن تمتد جذورها ، وتسمق فروعها في هذه الأرض المتحجرة الصلدة ، التي كان من شأنها ألا تمسك ماء ، ولا تخرج نباتاً . . والله سبحانه وتعالى يقول وهو أعبد القائلين : ألم تر أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم ، وأنفسهم أفلا يبصرون ، ٩١ (١) .

مولد النبي :

يحدث كثير من كتاب السيرة النبوية وروايتها عن عجائب كثيرة ، ومشاهد مثيرة ، صحبت مولد النبي ، ليجعل منها هؤلاء الكتاب وأولئك الرواة شواهد على تأكيد نبوة النبي ، وليقيموا بها دلائل على أنه مؤيد بالمعجزات من قبل أن يأتيه الوحي !

ولقد وقع في تفكير هؤلاء الذين تصدوا لكتابة سيرة الرسول ، أو تحملوا روايتها — وقع في تفكيرهم أن من كمال النبوة وشرفها ألا يكون النبي محكوماً بضرورات الحياة الإنسانية ، وألا يجري عليه ما يجري على الناس في شأن هذه

الضرورات ، ومخالطته لها . . وإلا فما الفرق - حسب تقديرهم - بين النبي وغير النبي ؟

ولو استطاع تفكير هؤلاء أن يجد مخرجا يخرج به النبي عن أن يولد لأبوين كما يولد الناس ، وأن يجوع كما يجوع الناس ، ويظمأ كما يظمأ الناس ، وبألم كما يألمون ، ويفرح ويحزن كما يفرحون ويحزنون - لو استطاع تفكيرهم أن يجد مخرجا يخرج به النبي من هذه الضرورات وما إليها ، لما وقف عند شيء منها ، ولما جعل للنبي حالا من أحوالها .

وإذ لم يكن من المستطاع إنكار هذا الواقع الذي قامت الحياة شاهدة عليه ، مسجلة أن النبي قد حملت به أمه جيناً . وولدت طفلاً ، ثم كان له رضاعة وغطاء ، وكان له صبي ، وشباب ، واكتحال ، وكان له في كل هذه الأدوار نوم وبقظة ، وطعام وشراب ، وغدو ورواح . . إلى أن بلغ السكتاب أجله ، وجاءه رسول السماء يذبحه أنه نبي الله ورسوله - نقول إنه إذ لم يسكن من المستطاع إنكار هذا الواقع الذي عاش فيه النبي وشهدت به الحياة ، فقد كان من المستطاع أن يدخل الداخلون على هذا الواقع بما يسعفهم به الرأي من إضافة وحذف ، ومن تعديل وتبديل بما يرضى نفوسهم ، ويسعد مشاعرهم . .

وقد كان للخيال هنا دوره في تلوين هذه المشاهد بلمسات فيها الخلق والمهملة أحياناً ، كما يظهر عليها الغباء والبلادة في كثير من الأحيان .

ولا بأس أن نقف هنا وقفة مع هذه الروايات والأخبار التي تتحدث عن العجائب والمفارقات التي تناقلها الرواة والمؤرخون عن مولد النبي ، وما قام بين يدي المولد أو سبقه منها . . ثم نعرض هذه الأخبار على الوثائق التاريخية المحققة ، من جهة ، وعلى طبيعة النبوة ومناحي جلالها وكأله من جهة أخرى . . فما استقام من تلك الروايات وهذه الأخبار على هذا العرض رضينا به وقبلناه ، وما لم يستقم على هذا العرض أعرضنا عنه ورفضناه .

على أننا نستطيع أن نسبق هذا العرض كله ، وأن نصدر حكماً قاطعاً في هذه الروايات المحملة بالغرائب والعجائب من سيرة النبي قبل البعثة ، فنقول :

إن هذه المرويات ماصح منها وما لم يصح ، وما وقع وما لم يقع —
ليس لها كبير شأن في مقام النبوة . ، في أى جانب منها .

وسواء أضيفت هذه المقولات جميعها إلى النبى ، أو ذهب جميعها من
سيرته ، فإن « مؤشر » ميزانه في مقام العظمة والسمو والجلال لا يتحرك يمينه
أو يسره . بل ربما لو رفعت هذه المعجبات من حياة النبى لكان ذلك أرفع
لمنزلته ، وأكرم لذاته . . عند من يبحثون عن مواقع العظمة في العطاء . .
أما مقام الرسول الكريم في ذاته فقد جل عن أن يتأثر بشيء من هذا ، فقد
رفعه ربه ، وأعلا مقامه بما لا يخطر على قلب بشر . . فما منزلة فوق هذه المنزلة
التي يخاطبه الحق جل وعلا بها ، فيقول له سبحانه : (ولسوف يعطيك ربك
فترضى) ، . . فبهذا العطاء الموعود من رب العالمين يعلو النبى فوق كل مقام ،
ويرتفع فوق كل منزلة .

وها نحن أولاء نقف وقتنا تلك التي أشرنا إليها من قبل ، مع ما يروى
من معجزات النبى الكريم ، ويضاف إليه .

الباب السابع

الرسول .. ومعجزات الرسالة

١ - أصحاب الفيل

قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاد « أبرهة » (١) إلى مكة جيشاً جراراً يريد أن يهدم الكعبة ، إذ كان قد بنى له « بيعة » في « نجران » ، وأراد أن يعول إليها الثمرة العظيمة التي كانت للكعبة ، وأن يحمل الناس على الحج إلى بيعته ، فلما لم ير لبيعته شيئاً ولا شأناً ، إلى جانب ما كان للبيت الحرام ، لم يجد طريقاً إلى بلوغ غايته إلا هدم الكعبة ، وإزالة معالمها من الوجود ، فإنه إذا خلا مكانها من الأرض لا يلبث الزمن أن يعمل عمله في إخلاء مكانها من القلوب . وإذا فرغت قلوب الناس من متعلق ديني يتعلقون به التمسوا غيره ، وصار من الميسور الدخول إلى قلوبهم الفارغة بأي شيء يملأ هذا الفراغ ، ولو كان حجراً !!

ولما بلغ جيش « أبرهة » منارف مكة ، فزع أهلها فرعاً شديداً لما بلغهم من أنباء « أبرهة » ، وهو في طريقه إليهم ، وما فعل بمن وقفوا في طريقه ، وما حل بهم وبديارهم . ثم لما شاهدوه عياناً من أبهة « أبرهة » وكثرة عدد جيشه وعدده ، واتخاذ « الفيل » ، مركباً ، الأمر الذي لم تعرفه العرب من قبل هذا !

وكان جيش أبرهة قد ساق ما صادفه في طريقه من ماشية قریش ، دون أن يقف أحد في وجهه ... وكان فيما حوى الجيش مثناً بعير لعبد المطلب بن هاشم ! جد النبي .. ثم إن أبرهة بعث رسلاً يقدمون عليه بسيد مكة ، وصاحب

(١) كان أبرهة حاكماً على اليمن من قبل الجاشي ، وكان على دين المصرية الذي كان يدين به الجاشي .

كلمتها . فناءوه بعبد المطلب . . وكان نفاً ، رائع الطاعة ، مهيأ . . فلما رآه وأبرهه ،
أكبره ، ولسكن أبي عليه كبرياؤه أن يجلسه على كرسيه كما أبت عليه عظمة
عبد المطلب أن يجلسه دونه ، فنزل عن عرشه ، وجلس على البساط ، وأجلس
عبد المطلب إلى جانبه ! وكان فيما قال لعبد المطلب : إنه لا شأن لي بكم إذا أنتم
خلعتم يدي وبين الكعبة حتى أهدمها ، فإن لم تفعلوا ، فما أنت ذا وما ترى . . !
فأجابه عبد المطلب : « دونك البيت ولسكن رد علينا ما أخذت من
ماشيتنا » . . !

وعجب وأبرهه ، لعبد المطلب . . يسأله في شأن الماشية ، ويدع البيت الذي
يقوم عليه ديه . . ! وحيل إليه أن عبد المطلب إنما يقتدى الماشية بالبيت ،
فاهتزت منزلته عنده ، وصغر في نظره ، ثم قال لعبد المطلب : قد كنت أعجبني
حين رأيته ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ! أتكلمني في مثني بعير أصبتها لك ،
وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه . . لا تكلمني فيه ؟ ! فقال له
عبد المطلب : أفا رب الإبل ، وأن للبيت رباً سيمنعه ! فقال أبرهه : ما كان
ليمتنع مني ! قال عبد المطلب : أنت وذاك ! !

ثم إن عبد المطلب عاد إلى مكة فأخبر قريشاً بما كان بينه وبين أبرهه ،
وأشار على الناس أن يخرجوا من مكة ، وأن يتحزروا في شعف الجبال
والشعاب ، تخوفاً عليهم من معرة الحبش . . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب
الكعبة ، وقام منه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وجنده ،
وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهم إن العبد	نع رحله فامنع حلالك (١)
لا يمنعن صليبيهم	ومحالمهم غدواً محالك (٢)
جروا جموع جموعهم	والفيل كي يسبوا عيالك
عهدوا حماك بكيدهم	جهلا ، وما رقبوا جلالك

(١) لا هم : أي يا الله ، والحلال : القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا أهل البيت الحرام .
(٢) المحال : من الحول والقوة ، وغدواً : يريد به غداً ، أي ما بعد اليوم .

ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق هو ومن معه من قریش إلى شعف الجبال ، فحجزوا فيها . ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهياً فيله ، وعبأ جيشه ، وأمر بالتحرك إلى مكة ، فخرن الميل ، وأرسل الله عليهم طيراً ترميهم بحجارة من سجيل ، لا تمس أحداً إلا هلك .. وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، يستقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه (١) .

هذه قصة الفيل ، كما يرويها أصحاب السير على اختلاف في التفاصيل فيما بينهم ! وقد كانت أحداث هذه القصة مادة خصبة ، ومرعى ممرعاً للعواطف والخيالات .. وكان الميل ، والطير ، والحجارة ، ركازة قوية لمن أراد أن يسبح بخياله ، أو يروى ظمأ عاطفته .

فالتميل يحزن لأنه قد أسر إليه بعض العرب (٢) بكلمة حذره فيها من أن يشارك في هذا العمل الآثم ، ويزحف مع الزاحمين إلى هدم البيت ، فيعقل الميل هذا القول الذي أسرله به ، وتعجز كل المحارلات والحيل عن أن تخطو به خطوة تجاه البيت الحرام !

والطير تتخذ في قصص القصص صوراً شتى .. فتارة تكون طيراً بحرية مثل الخطاطيف والبلسان ، وتارة تكون طيراً برية مثل النسور والعقبان ، وتارات أخرى هي ذباب أو بعوض ..

وكذلك الحجارة ، تختلف أحجامها ، وصناعاتها ، وأفعالها .. فهي البدس أو الحص ، أو هي خمار أو بنة وجراثيم أمراض .. ومن يدرى ؟ فقد يحس بعض مفسري القرآن في هذا العصر فيجعلها من بنات « الذرة » ومركباتها !

(١) انظر سيرة ابن هشام : الجزء الأول ص ٤٨ وما بعدها .

(٢) يقال إن نفيل بن حبيب هو الذي أسر إلى الفيل بالأقرب البيت الحرام .
ونفيل هذا هو الذي جعله أبرهة دليلاً في الطريق إلى مكة على كره منه .

أما أصل القصة فثابت ثبوتاً لا شك فيه بشهادة القرآن الكريم ، حيث أوردتها القرآن في سورة خاصة هي سورة الفيل ، فقال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ما كول » (١) .

وأنت ترى أن القرآن قد أجمل القصة إجمالاً ، يبدو منه في وضوح المعنى الذي ضمت عليه القصة ، وهو أن الله قد امتن على أهل مكة ، وأكرمهم بكرامة البيت الحرام ، وحفظه من أن تمتد إليه يد معتدي

و لم يلتفت القرآن إلى الفيل ، ولا إلى صاحبه ، ولا إلى الطير وما تحمل من مهلكات . . ولما الذي أبرزه القرآن هو تلك القوة القوية الضاربة التي جاءت إلى البيت الحرام في صورة مفزعة يريد أن تأتي عليه ، فردها الله بقوة قهرتها ، ودمدمت عليها . . !

ولعلك تقف من هذا المشهد الحربي موقف المعجب والمدعش حين ترى فيلة ضخماً لا تعتمد السيوف في جلودها ، ولا تعمل الحراب في أجسامها . . هذه الفيلة تلقاها طيور صغيرة أنبى بالعصافير فتصرعها ، وتصرع من عليها من أبطال ! .

كل هذا قد جمعه خمس آيات من القرآن الكريم . . هن آيات السورة الكريمة «سورة الفيل» .

ولعلك تسأل : ما شأن قصة الفيل في المعجزات التي تضاف إلى الرسول ؟ والجواب على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد دفع عن البيت الحرام هذا السوء الذي كان يراد به ، ليظل هذا البيت قائماً يستقبل نبي الإسلام ، وليكون قبلة صلاة المسلمين ، ومنسكاً يؤدي عنده ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وهو «الحج» ! .

فالمعركة إذ لم تكن لحساب قريش . ولا كان هذا الطير المحمل بالصواعق

تُجَدُّ من السماء لها ، وإنما كان ذلك لحساب الدين الجديد الذى تمفّس صبحه بمولد النبي هذا الامام ، « عام الفيل » ، وما كان هذا الطير إلا طلائع لقوى السماء التى ستمد — فيما بعد — وصحبه فى هذا الصراع الذى سيقع وتمتد أيامه ، وتُدسّع ميادينه ، بين المسلمين وأعداء الإسلام .

إن هذا المدد السماوى من الطير الأبايل هو نجدة سماوية بلا شك ، وفيها دلالة واضحة على أنها تقاثل فى جانب الحق ، وتنتصر له . . .
وطبيعى أن جانب الحق كان مع البيت الحرام الذى تيمياً لاستقبال الإسلام ، وهو دين الله . الذى أراد أن يظهره على الدين كله . . .

فهذه المعركة هى انتصار للإسلام ، وإعداد له ، وليست انتصاراً لقريش ، ولا إمداداً من السماء لها . . . إذ لو كان الأمر بين قريش وأبرهة . وكانت هناك أمداد من السماء لأحد الفريقين لكان ذلك لأبرهة ، لأنه يدين بدين سماوى هو « النصرانية » على حين كانت قريش على دين أو أديان فاسدة (١) .

ونخلص من هذا إلى أن « حادثة الفيل » وقد وقعت فى السنة التى ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم — قد كانت من غير شك آية من الآيات القائمة بين يدي النبوة ، وبشيراً من السماء يضع أول راية من رايات النصر للإسلام فى مركز الدعوة الإسلامية . وفى مطلع الألف الذى بزغ منه نبي الإسلام .

ولهذا كان الخطاب فى سورة العنكبوت موجهاً إلى النبي فى مقام التذكير بنعمة الله عليه ، ورعايته للإسلام ، قبل أن يحمل الرسول عبء الدعوة ، ويتولى الدفاع عنها . . « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب العنكبوت ؟ » . . .

ففى هذا الخطاب امتنان على الرسول بهذا الفضل الذى أسبغته الله على نبيه من قبل أن يكون له مع السماء شأن ، ومن قبل أن يحمل رسالة الله إلى الناس ، وفيه أيضاً مدد عظيم من الطمأنينة التى يجدها الرسول من ريح هذا الفصل السماوى الذى لا بد أن يمتد ويتصل ، ويصحب الرسول فى كل أدوار حياته ،

(١) انظر تفسير ابن كثير الجزء الرابع « سورة الفيل » .

وهذا مما يند عزم الرسول ، وثبت أقدامه في مراقب الضيق والعنت الذى كان يلقيه من قرىس حين يلتفت إلى الورا فبرى كيف كانت عناية الله وحمايته لبيته . . فكيف تكون إذن عنايته ورعايته لصاحب رسالته ؟

أما قرىس فقد كان من فضل الله عليها ببركة النبي ، وبجرمة البيت الحرام هذا الإيلاف الذى ألموه في رحلتى الشتاء والصيف . . إلى الشام ، صيفا ، وإلى اليمن شتاء ، يتجرون ، ويتبادلون المنافع بينهم وبين هذين الإقليمين ، آمدين مطمئنين في خفارة البيت الحرام ، لأنهم سدته والقائمون على شئونه ؛ وفي هذا يقول الله تعالى : « لإيلاف قرىس لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

ونخلص من هذا كله أيضا إلى القول بأن حادثة الفيل كانت إرهاصاً لبعثه النبي ، ولإذنا بأول عدام بين دعوة الإسلام والمترجمين بها ، والنعاليين عنها . . يقول ابن قيم الجوزية : « وكان أمر الفيل مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، وإلا فأصحاب الفيل كانوا فسادى أهل كتاب ، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك ، لأنهم كانوا عباد أوثان » (١) .

٢ — فداء الذبيح

تحدث كتب التاريخ عن واقعة لعبد المطلب جد النبي غير واقعة الفيل التي أشرنا إليها منذ قليل . . تلك هي خلاص ابنه « عبد الله » ، والد النبي من الذبح ، ليقيم قربانا في نذر نذره أبوه « عبد المطلب » .

وللقصة حديث طويل يبدأ بحفر زمزم على يد « عبد المطلب » ، أمثالاً لها تفهتف به في منامه ثلاث ليال متواليه

وقد وثقت قرىس من عبد المطلب موقفاً مشعشعاً عندهما هم بحفر البئر وبهذه يحفره . وفي هذا الموقف شعر عبد المطلب بحاجته إلى الرجال من الأولاد

(١) زاد المعاد جزء أول ص ٣٢ .

والأحفاد ، فنذر لئن أكل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ليدينهم أحدهم .
فلما تكاملوا عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله به .
فامتلأوا أمراً ، وتركوا إليه أن يختار من يشاء منهم ، فضرب القداح بينهم فوقع
الأمر على عبد الله ، وكان - فيما يروى - أحب أولاد عبد المطلب إليه !
ولم يجد عبد المطلب بداً من أن يقود ابنه الحبيب إلى المذبح . . فلما هم
بذبحه قامت إليه قريش من أنديتها ، وقالوا : والله لا ندبحه أبداً حتى تعذر
فيه . . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقى الناس
على هذا ؟

وتحرك أحداث القصة في اتجاهات كثيرة ، وعبد المطلب يدور معها في كل
اتجاه ، وينتهي المطاف بأن يفدى عبد المطلب ابنه بمئة من الإبل . . تبدأ بعشرة ،
ثم عشرين . ثم ثلاثين إلى مئة . . لأنه كان في كل مرة يضرب القداح بين عبد الله
وبين الإبل يخرج سهمه . فيزداد عدد الإبل عشرة ، وهكذا . حتى كانت المئة ،
فخرج السهم على الإبل . . وعد هذا العدد مقولاً عند الله ، وفيه رضى له عن
عبد الله . !

هذا هو ملخص القصة . . وقد رواها كثير من المؤرخين الثقة ! وعلى رأسهم
شيخهم « ابن إسحق » الذى قرن روايته لها بقوله : « فيما يزعمون ، والله أعلم » ،
فلم ينفها ، ولم يحققها ، بل جعلها مما يزعم أصحاب الأخبار ونقلتها .
وعن « ابن إسحق » أخذ « ابن هشام » فى تاريخه « السيرة » (١) ؛ وكذلك
أثبتها « ابن سعد » فى تاريخه : « الطبقات الكبرى » (٢) . .

ولم يرد فى القرآن الكريم ما يشير إلى هذه الواقعة فيما امتن الله به على
نبيه . ولم يكن قد ورد فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « أنا
ابن الذبيحين » . .

- (١) انظر الجزء الأول ص ١٤١ وما بعدها من كتاب السيرة لابن هشام ،
(٢) انظر الجزء الأول القسم الأول ص ٥٣ من الطبقات لابن سعد .

والحديث ضعيف ، لم يوثقه رواة الحديث .

ويستند رواة الأخبار على هذا الحديث في واقعة عبد المطلب هذه مع ابنه عبد الله ، كما يستندون إليها من جهة أخرى على أن « إسماعيل — الجذع الأعلى للنبي — هو الذبيح لا أخوه « إسحق » !

وقد نازع كثير من العلماء في أن يكون « إسماعيل ، هو الذبيح الذي أراد أبوه « إبراهيم » أن يذبحه امتثالاً لأمر الله فيما أوحى إليه في منامه .

وقد ذكر القرآن هذه الرؤيا في قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت أفعل ماتوّم ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما ؛ وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ؛ وفديناه بذبح عظيم (١) » .

نقول إن كثيراً من العلماء وخاصة المتعصبين على الإسلام من علماء أوروبا نازعوا في أن يكون إسماعيل هو الذبيح المفدى من السماء ، وإنما المفدى هو « إسحق » .

ومن عجب أن نجد رجلاً « كالجاحظ » يذهب إلى هذا الرأي ويقول به (٢) وهذا ما يدل على شدة تأثير الجاحظ بالثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية ، كما يدل على كثرة مخالطة العلماء غير الإسلاميين من نصارى ويهود .

والحق أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح ، وليس أخاه إسحق كما يظن خطأ بعض متعلمة المسلمين ، وكما يقول زورا ومهتانا المنحرفون من غير المسلمين .

ولا تجد حجة أبلع ولا أقوى من تلك الحجج القاطعة التي قدمها الإمام « ابن تيمية » في تحقيق القول بأن إسماعيل . . هو الذبيح المفدى من السماء بذبح عظيم !

(١) سورة الصافات آية ١٠٢ ص ١٠٧

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ : جزء أول ص ٢٤٨ (طبعة السبوي)

ولا يستمد ابن تيمية حجة من نصوص الكتاب الكريم وحده، إذ الذين لا يدينون بالإسلام لا يأخذون أنفسهم بنصوص كتابه . . ولهذا يعمد ابن تيمية إلى الواقع التاريخي لإبراهيم عليه السلام وذريته، وللظروف التي عاش فيها هو مع زوجته — سارة وهاجر — . وقيم على ذلك شواهد من التوراة نفسها . . يقول ابن تيمية رحمه الله ،

« هذا القول — أى القول بأن إسحق هو الذبيح — متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : « إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ، بكره ، . . ولا ينك أهل الكتاب مع المسلمين أن « إسماعيل ، هو بكر أولاده !

والذى غر أصحاب هذا القول — أى القول بإسحق — : أن في التوراة التى بأيديهم : « ادع ابنك إسحق » . . وهذه زيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : « ادع بكرك ووحيدك » ،

« ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، وأبى الله إلا أن يجعل هذا لأهله .

وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحق ، والله تعالى قهر بشر أم إسحق به ، وبأنه يعقوب ؟ فقال تعالى عن الملائكة : « لمنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : « لا تخف ، إنما أرسلنا إلى قوم لوط ، وأمر أنه قائمة ففضحكت ، فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، (١) فحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه !

ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة ، فتتناول البشارة لإسحق ويعقوب في لفظ واحد ، وهذا ظاهر الكلام وسيافه . .

ويقال أيضاً : « إن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وأبيه الذبيح في سورة الصافات قال . « فإنا أنزلناه وتلقاه لاجئين ، وفاديقاه أن يا إبراهيم فكك نفسك

(١) سورة هود ٧١ ،

الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، لأن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، لأنه من عبادنا المؤمنين^(١) . ثم قال تعالى : « وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين^(٢) » . . فهذه بشارة من الله تعالى له ، شكراً على صبره على ما أمر به ، وهذا ظاهر جداً في أن المبعثر به غير الأول . بل هو كالنص فيه .

« فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته ، لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله ؛ جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة !

قيل : البشارة وقعت على المجموع : على ذاته ، ووجوده ، وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب « نبيا » على الحال المقدر ، أي مقدرأ نبوته ، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ، ثم تخص بالحال الجارية مجرى الفضيلة . هذا محال من الكلام ، بل إذا وقعت البشارة على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى

وأيضا : فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيرا لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله . . ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحق وأمه ، ولهذا اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زمانا ومكانا ، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لسكانت القرابين والنحر بالشام ، لا بمكة .

أيضا : فإن الله سبحانه وتعالى سمى الذبيح « حليما » لأنه لا أحلم من أسلم نفسه للذبح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحق سماه « عليا » فقال تعالى :

(١) سورة الصافات : ١٠٣ - ١١١

(٢) سورة الصافات : ١١٢

« وبشروه بسلام عليهما (١) » وهذا إسحق بلا ريب ، لأنه من امرأة إبراهيم ، وهي المباشرة به ، وأما اسماعيل فمن السرية !

« وأيضاً : فإنهما — إبراهيم وامرأته — بشرا به — بإسحق — على الكبر واليأس من الولد ، وهذا بخلاف إسماعيل ، فإنه ولد قبل ذلك .

« وأيضاً : فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن يكون بكر الأولاد أحب إلى الوالدين من بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ، ووهبه له تهلقت شعبة من قلبه بمحبته ، والله وتعالى قد اتخذ خليلاً ، والحلة ممص يقتضى توحيد المحبوب بالمحبة . « ألا يشارك بينه وبين غيره فيها . . فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غيرة الحلة تنزعها من قلب الخليل ، فأمره بذيبح المحبوب ، فلما أقدم على ذبحه — وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد — خلعت الحلة حينئذ من شوائب المذاكرة ، فلم يبق في الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما يكون قد حصل عند أول مولود ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول ، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مراحة الحلة ما يقتضى الأمر بذبحه . . وهذا في غاية الظهور

« وأيضاً . فإن « سارة » امرأة الخليل صلى الله عليه وسلم غارت من « هاجر » وابنها أشد الغيرة ، فإنها — أي هاجر — كانت جارية عندما ولدت لإسماعيل ، وأحبه أبوه . واشتدت غيرة سارة ، فأمره الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ، ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن « سارة » حرارة الغيرة ، وهذا من رحمته تعالى ورأفته — فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع ابن الجارية بحاله ! هذا مع رحمة الله لها ، وإبعاد الضر عنها ، وجبره لها ! فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ، بل حكمته البالغة اقتضت أن يأمر بذبح ولد السرية ، لحيث يرق قلب الديدة عليها وعلى ولدها !

وتبديل قسوة الغيرة رحمة ! ويظهر لها بركة الجارية وولدها ، وأن الله لا يصيح
بيتا هذه وابنها منهم ، ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن
عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد ، والوحدة والحرية ، والتسليم إلى ذبح الرلد -
آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارها ومواطن أقدامها مناسك لعبادة
المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة (١) .

وليس وراء هذا البيان شيء يقال في الكشف عن حقيقة الذبيح من ولدى
إبراهيم ، وأن إسماعيل هو الذبيح المفدى من السماء لإسحق !
فالآب الأعلى للنبي صلى الله عليه وسلم ذبيح من غير شك !
فهل والده الأدنى عبد الله ، ذبيح أيضا ؟

لا نستطيع أن نجيء على هذه الواقعة بشاهد من الواقع الحى كهذا الشاهد
الذى يتمهد لواقعة إسماعيل . . فقد شهد لهذه الواقعة الكتب السماوية ، وإن
اختلف المؤمنون بهذه الكتب في تفسير محامل الألفاظ ومفاهيمها ، فاحترف تبعا
لذلك القول بأن الذبيح هو إسماعيل أو إسحق . . ولكن القرآن يكاد يقول
صرامة بأنه ، إسماعيل ، كما أن الأغصاحى التى يقدمها المسلمون في عيد الأصحى
هى شاهد متعمد على متابعة المسلمين أباهم إبراهيم في هذا الفداء الذى جعله الإسلام
مذسكا من مناسكه ، وقربة من قرباته .

هذا عن إسماعيل ، الآب الأعلى للنبي !

أما عن عبد الله ، آخر آبائه ؛ فإن الأمر في حقيقة ، الذبح ، بالنسبة له
مختلف عنه في ، إسماعيل ، . . وذلك من وجوه :

منها أن أخبار ، عبد الله ، وعرضه على الذبح ليست إلا روايات نقلها
المؤرخون للسيرة نقلا لا يستند رواة ثقة ، وإنما الذى نقله ابن إسحق عن هذه

(١) زاد المعاد الجزء الأول ص ٢٧ وما بعدها . . وقد نصنا هذا لرأى إلى ابن تيمية
لأن تلميذه ابن القيم يقول هذا عن شيخه ، وواضح أن الشيخ والتلميذ قد اشتركا معاً في تحقيق
هذا الموضوع . . الشيخ بكرته والتلميذ قلبه وأسلوه .

الواقعة كان أشبه بتسجيل لشائعة تدور في الناس ، فصدر روايته تلك بما يفيد
النك ، فقال عند تسجيل هذه الحادثة : « فيما يزعمون » ! ! لجهلها مزعماً من المزاعم ،
« والزعم مطية الكذب ، كما يقولون !

فلا تقف هذه الواقعة لإزاء واقعة « إسماعيل » التي ذكرت في الكتب المقدسة ،
واتخذت صورة عملية في حياة المسلمين منذ قام الإسلام !

ومنها أيضاً : أن واقعة ، إسماعيل ، لها دلالتها على تكريم إسماعيل وافتدائه
من السماء . . وأن هذه الواقعة جرت في طريق الطاعة لله ، والامتنال لأمره ،
من كل من الأب والابن — إبراهيم وإسماعيل — وأن الجزاء المعجل لهذه الطاعة
وذلك الامتنال كان في هذا الفداء السماوي الذي كشف به الله الضر عن الولد
والوالد معاً . . أما واقعة « عبد الله » — إن صححت — فإنها لم تجر في طريق ينبيء
عن أنها كانت امتحاناً من الله ، وبلاء لعبده من عباده . . فإن ما حدث لعبده المطلب —
على حسب ماجاء في الرواية — لم يكن إلا ثمناً لما أخذ . . فإنه قد تمنى على الله
عشرة أولاد ، وأنه إذا صحت أمهنته ، وتحققت ، قدم أحد أبنائه العشرة قرباناً لله !

فإذا كان في اعتبار أحد هؤلاء الدشرة أيكون القربان المطلوب — إذا كان
في هذا الاختيار دليل على فضل الولد المختار ، واعتباره الطيب المؤهل ليكون
قرباناً لله — فإن هذا الاختيار لم يكن بوحى سماوي ، ولا برؤيا صادقة وإنما
جاء عن عملية أشبه بعملية القمار ، وعلى يد كاهن اقترح بقداحة بين الأبناء العشرة
فوقع الاختيار على « عبد الله » ، وكذلك كان الشأن في عملية الفداء . . لم يكن
الفداء سماوياً ، ولا عن وحى من السماء ، ولا عن رؤيا صادقة ، وإنما كان عملية
ضرب بالقداح ، ولعب بها كما يلعب بالقمار !

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول إن قصة « عبد الله » ، الذبيح — إن تكن
صحيحة — فإنها لا ندل على شيء تدخل به في باب المعجزات التي وقعت تكريماً
للنبي ، وإعلاناً بمطالع صبحه المشرق ! . . وأنها — إن صححت — فلا تتجاوز
أن تكون صدقة من الصدق التي تدفع عن الإنسان يد المعية وقد علمت به ، وكادت
تنشب أظفارها فيه .

والذى أراه فى هذه القصة أنها من الإضافات الكثيرة التى وضعها القصاصون فى السيرة النبوية ، اعتقاداً منهم أن ذلك مما يرفع فى قدر النبي ونبوته ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وكما سنسير إلى ذلك فيما بعد . .

٣ — ماذا فى جبين عبد الله ؟

ويتحدث الرواة والمؤرخون أيضاً عن فلقة من النور كانت تتألق فى جبين عبد الله ، والد النبي !

ولا يتحدث الرواة والمؤرخون عن القطعة النورانية المتلازمة فى جبين عبد الله — لا يتحدثون عنها حديثاً يكشف عن مشاهدات الناس لها ، ولا عن التفاتهم إليها ، واهتمامهم بها . كما لا يكشفون فى حديثهم هذا عن الزمن الذى صحبت فيه هذه التسمية النورانية صاحبها عبد الله . . أهى معه منذ مولده ؟ أم عند بلوغه مبلغ الرجال ؟ أم أنها ظهرت فى يوم ما ثم غربت كما تغرب الشمس ليومها ؟

والذى يفهم من مساق الرواية أن هذا « النور » كان كامناً فى كيان عبد الله ، ثم تحرك فظهر على جبينه ، والذى يفهم أيضاً أن هذا النور لم يكن ملحوظاً إلا عند تلك المرأة « الخثعمية » التى دعت عبد الله إلى نفسها فأبى عليها ذلك . . ونورد هنا ما روى المؤرخون عن هذه الواقعة :

« فقد روى محمد بن سعد فى طبقاته . . قال : إن عبد الله بن عبد المطلب تزوج آمنة وهو ابن ثلاثين سنة ، وقيل بل كان يومئذ ابن خمس وعشرين سنة (١) .

« وعن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي النضير الخثعمي قال : لما تزوج عبد الله آمنة أقام عندها ثلاثة ، وكانت تلك السنة عندهم (٢) .

(١) الطبقات : جزء ١ ص ٥٨ .

(٢) نهاية الأرب جزء ١٦ ص ٥٧ .

وروى ابن هشام عن ابن إسحق قال : « ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله - بعد أن نجا من الذبح بما افتداه به من إبل - فهر - فيما يزعمون - على امرأة من بني أسد بن عبد العزى - وهى أخت ورقة بن نوفل - وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه . أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى ؟ قالت : لك مثل الإبل التى نحررت عنك ؛ وقع على الآن !! قال : أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه !! »

« فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه أمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش ، نسباً ، وموضعاً .. فزعموا أنه دخل عليها - حين أملكها (١) - مكانه ، فوقع عليها ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟ قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »

ويروى ابن إسحق لهذه الواقعة رواية أخرى ينقلها عنه ابن هشام أيضاً .. هكذا :

« قال ابن إسحق : وحدثنى أبى - إسحق بن يسار - أنه حدث أن عبد الله لما دخل على امرأة كانت له مع أمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له ، وبه آثار من الطين ، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت ما به من أثر الطين ! ، فخرج من عندها ، فتوضأ (١١ ؟) وغسل ما كان به من ذلك الطين ، ثم خرج حامداً إلى أمنة فزورها - أى بتلك المرأة - فدعته إلى نفسها فأبى عليها !! وعمد إلى أمنة فأصابها ، فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامرأته تلك ، فقال

(١) أملكها - أى تزوجها - وملك أمرها .

لها هل لك؟ قالت: مررت بنى وبين عيذك غرة بيضاء: فدعوتك فأبيت على ودخلت على آمنة فذهبت بها ١١

قال ابن إسحق: فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث أنه مر بها وبين عيذك غرة مثل غرة الفرس ١٠ (١) .

« وقتل ابن سعد في طبقاته عن الواقدي: أن هذه المرأة هي قتيلة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل . »

« قال الواقدي: كانت — أى هذه المرأة — تنظر وتهتاف (٢) ، فرمى بها عبد الله ، فدعته يستبضع منها أى يقع عليها ، ولزمت طرف ثوبه ، فأبى عليها وقال: حتى آتيك ، وخرج مسرعاً حتى دخل على آمنة ، فوقع عليها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) . »

وقيل إن المرأة التي رمى بها عبد الله هي امرأة من « خثعم » ، يقال لها فاطمة بنت مر وكانت من أجمل النساء ، وكانت متهودة من أهل تبالة قد قرأت الكتب (٤) . »

وواضح من كل هذه الروايات ذلك التناقض والتهافت الذى يذهب بكل قيمة تاريخية لها . فقد اختلف الرواة فى المرأة التى دعت عبد الله إلى نفسها ، فهي تارة أخت ورقة بن نوفل ، وهي تارة أخرى امرأة من خثعم تدعى باليهودية ، وتنظر فى كتب الأديان ! أو هي امرأة أخرى له إلى جانب امرأته « آمنة » !

وينظر شيخ المؤرخين « ابن إسحق » إلى هذه الواقعة نظرة باردة فآثرت فيليبسها لباس « الزعم » ويلقى عليها ظلالاً من الشك فى كل طرف من أطرافها . بما يقدم بين يدي كل خبر من أخباره عنها بقوله . زعموا ، وقالوا ، ويقال ١١ .

(١) السيرة لابن هشام : جزء أول ص ٤٧١ .

(٢) أى أنها كانت صاحبة نظر وفراصة ، ولها خبرة فى عيافة الطير وزجرها .

(٣) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ٥٩ « قسم أول » .

(٤) نهاية الأرب جزء ١٦ ص ١٦٠ .

ثم إن التلفيق والصنعة يبدوان للعيان في أى رواية من هذه الروايات . .
وحسبنا أن نشير إلى ما جاء في بعض هذه الروايات من أن « عبد الله » ذهب
ليتوضأ ويزيل الطين الذى علق به ! فهل كان عبد الله مسلماً قبل أن يظهر نبي
الإسلام ؟ وقبل أن تظهر كلمة « الوضوء » في لسان العرب بهذا المعنى ؟ ثم من
أين تستدل المرأة أو المراتان من هذا الدور الذى يقال إنه كان على جبين عبد الله
— على أنه نور النبوة ، وأن من تتصل بعبد الله ، وتحمل منه سيطصل بها هذا
النور ، وستلك النبي المنتظر ؟

الواقعة من عومة بلا شك ، وهى من وضع القصاصين الذين كانوا يتخذون
من المساجد ندوات يجتمع إليهم فيها الناس ، ليدسمعوا منهم بما عندهم من أحداث
الإسلام الأولى ما يغذى مشاعرهم ، من هذا الزاد الطيب الذى لم يكن لهم حظ
شهوده ، والمشاركة فيه . فاستجاب القصاص لهذا الظم الأبدى ، فقدموا للظاميين
ما عندهم من ماء أو سراب !

ولم يكتم القصاص بالوقوف عند هذا الحد في شأن هذه الحادثة ، فنقلوها
إلى ميدان الزعر ، وأداروها على ألسنة الشعراء .. فقالوا : إن عبد الله حين
عرض عليه المرأة ما عرضت ، فأبى عليها ، وقال — فيما قال لها — شعراً جرى
على لسانه ، فإذا هو :

أما الحرام فالملات دونه والحل ، لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تنوينه ؟

وكان لابد أن تقول المرأة شعراً ، أو يقال فيها شعر حتى تتم حبكة القصة !
وقد كان ، فزعم الرواة أن شباب قرنت حينما بلغهم ما كان من أمر المرأة
وعرضها نفسها على عبد الله ، وتأبى عليه — شنعوا عليها ، وأكثروا المقالة فيها
فقال تدفع عن نفسها ، وكان موقفها حينما تخيله الرواة أشبه بامرأة العزيز مع
الذئبة اللاتي جررن ألسنتهن بالحديث فيما كان بينها وبين فتاها « يوسف » عليه

السلام . . فقالت هذه المرأة تسمع فتیان قرین ، وتدفع عن نفسها اللائمة
فبما كانت تطالب من عبد الله . . .

لاني رأيت مخيلة عرضت فتلات بجنانم البتلر^(١)
فلما تبنا نوراً يضىء له ماحوله كإضاءة الفجر^(٢)
ورأيت به شرفاً أبوء به ما كل قاذح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت منك الذى سلبت وما تدرى^(٣)

ثم لا تمسك عند عدا القدر من الشعر ، بل ترسل أشعاراً أخرى ممزج فيها
بين الحكمة وضرب المثل^(٤) .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذا الشعر مولد ، من صنع القصاص ، أو من
وحي قاصصهم ، فذلك من الموضوع بحيث لا يحتاج إلى من يشير إليه .

٤ - حلم آمنة

ويذكر الرواة عن وآمنة ، أنها حين حملت بالبي صلى الله عليه وسلم رأت
أحلاماً ورؤى عجيبة . كانت تحدث بها من معها في تخافت وحذر !

فمن ذلك ما يرويه ابن سعد في طبقاته رواية عن محمد بن عمرو بن واقد
الأسدي ، قال — أى ابن واقد — حدثني علي بن زيد بن عبد الله بن وهب
ابن زمة عن أبيه عن عمته قالت : كنا نسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول : « ما شعرت أنى حملت به ، ولا وجدت
له ثقله كما يجحد النساء ، إلا أنى أنسكت رفع حيضتى ، وربما كانت ترفعنى
وتعود ، وأنا نائت وأنا بين النائمة واليقظى ، فقال : هل شعرت أنك حملت ؟

(١) المخيلة بضم الميم السجاية التى يخال أنها ممطرة ، وعرضت لأحت وظهرت . والحنايم
جمع عظم ، والحنايم تهر مشدداً أشبه بالحمص يصنع به الشعر ، والقطر : المطر .
(٢) لما تبنا : أبصرناها .

(٣) زهرية : تقصد بها آمنة بنت وهب أم البى ، لأنها من بى زهرة .

(٤) انظر نهاية الأرب جزء ١٩ من ٩١

فكأنى أقول ما أدرى ، فقال : إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين (١١) قالت : فكان ذلك مما يقن عندي الحمل . ثم أمهلى — أى هذا الآتى — حتى إذا دنت ولادتي أتاني ذلك الآتى فقال : و قولى أعيذه بالواحد الصمد ، من شر كل حاسد ، قالت فكنت أقول ذلك (١) .

ومنها ما روى ابن همام صاحب السيرة عن أبي إسحق ، قال : و رأت حين حملت به أنه حرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض النمام . قد تواترت الأخبار الصحيحة بذلك (٢) .

ونقل شهاب الدين الدينورى فى كتابه نهاية الأرب قال : وحكى الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي فى كتابه « الأعلام » ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان من دلائل حمل آمنه برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة نطقت تلك الليلة ، وقالت : حمل بمحمد ورب السكينة ! وهو إمام الدنيا ، وسراح أهلها ، ولم تبقى كاهنة فى قريتين ، ولا فى قبيلة من قبائل العرب إلا حجت عن صاحبها ، وانزع علم السكينة منهم ، ولم يبق سرير للملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً .

قال : وقال كعب الأخبار (٣) : أصبحت أصنام الدنيا كلها منكوسة مدمومة فيها شياطينها .

قال : وقال ابن عباس رضى الله عنهما : وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذلك ، وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات . وكذلك أهل البحار صار يبشرونهم بهمناً ، وله — أى للنبي — فى كل شهر من شهوره — أى شهور حمله — نداء فى الأرض ، ونداء فى السماء : أن أبشروا ، فقد آن لأبى القاسم أن يخرج إلى الأرض ، ميمونا مباركا . . .

(١) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ٦٠ (القسم الأول)

(٢) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٦٢

(٣) كعب الأعمار هذا يهودى دخل فى الإسلام ليكنى له ولأهله ، وليفسد على المسلمين دينهم كما فعل « بواس » وكان يهوديا فدخل فى الصراينة وأدخل فيها عقيدة الأب والابن وروح القدس ،

وفي السيرة الحلبية : قالت فاطمة بنت عبد الله أم عثمان بن العاصي ، وكانت شهدت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم — قالت : « حين ومنعته أمه ، وذلك ليلاً ، فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدور ، حتى لأقول لتقعن على » .

وفي السيرة الحلبية أيضاً : عن أمينة قالت : لما ولدت محمداً — صلى الله عليه وسلم — ثم خرج من بطني نظرت إليه ، فإذا هو ساجد لله عز وجل ، رافع يديه إلى السماء كالمضرع المبتهل ، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت تنزل من السماء حتى عشيته ، فغيبته عن عيني برهة ، فسمعت قائلاً يقول : طوفوا بمحمد منارق الأرض ومغاربها ، وأدخلوه البحار كلها ليعرف جميع الخلائق كلها باسمه ، وصنمته ، ويعرفوا بركته ، إنه حبيب لي ، لا يبقى شيء من الشرك إلا ذهب به . . . قالت : ثم انجلت عني في أسرع من طرفه عين ، فإذا أنا به مدرج في ثوب أبيض ، أشد بياض من اللبن ، وتحتة حريرة خضراء ، قد قبض على ثلاثة منافيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض ، وإذا قائلاً يقول : قد قبض محمد صلى الله عليه وسلم منافيح النصر ، ومنافيح الدنيا ، ومنافيح النبوة ، (١) .

وهذه الأخبار — ما صح منها وما لم يصح — لا تستند إلى مصادر تاريخية موثوق بها وإنما هي نقول متهافة ، ينسبها ناقلوها إلى شخصيات معروفة بالرواية والحفظ كابن عباس . ليكون هذا الاسم شامعاً لهذه الأخبار أن تقبل بما فيها من أسقام وعلل .

وليس بمنكور أن يكون شيء من هذه الأخبار قد وقع فعلاً . . . مثل الذي قيل عن أممة لأنها حين حملت بوليدها أنها لم تشعر به . . . فذلك جدير به أن يقع لها . لأنها تضم في كيانها الرحمة كلها ، الرحمة المرسلة للعالمين جميعاً ، فلا عجب أن يكون نصيبها من هذه الرحمة هذا اليسر الذي وجدته في حمله . وفي ولادته .

www.KitaboSunnat.com

وليس بمنكور أيضاً ما يروى عن آمنة أنها ولدت « محمدا » حين ولدته ؛
« ولدته طبيباً فظيلاً كما يولد السخيل » .. فإن النبوة كلها طهر وفضافة مادية ونفسية
معاً . . ومحمد خاتم النبيين ، قد خصه الله سبحانه بالصفات كلها ، وأذهب عنه
الرجس والخبث ، ومجىء ميلاده على تلك الصفة هو بعض ما ينبغي أن يكون له
في مولده .

وكذلك من المتوقع كثيراً أن ترى آمنة رؤى وأحلاماً تملأ قلبها سعادة
ورضى بما في بطنها ، وقد احتوى الخير كله ، واشتمل عليه . . بل لأنه لمن المحقق
أن تجد ريح النبوة يملأ عليها حياتها طمأنينة ورضى ، ويفيض عليها الروح
والراحة في يقظتها ونومها !

ذلك وكثير على ساكنته بعض ما ينبغي أن يعقب من طيب النبوة وأن يفوح
من عبير الأنبياء ، وهم أئمة في بطون أمماتهم ، أو مواليد في مهد الطفولة . .
فهم أكمل خلق الله ، وأفضلهم ، وأولاهم عند الله بكل فضل وكال . .

وإذا كان هذا في أنبياء الله ورسله أجمعين ، فإنه في محمد صلى الله عليه وسلم
أتم وأكمل ، إذ كان حاتم النبيين ، وجامعة الحق الذي دعوا إليه ، والنور
الذي أرسلوا به !

ليس لأحد إذن أن يدفع هذه النفحات الطيبة التي يجدها أولئك الذين اتصلوا
بالأنبياء . . اتصال حياة كالآباء والأمهات ، أو اتصال مخالطة كالزوجات ،
أو اتصال مصاحبة كالأنباغ !

أما الذي يفسد هذه الصورة الكريمة التي يتصورها أناس — وخاصة
المؤمنين — فهو هذه الأخبار التي يصطنعها الرواة ويخلطونها خلطاً ممسوخاً
مشوهاً ، قصد يبلغ أحياناً من التسامع وسوء الصنعة ما يقرر النفس ،
ويستحي العقل !

هأى عقل لا يقف موقفهم لهذا الخبر الذي يروى عن آمنة « أنها حين
حملت بالنبي رأت نوراً خرج منها فرأت به قصور بصرى بأرض الشام ، ! !

ولا نأل عن هذا النور ، ولا عن مدى قوته وامتداده . . ولكن السؤال الذى يرد هو : لماذا كان اتجاه النور إلى « بصرى » هذه ؟ ولم لم تسكن الرؤيا فى دائرة متكاملة على جميع الجهات ؟ وإذا كان وجهه النور هى الشمال إلى « بصرى » فلم لا ينكشف لها بيت المقدس وهو ثانى قبلى « محمد » ؛ وفيه المسجد الأقصى ؟

كذلك يقف العقل موقف المتهم لذلك الخبر الذى يحدث عن وحوش الأرض وسباعها ، وأنه قد مشى بعضها إلى بعض بالبشرى ، بأن آمنة قد حملت « بمحمد » . . ففى كان يرصد حركات الوحوش وحالاتها تلك الليلة التى حملت فيها آمنة بمحمد ؟ وهل يقع ذلك فى حين الإمكان ؟ وإذا كان مؤكداً فما دلالة فى هذا الوقت الذى لم يكن للنبي دعوة بعد ، وهل انتفعت الدعوة بهذه الحادثة العجيبة ؟ وهل اتخذها النبي حين حمل الرسالة — هل اتخذها آية على صدقها ، وجعلها معجزة من معجزاتها ؟ تم من ترجم لغة الحيوانات وعرف ما نطقت به ، إن كان لها فى هذه الليلة منطق ؟

إن هذه الأخبار المجافية للمنطق ، البعيدة عن التصور ، الفارغة من كل معنى طيب — هى فى الواقع شهادات زور ضد الإسلام ونبي الإسلام . . فإنها حين تلقى بهذا الركام من الزيف السخيف المنفوخ على سيرة الرسول ، تفتح أبواباً واسعة يدخل منها مرضى القلوب ، وسفهاء الأحلام ، للنيل من مقام النبوة فى صفاتها الرفيعة ، وسيرتها المطهرة . . إن هذه الأخبار الغثة الباردة حين يظالها المنطالع لسيرة النبي ، يجد لها ريحاً ثقيلة ، تفد عليه الجو الغليظ الروحى . الذى كان حرياً به أن يجده فى لقاءه مع الحق الثابت ، من سيرة النبي المبهوث هدى ورحمة للعالمين .

هـ - قصة الختان

ذكر كثير من مؤرخى السيرة روايات — إن اختلفت سنداً فقد اتفقت
متناً — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد «مختوناً» ، «مسروراً» (١) !

وقد وقف ابن قيم الجوزية من واقعة «الختان» هذه موقف المتشكك فى أمر
غير ذى خطر إذ لا يرى فيه دلالة ذات أثر فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ،
إن صح أن لم يصح !

يقول ابن القيم :

اختلف فيه — أى فى الختان — على ثلاثة أقوال :

أحدها أنه ولد — أى النبى — مختوناً مسروراً . . وروى فى ذلك
حديث لا يصح . . ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى الموضوعات — أى فى
الاحاديث الموضوعية .

وليس فيه — أى فى الختان — حديث ثابت !

وليس هذا — أى الختان — من خواصه — أى من حواصى النبى ! —
فإن كثيراً من الناس يولد مختوناً ..

، وحدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن عثمان الخليلي المحدث ببית المقدس :
أنه ولد كذلك ، وأن أهله لم يختنوه !

، والناس يقولون لمن ولد كذلك ، ختمه القمر ! وهذا من خرافاتهم

القول الثامن : أنه ختم صلى الله عليه وسلم يوم شق قلبه الملائكة ، عند
ظهوره حليمة !

القول الثالث : أن جدّه عهد المطلب ختمه يوم سابعه ، وصنع له مأذنه ،

() أى مقطوع السرة .

وسماه محمدا .. ويروى في هذا حديث غريب . عن عكرمة ، عن ابن عباس :
« أن عبد المطلب حتن النبي صلى الله عليه وسلم يوم سابعه ، وجعل له مأدبة ،
وسماه محمدا — فاليمى بن أيوب : طلبت هذا الحديث فلم أجده عند أحد
من أهل الحديث من لقيته إلا عند أبي الدري — الذي نقل عنه عكرمة ، الذي
يقال إنه رواه عن ابن عباس —

« وقد وقعت هذه المألة - مسألة الختان - بين رجلين فاضلين : صنف
أحدهما مصنفاً في أنه ولد - أى النبي - مختوناً - وأجلب فيه الأحاديث التي
لا حطام لها ولا زمام ، وهو كمال الدين بن طلحة . . فنقضه عليه كمال الدين
ابن العديم ، وبين فيه أنه صلى الله عليه وسلم حتن على عادة العرب ، وكان عموم
هذه الأمة عند العرب مغنياً عن نقل معين فيها . . والله أعلم (١) .

وهكذا يقتضى ابن القيم في مسألة الختان ، وأنها كانت عادة عامة للعرب ،
وإذن فلا حاجة إلى نقل أحاديث تشهد لرسول الله بخصوصية فيها .

٦ - قصة شق الصدر !

وقصة شق صدر الرسول قصة مثيرة ، كانت مثار إعجاب لكثير من المسلمين ،
كما أنها كانت مصدر تهكم وسخرية من كثير من غير المسلمين !

وقد وقعت هذه الحادثة للنبي - كما يقول الرواة - بعد السنة الثانية من
عمره ، وهو لا يزال في حضانة حليلة السعدية . في بنى سعد بن بكر !

وقد روى عن حليلة السعدية خبر هذا الحادث . . قالت : « لى لى بهم لما
خلف بيوتنا إذ أنا وأخوه - من الرضاعة ، وهو ابن حليلة - يشند ، فقال
لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى . قد أخذه ريتان عليهما ثياب بيض . فأناجهما
فما ينطه فهما يسوطانه (٢) » ، قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً

(١) زاد المعاد جزء ١ ص ٣٥

(٢) - بوطانه : أى يتلقاه بأيديهما فيا بينهما

مستقماً وجهه ، فالتزمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك بابني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضحجاني وشقيا بطني ، فالتسسا شديداً لا أدرى ما هو ! قالت : فرجعا إلى خبائنا ، وقال لي أبوه : يا حليلة ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقه بأهله ، قبل أن يظهر ذلك به — قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه . . فقالت : ما أقدمك به يا ظئر ؟ وقد كست خريصة عليه ، وعلى مكانه عندك ، قالت : فقلت نعم ! قد بلع الله بابني ، وقصيت الذي علي ، وتحرفت الأحداث عليه ، فأدبته عليك كما نحبين ! قالت : ما هذا شأنك ، فأصدقيني خبرك ! قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها ! قالت : أفتحوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم ! قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل . . وإن لابني لشأناً ! ! أفلا أخبرك خبره ؟ قلت بلى . . قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أصاء لي قصور بصرى بمن أرض الشام . . ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووضع حين ولدته ، وإنه لراضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء . . دعيه عندك ، وانطلق راشدة (١) . .

ويروى ابن هشام لهذه الحادثة طريقاً آخر من طرق الرواية . . يقول ابن هشام : قال ابن إسحق : وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم (١١) ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي أن نقرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا له : أخبرنا يا رسول الله عن نفسك ، قال : نعم . . أنا دعوة لإبراهيم (٢) ، وشرى عيسى (٣) ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أصاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر . . فبينما أنا مع أخ لي خلف ييوتنا نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض

(١) السيرة لابن هشام : مجلد ١ / ص ١٥٥ ؛

(٢) هي الدعوة التي ذكرها القرآن على لسان إبراهيم : « ربنا وابث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، وينهاهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » ، « إنك أنت العزيز الحكيم » (البقرة ١٢٩)

(٣) وهي الإسمري التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان عيسى « وبشرنا برسول يأتي من بعدى اسمه احمد » (المص ٦)

بطل من ذهب ، مملوءة نارا ، فأخذاني فلقا صدرى ، واستخرحاً قلبي . فبقاه
فأستخرجاً منه علقمة سوداء فطرحاها ، ثم غسل قلبي وبطنى بذلك الملح حتى
أنقياه . . ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بمئنة من أمته ، فوزنى بهم فوزنتهم —
أى زدت عليهم — ثم قال : زنه بمئنة من أمته ، فوزنى بهم فوزنتهم ،
ثم قال : بألف من أمته ، فوزنى بهم فوزنتهم . . فقال : دعه ، فوالله لو وزنته
بألف من أمته لوزنها (١) .

وموقفنا من هذه القصة هو موقفنا من جميع القصص التى رويت عن حياة
النبي قبل البعثة . أى أننا لا ننظر إليها بحسابها من دلالات النبوة ، ومعجزات
النبي ، وإنما ننظر إليها جميعها على أنها — إن صحت — لم تكن لتزيد فى قدر
النبوة ، ولا فى عظمة النبي ، وأنها إن لم تصح لم تكن لتنقص شيئاً من قدر النبوة ،
ولا من عظمة النبي !

وقصة شق الصدر هذه لم يقم عليها دليل قطعى من الكتاب أو السنة ،
والحديث المروى عن رسول الله لم يصحبه سند ، إذ أسنده ثور بن يزيد إلى بعض
أهل العلم (١١) ويقول ابن إسحق فى بعض أهل العلم هؤلاء : لأحسبه لإخالة
ابن معدان السكلاعى . . ثم إن خالد بن معدان هذا يسند روايته إلى نفر من
أصحاب رسول الله ، ولا يحقق واحداً منهم .
فهذا الحديث مضطرب السند ، لا يؤخذ به .

ثم إن عملية شق الصدر إذا نظر إليها من جانبها العملى . . أعطى الأثر
الذى أريد لها أن تحققه فى هذا الخبر ، وهو تنقية صدر رسول الله صلى الله عليه
وسلم من الوسواس ، بائزاع تلك النقطة السوداء التى قيل إنها انتزعت من
قلبه حين شق ، وغسل ؟ وهل فعل ذلك بجميع الأنبياء حتى تخلى قلوبهم من
وساوس الشياطين ؟ فإنه لا شك أن أنبياء الله جميعاً قد عصفوا من هذه
الوساوس . .

وإذا كان لرسول الله فصل على الأنبياء — وهو كائن فعلاً — أفتحتاج قدرة الله حين يفيض عنايته على عبد من عباده إلى هذه العمليات الجراحية في وصح النهار ، وعلى ملاء من الناس ، وإذا احتاج الأمر إلى عملية جراحية — وهو مالا يكون — أفلا يكون ذلك في حال لا يعر بها أحد حتى الدي نفه . . كأن يكون ذلك في حال اليوم مثلاً ١٩ ..

ولعل واضع هذه القصة قد استلهم موحياتها من قوله تعالى مخاطباً نبيه :
« ألم نشرح لك صدرك . » وسوغ له خياله أن يجعل هذا التشرح المعنوي للصدر شرحاً بدنياً ، تتولاه الملائكة بعملية جراحية كاملة ، كما يفعل الطبيب بمبضعه .

٧ — إرهابات بين يدي النبوة

في النفس البشرية قوى استطلاعية متخفية ، لا يدري أحد من أمرها شيئاً ، فلا تخضع لاستدعاء الإيمان لها ولا تعطى حين يطلب إليها أن تعطى مما عندها ، وإنما هي في الإيمان ذات سلطان لا سلطان عليه . . تظهر حيث تشاء ، وتعطى كيف تشاء ! ومتى تشاء !

هذه القوة يجد كل إنسان بعض آثارها في حياته ، على اختلاف في هذه الآثار . . ، كثرة ، وقوة ، ووضوحا .

ولو رصد الإنسان — أي ، إنسان — معطيات هذه القوة الخفية فيه ، لوجد فيها أسراراً عجيبة . تحار لها العقول ، وتعجز عن الوقوع على تفسير صحيح لها !

فكم مرة يلقى في روع الإنسان أن أمراً ما قد وقع ، أو سيقع على صفة ما ، دون أن يكون هذا الأمر — في تلك الحالة — منظوراً له ، أو جارياً في تفكير . . ثم يقع على تلك الصورة التي استشعرها استنهاراً !

وكم من مرة ترسم لعيني الإنسان صورة شخص ما ، من غير أن يكون له مكان في خاطره ، أو مدار تفكيره . . ثم إذا بهذا الشخص يطلع عليه ، على غير انتظار ! !

وكم وكم من مثل هذه الرؤى اليقظ ، ترتفع سورها . فيراها الإنسان رأى
العين ، أو يحدد مسها في حنقات قلبه ، أو ما رب تفكيره !
ولهذه القوه الاستطلاعية فترات تستيقظ فيها ، كما أن لها فترات أخرى تخمد
فيها جدوتها ، ويفتر زاطها .

والأحداث التي تنتظر الإنسان في خاصة نفسه ، أو تنتظره مع الناس في دائرة
أوسع وأشمل — لهذه الأحداث أثرها في تحريك هذه القوه ، وفي ابعائها من
مكانها !

فإذا كانت تلك الأحداث ذات طابع توري تنقلب به الأوضاع القائمة في
الحياه ، ويتحول به سسير الأمور على غير الوجهة التي هي عليها — فإن ذلك
مما يوجب هذه القوه المتدسية في الناس ، ويحرضها تحريضا قويا على أن تنبم بروفي
هذه الأحداث ، وتنقسم أرواحها ، وتفتح خيالاتيها على مهاها ، فجدها ، قبل
أن تولد في الواقع الذي يعيش في الناس ، وتعرف إليها قبل أن تقع عليها عين ،
أو تلمسها يد !

ولك أن تسمى هذه القوه حاسة — غير الحواس الخمس المعروفة — حاسة
خفية مهمتها أن تستقبل — أحيانا — مالا تستطيع الحواس المعروفة استقباله
من أنباء وأحداث !

ففي المراسد — مثلا — أجهزة تنبيء عن العاصفة قبل أن تحي ، وعن
الهزات الأرضية قبل أن تقع . . وإنما في هذه الأحوال ، لا تخلق العاصفة ،
ولا تصنع الهزات ، وإنما كل ما في الأمر أنها أدو حسا ، وأسرع تأثيرا من
تلك الأجهزة الكائنة في الإنسان . وعملها هنا أشبه بما يسمى السبق الصحفي في
عمل الصحافة اليوم . . !

نقول إن الأحداث إذا كانت ذات طابع توري في الحياه هيبت هذه القوه
الاستطلاعية الكامنة في الإنسان ، ودعتها إليها ، فرأت مالا يرى الناس ، وعرفت
مالا يعرفون . ثم عادت فألقت إلى الناس بآنباء وأخبار ، يعجبون لها ، ويدهنون
بها ، ويقفون منها بين مصدق ومكذب . حتى تلتقي بحواسهم وتقع تحت مدركتهم .

والنبوة أمر عظيم . وحدث عجب ، قلما تشهد الحياة مثالا له ، إلا حين يظهر نبي ، وتظهر في الحياة دلائل نبوته ١٠

إن النبوة صلة مباشرة بين السماء والأرض ١ فحين يظهر نبي يكون معناه أن السماء قد التقت بالأرض ، أو أن الأرض قد تلاقت مع السماء على يد إنسان من الناس . . إنسان يتناول من السماء بعض ما فيها من رحمة ونور ، ليأخذ الناس بحظهم من هذه الرحمة ، ومن هذا الدور ١

ونبوة محمد ، آية الآيات في النبوات . . ولها من الآثار في الحياة بقدر ما تفرق في النبوات كلها . . لأنها ليست لشعب ، أو قبيلة أو بلدة ، وإنما ليست لجيل أو جيلين أو ثلاثة من أجيال الناس . . بل هي للإنسانية كلها ، وللأجيال جميعها . . منذ ظهور هذه النبوة إلى أن ينتهي دور الإنسانية على هذه الأرض ١ فإذا آن أو ان هذه النبوة ، وأطل زمانها ، وحن مولدها - كان لها في كيان تلك القوى الاستطلاعية الكامنة في الناس دوى عظيم ، يكاد يحيل هذه القوى إلى كائنات حية ، تحدث عن استطلاعاتها بلسان قوى مبين ١

وقد حدث هذا أو ما يقاربه حين بدأت الخيوط الأولى من أسعة الفجر تظهر في آفاق الجزيرة العربية مؤذنة بأن مطلع شمس النبوة سيحىء بعد هذا الفجر الوليد ١

فلقد استيقظت في الناس قوى روحية تتلمس مواقع هذا النور ، وتتهدى إليه ، وانتقدت في صدور كثير منهم شرارة الإيمان ، فأوقدت في صدورهم جذوة مضطربة قلقلة ، لم يستطيعوا معها صبرا على معتقداتهم الفاسدة التي وجدوا ريمها العفن ، حين طلعت عليهم ريح النبوة ، واستطابوا شميمها الزكي العطر ١

وتسجل صحف التاريخ لهذه الفترة التي قامت بين يدي النبوة أنباء وأحداثا كثيرة مستفيضة . قد بلغت حدا من الكثرة والفراقة دعا بعض الناس إلى إنكارها وتسكيزها بجملة وتفصيلا ، كما دعا بعضا آخر إلى قبول بعضها ، والتوقف عند بعض ، وإنكار بعض ١

والذي نراه في هذه الأخبار ، ونكاد نقطع به هو أن الأصول التي قامت عليها هذه الأخبار أصول صحيحة سليمة . . فإن ظهور النبي ؛ بل خاتم الأنبياء ،

لا يمكن أن يقع دون أن يقوم بين يدي موكبه من يعمل في الناس نبأه . ويفسح الطريق لهذا الموكب الجليل المهيّب .

أرأيت إلى الشمس ؟ أتراها تطلع في أفق من الآفاق دون أن تسبقها أصواء الصباح ، ودون أن تقوم بين يديها أنسام الفجر لتوقظ الأحياء لها ، وتهدئهم لاستقبالها ، وتملاً عيونهم نوراً هادياً مترقفاً قبل أن يعمرهم عروقها ، ويفشى أبصارهم شعاعها ؟

ثم أرأيت إلى صنيع الناس وتدبيرهم مع ملوكهم ورؤسائهم ؟ أتراهم يلقون هؤلاء الملوك والرؤساء فحاة وعلى غير انتظار ؟ أم تراهم يتخذون لذلك من الوسائل ما يوقظ الناس ويلفتهم إلى لقائهم قبل أن يظلموا عليهم ، وتلتنى أعينهم بهم ؟

وما الشمس في جلالها وعظمتها ؟ وما الملوك والرؤساء في سلطانهم وهيبتهم ؟ لأنهم أرض والنبوه سماء ! ولأنهم رعية والنبوة راعية . ! ولأنهم جند والنبي قائد ! ولأنهم صغار والنبي قيم على هؤلاء الصغار ! !

فهذه الأخبار التي تروى عن الذين شاهدوا أنوار النبوة قبل أن تبرخ ، وشاموا مخايل النبي قبل أن يظهر - هذه الأخبار تستند - كما قلنا - إلى أصول صحيحة ، وتقوم على واقع لا شك فيه ... والسكن الذي يؤخذ على هذه الأخبار هو ما دخل عليها من إضافات ، وما تلبس بها من عواطف ومشاعر ، وما زحف عليها من مفتريات وأكاذيب ! ..

فلقد زين لسكثير من القصاص أن يجعلوا من هذه اللبحات الخاطفة ، ومن هذه الرؤى العابرة ، التي وجدها بعض ذوى النفوس العاجية ، والمنازع المتوفزة من ربح النبوة - هـ خماثر ، لخلق ملاحم ذات طول وعرض . كان لها أثر كبير في أن جرأت بعض السكدايين والمفاقيين ، وأعداء الإسلام ، أن يتزيدوا ، وأن يحتلقوا من الباطل صوراً شائمة كادت تفسد بهاء تلك الصور الجميلة ، التي وجدها أولئك الرواد الذين سبقوا إلى مطالعة أنوار النبوة ، قبل أن تبرع شمسها ، والتي سلم بعض ما نقل إلينا من أخبارها .

والأخبار التي بين أيدينا كثيرة — كما قلنا — ، وقد اجتمع فيها الصحيح إلى السقيم ، واختلط الحق بالباطل ! . غير أن التفرقة بين الصحيح والسقيم ، والفصل بين الحق والباطل أمر هين في هذه الأخبار ، فإن أدنى نظر يكشف الزائف منها ويفضحها ، إذ كان الكذب فيها يكاد — لسناعته وسوء تصويره — يذيع عن نفسه ، ويدل على من ألقى به في هذا الوجه الأسود المشوه في موكب النبوة ، الفياض بالنور ، والجلال ! ! .

عمور من الحق :

ونذكر هنا بعضاً من هذه الأخبار التي نطمئن إليها ، ونرى أنها كانت حديرة بأن تقع ، وإن لم تكن قد رقت فعلاً ، لأنها أقرب شيء إلى النبوة ، وأمس نسباً بها :

١ — دين الحمس

في العام الذي ولد فيه النبي أو قبيله أو بعده بقليل ظهرت في قريش موجه من الأفكار الدينية ، ذات الطابع الحماسي ، المتحذ إلى فرص أعباء ثقيلة على النفس ، وحملها على الجانِب الوعر العنيف من الحياة . .

فلقد تذبذبه في قريش شعور قوى بالدين ، فأوقد في نفوسهم ذلك الحماس القوي للجباة الدينية في كياناتهم . . وخيل إليهم — إن حقاً وإن باطلاً — أن من كمال العقيدة الدينية وتماها أن نكثر فيها التكاليف ، وتضاعف القيود ، وأن الإنسان بقدر ما يحمل من تكاليف ، وما يحتمل من قيود يكون حظّه من الدين ومكانه بين المتدينين ! .

وحديث الحمس ، كما يرويه ابن هشام ، في سيرته عن ابن إسحق هو :
« قال ابن إسحق : « وقد كانت قريش — لا أدري قبل الفيل أو بعده — ابتدعت رأى الحمس . . رأياً رأوا رأوه ، فقالوا : « نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمه ، وولاه البيت ، ووطان مكة ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ،

هذه هي حبيبات القمح التي اجتمعت فريش لبحثها ، وإصدار حكم
يرتصونه فيها . .

فهم يعرفون لأنفسهم هذه المسكنة التي تشرفوا بها ، واستحقوا من أجلها
الإجلال والتعظيم من العرب قاطبة .

لأنهم أبناء إبراهيم ، وولد إسماعيل .

وهذا النسب ، وإن شاركهم العرب فيه ليس كل ما لهم من شر . . . إذ هم
إلى هذا النسب ولادة البيت ، وفطان مكة التي شرفت بالبيت الحرام ، ورفعت
منزلتها فوق منازل القبائل العربية كلها ، فكابوا من أحل هذا موضع احترام
العرب قاطبة ، يرحلون رحلتى الشتاء والصيف . إلى اليمن وإلى الشام في تجارتهم
آمنين ، لا يعرض أحد لهم بسوء . . حتى جاء الإسلام وهم على تلك الحال . .
وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى مذكراً قريشاً بعباده النعمة : « أولم يروا أنا
جعلنا حرمهم آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم » ، ويقول سبحانه : « لإيلاف
قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم
من جوع ، وآمنهم من خوف . .

نقول : إن هذا الذى وقع فى نفس قريش من إحساسها بالميزات التي لها ،
والتي سلم العرب لهم بها — إن هذا كان داعية لهم أن يجتمعوا هذا الاجتماع
الكبير ، وأن يدبروا فيه وجوه النظر فيما ينبغي أن يكون عليهم لزاء هذا
الفضل الذى كان لهم .

وقد انتهى هذا المؤتمر إلى مقررات . . كان على قريش أن تلتزم بها ، وأن
تقوم على تنفيذها ، تنفيذاً صارماً لا هوادة فيه . .

وأهم هذه المقررات :

أولاً : ألا يعظموا شيئاً من الحل كما يعظمون الحرم . .

ثانيا : لا ينبغي لهم - وهم الخمس - أن يأتقطوا الإقط (١) ،
أو يسألوا (٢) السنن وهم حرم .

ثالثا . ألا يدخلوا بيتا من شعر ، وألا يستظلوا إذا استظلوا إلا في بيوت
الآدم (٣) ما كانوا حرما .

رابعا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل
إلى الحرم ، إذا جاءوا حاججا ، أو عمارا .

خامسا : لا ينبغي لأهل الحل إذا جاءوا حاجين أو عمارا أن يطوفوا
بالبيت إذا قدموا إلا في ثياب الخمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت
عراة ، فإن تخرج منهم - أى من أهل الحرم - رجل أو امرأة من الطواف
عريانا فطاف في ثيابه - ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسه
هو أو أحد غيره أبدا . . وكانت العرب تسمى هذه الثياب : اللقي (٤) .

ويقول ابن إسحق : في رواية ابن هشام عنه : إن هذه المقررات لم يصدرها
المؤتمرون دفعة واحدة ، ولكنها جاءت تباعا ، واحدة إثر واحدة . . كلما أذنوا
العرب أمرا منها جاءوا بغيره ، وهكذا !

وليس يعني أن نقف عند هذه الملاحظة التي نبه إليها ابن إسحق . من أن
هذه المقررات لم تصدر مرة واحدة . . وإنما الذي يعنيها هو تلك المقررات
نفسها . وما حملت من دلائل وأمارات .

وأهم ما يلقانا من هذه الدلائل أن قريشا قد عزلت نفسها عزلا روحيا
عن القبائل العربية كلها . . فجعلوا البيت الحرام وحده هو مكان تقديسهم
واحترامهم . . أما ما عداه من الشعائر الأخرى التي كان يعظمها العرب جميعا
ومنها قريش فقد أحلوا أنفسهم منها . . فتركوا الوقوف على عرفة ، والإفاضة
منها ، وهم يعرفون حق المعرفة أنها من المناسك ، والحج ، ودين إبراهيم ، ويرون

(١) يأتقطوا : أى يأكلوا ، والإقط شيء يتخذ من خيش الغنم .

(٢) يسألوا السنن : يطبخونه . (٣) الآدم : الجلد المدبوغ

(٤) كتاب السيرة لابن هشام : الجزء الأول ص ١٨٩ وما بعدها .

لنائر الدرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا : ونحن أهل الحرم ، فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرم ، ولا نعظم غيرها . . نحن الخمس ا ، (١)

وهذه العزلة الروحية لاشك أنها دليل يقظة ، وأمانة تذب لهذا الأمر العظيم ، الذى ستتكشف عنه الأيام بعد قليل ، والذى ستكون وجهته — أول ما تكون — الجانب الروحى فى الناس ، وأن فريشاً هى أول من تلتقي بهذا الأمر العظيم . . رضى السماء ، على لسان رجل من قرىس . . هو محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه !

٢ — رجال فى الطليعة

وهذه الدفعة من الخمس الروحى التى حملت فريشاً على أن تتخذ هذا الموقف — الذى أشرنا إليه — والذى انتهى بها إلى أن تفرض على نفسها وعلى الناس ما فرضت من مقررات — نقول إن هذه المروحة من الخمس الروحى كان لها عند بعض ذوى العقول الناضجة ، والمناعر الحية أصداء بعيدة لم تقف بها عند هذه المقررات ، بل دفعت بها إلى آفاق أبعد مدى ، وأرحب ساحة من هذا الأفق الذى وقفت قريش عنده !

ويحدث ابن إسحق ، فيما يروى ابن هشام عنه ، فيقول : « اجتمعت قريش يوماً عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويدبرون به ، وكان ذلك عيداً لهم ، فى كل سنة ، يوماً . . فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكنتم بعضكم على بعض ا قالوا أبل . . وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحريث ، وزيد بن عمرو بن نفيل . . »

« وقال بعضهم لبعض : « نملوا (٢) . . والله ما قومكم على شيء . . لله

(١) السيرة : جزء أول ص ١٨٩ ،

(٢) « نملوا » ،

أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ١٠٠ ما حجر نطيف به ؟ لا يسمع ولا يبصر ،
ولا يضر ولا ينفع ؟٠٠ يا قوم : اتمسوا لانفسكم . . فإنكم والله ما أنتم
على شيء ١١ .

فنفروا في البلدان يلتمسون الحيفية ، دين إبراهيم (١) .
ويقول ابن إسحق عن هؤلاء الأربعة : أما ورقة بن نوفل فاستحكم في
النصرانية واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علماً من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس ، حتى جاء الإسلام
فأسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان (٢)
مسلمة ، فلما قدم الحبشة تنصر ، وفارق الإسلام حتى هلك نصرانياً !

وأما زيد بن عمر نميل فوقف ، فلم يدخل في يهودية ، ولا نصرانية ، وفارق
دين قومه واعتزل الأرنان ، والميعة والدم ، والدبائح التي تدج على الأونان ،
ونهر عن قتل الموءودة ، وقال : اعبدوا رب إبراهيم وبأدى (٣) قومه بعيب
ما هم عليه .

قال ابن إسحق : « وحدثني همام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبي
بكر رضي الله عنهما ، قال : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نميل شيخاً كبيراً مسنداً
ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو
بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري ! ثم يقول : اللهم ، لو أني أعلم
أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنني لا أعلم ، ثم يسجد على
راحته ، (٤) .

(١) السيرة جزء ١ ص ٥٤ .

(٢) محببة هذه هي أم المؤمنين زوج النبي . وقد تزوجها بعد أن طلق من زوجها عبيد الله
ابن جحش الذي تنصر في الحبشة ، وكان الجاشي ، هو الذي تولى من ترويضها للنبي ،
وأصدقها عنه .

(٣) بأدى قومه : أهلهم وصرح لهم .

(٤) السيرة : جزء ١ ص ٢١٦ .

ثم لا يزال زيد بن نقييل هذا يتقلب في البلاد باحثاً عن الدين الذي يستريح
إليه حتى ينتهي به المطاف إلى الشام ، فيلتقي براهب ينصح له أن يلتصق بالحنيفية ،
دين إبراهيم عند نبي سليمان في بلاده وأن زمانه قد أظلم ، فخرج من الشام سريعا
يريد مكة حتى إذا توسط بلاد الحنم عدوا عليه فقتلوه ، (١)

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد تضاربت أخباره ، ولم يعرف المصير الذي
صار إليه .

ولا نظن أن هذا الأمر قد وفف عند أولئك الأربعة الذين حفظ التاريخ
ذكرهم . إذ لا بد أن يكون هناك كثير غيرهم قد وقع في نفوسهم ما وقع في نفوس
هؤلاء . وأنهم التمسوا ما التمس هؤلاء . ولكن لم يقدر لهم أن يكون أمرهم في
سجل التاريخ ، وأن يكون حديثاً يروى ، وخبراً يحدث به .

وشاهدنا على هذا ؛ أولئك الذين سبقوا إلى الإسلام ، واستجابوا لأول
دعوة من الرسول دون توقف أو تردد . كأي بكر ، وعلى ، وعثمان ، والزبير بن
العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد
الله ، وزيد بن حارثة . . ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو مسلمة بن عبد
الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم . . . وكثير غيرهم من السابقين الأولين (١) .
فهؤلاء السابقون إنما سبقوا بما وقع في نفوسهم قبل النبوة من إلهامات
ومشاعر بها .

٣ — الرهبان .. والكهان

وإذا كان في الناس من يسبق إلى موارد الروح ، ويتهدى إلى مواطنها ،
فإن أكثر الناس استعداداً في هذا المجال ، وأقدرهم عليه هم الرهبان والكهان . .
لذلك كان الرهبان قد وضعوا أقدامهم على أول الطريق منذ سلّموا مسلك
الرهبنة ، فكانت الروح هي مطلبهم ، وكان الانقطاع عن الدنيا ، واعتزال

(١) السيرة : جزء أول ص ٤٦٢ .

() انظر السيرة : جزء ١ ص ٢٣٧ .

مافيهما هو زادهم الذى يتزودون به لقطع مراحل هذا الطريق الطويل . . ولا شك أن هذه الرياضة الروحية التى تقوم عليها حياة الرهبان ذات أثر كبير فى صفاء النفس ، وشفافية الروح ، وتهيتها لاستقبال الرؤى عن الأحداث ، والإحساس بها قبل أن تقع فى مواطن الحس عند الناس .

وكذلك الشأن فى أصحاب السكينة ، فإنهم قد اتجهوا بأنفسهم إلى استكشاف ما وراء الحس ، ووجهوا قلوبهم وعقولهم إلى عالم الغيب ، لعلمهم يصيدون شيئاً منه . . وإفنه لغير مستبعد أن يلتقط بعضهم بين الحين والحين إشارة من هذا العالم ، تنبئ عن الأحداث قبل أن تصير فى واقع الناس ، بزم . . قد يطول ، وقد يقصر ، بحسب ما عند المستطلع من استعداد للتلقى والاستقبال !

وعلى هذا فكل ما يروى من أخبار الرهبان والسكان من استطلاعات فى عالم الغيب ، وتنبؤات عن المستقبل هم من قبل السبق فى الرؤية بعين البصيرة للأمر قبل أن يقع فى متناول العين المبصرة ؟

وكذلك ما نقل الرواة والمؤرخون من أحاديث الرهبان والكهان عن مبعث الرسول إنما يضاف إلى هذا الحساب ، ويقدر بهذا التقدير .

ويرى « ابن إسحق » أن مصدر علم الرهبان والأخبار من اليهود والنصارى فى الإخبار بمبعث النبى — يرجع إلى ما عرفوا من كتبهم ، وما فيها من صفة النبى ، وأوصافه زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم لإيهم فيه .

ولا مناهة بين هذا الذى يقول به ابن إسحق ، وما نراه من تنبيه الإحساس الروح عندهم وتهيتهم للرؤى التى تسبق واقع الأمور والأحداث . . ولا بأس من أن يكون هذا العلم الذى علمه الأخبار والرهبان من كتبهم عن مبعث النبى ، مجتمعة إلى تلك الرياضة الروحية . . فيكون لهذا العلم أثره فى حمل النفس على التطلع والبحث فى ثقة ، وفى يقين من أنها تبحث عن شيء لا بد من أن تجده وتقع عليه ، وأنها إن أخطأته يوماً ، فذلك لأنها لا تملك القدرة على الوصول إليه ، لأنه غير موجود . . كما يكون لهذه الرياضة الروحية أثرها فى الإمساك بالنفس على النظر والتطلع ، دون أن يغلبها اليأس أو يستنفد طاقة خبرها القلبي ! !

قال « ابن إسحق » وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى
والسكمان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعته ،
لما قرب من زمانه :

و أما الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فما وجدوا في كتبهم
من صفته ، وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ، وأما السكمان من
العرب فأنتهم به الشياطين من الجن ، فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى
لا تحتجب عن ذلك بالقذى من الدحوم . وكان السكاهن والسكاهنة لا يزال يقح
منهما ذكر بعض أموره — أى النبى — ، لاتفى العرب لذلك فيه بالاحتى
بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها (١) :

من أحبار الأحبار والرهبان :

كان أهل المدينة — وهم الأنصار من الأوس والخزرج — أسبى العرب إلى
الإسلام .. فهم الدين بايعوا الرسول على الإيمان به ، وبما نزل عليه من الكتاب ،
كما بايعوه على نصره الدين الذى جاء به .. وكان ذلك فى بيعت العقبة — الأولى
والثانية — بمكة .. وهم الدين كانت إليهم هجرة الرسول ، ومن موطنهم — المدينة
— ارتفع لواء الإسلام ، وبسيوفهم وسيوف من هاجر إليهم من المسلمين انتصر
الإسلام وعز المسلمون !

وهذا السبق إلى الإسلام الذى كان من أهل المدينة قد مهدت له أسباب ،
ودعت إليه أحوال وملابسات لما أراد الله لهذا الحى من العرب من خير ،
وعز وكرامة ، فى الدنيا والآخرة .

أما هذه الأسباب وتلك الملابسات فهى ما كان عند اليهود بالمدينة من علم
بمبعب نبى عربى ، بشرت به التوراة ، وكشفت لهم صفته وصفة زمانه ، وكان
اليهود من أجل هذا العلم يندرون الأوس والخزرج — وهم الأنصار فيما بعد —
ينذرونهم بالنبى المبعوث الذى سيكونون له أتباعا وحواريين ، وأنهم فى جانب

هذا النبي سينالون عزا وقوة، تأخذ لهم من الأوس والخزرج بحقهم، وتبدل من ضعفهم قوة، ومن خذلانهم نصراً ..

قال ابن اسحق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه - الأوس والخزرج - قالوا : بما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداية لما كنا نسمع من رجال يهود .. كنا أهل شرك . أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا . . وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور . .

و فإذا قلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا : إنه قارب زمان نبي يبعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكننا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فأمننا به ، وكفروا هم به ، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » فلعنة الله على الكافرين ، (١)

ويروى ابن هشام عن ابن اسحق خبراً آخر من أخبار اليهود ، وما كان عندهم من علم في شأن النبي العربي ..

يقول ابن اسحق : عن سلمة بن سلامة بن رقيش - وكان سلامة من أصحاب بدر - قال : كان لنا جار من يهود ، فخرج علينا يوماً من بيته ... فدكر القيامة، والبعث ، والحساب ، والميزان ، والجنة - والنار . . قال ذلك لقوم أهل شرك ، أصحاب أوثان ، لا يرون أن بعثاً كائن بعد موت . . فقالوا له : ويحك يا فلان ! أوترى هذا كائناً .. أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ، يحزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم ، والذي يحلف به ، لو ددت أن حظي من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه ، ثم يدخلونني إياها ، فيطنونني على وأن أنجو من تلك النار غداً ! فقالوا له : ويحك يا فلان ! فما آية ذلك ؟ قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن ، قالوا ومتى نراه ؟ قال - سلمة - فظنر إلى

وأنا من أحدثهم سناً فقال : إن يستغفد هذا الغلام عمره يدركه ! قال وسلمة ، فواته مذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهو - أى اليهودى - حى بين أظهرنا ، فآمننا به ، وكفر به ، بغياً وحسداً .. قال فقلنا له : ويحك يا فلان !

ألست الذى قلت لما فيه ما قلت ؟ قال : بلى ! « ولكن ليس به (١) » .

وتحدثت كتب السيرة عن كثير من أحبار الرهبان ، كانوا يرصدون مطلع النبوة فى الجزيرة العربية ، لما عندهم فى التوراة من أخباره ، وصفاته ، وصفاته زمانه ، والافق الذى يطلع منه .. قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويتضح عنهم لأمرهم ، والأغلال التى كانت عليهم (٢) » .

وهذه الأخبار المروية عن اليهود فى بعثة النبي إنما تستند إلى هذا العلم ، يظهرها ما كان عند أحبار اليهود من استعداد نفسى وروحى لاستقبال أول أنسام النبوة . والتهدى إليها . . . ولكن ليس كل من يعرف الخير ينفع به . . . فحين ظهر النبي ، ودعا الناس إلى ما أمره الله به أن يدعوهم إليه أضمو آذانهم ، وأعرضوا عنه ، . . . بغياً وحسداً . . . ولم يدخل فى الإسلام منهم إلا جماعة قليلة ، أراد الله لها الخير ، وذال لها الطريق إليه .

ولنا هنا أن قلعت إلى استيطان اليهود المدينة وتجمعهم حولها . . . فما كانت بلاد العرب بالموطن الذى يعيش فيه غير أهله العرب ، ولا كان اليهود خاصة يستطيعون الحياة فى هذه البلاد القفر . وهم أبداً طلاب صيد ، لا يمسكهم شيء إلا إذا وجدوا منه ربحاً عاجلاً . . . فإذا حمل اليهود على أن يحبوا هذه الحياة القاسية فى هذه البلاد القفر ، غرباء مستضعفين ؟

(١) السيرة ج ١ ص ٢٠٢ ، نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٤٣

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧

والرأى الذى نستريح إليه فى تعليل هذه الواقعة هو أن اليهود بما عدهم من علم من التوراة فى شأن النبي العربى الذى بشرت به التوراة ، وذكرت أوصافه وأوصاف زمانه ومكانه — هذا العلم قد دعا كثيراً من اليهود إلى التطلع إلى البلاد العربية ، وارتقب ظهور هذا النبي ، كما حمل هذا العلم كثيراً منهم إلى الهجرة إلى بلاد العرب ليكونوا فى استقبال النبي عند ظهوره . وكانت المدينة أول بلد يلقاه اليهودى فى وجهته إلى الجزيرة العربية من أرض الشام . وكان من الطبيعى أن تكون المدينة محط رحال هؤلاء اليهود الوافدين على الجزيرة ، انتظاراً لبعثة النبي . وكان أن ازداد عدد اليهود مع الزمن بالتوالد والتوافد حتى صار لهم فى المدينة مجتمع ، له آثاره ومكانته فى حياة المدينة . . الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . حتى جاء الإسلام فوقفوا منه هذا الموقف اللئيم البعيد ، فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يحلوم عن هذا البلد الطيب ، وأن يطهروا مسهم مواطن الإسلام .

٤ - من أخبار السكك

والسكك ضرب من الرجم بالغيب ، وادعاء بالكشف عن أحداث المستقبل وما يتوقع من أمور !
وقد عرف العرب السكك ، وحفظ التاريخ أسماء كثير من السكك والسمات .

وكان للسكك والسمات مكانة مرموقة بين القبائل ، تجيء إليهم الناس من كل جهة ، يستفتونهم فى كثير من الشئون ، ويتدافرون إليهم ، للحكم بينهم فيما يختصمون فيه ، من نسب ، أو شرف ، أو غير ذلك من شئون الناس فى الحياة .
وقد لعب السكك دوراً كبيراً فى حياة الأمة العربية ، وفى تحديد اتجاهات أفكارها فى الحياة .

ويغلب على السكك أن يكونوا من الزمنى وذوى العاهات ، الناجمة عن نقص فى الخلقة ، أو شذوذ فى الطبيعة . فان غرابة الخلق فى إنسان من الناس توقع

فى نفس من يراه أن هذا الخروج على الطبيعة فى تكوينه لابد أن يكون وراءه أسرار وعجائب ، تظهر أكثر ما تظهر فى الجانب الروحى منه ، وفى اقتداره على الاتصال بالملا الأعلى ، والتلقى منه . . كما يفرى هذا الخلق العجيب صاسبه بأن يكون شيئاً فى الحياة ، وأن يحىء إلى الناس بما لم يحسبوا به ، إذ جاء هو إلى الحياة على غير الصورة البشرية التى جاءوا هم بها ! ونشهد نحن هذا فى جماعات «المجاذيب» وفى اعتقاد كثير من الناس فيهم . . فإن الذى يغلب عليهم هو هذا الشذوذ فى الخلقة . . من نقص ، وتنبؤيه !

وقد كان للسكان دور كبير قبيل البعثة النبوية . . إذ كثر لغظهم ووسواسهم بهذا الأمر العظيم ، الذى سيتطلع على الناس من قريب !

وكان السكان يسندون عليهم هذا الذى يلقونه فى آذان الناس إلى الجن الذين هم أقدر من الناس على التقاط أنباء السماء ، وما تصدر إلى الناس من أحداث ! فكان لكل كاهن أو كاهنة ، رثى ، أو رفيق من الجن ، تتوثق بيده وبين صاحبه أواصر الصداقة على طول الصحبة ، وامتداد الأيام !

ويذكر القرآن ما كان للجن من استطلاعات للغيب ، ومحاولات فى استراق السمع . . فقال تعالى عن الجن واستراقهم السمع ، «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لاندري أشر أريد من فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً» (١) .

يقول ابن هشام : فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر مبعثه حجت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله فى العباد ! (٢) .

وهذه المستمعات التى كان يسترقها الجن إنما ليوسوسوا بها فى صدور بعض

(١) سورة الجن آية ٩ ، ١٠ .

(٢) السيرجاء أول من ١٩٥ .

الناس ، وليجعلوا منهم متابعين يفتنون الناس بهم ، ويلبسون عليهم أمورهم ، بما يخلطون بين الحق والباطل من تلك الأنباء التي يلقون لأبيهم بها .

عن ابن عباس عن نفر من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرى به ؟ قالوا : يأنى الله . . كنا نقول حين رأيناها يرى بها : مات ملك . . ملك ملك . . ولد مولود مات مولود ! » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس ذلك كذلك . . ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش ، فسبحوا ، فسبح من تحتهم ، فسيح للتسبيحهم من تحت ذلك . . فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا ، ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟ فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا للتسبيحهم ! فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟ فيقولون مثل ذلك ، حتى ينتهوا إلى حملة العرش ، فيقال لهم مم سبحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا . . للأمر الذي كان . . فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به ، فيسترقه الشياطين بالسمع ، على توهم واختلاف . ثم يأتوا به السكهان من أهل الأرض فيحدثوهم به . فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به السكهان فيصيبون بعضاً ويخطئون بعضاً . . ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين بهذه الحوم التي يقذفونها ، فانقطعت المكافأة اليوم . . فلا كهانة (١) » .

ويقول ابن إسحق فيما يرويه عنه ابن هشام : « وأما السكهان من العرب فأتتهم به — أى بما تحدثوا به من بعثة النبي — الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى لا تحتجب عن ذلك بالقذف من النجوم . . وكان السكاهن والسكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أمورهم — أى أمور النبي — لالتقى العرب لذلك فيه بالآ ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها (١) » .

ويرى ابن خلدون أن انقطاع الكهانة ، كان موقوتاً في زمن النبوة ،
لأن ضوء النبوة أشبه بضوء الشمس يخفت فيه كل ضوء ! ثم لما انتهى زمن
النبوة لم يكن هناك ما يحول بين الكهانة وبين أن تظهر ، إذ غربت الشمس التي
كانت تلزمها أبحارها ! وأنه وإن كان قد بطل الاستراق الذي كانت تسترقه الجن
وتلقى به في صدور الكهان ، فإنه قد بقي للكهان ما في نفوسهم من استطلاعات
خاصة ليست لغيرهم من الناس ، وهم بهذه الاستطلاعات يلقون الناس ، ويلقون
لهم بما عندهم ، وبما ليس عندهم ، من مزاعم وأكاذيب .

يقول ابن خلدون : « وقد زعم بعض الناس أن الكهانة قد انقطعت منذ
زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة ، وأن
ذلك كان لمنعهم من خبر السماء ، كما وقع في القرآن . . والكهان إنما يتعرفون
أخبار السماء من الشياطين ، فبطلت الكهانة من يومئذ !

« ولا يقوم من ذلك دليل . . لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين ،
تكون من نفوسهم أيضاً .

« فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء ،
وهو ما يتعلق بخبر البعثة ، ولم يمنعوا عما سوى ذلك .

« وأيضاً ، فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ، ولعلها عادت
بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر . . لأن هذه المدارك كلها تخمد
في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرّج عند وجود الشمس ، لأن النبوة
هي النور الأعظم الذي يخفي معه كل نور .

« وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع ، وهكذا
مع كل نبوة وقعت ! لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلسفي يقتضيه ، وفي
تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها . ونقص ذلك الوضع عن التمام
يقتضى وجود طبيعة — مع ذلك النوع الذي يقتضيه — ناقصة ، وهو معنى
الكهان . . فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ، ويقتضى

وجود الكاهن ، إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم الوضع تم وجود البى بكاله ،
وانقصت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة ، فلا يوجد منها شيء . (١) .

ونظرة الحسكاه هذه التى يروىها ابن خلدون عنهم فى تعليل ظهور السكنة
بين يدي النبوة وإضافة ذلك إلى أوضاع فلسفية هى على حسب ما كان مقررأ
فى الفلسفة القديمة عن تحكم الأفلاك فى مسائر الأمور ، وقيام كل فلك على حال
من أحوال الوجود !

ويمكن أن نجعل هذه النظرة فى وسع آخر غير مستند إلى هذا النظام
الفلسفى . . وهو — كما قلنا من قبل — : أن الأحداث العظيمة . لا بد أن تقوم
بين يديها شواهد ودلالات ، هى أشبه بالصورة الذى يحمله الفجر بين يديه ،
مؤذناً بطلوع الشمس . . فهذه الرؤى ، والاستطلاعات التى تقع للناس بين يدي
الأحداث العظيمة هى من هذا القبيل . . !

وفى القرآن ما يكشف عن شيء من هذا . . فقد ذكر القرآن عن فرعون
مصر تلك الرؤيا التى رآها فى نومه ، وكانت تحمل فى طياتها تصويرأ كاملاً
لهذا الحدث العظيم الذى ستلده الأيام بعد بضع سنين ، والذى سيكون له أثره
اللقوى فى حياة الشعب الذى يقوم هذا الملك على تدبير أموره .

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . .
وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . . يا أيها الملأ أفتوني فى رؤياى إن
كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام
بعالمين » (٢) .

ولم تكن هذه الرؤيا أضغاث أحلام ، ولكنها كانت استطلاعاً صادقاً
لما سيقع من أحداث . ولم يكن عند فرعون ، ولا عند كهنته وسحرة من يحسن
قراءة هذا الكشف الذى استقبلته نفس فرعون من العالم العلوى ! وكان لا بد

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٤٣ ، ٤٤ .

من نفس مشرفة تكشف عن هذه الرموز ، وتقيم منها حروفا ، وتبنى منها كلمات
وجملا واضحة مقروءة . . فكان يوسف عليه السلام هو الذى تولى هذا الأمر ،
وأحسن القيام عليه . . وكانت قراءته لهذه الرموز هى ما ذكره القرآن الكريم
عنه فى قوله تعالى : « قال تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه فى
سنبله . . إلا قليلا مما تأكلون . . ثم يأتى من ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم
لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه ينفاث الناس ، وفيه
يعصرون » (١) .

وأنت ترى أن حكمة يوسف وتدبيره لم تقف به عند تفسير هذه الرؤيا على
وجهها الصحيح وحسب ، بل إنه جاء بالتدبير الذى ينبئ أن يواجه به
هذا الحدث الذى تمكشفت عنه الرؤيا . . فلم يقل يوسف للهالك ومستشاريه من
حول : إنكم ستعيثون فى خصب ، وفى زرع وحماد سبع سنين ، ثم يأتى بعد
ذلك سبع سنين من الجلب والفقار . بل قال هذا الذى ذكره القرآن عنه ، وفيه
السياسة الحكيمة التى ينبئ أن يستقبل بها هذا الحدث العظيم . .

* * *

ونعود إلى الكهانة والسحرة ، وما كان لها ولهم من حديث فى شأن البعثة !
لقد حفظ تاريخ السيرة كثيراً من أخبار الكهنة ، من رجال ونساء — عن النبى
المبعوث . وما يكون له من شأن فى الناس ، وفى أوضاع الحياة !
شق وسططيج :

وكان « شق وسططيج » أشهر كاهنين فى الجزيرة العربية قبيل مبعث النبى ،
ولمهما كان المفزع فى كل أمر ذى خطر !
وقد أبى مؤرخو السيرة أن يكون « شق وسططيج » بمعزل عن هذا الحدث
العظيم الذى استيقظ له الوجود كله ! فجعلوا لها مشاركة فى أحداث النبوة ،
وأقوالاً مأثورة فيها !

ولا نستبعد أن يكون انتق وسطيح استطلاعات في موكب النبوة . . .
ولكن الذى نقف منه موقف النك والحذر هو تلك القصص المشيرة التى
يروىها الرواة عنهما فى هذا الامر، والتى يظهر فيها التلفيق والاصطناع ! وأقرب
شاهد على ذلك ما يروى عن ربيعة بن نصر ملك اليمن ، وما كان بينه وبين هذين
الكاهنين . . ! فقد حملت هذه القصة صوراً أشبه بالأساطير ، فى تناول الأحداث
وتدبير تحركها وانطلاقها على مسرح الحياة !

قال محمد بن إسحق : كان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين ملوك التبابعة . . فرأى
رؤيا هالته ، وفطع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ، ولا عاتماً ، ولا منجماً من
أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتي ، وفطعت بها . .
فأخبروني بها ، وتأويلها . . قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ! قال : إني
إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ! فإنه لا يعرف تأويلها إلا من
عرفها قبل أن أخبر بها .

فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا ، فليبع إلى وسطيح وشق . .
فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فإنهما يخبران به بما سأل .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق ؛ فقال له : إني رأيت رؤيا هالتي .
وفطعت بها ، فأخبرني بها . فإنك إن قصصتها أصبت تأويلها : قال : أفعل . .
قال الملك :

« رأيت حممة (١) . . خرجت من ظلمة . . فوقعت بأرض تهممة (٢) . .
فأكلت منها كل ذات جمجمة (٣) » فقال الملك ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ؛ فما
عندك فى تأويلها ؟ قال :

« أحلف ما بين الحرتين (٤) من حنن . . لتبهطن أرضكم الجبش ،

(١) قطعة نار .

(٢) أى أرض منخفضة .

(٣) يريد الرأس .

(٤) الحرة أرض فيها حجارة سود . . والبيت الحرام واقع بين حرتين . .

فليمسك ما بين أوبن إلى جرش (١) .

فقال الملك : وأبيك يا سطيح .. إن هذا لنا لغائط موحح . . ففتى هر كائن ؟
أفى زمانى أم بعده ؟ قال : لا بل بعده بحين . . أكثر من ستين أو سبعين . .
يمضين من السنين ! ، قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : لا بل
ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هارين ، .

قال : ومن يل ذلك من قتلهم ولمخراجهم ؟

قال : يليه إرم ذم يزن . يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً

بالين !

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع !

قال : بل يقطع ؟

قال : من يقطعه ؟

قال : نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى !

قال : ومى هذا النبى ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه
إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قل : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ،
ويشقى فيه المسيئون

قال : أحق ما تخبرنى ؟

قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفاق إذا اتسق ، إن ما أنباتك به لحق !

ثم قدم عليه شق ! فقال له كقوله لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح ، ليظهر
أيتفقان أم يختلفان ؟

قال شق : نعم . . رأيت حممة . . خرجت من ظله ، ف وقعت بين روض
وأكمة ، أكلت منها كل ذات نسمة . .

(١) أبن ، وجرش : الأولى بلد بالين ، والثانية محلاف بها .

فلما قال ذلك عرف أنهما قد اتفقا ، وأن قولها واحد ، فقال له الملك :
ما أخطأت يا سق منها شيئاً ... فما عندك في تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرتين من لسان لتبزلن أرضكم السودان ، فليعلمن
على كل طفلة (١) البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران !

فقال له الملك : وأبيك يا سق . إن هذا لما لغاظ موجه ! فتى هو كائن ،
أفي زمان أم بعده ؟ .

قال : لا بل بعده زمان .. ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ، ويذيقكم
أشد الهوان ! .

قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟

قال : ليس بدنى لامدن ... يخرج عليهم من بيت ذى وزن !

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع !

قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل
يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل !

قال : وما يوم الفصل ؟

قال : يوم تجزى فيه الولاة ... يدعى فيه من السماء بدعوات ... يسمع
فيها الأحياء والأموات .. ويجمع فيها الناس للبيقات ... يكون فيه لمن اثنى
الفوز الخيرات !

قال : أحق ما تقول ؟

قال : أي ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك
به لحق ما فيه أمض (٢) .

(١) الطفلة : الناعمة الرخصة من النساء .

(٢) الأمض : الملوك والمطل .

قال ابن إسحق : فوقح في نفس ربيعة بن نصر ماقالا ، فحجز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور . فاسكنهم في الحيرة . فمن بقيّة ولد ربيعة بن نصر السعدي بن المنذر ، (١) .

هذا دور « شق وسطيح » ، في أخبار السيرة النبوية ! وهو دور كان لابد لهم أن يؤدوه إذا كان للسكك مكان في أحداث السيرة النبوية وأنها .

ويروى « النويرى » في كتابه « نهاية الأرب » ، دورا آخر لكاهنة ، سببها بما كان من « شق وسطيح » . . يقول :

« يروى أن سفيان بن محاشع بن دارم احتمل ديات دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفع إلى حى من تميم ، فإذا هم محتجون إلى كاهنة تقول :

« العزيز من والاه ، والدليل من خاله (٢) والموفور من ماله (٣) والموتور من عاداه » .

قال سفيان : من تذكرين .. لله أبوك ؟

فقالت : صاحب حل وحرم ، وهدى وعلم .. وبطن وحلم ، وحرب وسلم ، رأس رموس ، ورائض يسوس ، وماحى بوس (٤) ، وماهد وعوس (٥) . .

قال سفيان : من هو ؟ . لله أبوك ؟

فالت : نبي مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث إلى الأحمر والأسود بكتاب لا يفند ، اسمه محمد »

قال سفيان : لله أبوك ! أعربى هو أم عجمى ؟

(١) السيرة : لابن هشام جزء أول ص ١٤ - نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٥٤

(٢) أى تركه وتخلّى عنه .

(٣) أى مالاه ، واجتمع إليه .

(٤) أى رؤس .

(٥) أى مهد الصعاب .

قالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الأفنان . إنه لمن معد ابن
عدنان ، فقدك (١) ياسفيان .

فأمسك سفيان عن سؤاها . . ثم إن سفيان ولد له غلام فسماه محمداً ، لما
رجاه من أن يكون النبي الموصوف (٢) .

ويروى صاحب السيرة الحلبية خبراً بمجلس رسول الله صلى الله
عليه وسلم . قال :

« روى عن هيب بن مالك اللبي قال : حضرت عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فذكرت المكهانة ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله نحن
أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند
القدف بالنجوم . . وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لما يقال له « خطر بن مالك » ،
وكان شيخاً كبيراً ، قد أتت عليه مئة سنة وثمانون سنة ، وكان أعلم كهاننا ، فقلنا
له : يا خطر . . هل عندك علم من هذه النجوم التي يرى بها الفينا قد فزعنا لها ،
ونخفنا سوء عاقبتها ؟

فقال : اتوني بسحر (٣) ، أخبركم الخبر ، بخير أم ضرر ، وأمن أم حذر ؟
فأنصرفنا عنه يومنا . فلما كان من غد في وجه السحر أتيناها ، فإذا هو قائم
على قدميه ، شاخص إلى السماء بمبينه . . فنأديناه : ياخطر . . فأوماً ليلينا أن
أمسكوا ، فأمسكنا . . فانقض نجم من السماء عظيم !

فصرخ الكاهن : أصابه إصابه (٤) ، خامره عتابه ، عاجله عذابه ، أحرقه
شبابه ، زايله جوابه . . ياويله ما حاله ، بلبله بلباله ، عاوده خباله ، تقطعت
سجباله ، وغيرت أسواله . .

ثم أمسك طويلاً . . ثم قال :

(١) قدك : أي كمالك .

(٢) نهاية الأرب : جزء ١٦ ص ١٦١ .

(٣) أي وقت السحر ، وهو قبيل النجر .

(٤) أي أصابه دأؤه الذي فيه رداه .

« يا معشر بنى قحطان ، أخبركم بالحق والبيان ، أقسمت بالكعبة ذات الأركان والبلد المؤتمن السدان (١) ، قد منع السمع عتاة الجان ، بشاقب بكف ذى سلطان ، من أحل مبعوث عظيم الشأن ، بيعت بالتنزيل والقرآن ، وبالهدى وقال الفرقان ، تبطل به عبادة الأوثان .. »

قال : قلنا يا خطر ، إنك لتذكر أمراً عجباً ، فإذا ترى لقومك ؟ فقال :
أرى لقومى ما أرى لنفسى أن يتبعوا خير بنى الإنس
برهاده مثل شعاع الشمس يبعث من مكة دار الحسن
بمحكم التنزيل غير اللبس

قلنا : يا خطر ، ومم هو !

فقال : والحياة والعيش ، إنه لمن قرئيس ، ما فى حكمه طيش ، ولا فى خلقه
هيش ، يكون فى جيش ، وأى جيش ، من آل قحطان وآل ريش (٢) .

قلنا : بين لنا : من أى قرئيس هو ؟

قال : والبيت ذى الدعائم ، والركن والأحائم (٣) ، وإنه لمن نبجل هاشم من
معشر أكارم ، يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان .

ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر .

ثم سكث فأغشى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاث .. فقال : لا إله إلا الله ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد نطق عن مثل نبوة ، وإنه ليبعث
يوم القيامة أمة وحده .. والله أعلم (٤) »

(١) أى سدة البيت الحرام ، جمع سادن .

(٢) آل ريش : قبيلة من الجن

(٣) الأحائم : جمع الجمع لحوم ، وهى طيور مكة .

(٤) السيرة الحلبية ١ ص ٢٠٩ .

معجزات الرسول .. بعد البعثة

وإذا كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة قد صحها هـ بل وسبقها ، هذا الدوى العظيم في قلوب الناس وفي عقولهم ، فتمخلق من هذا الدوى تلك الأنبياء التي جاءت تسبق مولده ، وتذيع في الناس البشائر بقرب مبعث النبي الأمي العربي !

وإذا كانت سيرة النبي قبل مبعثه جعلت لكثير من رواة الأخبار والقصص سبيلا إلى اصطناع الأخبار وتوليدها . وإلى الاستكثار بغير حساب من كل عجيبة وعجيب ، كما كان ذلك مدخلا لمبدأ لأصحاب الأهواء والضلالات يدخلون منه إلى سيره الرسول بمنارقات الأخبار التي ينطبق ظاهرها بتمجيد الرسول ورفع منزلته ، بينما تخوى في باطنها تشويه سيرته وتعكير مواردها الصافية ، وإلقاء طلال كشيقة عليها من الشكوك !

نقول — إذا كان هذا في سيرة النبي قبل بعثته فماذا يكون في هذه السيرة العظيمة بعد أن حمل بين يديه الكتاب الكريم ، وجرت على لسانه كلمات السماء ؟ وماذا يكون في هذا النبي السيرة بعد أن يرى الناس رأى العين أنوار السماء تتصل بالأرض ، ويتشهدون رسول السماء يندو ويروح بآيات الكتاب يلقيها إلى النبي على مرأى ومسمع منهم ، ماذا يكون في هذه السيرة والأمر على هذا الوجه ؟ ونحن هنا من أخبار السيرة بعد البعثة في موقف غير موقفنا من تلك التي تروى عما قبل البعثة ، وعما قبيل المولد !

فإذا كان من الممكن أن يسلم - عقلا - بأن تخلو سيرة الرسول إلى مبعثه من غير إشارات ودلالات تشير إلى النبوة ، وتحدث عنها ، وأن يمسى الناس ويصبحون فإذا هم بين يدي نبوة ، وفي مواجهة نبي فجاءة على غير انتظار - إذا كان من الممكن أن يسلم بهذا ، وهو مالا يمكن أن يسلم به أو يقبل بحال أبداً - فإن إمكان عدم التسليم بهذا في الفترة السابقة من حياة النبي فهل مبعثه يرتفع إلى درجة المستحيل أن تخلو سيرة النبي خلال فترة النبوة من آيات ومعجزات .

تشهد له بأنه ذلك الإنسان الذى اختاره الله واصطفاه . ورفع منزلته على منازل الناس جميعاً . . فى الدنيا والآخرة !

إن النبوة التى يحملها النبي فى كيانه هى طاقة عظيمة من نفحات السماء وبركاتها وهى حيث تكون لا تمنحى دون أن تترك أثراً من آثار نفحاتها وبركاتها فى كل من يتصل أو مايتصل بها !

إن أى إنسان من الناس له امتياز فى علم أو فن لا تمنحى حياته دون أن ترى الحياة أثراً من آثار علمه أو فنه . . وإلا فإذا يدل على أنه عالم أو فنان . ثم ماقيمة علمه ، وماجدوى فنه إن لم تتفتح أكامه ، وتطلع ثمراته ، وتصبح زاداً طيباً على مائدة العلوم والفنون !

فما بالك بالنبوة والنبي . وماظنك بهذا الثمر الذى يطلع من شجرة النبوة .
إنه لثمر طيب موفور ، لن تعرفه الحياة إلا فى عهود النبوات ، ولن تجد ثماره إلا فى حياة الأنبياء !

فإذا كان الحديث فى نبوة النبي محمد . فملك أن تجمع ما تفرق فى النبوات كلها من خير ، وماكان فى النبيين جميعاً من كمال ، ثم تضيف كل هذا الخير ، وكل هذا الكمال إلى محمد ، وإلى نبوة محمد ، ثم لا يدخل عليك ظن أنك قد بلغت به وبنبوته ما هو له من كمال ، ومافى نبوته من خير . . فإن كمال محمد فوق كل كمال ، وإن الخير الذى حملته نبوته أكثر وأعظم من كل خير .

○ ○ ○

لقد كان هناك إذن معطيات كثيرة متدفقة تفيض بها يد محمد كل حين بإذن ربها . . فحيث كان النبي كانت البركة ، وكان الخير ، وكان لأصحابه ما استطاعوا أن يحملوا من هذا الخير ، وماشاءوا أن يصيبوا من هذه البركة .

ونحن ننظر إلى ماوقع من معجزات النبي فى فترة النبوة على أنها أمور لا تعدو أن تكون نفحة من نفحات النبوة ، وشذى طيباً من شذاها العطر ، وأنها ليست من باب المعجزات التى تجيء للتحدى وتعجيز الناس عن الإتيان بمثلها ، وليهتروا للنبي بنبوته .

فأولاً : إن جميع هذه المعجزات التي ذكرها مؤرخو السيرة — ماصح منها وما لم يصح — لم يقل واحد من هؤلاء المؤرخين عن أية معجزة منها أنها كانت موضع التحدى ، وإعلان الناس بها ، ومطالبتهم بالإتيان بمثلها ، أو الإذعان لها ، وذلك هو شأن معجزات الأنبياء ، وهو الشأن في معجزة النبي الخالدة ، التي قامت منذ قيامها على نحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثلها .. وتلك هي القرآن ، معجزة الرسل ، ولا معجزة أخرى غيره ، وفي هذه المعجزة يقول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (١) » .. ويقول سبحانه : « أم يقولون افتراه .. قل فأتوا بسور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .. (٢) » بل ذهب في النحدى إلى أن يكون بسورة واحدة ، فقال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .. فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين (٣) » .

وثانياً : لم يقع بين النبي وبين الكفار من قرأت أو غيرهم حديث حول هذه المعجزات ، فلم يكن من البس إلتمات لهم إليها ، ولم يكن من الكفار تكذيب لها أو امتراء فيها .. ولو أن هذه « المعجزات » كانت ذات طابع يراد به التحدى لذكرها القرآن ، أو ذكر بعضها . أو أشار إلى موقف من مراقب الكافرين حيالها ، أو حيال واحدة منها !!

ولكن الذي ذكره القرآن في هذا المقام هو القرآن الكريم وحده . ومادار حوله من تكذيب وتلبيس !

فإنه حين وقعت قرأت ومن معها من المكابرين المعاندين — عاجزة أمام هذا التحدى عن أن تأتي بسورة أو بعض سورة ، ذهب بها الهناد ، ولج بها الكفر

(١) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٢) سورة هود آية ١٢ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ .

أن تقول في القرآن أقوالاً متخاذة منها فتنة ، تستر بها عصفها ، وتمسح بها العرق المتصعب من خزيمها . . . وكان من حصيلة هذه الأقوال المسكرة ما ذكره القرآن عنهم في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا إن هذا إلفك افتراء » ، وأعاناه عليه قوم آخرون . . . فقد جاءوا طلياً وزوراً . . . وقالوا أساطير الأولين ، اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، (١) . . . وفي قوله تعالى : « ما يجعله بشر » . . . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين ، (٢) . . . ويقول سبحانه عن الوليد ابن المغيرة ، وقد استمع إلى رسول الله وهو يتلو عليه من آيات الكتاب ما ملأ قلبه عجباً ودهشاً ، وأبى عليه كبره وعناده أن يلقي إليه السلم وينقاد . . . يقول سبحانه وتعالى : « إنه فكر وقدر . . . فقتل . . . كيف قدر ! ثم قتل . . . كيف قدر ! ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . . . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . . . إن هذا إلا قول البشير ! » (٣) .

وقد رد القرآن مفترياتهم هذه في شأن القرآن ، وتخريصاتهم فيه . . . فقال تعالى : « إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين . . . » (٤) وقال سبحانه : « وما هو بقول شاعر . . . قليلاً ما يؤمنون ، ولا بقول كاهن . . . قليلاً ما تذكرون . . . تنزيل من رب العالمين » (٥) وقال جل شأنه : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » (٦) .

وهكذا اتجىء آيات الكتاب تدافع عن معزة الرسول ، وتدفع الكافرين الماتقولين بالكذب والبهتان . . . ذلك على حين لم تكن في القرآن كله آية تكشف عن موقف من مواقف هؤلاء الكافرين لإزاء خارقة أخرى ، مما حرى على يد الرسول من خوارق !

وعلى هذا ، فإن الذي نذكره من الأخبار التي تحدث عن هذه الخوارق إنما نذكره لعلنا نرى أنه من معجزات الرسول ، ولا أنه كان من مقصد الرسول أن يجعل منه معجزة ، يؤمن عليها الناس ، وإنما كل ما ذكر في هذا الباب ، ما نذكره هنا

(١) سورة الفرقان آية ٥ . (٣) سورة النحل آية ١٣ .

(٢) سورة المدثر آية ١٨ - ٢٠ . (٤) سورة الواقعة ٧٧ - ٨٠ .

(٥) سورة الحاقة آية ٤١ ، ٤٣ ، (٦) سورة يونس آية ٣٧ .

أولا نذكره هو من نفحات النبوة ، ومن سذاهها العطر الذى لا يتفصل عنها بحال .. وكما أن المسك ينم عن طيبه حيث كان ، فكذلك طيب النبوة ، وهو فوق كل طيب !

وما نحن أولا نذكر بعض ما روى من هذه الخوارق :

١ - نبع الماء :

الماء عزيز نادر فى صحراء العرب ، وكثيراً ما يعرض اساكنى الصحراء حالات يطلبون فيها الماء فلا يجدونه ، وكثيراً ما يهلك بعضهم عطشاً ، وخاصة إذا فقد الزاد فى السفر ! حيث يفرق المسافرون فى متاهات الصحراء !

فإذا التمس الناس الماء حين الحاجة الداعية إليه ، وحين اليأس المستحكم منه كان أمثورهم عليه ، ولما سألهم به هزة رضى وحمد ، وكانت الجهة التى يجرى منها هذا الغائب العزيز بموضع الحب والإعزاز منهم !

والرسول الكريم حين يكون فى صحابته ، وحين تطرقهم حال من تلك الأحوال التى تشد فيها حاجتهم إلى الماء ، تتعلق آمالهم برسول الله ، وتفزع نفوسهم إليه ، كما يفزع الضال إلى آباءهم عند الحاجة ، وحين الندة والبأس ؟ وقد أكرم الله نبيه ، وأكرم الناس به . . فجعله نوراً يهتدى به الضالون ، وحصى يفزع إليه الخائفون ، وغيثاً يغاث به الملهوفون !

عن ابن مسعود قال : « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس معنا ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء فصبه فى إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (١) .

وعن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضى الله عنه قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بن يديه ركوة (٢) ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه ، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما فى ركوتك ، فوضع النبي صلى الله

(١) الشما جزء ١ ص ٢٤١ .

(٢) الركوة : إناء من جلد ، يشرب فيه الماء أشبه بالقربة .

عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يتفجر من بين أصابعه كأمثال اليمون .. قيل
كم كنتم : قال : لو كنا مائة ألف لكنافا .. كما نحن عشرة مائة ! (١)

ويقول القاضي عياض : « وما يشبه هذا من معجزاته ، تفجير الماء ببركته ،
وابتمائه بمسه ودعوته ، فيما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل ، في قصة
غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهي تبض بشيء من ماء مثل التراك ،
فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيه وجهه ويديه وأعادها فيها ، فحرت بماء كثير فاستقى الناس .. قال
في حديث ابن إسحق فأنخرق من الماء ماله حس كحس الصواعق .. ثم قال : - أي
الرسول - يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانا ، (٢)

ولا نريد أن نذكر هنا كل ما نقل في هذا الباب ، فهو كثير . وحادثة واحدة
تكفي في الدلالة على ما للرسول عند الله من كرامة وفضل وإحسان ..

ووقع مثل هذه الآيات من الرسول أمر طبيعي — كما قلنا — لا يمكنه
عقل ، ولا يأباه عاقل .. وشواهد الحال كلها تشهد بوقوع هذه الآيات إذ
كانت على ملائ من الناس ، وفي مواجهة جموع غفيرة ، ليس فيها واحد في غفلة
عن الوقوف عليها ، والمشاركة فيها ، إذ كانت حاجته إلى الماء وطمته عليه هي
المسئولية على كيانه في تلك الحال ..

يقول القاضي عياض :

« ومثل هذا في هذه المواطن الخفلة ، والجموع الكثيرة لا تنطرق التهمة
إلى المحدث به ، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تسكيزه ، لما جبلت عليه النفوس
من ذلك ، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل .. فهو لاء قد رويوا هذا ، وأشاعوه
ونفسوا وحضروا الجماء الغفير له ، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم
أنهم فعلوه وشاهدوه ، فصار كصديق جميعهم له » .

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٤٢ .

(٢) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

(٣) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

يريد أن يقول إن المحدث يمثل هذه الأخبار التي شهدها أعداد كثيرة من الناس لا يمكن أن يقبل خبره إلا إذا كان صادقاً ، وإلا وجد في هذا العدد الكثير من يكذبه ويرد عليه خبره ، إلا كان مشاركاً له في الكذب ومواطئته عليه بسكوته عن تكذيبه ، وهذا لا يمكن أن يكون من جمع كثير بحال أبداً ، وإن صح أن يكون من آحاد الناس ، فلا يصح أن يكون من المئات والألوف منهم .

٣ — تكتير الطعام :

ونسأله عن البادية شأن الماء .. قليل دائماً ، ومفقود أحياناً .. وكان للرسول مع صحابته مواقف يندر فيها الطعام أو يقل ، فتكون يد الرسول المباركة هي التي تمدهم بما يشبع ويفنى !

عن سلمة بن الأكوع قال : « أصابت الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم نخصة في بعض مغازيه ، فدعا ببقية الأرزواد (١) ، فجاء الرجل بالحشية (٢) ، من الطعام وفوق ذلك ، وأعلام الذي أتى بالصاع من التمر .. فجمعه على قطع .. قال سلمة فخرته - أي قدرته - كربصة العنز (٣) ، ثم دعا الناس بأوعيتهم ، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملؤه ، وبقي منه » (٤)

وعن علي رضي الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبدالمطلب وكانوا أربعين .. منهم قوم يأكلون الجذعة (٥) ، ويشربون الفرق (٦) ، فصنع لهم مداً من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا ، وبقي كما هو ، ثم دعا بعس (٧) فشربوا حتى رويوا ، وبقي كأنه لم يشرب منه .

(١) جمع زاد وهو ما يتزود به المسافر .

(٢) الحشية : العرفه باليد .

(٣) أي في حجم العنز الراضية .

(٤) الشفا جزء ١ ص ٢٤٨ .

(٥) الجذعة الشاة بنت ستين ، ومن المقر بنت ثلاث ومن الإبل بنت خمس .

(٦) الفرق : مكيال يسع ستة عشر رطلاً . (٧) العس : القدح الكبير يشرب فيه ..

ويروى عن جابر رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أظعم يوم الخندق .
ألف رجل من صاع شعير ، وعناق (١) وقال جابر : أقسم بالله لأكلوا حتى
تركوه وانحرفوا ..

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم ، حين ابتنى بزيب أمره أن يدعو له
قوما سماهم ، وكل من لقيت .. حتى أتت البيت والحجرة ، وقدم نورا (٢) فيه
قدر مد من تمر جعل حيساً (٣) ، فوضعه قدومه ، وخمس ثلاث أصابعه ، وجعل
القوم يتخذون ويخرجون ، وبقي الثور نحواً ، ما كان ، وكان القوم أحداً أو
اثنين وسبعين .

والاخبار كثيرة هنا في هذا الباب ، وواحد منها له دلالة العدد الكثيرين .

نطق الحيوان ، والنبات ، والجماد :

وإذا كان ينبع الماء وتكثير الطعام عند الحاجة إليهما ، وتعلق النفوس بهما في
ساعة العسرة ، وعند الشدة - ما يبرر صنع معزة لها يد الرب ، يتحقق بها أمل
أصحابه فيه ونظرتهن إليه ، فهل نجد لنطق بعض الحيوان أو النبات أو الجماد بين
يدى الرسول حكمة ، كذلك التي نجدها في نبع الماء وتكثير الطعام بين يديه .

لاشك أن فرقاً كبيراً بين الحالين ، وأما إذا استمعنا في الحالة الأولى أن
نخرج هذه الخوارق من باب المعجزات ، وأن نضيفها إلى ما عند الرسول من نفحات
وبركات ، حيث تسلم بها نفوس ، وتستمسك بها حياة كثير من الناس — فإننا
لنستطيع أن نجد للحالة الثانية ، من نطاق الحيوان وما إليه ، وجمادته إليه إلا جملة
المعجزة ، التي تقوم شاهداً على صدق الرسول ، وصدق ما جاء به ، ودعا إليه !
ويحسن أن نعرض هنا بعض هذه الحالات ، ثم ننظر فيها من وجهها الإعجازي .
إن كان لها وجه تتجه به إلى الإعجاز ١٠ .

(١) العناق : الأنثى من أولاد القر .

(٢) الثور : إناج يشرب فيه .

(٣) الحيس : التمر يخلط بالسمن .

٣ — شجرة تسكلم :

عن ابن عمر قال : «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر . فذنا منه أعرابي ، فقال : يا أعرابي .. أين تريد ؟ قال إلى أهلي ؟ قال هل لك إلى خير ، قال : وما هو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » . قال : من يشهد لك على ما تقول : قال : هذه النخلة السمرة (١) — وهى بساطىء الوادى — فأقبلت تحذ الأرص حتى قامت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فاستشهدها ثلاثاً ، فتمتد أنه كما قال .. ثم رجعت إلى مكانها »

وواضح أن هذه معجزة مستكملة كل ما للمعجزة من صفات . فهذا النبي الله يدعو إلى الإيمان بالله وبالرسول .. ويأبى المدعو أن يؤمن للرسول إلا إذا قدم بين يديه شاهداً يشهد له ، وهذا الشاهد كان ممكناً أن يكون في هذا الجمع الذى مع الرسول في سفره هذا ، من المؤمنين فكلهم يشهد أنه رسول الله .. ولكن الرجل يريد شاهداً لا يرد ؛ ولا تحوم حوله مظنة بالآلة أو متابعة عن غاية .. ولا يكون ذلك إلا ببرهان ساطع يعجز الناس عن الوقوف له ؛ وهو ما يجرى على يد الرسل من معجزات .. فكان أن دعا الرسول تلك النخلة القائمة على شاطئ الوادى لتشهد أنه رسول الله ؛ فأجابت مسرعة ؛ ونطقت بلسان مبين : أنه رسول الله !

ولم يجد الأعرابي إلا أنه أمام نبي ؛ سخر الله له ما لم يسخر لأحد من الناس قآمن ؛ إيماناً ملأ قلبه طمأنينة ويقيناً !

إننا هنا أمام معجزة لا شك فيها ! معجزة وقفت أمام هذا النحدي ؛ عالية متشاحنة .. تنساقط أمامها كل حيلة وحول للناس جميعاً ، أفراداً وجماعات ! ولكن لنا أن نسأل .. أتقوم معجزة من أجل إنسان فرد ! وأى إنسان هذا ، أعرابي من عرض الطريق .. قائمه في الصحراء .. التمتطه النبي التقاطاً عابراً !

فما كان هذا الأعرابي ملكاً يؤمن بإيمانه أمة من الأمم ! ولم يكن زعيم قبيلة تتابعه قبلته على إيمانه .. وإنما كان — كما قلنا — إنساناً من الناس .. فهل تقوم لأجل إنسان فرد من عامة الناس معجزة ؟

(١) السمرة : بسم الميم .. شجرة الطلح ، وهو الموز ، أو الشجرة الضخمة .

والنظرة إلى هذا الأعرابي بهذا التقدير نظرة خاطئة من وجوه :
فأولاً : هو إنسان قبل كل شيء .. له وجوده . وله حياته التي تدعو
الرسالات السماوية إلى استنقاذها من الهلاك .. فهو من هذه الجهة يتساوى مع
أى ملك وأى زعيم .. !

ثانياً : لانتظر الرسالات السماوية إلى الناس نظرة عديدة مادية .. تحمل لذوى
الغنى ، والجاه ، والسلطان . ما ليس للفقير ، الضعيف ، المهنأ بل إن الناس في
شريعة السماء إنما يوزنون بميزان الروح ، وما فيه من استعداد لتلقى الخير
والانتفاع به .. ولقد عوتب النبي الكريم من ربه في شأن ابن أم مكتوم ، الأعمى ،
الفقير . وقد استكثر من الحديث مع الرسول في المنفعة في الدين ، والرسول في
مواجهة جماعة من زعماء العرب ، جاءوا يجادلونه ، وهو يطمع في أن يسلموا
له ، ويستجيروا لدعوته ، فأعطى ابن أم مكتوم ظهره ، وشغل عنه بهؤلاء القوم ..
فكان هذا العتاب الرقيق الكريم : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى .. وما يدريك
لعله يزكى ، أو يذكر فتنته الذكري . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك
ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى . فأنت عنه تلهى ! كلا .. إنها
تذكرة .. » (١)

فهذا الأعرابي قد يوزن بالآلاف من الناس في صفاء من روحه ، وفي تقبله
للخير ، وانتفاعه به ، وإن لم يكن في مرأى العين ذا وجاهة وسلطان !
وثالثاً : هذه المعجزة ، وإن تكن قد جاءت من أجل هذا الأعرابي ، فإنها
لا شك قد كان لها أثرها القوي فيمن شهدوها من صحابة رسول الله ، فرادتهم
إيماناً على إيمانهم . وقيناً فوق يقينهم .. شأنها في هذا شأن المحزات
أو الخوارق التي جاءت لغير التحدى ، ولغير الدعوة إلى الإيمان .. في تكثير
الظهام ، ونبع الماء !

ورابعاً : لعلك تلاحظ في هذا الخبر المروى عن ابن عمر قوله : « فدنا منه
أعرابي » فإن دنو الأعرابي من النبي يستشف منه أن هذا الأعرابي قد استجاب

لداع خفى فى كيانه ، يدعوهُ الى مدانة النبى ليتشمم منه أرواح الخير ، كما يتشم طير الصحراء مواقع الماء ، وقد كشف الرسول ببصيرته المشرقة ماى كيان هذا الأعرابي من المشاعر التى تتهدى إلى الخير ، فدعاه إليه ، وأصاء له الطريق بتلك الهجزة الباهرة .

٤ — معجزة النبى للنبى :

والنبى إنسان قبل كل شىء . . . يعترض نفسه أحياناً ما يعترض النفوس البشرية ، من ضيق ، ومن ضعف ، وأعباء الرسالة أعباء ثقال ، لا يستقل بحملها غير الأنبياء ، ولا يجرى بها إلى غايتها إلا أولو العزم منهم .

وقد حمل الرسول الكريم أعباء الرسالة العظمى ، وواجه بها الناس جميعاً ، وكانت جولاته الأولى مع أقرب الناس إليه وآثرهم عنده ، فكانوا أشد الناس عداوة له . وخلافاً عليه . . .

ولهذا كانت أمداد السماء لا تنقطع عنه ، لتشد من عزمه ، وتثبت من أقدامه ، وتمسك به قوياً راسخاً أمام هذه العواصف المزلزلة العاتية .

فإذا تجمعت فى نفسه سحب الأسى واليأس . . هبت عليه نسمة رفيقة رفيقة من السماء ، تزيح هذه السحب ، وتكشف عن نفسه الهم ، والحزن ، واليأس . . . قال تعالى « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل (١) » . . . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (٢) . . . « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (٣) » . . . وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك (٤) . . . « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً (٥) » . . . « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ، أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه ملك » .

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (١) سورة الأحقاف آية ٣٥ | (٢) سورة فاطر آية ٨ |
| (٢) سورة الأنعام آية ٣٣ | (٤) سورة الفرقان آية ٢٢ |
| (٥) سورة الإسراء آية ٨٢ | (٦) سورة هود آية ١٢ |

وهكذا تنزل آيات الرحم على رسول الله . فتسكب في نفسه من مشاعر

السكينة والاطمئنان ، ما يحلى عنه غواشى القلق والضيق !

وبين الطمأنينة والقلق ، والسكينة والضيق يجد الرسول نفسه في حاجة إلى الكشف على سلامة النبوة في كيانه ، وعلى مدى فاعليتها عنده ، وهل كان لهذه الحالات العارضة التي عرضت لها ما يؤثر على مكانته كنبى يحمل رسالة السماء ، ويتمولى قيادة الإنسانية إلى الله ، وهدايتها إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، أم أنه لا يزال النبى المصطفى ، والرسول المجتبى ، وأن ما بينه وبين السماء لن تقطعه هذه العوارض ، ولن تحجبه تلك القاطع الممزقة من السحب .

ويمد الرسول بصره ، ويتجه بقلبه إلى السماء يطلب لنفسه آية من ربه . يرى فيها دلائل نبوته ، وشواهد صلته بالسماء ، ويستوثق أنه على الحق المبين .

وتجىء الآية ، واضحة بينة ، يراها الرسول رأى العين فتقر عينه ، ويطمئن قلبه ، وتشيع في كيانه مشاعر النبطة والرضا .

عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى شجرة من وراء الوادى . . ثم قال : اللهم أرني آية لا أبالى من كذبى بعدها . . ثم دعا الشجرة فأنت حتى وقفت بين يديه . . ثم قال : ارجعى . . فرجعت ، !

وعن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم شكك إلى ربه من قومه ، وأنهم يخوفونه ، وسأله آية يعلم بها ألا مخافة عليه ، فأوحى إليه ربه : أن انت وادى - كذا ، فيه شجرة ، فادع غصناً منها يأتك ، فنعل ، لحاء الغصن يخط الأرض خطأ ، حتى انتصب بين يديه ، فلبسه ما شاء الله ، ثم قال له ارجع كما جئت ، فرجع ، فقال : يارب . . علمت ألا مخافة على ، (١) .

إنك على الحق المبين

وليس بمستغرب أن تجيش في نفس النبى مثل هذه الخواطر ، وأن يستمد العون من السماء في تجليتها وكنفها . . وقد ذكر القرآن الكريم عن زكريا عليه

السلام ، وقد جاءه نداء الحق باستجابة دعائه ، حين طلب من ربه أن يهب له غلاماً — ذكر القرآن عن زكريا أنه طلب من ربه آية يستوثق بها من أن الصوت الذى سمعه هو صوت الله ، وأنه ليس قذفة شيطان ، أو هجسة خاطر متلف إلى الولد .. ولم تضن عليه السماء بما طلب ، فشاءته الآية كاشفة محمية .. استمع إلى قوله تعالى فى هذا :

« هنالك دعا زكريا ربه .. قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله ، وسيداً ، وحسوراً ، ونبيأ من الصالحين . قال : رب أنى يكون لى غلام ، وقد بلغتنى الكبر ، وامرأتى عاقرة . قال : كذلك الله يفعل ما يشاء ! قال رب اجعل لى آية .. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً ، وسبح بالعشى والإبكار (١) .

فكانت آية زكريا أن احتبس لسانه ثلاثة أيام لم يستطع النطق فيها بكلمة ! فكان هذا الاحتباس آية ، كما كان حصولاً وقراباً لله ، ورزقاً ساقه الله إلى زكريا مع مساق من فضل البشرى بالولد على الكبر !!

فإذا طلب النبى الكريم آية لنفسه ، يستوثق بها لحال من أحواله — وخاصة إذا كان هذا الحال متصلاً بالدعوة وبالرسالة — فإن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على ما عند النبى من حرص على هذا الفضل الذى آتاه الله إياه وأكرمه به ، من أن يلم به شيء يفسده أو ينير من طبيعته ، أو يذهب به !

* * *

ولا تريد أن نعبد القول هنا فيما يدور فى هذه المعجزات من جدل ، حول وقوعها أو عدم وقوعها على الوجه الذى رويت به ، وعلى تلك الكثرة الكثيرة التى تكاد تجمل حياة النبى ، وأعماله كلها خوارق ومعجزات . وحسبنا فى هذا أن نقرر — كما قررنا من قبل أيضاً — أن النبى مشتمل على طاقات روحية

(١) سورة آل عمران : ٣٨ — ٤١ .

لا حدود لها ، وأن اتصاله بهذا الوجود ، واتصال الوجود به على غير ما ألف الناس وعرفوا !

فإذا تكلم الطير ، وسبح الحجر ، ومشى الشجر ، وشكا البعير ، وحن الجذع — بين يدي الرسول — فذلك مما لا ينكر أو يدفع . ونحن نرى كثير من الناس لهم قدرة روحية على قراءة الأفكار ، وعلى الإيماء والتأثير في أنفسهم . أو في غيرهم ، من غير أن يكون لهم صلة خاصة بالسماء كصلة الرسل والأنبياء ..

• • •

ونعود فنقرر مرة أخرى أن كل هذه المعجزات والخوارق التي رويت عن نبي الإسلام لم تكن — إن كانت — إلا شارات من جذوة النبوة ، وإلا شعاعات من شمسها المشرقة .. أما معجزة النبي الكبرى وآيته الخالدة فهي القرآن الكريم ، كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله .

بقيت لنا وقفة هنا مع معجزتين من تلك المعجزات ، ورد لها ذكر في القرآن دون غيرهما روى في سيرة الرسول من معجزات .. وهما انشقاق القمر ، والإسراء !

انشقاق القمر :

في القرآن سورة سميت « القمر » ، وقد بدئ بها الآيات : اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم .. وكل أمر مستقر .. ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر حكمة بالغة ، فما تغنى النذر ، (١) .

ويكاد المفسرون يجمعون على أن انشقاق القمر الذي ذكر في الآية الأولى من هذه السورة قد وقع فعلا ، كحزة شاهدة على صدق النبي ، وهو في مكة ، قبل هجرته إلى المدينة .

يقول القاضي عياض في تفسير هذه الآية : وأخبر الله تعالى بوقوع انشقاق القمر .

بلفظ الماضي ، وإعراض الكفرة عن آياته - أى ما فى از- قافه من آيات- وأجمع المنفرون وأهل السنة على وقوعه « (١) .

وروى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا « (٢) .

ووروى عن أنس قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يرهم آية . فأراهم انشقاق القمر فرقتين ، حتى رأوا حراء بينهما « (٣) .

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود - من رواية مسروق عنه - قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قرين هذا سحر ابن أبي كبشة - يقصدون النبي - فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن سجدا لايستطيع أن يسحر الناس كلمهم . . قال فجاء السفار فقالوا ذلك .

وروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يرضوا ويقولوا سحر مستمر » (١) قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه . .

ويعلق القاضى عياض على هذه الأحاديث المروية فى انشقاق القمر فيقول : وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة . . والآية مصرحة . . ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول بأن لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شئ ظاهر للجميع !

ويدفع القاضى عياض هذا الاعتراض بقوله : لم ينقل إلينا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ، ولو نقل إلينا عن لايحوز تماثلهم على الكذب أكثر منهم لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر فى حد واحد لجميع أهل

(١) الشفا ج ١ ص ٢٣٧ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) سورة القمر آية ١ ، ٢ .

الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، وفي بعضها جزئية وفي بعضها كلية ، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلها .. ذلك تقدير العزيز العليم ..

ويستطرد فيقول : وآية القمر كانت ليلاً ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون ، ولحجاف الأبواب ، وقطع النصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من رصد ذلك واعتبل به ، ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيراً في البلاد وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبروا ، وكثيراً ما يحدث الثقات بهجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء ، ولا علم عند أحد منها ^(١) .

هذا ملخص ما قيل في تفسير الآية : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر » ..

وقد رأينا أن القاضي عياض يؤكد لإجماع المفسرين وأهل السنة - أي رواية الحديث - على وقوع انشقاق القمر للنبي ، كتهجزة دالة على نبوته ؟

ويتخذ القاضي عياض من الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الفعل الماضي « وانشق القمر » دليلاً على أن الانشقاق حدث فعلاً ، وأن الآية نزلت مخبرة عنه ..

ونحن لا نرى في الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الماضي قرينة قاطعة على وقوعه ، فكما يدل الفعل الماضي على حدوث الفعل فعلاً ، ويخبر عن وقوعه ، في الماضي ، كذلك يعبر بالفعل الماضي عن الأمر الذي سيقع مستقبلاً ، وذلك لغرض بلاغي ، وهو أن هذا الفعل يحقق الوقوع لاحتمالاً ، وأن وقوعه في المستقبل أشبه بوقوعه في الماضي ، فإن لم يكن وقع ، فكأنه قد وقع ، لتحقيق وقوعه ..

والقرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب كثيراً في الأمور ذات الخطر التي

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٤٠ .

يقف كثير من الناس إزاءها موقف الشك والارتياب . . فلا يلتقاهم القرآن اللقاء الذى ينتظرونه فى شأن هذا الأمر الخطير ، ويجعل لقاءهم معه معلقاً بالمستقبل بل يجذبهم إليه جذباً قوياً ، فإذا هم فى مواجهة هذا الأمر وجهها الوجه !

يقول سبحانه وتعالى فى شأن البعث : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والأرض » . (١) ويقول سبحانه فى يوم القيامة : « وأشرقَت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت . . » (٢) . . وأكثر ما ورد فى القرآن من صور البعث والجزاء والحساب قد جاء فى صورة الماضى ، الذى وقع وعاش فى الداس ، وعاش الداس فيه !

وإذن فليس فى التعبير عن انشقاق القمر بالفعل الماضى دليل على أنه وقع ، بل ربما كان هذا التعبير بالماضى داعية إلى تأكيد وقوعه فى المستقبل ، وقياسه على كثير من الأفعال التى جاءت على تلك الصورة . . فإن انشقاق القمر حدث عظيم ، والناس فى تصور انشقاقه بين مؤمن ومكذب وشاك . . فكان التعبير عنه بالفعل الماضى أنسب شئ لتلك الحال ، بوضعه فى صورة الواقع المحقق !

ثم من ناحية أخرى نجد القرآن الكريم يحدث عن أحداث القيامة فيذكر صوراً عما يترى الوجود من تغيرات فى هذا اليوم العظيم . . « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » (٣) . . فى هذا اليوم تتغير معالم الأشياء وتتحول أحوالها .

وقد ذكر القرآن الكريم فى هذا ، انشقاق السماء ، « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت » . (٤) . . كما تحدث عن خسوف القمر ، واجتماع الشمس والقمر فى فلك واحد . . « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر » (٥) كذلك تحدث عن انتشار الكواكب ،

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .
(٢) سورة إبراهيم آية ٢٩ .
(٣) سورة الزمر آية ٨ .
(٤) سورة الانشقاق آية ١ ، ٢ .
(٥) سورة القيامة آية ٨-١٠ .

وتشتق السماء ، وتزجر البحار . . . إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت
وإذا البحار فجرت . . . (١)

كما يذكر ما يقع للشمس والنجوم ، والجبال ، . . . إذا الشمس كورت
وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت . . . (٢)

فانشقاق القمر ظاهرة من الظواهر التي تعترى الوجود يوم القيامة ، وكما
تتكور الشمس في هذا اليوم كذلك ينشق القمر ، وتتناثر النجوم ، وتسير الجبال
وتنفجر البحار !

وقد جاء انشقاق القمر في الآية السكرية مصاحباً لاقترب الساعة : اقتربت
الساعة ، وانشق القمر . . . وهذه المحاسبة تقوى الرأي الذي نذهب إليه ، من
أن انشقاق القمر سيقع حين تقرب الساعة ، وأن اقترابها هذا سيؤذن بتعيرات
كثيره في مظاهر الوجود السماوى والأرضى ، كما جاء ذلك في كثير من آيات
الكتاب ، التي أشرنا إلى بعضها من قبل .

وقد تكون هذه الأحاديث المروية - إن صدقت - تفسيراً للآية السكرية ،
في ظل كسوف وقع للقمر في عهد النبي ، وربما كان كسوفاً كلياً ، رأى فيه الناس
يومئذ ظاهرة عجيبة ، فأضافها المؤمنون إلى معجزات الرسول ، وصورها كل
إنسان حسب إحساسه بها !

ومما يعضد هذا الاتجاه عندنا ما يروى عن ابن عباس ، في إحدى الروايات
عنه في هذا الأمر - أن القمر كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقالوا : سحر القمر !

فلاهن عباس هنا - فيما روى عنه - قولان . . . قول بالانشقاق القمر ،
وقول بكسوفه .

والقول الأول يرويه ابن عتبة ، وابن أبي طلحة عن ابن عباس ، والقول
الثاني يرويه عنه عكرمة (٣) .

(١) سورة الانفطار آية ١-٣ . (٢) سورة التكوير آية ١-٣ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير - سورة القمر - الجزء الرابع .

(١٦) - النبی محمد ﷺ

وليس بمستبعد أن يكون القولان لابن عباس . وأن كسوف القمر
وإنشقاقه بمعنى واحد !

فإذا كان القمر قد كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكسوف
القمر ظاهرة فلكية تحدث كثيراً ، وقل من الناس من لم يرها في عمره مرات
ذوات عدد — إذا كان ذلك قد حدث قبل هجرة الرسول ، وبعد نزول الآية ،
فأنه من الطبيعي أن يتخذ المؤمنون — إذ ذاك . من هذه الظاهرة آية
مؤيدة للرسول !

وأمر آخر . كسيف القمر على عهد الرسول بالمدينة يوم مات إبراهيم ،
فقال الناس . كسيف القمر لموت إبراهيم ، فدعا الرسول الناس إليه ثم خطبهم
فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لا يخسفان لموت أحد ، ولا يحياتهما ،
فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ، وإلى الصلاة » .

ولم ترك الرسول هذا الأمر يمتحن من غير أن ينبه له ، ويكشف عنه
لكان للناس فيه أقوال ومنقولات .

قصة الإسراء :

وفي القرآن الكريم سورة سميت « الإسراء » وفيها حديث هذه الرحلة
العجيبة ، التي دبرتها السماء لرسول الله ، بعده مبعثه ، وقبل هجرته إلى المدينة . .
وحدود الرحلة كما يذكر القرآن . من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد
الأقصى ببيت المقدس .

وزمانها لحظة من لحظات الليل كما يقول القرآن الكريم في الآية الأولى
من سورة الإسراء .

قال تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً . . من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى الذي باركنا حوله . . لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » (١) .

(١) سورة الإسراء آية ١ .

والآية صريحة في «الإسراء» ، وفي أنه كان فعلاً للبي الكريم . . وأنه واقعة حقيقية ، وليس رؤيا منامية ؛ وإلا لما كان لها ذكر خاص في سورة خاصة !

والذي يقف بحديث الإسراء عند هذا الذي نطقت به هذه الآية ، يجد أن تلك الإضافات الكثيرة ، والذبول الطويلة التي علقت بحديث الإسراء لاتستدعيها غاية الإسراء ، ولا يحتاج إليها السكال الذي ينبغي أن تكون عليه .

« فالإسراء » على ما تشهد به الآية لم يكن للإعجاز ، وإنما هو رحلة روحية إلى بيت المقدس ، مجمع الأنبياء ، وأول قبة للإسلام .

ولا عجب أن تكون للرسول رحلة روحية كهذه الرحلة ، في تلك المرحلة الحرجة من مراحل الرسالة النبوية .

فقد كان الرسول إذ ذاك في وجه خصومة عنيفة ظالمة من قومه . . يدعوهم إلى الرشاد والخير فيلقونه بالكذب والبهت ، ويرمونه بالسوء والأذى . . وهو رحيم بهم ، حريص عليهم . . فتمتلئ نفسه حسرة وألماً . . إذ يراهم يتمزقون شعباً ، وينقطعون أوصالاً . . !

وليس حال أدهى من هذه الحال للخروج من هذا الجو الثقيل الخافق ، إلى جو أحر فيه راحة للصدر ، واسترواح للنفس !

ولم أين المذهب لبي قائم على دعوة السماء ، موجه برسالتها ، لأنه لا مفر للبي - إن أراد أن يظل في سجل الأنبياء - من أن يثبت في موقعه ، لا يتحول عنه أبداً . . وإن هلك . . وقد قالها النبي الكريم لعنه أبي طالب ، « والله ياعم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن ترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه ، .

ولكن الأحداث تزداد حدة ، والشر يشتد اشتعالاً . . وللنفس البشرية حدود الاحتمال ، وإن كانت نفس نبي ، وإن كان هذا النبي محمداً ، خاتم النبيين وصفوة المرسلين . . إنه - مهما يكن - بشر . . وللإنسانية حدود تنتهي إليها ، وتقف عندها ! !

لقد كان في النبيين من اشتد به الكرب في موقف الدعوة ، أو ضاقت نفسه عن الاحتمال أكثر مما احتمل ، فزایل موقفه ، وكادت تسقط رسالته من يمينه ، لولا أن تداركه لطف اللطيف ، ورحمة الرحيم .

ويقص القرآن الكريم عن يونس عليه السلام موقفاً مثل هذا الموقف . . فيقول سبحانه وتعالى : « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أتى إلى النملك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الخوت ، وهو ملهم ، فلو أنه كان من المسبحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون . . فنبداه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون . فآمنوا ، (١) وانظر إلى تدبير ربك مع هذا النبي . . يونس عليه السلام .

لقد تعجل الفرار من الميدان الذي أهامه الله فيه .
وتلك فلة ما كان للنبي أى يفعلها لأول بادرة سوء تصل إليه من قومه .
وكان لابد من درس يتلقاه النبي ، لكي يتقوى على احتمال هذا الموقف ويصبر على شدائده !

وكان هذا الدرس أن يخرج من ضيق إلى ضيق أشد وأقسى . . خرج من جوف مدينته التي ترمى بالشر ، وتقذف بالسوء — إلى جوف الخوت الذي سيتهول فيه بعد بضع ساعات إلى طعام مهضوم !
إن يكن يونس وجد ضيقاً في قومه ، فهناك ألوان من الضيق أشد وأقسى ، وفي جوف الخوت وجد المثل المائل ، والتجربة الواقعة !
ثم تجيء رحمة الله ، فتجعل ليونس طريقاً في بطن الخوت . . إلى جوف البحر . ثم إلى اليابسة !

وهنا يجد يونس كل شيء أرحب من جوف الخوت وأرحم . . وأن مدينته التي فر منها هي رحمة واسعة بالنسبة لما كان فيه . فيعود إلى مدينته تلك ، وكأنها وما ينتظره فيها من شدائد ومحن — كأنها جنة تبسط له كتفا يديها بالطيب

الموفور من الثمرات ! وهناك تثبت أقدامه في موطن الدعوة ، فيمضى برسالة إلى غايتها . . ويستجيب له قومه . . مؤمنين بالله رب العالمين !

ونظرة أخرى في معطبات هذه القصة تطلعك على مدى ما عند الأنبياء من صبر واحتمال ، وما لديهم من قوة وعزم ، وما في كياناتهم من طاقات نفسية وروحية وجسدية ، ليكون من هذا الرصيد الكبير ما يقوم بأعباء الرسالة ، وسد مطالبها !

فهذا النبي الكريم « يونس » قد احتمل من قومه مالا طاقة للإنسان - غير نبي - باحتماله . . ولكن الأمر كان يقتضيه أن يحمل أكثر مما حمل ، ولو كان من أصحاب العزم من الرسل الصمد في موقفه ، فأريدت له هذه التجربة لتثمد من عزمه ، وتخرج به أكثر قوة واحتمالا .

وما كان لنبي أن يدخل في هذه التجربة ثم يخرج سليماً معافى كما كان ، بله أكثر مما كان . . فإن أى إنسان غير نبي لو وقع في هذه التجربة ، وقدر له أن يخرج من جوف الحوت ، وأن ينجو من البحر والموت فيه غرقاً ، ثم قدور له أن يضع قدميه على اليابسة ويحدث مع الناس - لو حدث هذا الإنسان من الناس لذلك بكثير من عقله ، وبكثير من ملكاته وطاقاته الروحية والنفسية ، ولعاش - إن عاش - في الناس ، إنساناً مهزوزاً ، التخصية ، مضطرب السلوك ، مختلج الخطأ .

ولكن ها أنت ذا ترى تلك التجربة في نبي من أنبياء الله ، ثم تراه وقد عاد بعدها أقوى قوة ، وأثبت ثباتاً ، وأحكم سياسة وتدبيراً !
أفليس ذلك إلا لأن الأنبياء - وهم بشر - هم أيضاً في حال فوق أحوال البشر ؟ بلى ! فالأنبياء ناس غير الناس ، وبشر فوق البشر !

ونعود إلى تجربة « الإسراء » في تلك الفترة التي أشرنا إليها من حياة محمد - صلوات الله وسلامه عليه .

ونحب هنا أن نبسط القول شيئاً ما في الحال التي كان عليها النبي قبيل

و الإسراء ، فذلك مما يعين على إدراك بعض ما للإسراء من حكمة ، وماله من داعية في الوقت الذى وقع فيه .

فأولاً : كان عناد قريش ، ودفعها لدعوة الرسول ، قد بلغ غايته ، فاشتد البلاء على المسلمين الذين لم يستطيعوا الفرار من وجه هذا الطغيان وتسلبت الأقوياء على الضعفاء ، حتى لقد مات بعضهم تحت سياط العذاب ، من ضرب مبرح ، وكى بالنار ، وشق بالحجارة الملتببة في الهجير . . والرسول الكريم يرى هذا البلاء ينصب صباً على الرجال والنساء من أصحابه ، ويرى الموت يدنو منهم رويداً رويداً ، فلا يملك أكثر من الألم والأسى ، ولا يجد لأولئك المعذبين إلا أن يدعوهم إلى الصبر ، وأن يرغبهم في الاستشهاد ، لينالوا ما أعد الله للشهداء في سبيله من الفوز بجنات النعيم ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا مر بعمار بن ياسر وأبويه وهم يعذبون في وهج الشمس ، ولفج الهجير - يقول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » !

ونانياً : بعد أن امتنع رسول الله بقومه . من آل هاشم ، وآل عبد المطلب من أن تناله قريش بما أرادت أن تناله به من أذى ، ورأت أنها إن فعلت هذا كان ذلك هلاكاً لقريش ، وإفناء بعضهما بعضاً ، وبعد أن فرغ كيدها ، وبطل تدبيرها في أن تلحق بالنبي ما أرادت به من سوء - اتجهت إلى أسلوب آخر يسوق الأذى إلى النبي ، وإلى آله الذين اجتمعوا على بصرته . حمية وتعصباً ، وإن لم يجتمعوا على دعوته عقيدة وإيماناً . . وكان هذا الأسلوب هو تلك الدعوة الظالمة إلى مقاطعة آل عبد المطلب ، مقاطعة كاملة ، وحصارهم حصاراً اقتصادياً ، واجتماعياً ، فلا يتعامل أحد من قريش معهم في شيء أبداً . . لا يزوجهم ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يأخذون منهم ، ولا يعطونهم .

وواجه بنو هاشم وبنو عبد المطلب هذه الحرب بشجاعة ، وصبر ، وأبوا أن يعطوا الدية في هذا الامتحان الذى تعرف فيه معادن الرجال . . فجمع أبو طالب - عميد آل هاشم - أهله ، واتحاز بهم إلى شعب أبي طالب (١) - ليرى قريشاً

(١) شعب أبي طالب : هو عملة انحاز إليها بنو هاشم مدة الحصار فسمى بهذا الاسم -

أنه قادر على أن يلتقي معها على الأمر الذي أرادت ، وأنها إن أرادت اعتزاله واعتزال آله ، فليس هو بالحريص على أن يصل الحبل الذي قطعت . ١

وقد استمر هذا الحصار لآل عبد المطلب ، وآل هاشم نحو ثلاث سنين ، بلغ بهم الجهد غايته ، حتى سمع أصوات صديانهم — يتضاغون جوعاً — من وراء الشعب (١) .

وطبيعي أن النبي كان خلال هذه المحنة يحمل في نفسه كل مآل آل عبد المطلب وآل هاشم من جهد ومشقة . فكل ما كان يقع في محيط أفرادهم ، فرداً فرداً ، وفي جماعاتهم ، أسرة أسرة ، كان يقع في مشاعر النبي ، ويهيج خواطر الألم ، والإزعاج في نفسه ، قبل أن يصل إليهم — أضعاف ما كانوا يجدون من ألم وإزعاج !! ذلك لأنه - وهو النبي - يألم لآلام الناس جميعاً ، ويود لو يحملها عنهم ، أو يرمى بها في مكان سحيق . فكيف بما يقع في نفسه من هذا ، للآلام التي في أهله وذوي قرابته ، والقائمين على نصرته ؟ ثم هو من جهة أخرى يرى أن منازل بقومه من آلام وشدائد ، إنما كان بسببه هو . . وأن ذلك الذي احتملوه من أجله كان بدافع القرابة والدم ، ولم يكن بسبب العقيدة والدين ، ولو كان من أجل العقيدة لكان الأمر بعض الشيء ، ولكان على أصحاب العقيدة أن يؤدوا صريية الدفاع عن عقيدتهم ، لقاء الثواب العظيم الذي ينتظرهم . أما والمحتملون إنما احتملوا من أجل القرابة والدم ، فإذا ينتظرون من جزاء ؟ إنه لا شيء ! ، وإن يكن شيء فهو لإرضاء لنداء العصبية . ذلك النداء الذي لا يلبث أن تذهب أصدائه . بعد أن تذهب الحال التي تلبس بها !

إن الآلام النفسية والروحية بل والجسدية التي احتملها النبي خلال هذه المحنة التي عاش فيها أهله ، كانت أقسى مآل النبي في طريق دعوته من آلام . إنه حمل آلام آل بني هاشم كلها ، وإن ذهب كل منهم بنصيبه منها . فمن أجله كانت هذه التجربة التماسية ، وفي سبيل حمايته ، والدفاع عنه ، واجه بنو هاشم هذه القطيعة المرة ، واحتملوا عبء هذا الحصار المحكم الظالم . ثلاث سنين !

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ١٢٢ .

وثالثاً : حين بلغ الأمر من الشدة والضيق مداه في نفس النبي ، وأصبح جو مكة ثقيلًا خانقاً — أراد أن يلتمس له متنفساً حول مكة ، لعله يجد أعواناً ، وأنصاراً يستمعون له ، ويستجيبون لدعوته ، فربما وجد فيما حول مكة نفوساً تمسك هذا الخير الذي بين يديه ، وتنتفع به ، وتخرج منه ثمراً طيباً مباركاً .

كان لابد للرسول من أن يلتمس لنفسه ولدعوته مجالا آخر ، خارج مكة ، بعد أن لقي هو وأهله الأذنون ما لقوا من هذا البلاء الشديد .. وبما ضاعف من وقع هذه الآلام في نفس الرسول أن سقط الجناحان اللذان كانا يرفان عليه رحمة وحنانا . فما أن كادت تنتهي محنة الحصار ويفسد تدبير قريش ، وتنقض صحتها التي أبرم فيها هذا العقد الذي عقدته بينها لمقاطعة آل هاشم بعد أن سلط الله عليها الأرضة ، فأكلتها جميعاً ، إلا ما ورد فيها من ذكر الله عز وجل — ما كادت تنتهي هذه المحنة حتى مات أبو طالب بعد خروجه بقومه من الشعب بستة أشهر .. ثم لحقت به دحيةجة ، بعد موته بثلاثة أيام . . .

فانظر كيف ابتلى النبي الكريم هذا الابتلاء . في عمه ، وفي زوجته ؟ وكيف تفرغ يده من كل قوة مادية كانت تسانده في دعوته ، وتشد من أزره ؟ ومتى يكون ذلك ؟ إنه في أخرج مواقف الدعوة . . وبعد أن بلغ الأمر من الشدة مداه بين قريش وبين النبي !

لإنها عشر سنوات كاملة ، منذ أن تلقى الرسول الكريم أول إشارة من السماء ، إلى ذلك اليوم الذي فقد فيه الرسول زوجه ، وعمه ، كما فقد فيه الأمن والسلامة في مكة . مع قومه من قريش .. فقد روى عن جابر بن عبد الله قال : لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ، ومحنة وعكاظ (١) ، ويقول : من يؤمنني ، ومن يؤويني ، ومن ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي . . فله الجنة . . فلا يجد أحداً ينصره ويؤويه حتى إن الرجل ليرحل من

١. حجة وعكاظ : سوقان من أسواق العرب الموسمية .

مضر أو الين إلى ذى رحمه ، فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش ، لا يفتنك ، (١) .

إن ذلك كله من ألوان الشدائد والحن التي مرت بالرسول خلال تلك السنوات العشر كانت تربية وإعداداً للجولة التالية من الدعوة ، واستعداداً لاستقبال الطور الجديد من أطوارها . . . حيث سيشهد الأيام التالية أحداثاً ضخماً في حياة هذا الدين الجديد . . . سيلتقي الرسول الكريم بوجوه كثيرة من قبائل مختلفة ، وسيسمع أحاديث متباينة . . . وسيتلقى أجوبة مختلفة لما يلقي على الأسماع من آيات دعوته . . . وسيهجر النبي موطنه ويهاجر إلى موطن آخر ، وأقوام آخرين غير قومه ، وستدور معارك ، وتسيل دماء ، ويبتلى النبي في نفر كريم عزيز من أصحابه ، يسقطون في هذه المعارك . . . وسيقوم الرسول على توجيه مجتمع إسلامي ضخم ، بعد أن يحيمه نصر الله ، ويفتح مكة ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ١١ .

إن هذا البلاء العظيم الذي ابتلى به الرسول هو — كما قلنا — لإعداد لما سيستقبل من تلك الأحداث الكبرى . . . وإن هذا البلاء أشبه بما تعمل المحارث والقموس في شق الأرض وتقليب تربتها قبل أن يذرع فيها البذر . . . فذلك هو الذي يتيح لها الجو الصالح لأن تعطى خير ما فيها من عناصر الإنبات لما يلقي فيها من حب ١ .

نقول : في هذا الجو الثقيل الخانق الذي كان يضيق به صدر الرسول في مكة — خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف . . . والمنفعة بهم من قومه . . . وكان معه مولاة زيد بن حارثة . . .

ولما انتهى الرسول الكريم إلى الطائف ، عمد إلى سادة ثقيف وأشرافهم ، فدعاهم إلى الله ، وكنهم بما جاءهم له . . . من نصرته ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فلم ير منهم إلا إعراضاً ، وتكذيباً ، واستهزاءً . . . وكان فيما قال له قائلهم :

« والله لا أكلك أبدا ١١ لئن كنت رسولا من الله كما تقول لانت أعظم خطرا من أن أرد عليك السلام ١ ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لي أن أكلك ١١ » إنها سفسطة أحمق ، وضلالة ظلوم جهول .

فقام رسول الله من عندهم ، وقد يؤس من خيرهم . . وقال لهم : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكموا عني . . » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبالغ ذلك قومه عنه فيذئهم (١) ، ذلك عليه . . فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فوقفوا له سمطين (٢) ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دمت قدماه . . وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج في رأسه . . ١٠

ترك الرسول الطائف على تلك الحال ، وقد امتألت نفسه أسى فوق أسى ، وألما فوق ألم ..

وإلى أين ؟ وهل هناك غير مكة ؟ إنه على أية حال لا يزال يمسك منها على شيء من الأمل والرجاء ، ولا يزال يطمع في خير من أهل أو صديق فيها .

وقبل أن يتخذ الرسول سبيله إلى مكة وجهه إلى السماء يناجي ربه ، ويطلب العون والممدد ! نثفق قلبه بهذا الداء الدافئ العميق ، وتحركت شفتاه بهذا الدعاء الندى ، المعقود بأفئاس الأمل والرجاء في مالك المملك ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض . . يقول رسول الله مناجيا ربه :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ...

« يا أرحم الراحمين . . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى .

« إلى من تكلى ؟ .. إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ (٣)

« إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى . ١

« غير أن عافيتك هي أوسع لي . ١

(١) يذئهم عليه : أى يغريهم به ، ويحرضهم عليه .

(٢) أى فى صفيين .

(٣) يشير بالبعيد إلى ثقيف ، وبالعدو إلى قريش .

« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليها أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك .
« لك العتبى حتى ترضى . .

« ولا حول ولا قوة إلا بك، (١)

بهذه الكلمات المشحونة بالإيمان الوثيق بالله ، والمخلقة من أنفاس النبوة الطاهرة ، اتجه الرسول إلى ربه ، متضرعاً ، متوجعاً ، طالباً رضا ربه ورحمته ، فى صبر وحمد . . على السراء والضراء .

مدد غير منتظر :

وفى طريق الرسول من الطائف إلى مكة نزل منزلاً يمكن يسمى « نخلة » ، ثم قام من جوف الليل يصلى ، فصرف إليه نفر من الجن ، فاستمعوا قراءته ، ولم يشعروا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا : أأنصتوا ، فلما قضى ، ولوا إلى قومهم منذرين . . قالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم . . يا قومنا . أجبوا داعى الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويخرجكم من عذاب أليم ، ومن لا يحب داعى الله ، فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » (٢).

ولهالك تذكر من هذه الحادثة ما يقع فى نفس الرسول الكريم منها من ألس ، وما يشيع فى كنانة من رضى . . لأنه ليس وحده . . إن صوت السماء متصل به ، وإن جنوداً من جنود الله ، — لا يراهم — يحفون به ، ويستمعون له ، ويصدقون بما نزل عليه .

ومن هذا الذى يستمع إلى كلام الله ، ويستجيب لرسوله ؟ إنهم جماعة من

(١) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٢٣ .

(٢) سورة الحديد : آيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

الجن .. الجن الذى يخرب به المثل فى الخروج على كل نظام ، والتأبى على كل نداء ! ..

فكيف لا يكون لهذا القرآن فى نفس الناس ما له فى نفوس الجن ؟ وكيف يقبل الجن من إنسان ، ويؤمنون له ؟ على حين يأبى الناس الاستماع إليه ، والاستجابة لدعوته ؟ إن ذلك يكشف عن فساد فى طبيعة تلك النفوس الإنسية فساد خرج بها إلى أن تكون أكثر من الجن ضلالا وعناداً !

ثم لعلك تأتفت إلى ما امتثلت به نفس هؤلاء النفر من الجن من إيمان ، حتى لقد تحولوا إلى دعاة ، يبشرون فى قومهم بهذا الدين ، ويدعون له : « يا قومنا أجبوا داعى الله ، وآمنوا به .. يفقر لكم من ذنوبكم ، ويخرجكم من عذاب أليم » ففي هذا الصنيع من أولئك النفر من الجن تحريض قوى لأولئك النفر الذين استجابوا للرسول من الناس ، أن يبشروا بدعوة الإسلام فى الناس ، ويدلوهم عليها ..

وفى هذا كله قدر كبير من التنفيس عن نفس الرسول ، والتطبيب لحاظه ، بعد هذه التجربة القاسية ، التى مرت به فى الطائف . !

وكان الرسول قد أقام بنخلة أياماً ، قبل أن يتخذ سبيله إلى مكة .

وربما كان هذا التوقف منه — صلوات الله وسلامه عليه — فى هذا المكان مراجعة لنفسه ، وتقليباً لوجوه الرأى فى اختيار الجهة التى يتجه إليها .. أهى مكة ؟ أم غيرها من بلاد العرب ومضارب خيامهم ؟ . إنا لا نجد تفسيراً لتوقف الرسول الكريم فى هذا المكان ، ومكثه فيه أياماً ؛ أقرب من هذا التفسير ، الذى يناسب ما كان فى نفس الرسول من ضيق بمكة وبأهلها .. لقد خرج منها مكروباً مبهوماً ، والعودة إليها ستسكون أنسكى وأشد من قبل أن يخرج منها .. ولكن بعد أن نزل عليه وحى السماء ، بما كان من أمر أولئك النفر من الجن ، انزاح عن نفسه كثير من الضيق والهم ، ووجد من إيمان الجن به ما يطمعه فى إيمان قريش .. فإنها مهما تكن ، ومهما يكن من التوائها وعنادها ليست أكثر

من الجن عناداً ، والتواءاً ، وأن هذا القرآن الذى لانت به قلوب الجن ، واستجابت له ، سيؤثر هذا الأثر ، وربما أكثر منه ، فى قلوب العتاة المكابرين من قريش ! قال تعالى :

« قل أوحى إلى أمة استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً ، يهدى إلى الرشـد ، فآمننا به ، ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، (١) .

وهنا ، يخرج الرسول من « نخلة » ميمما وجهه شطر مكة ، وقد زايـله كثير من الألام والهم . فأسرع الخطا إليها ، ليرى ماذا أحدثت الأيام فى قريش ، وفى موقفها الظالم منه ؟ وهل كانت غيبته تلك الأيام المـعدودة عن موطن الأحداث — هل كان ذلك داعية للقوم أن يردوا ما عـزب من أحلامهم ، وأن يستمعوا إلى صوت العقل فيما يدعـوهم إليه رجل منهم ، لا يريد الملك ، ولا المال ولا الجاه ولا السلطان . . وإنما يريد كشف ما فى عقولهم من ضلال ، وشفاء ما فى قلوبهم من مرض . . إنه يتعامل مع الجانب الروحى منهم . . يتعامل مع الروح والعقل والنفس . . أما جانبهم المادى فلا شأن له به ، إلا فيما تقتضيه سلامة العقل ، وترتضيه طهارة النفس ، ويدعو إليه صفاء الروح !

فهل ترى غيرت هذه الغيبة شيئاً من سير الأحداث التى تركها الرسول منذ أيام ، وهى تغلى وتغور ؟ أما فى قريش من ناس يدخلون فى دين الله ويصرون نبيه ؟ . يا لظلام العقول ، ويا لقسوة القلوب !

على أن الرسول الكريم ما كاد يبلغ مشارف مكة ، حتى تلوح له تلك الوجوه المنكـرة البشعة ، التى وقف أصحابها فى وجه الرسول ، وامتدت أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه ، وإلى أصحابه الذين اتبعوه .

وربما قلب الرسول تلك الوجوه وجهها ، لعله يلجح فيها من يقوم إلى جانبه بعض مقام عنه أبى طالب ، الذى مات منذ قليل ! !

وكان المطعم بن عدى هو الذى اختاره الرسول ليقوم منه هذا المقام .
« فأرسل رجلاً من خزاعة إلى « مطعم بن عدى » يقول له : أأدخل فى جوارك ؟ »

وقال : نعم... ودعا بذيهِ وقومه ، فقال: البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت . فإني قد أجرت محمداً . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ومعه زيد بن حارثة ، حتى أفتى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته ، فنادى : يا محشر قريش . إني قد أجرت محمداً ، فلا يهجه أحد منكم (١) . . فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن ، فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح ، حتى دخل بيته (٢) .
وكانت قريش على عهدهما الذى تركها الرسول عليه من عداوة غليظة ، وشر صراح .

لقد ظل الرسول الكريم عشر سنوات ، ينادى قومه ويرأوهم بآيات الكتاب وبالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فما ازدادوا على الأيام إلا عداوة له ونقمة عليه ، وتربصاً به !

ولقد خرج الرسول من مكة بعد أن ضاق بها — خرج إلى الطائف لعل حافيتها من زروع وكروم قد ألتى فى نفوس أهلها نسيمة رطبة ، تنعش الأرواح وتشرح الصدور . فتعش لجمال الحق وجلاله ، وتستجيب له . . ولكن أهل الطائف كانوا أقسى قلوباً من قريش . وقد سجل التاريخ هذا اللقاء الذى لقوا رسول الله به . . فكان أسوأ صفحة سجلها التاريخ لنخوة العربى ومروءته .
وفقد الرسول الكريم مع هذا زوجه الوفى والسيدة خديجة ، وعمه أبا طالب درعه الحصينة .

ثم بعد هذا كاه يعود الرسول إلى قريش ، ويدخل عليها مكة ليبدأ دوراً عنيماً حاداً مع الصراع معها فى سبيل دعوته ، وتبليغ الرسالة التى بين يديه ؟؟

(١) يهجه : أى يبره ويغضه .

(٢) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٢٤ .

ولا يجد الرسول حلال هذه المحن من عزاء إلا فيما ينزل عليه من آيات الكتاب ، وفيما يقص عليه القرآن من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وفيما يدعوهم الله إليه من الصبر والثبات على موقفه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » . فتوكل على الله ، لأنك على الحق المبين .

فكانت آيات الكتاب هي روح الرسول وريحانه خلال هذا الصيق الذي نزل به . . وكان استماع الجن إليه واستجابتهم له اختباراً ناجحاً للكتاب الذي بين يديه ، وللقدرة الروحية المتمثلة عليها ، وذلك مما يبعث الأمل ، ويقوى الرجاء في استجابة القلوب القاسية له ، وتأثيرها به .

ومع هذا كله ، فقد كان الرسول الكريم في حاجة إلى مزيد من المدد الروحي ، وإلى التزود بزيادة من الملائكة الأعلى ، حتى يقرى على مواصلة الجهاد والصمود في وجه المعادين ، والكافرين ، والمتربصين .

ولقد أبل الرسول بلاءه في الأرض ، واستنفد كل ما يعطى أو يأخذ منها . ومن أهلها . فكان لابد من عالم آخر يتعامل معه ، ويتزود منه بزيادة روحية ، يشبع في كيانه قوى جديدة ، لاتنفد على كثرة ما ينفق منها في هذا النضال المتصل بينه وبين قومه ، حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق ، وحتى يدخل الناس في دين الله أفواجا .

وفي الإسراء إلى العالم العلوى . . يجد الرسول من آيات الله ، ومن دلائل قدرته وعجائب ملكوته ما تذوب في عباب محيطاته كل شرور العالم الأرضي وآلامه .

فلم يكن الإسراء في صميمه إلا رحمة روحية لرسول الله في عالم النور ، وإلا استدعاء له من مواطن الرحمة واللطف . ولأنه هو الجزء الحسن للرسول على جهاده الصادق في سبيل الله ، وقيامه على أداء الرسالة التي أرسل بها ، واحتماله ما احتمل من أجلها .

وماذا يكون للرسول من حزاء في هذه الدنيا على ما لقي في سبيل الدعوة من عناء وإرهاق ؟ إن كل ما في الأرض لا يقوم ببعض هذا الجزء . . وإن

الرسول لواحد في كل ما في الارض ، وما عليها من مال وحطام .. فلم يكن إلا ما في السماء هو الذى يناسب حال الرسول ، ويليق به .

ثم إن الإسراء إلى العالم العلوى شهادة للرسول عند نفسه أنه في موضع الرضا والإحسان من ربه ، وأنه أدى واجبه على الوجه الأكمل في تبليغ رسالة ربه . . وأن هذا النجاح الضئيل الذى صادفته مهمته خلال عشر السنوات التى مضت عن بعثته — لم يكن عن تقصير أو تهاون منه ، وإنما هو ابتلاء لرسول الله ، وتمحيص لما في صدور الناس .. ليعين الله الحديث من الطيب .

وقد ذكر القرآن الكريم حادثة الإسراء في آيتين من أول سورة الإسراء : فقد قال تعالى : سبحانه الذى أسرى بهيدته ليلاً .. من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير . .

والذى تذكره الآيتان من أمر الإسراء أنه وقع ليلاً ، وأن حدوده كانت من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن غايته كانت إطلاع الرسول على ما في ملكوت الله من آيات ، ولنريه من آياتنا .

يقول ابن إسحق : وكان في مسراه ، وما ذكر منه ، بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الالباب ، هدى ، ورحمة ، وثبات لمن آمن به وصدق ، وكان من أمر الله على يقين . . فأسرى به كيف شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد ، (١) .

وطلع الرسول على قريش بهذا الخبر ، وأنه قد أسرى به في ليلته تلك من مكة إلى بيت المقدس ، فبهتوه وكذبوه ، وأطلقوا ألسنتهم بالقول السيئ فيه ، وقال أكثرهم : هذا والله الإمرأ البين (٢) . . والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة . . أفينذهب إلى ذلك محمد ، في ليلة واحدة ويعود

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٢ .

(٢) الأمر — بالكسر — العظيم الشنيع . . « لقد جئت شيئاً أمراً » .

إلى مكة ١٩ ، . ولم يقف الأمر عند كفار قريش بل تجاوزته إلى ضعاف الإيمان من أسلموا . فارتدوا عن الإسلام . وذهب الكفار إلى أبي بكر ليطلعوا على هذا النبأ الأثير ، ولعلمهم يجدون عنده ما وجدوا عند ضعاف الإيمان ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس . وصلى فيه . ورجع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر أنتم تكذبون عليه ! فقالوا : بلى . . ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر لئن كان قاله لقد صدق . فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليآتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . . فهذا أبعد مما تعجبون منه ! (١) .

قال ابن سحوق : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك الحادث : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والسجدة المعونة في القرآن ، وتخوفهم ، فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ، (٢) .

والإسراء — كما قلنا — إنما كان شأننا خاصاً بالنبى ، ورحلة روحية تشرح صدره . وتبعش نفسه ، وتذهب بكثير مما ألم به من ضيق وحزن بموت زوجته وعمه ، وتقابل قريش عليه وعلى آله ، وبما لقي من أهل الطائف من لقاء بارد غث ورد سمج قبيح .

وفى مصموم هذا المعنى ينبغي أن نحدد نظارتنا إلى الإسراء . . فهو بهذا المعنى ليس معجزة للتحدى ، تقف من الناس موقف التعجب لهم ، والتحدى بالإنيان بمثلها . . وإنما هي إخبار بأمر شهده الرسول وحده ، فإذا حدث به كان حديثه الصدق كله . . لا ينبغي لمن آمن بأنه نبي أن يكذبه في شيء مما يقول . . ولهذا كان جواب أبي بكر على من أراد أن يغريه بتكذيب النبى ذلك الجواب الحكيم : والله لئن كان قاله لقد صدق . . لأنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . . فهذا أبعد مما تعجبون منه ، . . لأنه أمين السماء . . لا يكذب أبداً . . هذا مبدأ . . يجب أن يعلم به كل من يدخل في هذا

(١) زاد المعاد جزء ٢ ، والسيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٤ .

(٢) سورة الإسراء آية ١٠ .

(١٧) — النبى محمد (

الدين ، ويؤمن بالله وبر-وله . . قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (١) .

ولا على المسلم أن يرد أو يقبل كل ما روى عن الإسراء من أحاديث ، وما ذكر من قصص ، وحسبه أن يؤمن بأن الإسراء برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أمر لاشك فيه ، كما نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى « سبحانه الذى أسرى بهده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله . . لنريه من آياتنا . . إنه هو السميع البصير » .

هذا ما يجب على المسلم الإيمان به من حديث الإسراء . . أما ما وراء ذلك مما اتصل بالإسراء ، وكان مثار جدل وخلاف ، كالخلاف حول الإسراء : أكان بالروح أو الجسد ؟ وكالخلافا فى مواطن الإسراء : وهل انتهى عند بيت المقدس أم أن الرسول قد صعد فى رفقة جبريل إلى السموات السبع ، ثم انتهى إلى سدرة المنتهى ؟ كل ذلك إن صح على وجهيه ، أو على وجه واحد منه ، فإنه لا يزيد من قدر الإسراء : ولا ينقص من قيمته . . فالإسراء كما قلنا رحلة روحية للرسول وقد تطول هذه الرحلة أو تقصر ، فليست العبرة فى طولها أو قصرها ، وإنما فى الآيات الكبرى التى رآها الرسول من آيات ربه . . وقد ينطوى الوجود كله فى لحظة واحدة للرسول فيرى فيه ما شاء أن يرى ، وقد تطول الرحلة وتمتد ، دون أن يتبدل ما شهد فى تلك اللحظة الواحدة .

ومع هذا ، فإن آتى الإسراء تحدان مبدأ الإسراء ومنتهاه . . « من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . . ولا تذكران شيئاً عن « المعراج » إلى السموات العلا . .

والذى يقرأ القصص التى صورت فيها « رحلة المعراج » يشم منها ريح الصنعة والتلفيق ، وتبرز فى أثنائها انعكاسات عجيبة ، لما يندور فى بعض العقول ، من تصورات خاطئة لكمال النبوة وجلالها . .

فمثلاً زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش . مطلقة متبناه قيد بن حارثة . هذا الزواج كان لحكمة عالية - أرادتها السماء لإبطال التبني .

(١) - ورة الحشر آية ٧ .

محافظة على الأنساب . فقد كان التبنى شائعاً عند العرب . . يلحق الابن بغير أبيه ،
من يريد لمخاطبه به ، فيأخذ في الحياة حكم الابن الحقيقي . . وقد كان زيد بن
حارثة مثنى للنبي ، وكان يدعى زيد بن محمد ، فأراد الله إبطال هذه العادة
بتهريب سماءى فقال تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل
أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم
بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، ادعواهم لأبائهم ، هو أقمسط
عند الله . فان لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين ومواليكم » (٢) .

وقد أراد الله سبحانه أن يرى المسلمين تجربة عملية لإبطال هذا التبنى ، فأمر
بأن يتزوج مطلقة متبناه زيد . . فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكي
لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، (٢) .
ولذلك نلح في قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها . . » أن
التزويج كان عن أمر الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا ما يدل
عليه الفعل « زوجناكمها » .

هذه هي واقعة زواج الرسول من « زينب بنت جحش » . مطلقة متبناه زيد
ابن حارثة . . وقد كان هذا الزواج مشار غمر ولمز من المشركين ، والمنافقين ،
ودعاة فتنة لمن كان في قلبه مرض ، ممن دخلوا في الإسلام .

وقد انتهز واسع قصة المعراج المجامع النسيج للأحداث في هذا العالم
الروحاني ، الذي لا حدود له فجعل لزيد بن حارثة ولزوجته مكاناً هناك ، يقال إن
السماء هي التي دبرت أمر هذا الزواج والطلاق . . وحسب أنه في هذا يدفع باطل
المشركين والمنافقين الذي تسجوه من هذه الواقعة .

يقول واضع — أو وضعوا — قصة المعراج ، فيما يروى عن رسول الله :
« ثم دخل بي — أي بالرسول — إلى الجنة فرأيت فيها جارية لعساء ، فسألتها
من أنت ؟ وقد أعجبني حين رأيته . فقالت لزيد بن حارثة ، فبشر بها رسول الله
صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة (٢) » ١ .

(١) سورة الأحزاب : ٥ ، ٤ . (٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٣) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ١٥ .

أهذا قول يقبله العقل ويطمئن إليه القلب في مسرى رسول الله إلى الملائ الأعلى ؟ وهل لمثل هذا كانت رحلته صلى الله عليه وسلم إلى عالم النور والحق ؟ وهل خلت الجنة من مظاهر الجمال والجلال فيقف الرسول عند تلك الجارية اللعساء ويسألها هذا السؤال : لمن أنت ؟ كأنما يريد لها لنفسه ؟ وهل خات الجنة من الحور العين . أشكالا ، وألوانا ، حتى يقف ويطليل الوقوف عند هذه الجارية اللعساء ؟ .

لقد كانت لحظات الرسول خلال الإسراء مشحونة بالأحداث المثيرة المذهلة ، التي تبهل الأنفاس فلا تدع مجالا لمثل هذه التوافه من الأمور .

ثم إن كان لقصة زيد وزواجه بن زينب صدى في مستقبل الأيام ، فهل يقتضى ذلك أن يكون بحيث يبشر به ، وتنصب له الأعلام قبل أن يقع بهضج سنين ؟ . إن ذلك من إلقاء الفهم الخاطيء للحكمة من زواج الرسول الكريم بن زينب بنت جحش طيبة متبناه زيد بن حارثة — أولا ، ثم للفهم الخاطيء ثانياً للحكمة من الإسراء برسول الله ، تلك الحكمة التي صرح بها القرآن الكريم في قوله تعالى : « ليريه من آياتنا » . . . وبعد أن تكون رؤية الرسول لهذه الفتاة اللعساء في عرصات الجنة آية أبداً . .

هذا ، ويرى بعض أهل العلم أن الإسراء كان بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى دون عروج إلى السماء كما قلنا ، وبعض أهل العلم أيضاً يرى أن الإسراء كان بالروح لا بالجسد وأنه كان رؤيا منامية . ورؤيا الأنبياء حق تنزل منزلة الوحي ، وقد جعلها إبراهيم عليه السلام وحياً أوحى به الله سبحانه وتعالى إليه في ذبح ابنه إسماعيل : « قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر . . . ستجدني إن شاء الله من الصابرين . . . فلما أسلما وتلاه للجبين ، ونادينه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نحزى المحسنين ، (١) . وهل كان الوحي بحمل إبراهيم على أكثر من هذا ؟ لقد قدم ابنه للذبح بيده ، واستجاب الابن لدعوة أبيه ، لأنه يعلم كما يعلم أبوه أن هذا أمر من الله . وأن الرؤيا تنزل منزلة الوحي عند الأنبياء .

وحدث ابن إسحق قال : حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أسرى بروحه (١) .

وقال ابن إسحق : حدثني يعقوب بن عتبة بن المنيرة بن الأخنس أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كانت رؤيا من الله تعالى ، صادقة .. » فلم ينكر ذلك من قوله ، لقول الحسن إن هذه الآية أنزلت في ذلك ، وهي قول الله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » ، ولقول الله تعالى في الخبر عن إبراهيم إذ قال لابنه : « يا بني : إني أرى في المنام أني أذبحك » ، فخصى ذلك ، فعرفت أن الرحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً وفياماً .. ثم يقول ابن إسحق : والله أعلم أي ذلك كان قد جاءه ، وعان فيه ما عين من أمر الله ، على أي حاله كان ، فائماً أو يقظان ، كل ذلك حق ، وصدق (٢) .

وقد فصل القاضي عياض في كتابه « الشفا » مذاهب القول في الإسراء ، والمعراج .. وهل كان مع الإسراء معراج . وهل كان الإسراء بالروح أو بالروح والجسد . قال : « اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه بروحه أو جسده على ثلاث مقالات . فذهب طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ، ووحى ، وإلى هذا ذهب معاوية ، وحكي عن الحسن ، والمشهور عنه خلافة ، وإليه أشار محمد بن إسحق ، وحدثهم قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » وما حكوه عن عائشة رضي الله عنها : « ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٥ .

(٢) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٦ .

(٣) الذي يروى عن عائشة أنها كانت تقول ما فقدت جسد رسول الله ، ولكن أسرى بروحه ، وهذا هو الذي يمكن أن يستقيم عليه القول ، لأن الإسراء كان قبل الهجرة بهو ثلاث سنوات ، والرسول لم يدخل بعائشة إلا بعد الهجرة . فكيف تحدث بأنها ما فقدت جسد رسول الله ؟ وإنما يصح أن تروى خبراً من أخبار الإسراء ، سمعته ممن يحدث به ، أو سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله — أى قول النبي فيما يروى عنه فى حديث الإسراء — «بنا أنا نائم فى المسجد الحرام ..» وذكر القصة ، ثم قال فى آخرها : فاستيقظت وأنا فى المسجد الحرام .

وذهب معظم السلف ، والمسلمين ، إلى أنه إسراء بالجسد ، وفى الیقظة ، وهذا هو الحق ، وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبى هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبى حية البدرى ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبیر ، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جريج .. وهو دليل قول عائشة .. وهو قول الطبرى ، وابن حنبل ، وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين ، والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد یقظة إلى بیت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فجعل إلى المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة ، والتمدح بتشريف النبى محمد صلى الله عليه وسلم به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه .. قال هؤلاء . ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ فى المدح !

وبعد أن ينتهى القاصى عياض من عرض هذه الآراء ؛ يعرض رأيه هو ، فيرجح -إنب القول بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً .. يقول :

« والحق من هذا ، والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها — أى الإسراء — والمعراج — وعليه تدل الآية ، وصحيح الأخبار والاعتبار ، ولا يدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس فى الإسراء بجسده ، وحال یقظته استحالة ، إذ لو كان مناماً لقال : بروح عبده ، ولم يقل بعبده ، وقوله تعالى : «ما زاغ البصر وما طغى» (١) ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه . ولا ارتد به ضعفاء من

(١) سورة البجم : آية ١٧ .

أسلم ، وأفقتوا به ، إذ مثل هذا من المنامات لا يسكر .. بل لم يكن ذلك —
أى الإنكار — منهم — إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه ، وحال
يقظته ١» (١) .

ونعود بعد هذا فقول إن الخلاف فى الإسراء بالجسد أو الروح خلاف
لا يؤثر فى حقيقة الإسراء ، وما نال الرسول فيه من أمداد ، وما رأى من آيات ..
وأن قدرة الله لا تتقيد بتلك القيود التى تقتضيها الضرورات البدنية .. وخير
من هذا الخلاف الذى يذهب بعظمة الإسراء ، ويمزق حجب الجلال الذى يحف
به ، ويعيث بالستر الملقى عليه من عالم الروح — خير من هذا أن ندع الرسول
الكريم فى موكب جلاله وعظمته ، تحف به ألطف ربه ، وتحده رعايته
إلى حيث يسبح فى أنوار الحق ، ويطلعهم بروحه من طيبات الملائ الأعلى .

أما أن نحسد العالم العلوى ، ونحيله إلى أشياء من عالم التراب الذى نعيش فيه
فذلك مما يهون من خطر الإسراء ويبخس من قدره .. فإن الذى يطالع قصة
الإسراء على تلك الصورة المجسدة التى صورت بها ، تموت فى نفسه كثير من تلك
المشاعر الروحية ، التى كان حقيقة أن تأثيرها فيه حادثة الإسراء لو ذهب من طريقها
هذا الركام الكثير من العوائق والسدود . ولا تتخضع بتلك الأصابع الساذجة
التي يلمس بها الفصاض وجه الحقائق المادية ليجعلوا لها من تلك الأصابع وجهاً
تدخل به إلى العالم العلوى .. فإن هذا المسكياج ، المفصوح يجعلها مسخة أكثر
منها حقيقة .. فالبراق الذى يهب للرسول ليمتطيه إلى العالم العلوى ليس إلا أنا
ركب عاينه جناحان من ريش ! فصار لعبة من لعب الأطفال التى يؤلفونها من
حطام بعض لعبهم التى انتهى دورها معهم .. ثم هذا الحجر الذى يندب إليه الأنبياء
دوابهم عند بيت المقدس ، والحلقات المخروسة فى ذلك الحجر لتمسك المهود
واللحم .. لأنها جميعها لتمسك بالمعاني الكريمة الطيبة التى كان ينبغي أن يجدها المرء
فى نفسه من حادثة الإسراء لو انزاح هذا الحجر من طريقها ، وانزاحت معه
الدواب ، واللحم ، والمقاود ، والسروج وغيرها ، مما يكون فى مرابط الحيوان ١١

وعلى أى فإن الإسراء على أية صورة وقع ، لم يكن فيه ما يخرج الرسول عن
بشريته ، ويباعد ما بينه وبين الإنسان الذى يعيش فيه . . فقد عاد الرسول بعد
الإسراء لم ينكر الناس من ظاهره شيئاً . حتى أعداؤه أنفسهم لم يروا عليه أماراة
من أمارات هذه الرحلة المباركة . فإن خيرها كله كان مخبوءاً فى كيانه ومنطويّاً
فى صدره ، وسارياً فى روحه . . لأنه شأن من شأن الله مع نبيه ، وزاد روحى
زوده به ، تكريماً له ، وترويحاً عن كيانه المحمّد .

✽ ✽ ✽

وننف عند هذا القدر من عرضنا لمعجزات الرسول ، وما دخل عليها من
إضافات ، ومرفعات . . بيد المنتظرين من المسلمين ، والمتعصبين من غير المسلمين .
ولكن قبل أن نرسلها من أيدينا نعود فنقرر مرة أخرى أن هذه المعجزات
— ما صح منها وما لم يصح — ليست هى المعجزة التى أودعتها السماء يد النبى ،
والتي بها كتب الله لرسالته الشمول والخلود .

وإن يكن فى حياة النبى من خوارق — ولا بد من أن يكون — فإن هذه
الخوارق تكريم له ، وفضل من الله على نبيه . ونفحة من نفحات الجوة ، وشذى
من شذاها العطر . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . .
ولدى الكريم من هذا الفضل ما لم يكن للبشر غيره . . والله سبحانه وتعالى
يقول له . « وكان فضل الله عليك عظيماً » .

أما المعجزة الكبرى التى وضعها الله بين يدى الرسول . فهى تلك المعجزة
الباقية الخالدة ، أبد الدهر . . وهى القرآن الكريم .

الباب الثامن

الرسول .. والمعجزة الكبرى

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .. وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ .. لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

القرآن هو معجزة النبي .. المعجزة التي قامت عليها دعوته ، واستقامت بها حجته ، وانتمت إليها شريعته !
فالقرآن — من بين الكتب السماوية — ليس كتاب شريعة وحسب ، وإنما هو كتاب شريعة ، ودلائل نبوة ! وليس كذلك الكتب السماوية الأخرى حيث جاءت الكتب والمصحف يحملها أنبياء الله ورسله في يده ، بينما يحملون في اليد الأخرى معجزات مادية تدل على صدقهم ، وتشهد لبروتهم !
فالديانة الموسوية .. كتابها السماوي هو التوراة ، وهو دستور شريعته . وإلى جانب هذا الكتاب قامت معجزات تشهد له كما تشهد للرسول الذي حمله .. فكانت عصا موسى ، وأفعاله الخارقة ، وكانت يده التي يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء !

والديانة المسيحية .. كتابها السماوي الإنجيل .. وهو — مع التوراة — دستور هذه الديانة ، وإلى جانبه قامت معجزات السيد المسيح ، لقتله ، والكتاب الذي جاء به . فكانت معجزاته التي طمع بها على الناس ليعمدوا به ، وبرسالته .. من إحياء الموتي ، وإبراء الكمأة والبرص ، وإنزال مائدة من السماء وغير ذلك من المعجزات التي وضعها الله بين يدي السيد المسيح !

وقد جاءت الرسالة الإسلامية في أسلوب آخر غير هذا الأسلوب . . جاءت بكتاب يشرح شريعة كاملة ، تتناول كل ما يمس حياة الإنسان الروحية والعقلية ، والمادية ، في جانبها ، الدنيوي والآخرين دون أن يحيل إلى كتاب آخر ، أو يشد أتباعه إلى شريعة أخرى — ثم جعل في كيان هذا الكتاب الدلائل الماطقة بصدقه ، والشواهد القائمة على أنه من عند الله ، وأن الرسول الذي جاء به ، هو رسول الله !

ومجيء القرآن على تلك الصورة الفريدة العجيبة ، قد جعل له سلطاناً على العقول والقلوب ، بما أودع فيه من صور الإعجاز التي يشهد بها المتأمل به — قارئاً أو مستمعاً — في كل آية من آياته ، من غير أن يكون في زمن نبوة ، أو في حضرة نبي !!

وقد استمعت الجن إلى القرآن فسلكت آياته قلوبهم ، واستولت روائعه على عقولهم ، فوقفوا منه موقف العجب والدهش . ثم الإذعان لسلطانه ، والإيمان بدعوته ، التي يدعو إليها .

قال تعالى : « وإذ صرفنا إليك ننراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا : فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا : إنما سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه . يهدي إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم » (١) وقال جل شأنه : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنما سمعنا قرآناً عجباً ، يهدي إلى الرشd ، فآمنّا به ، ولن نشتك ربنا أحداً » (٢)

إن الجن اتعجب من هذا القرآن ، وتجد فيه ما لا تجد فيما تسمع من حكم الحكماء ، وأشعار الشعراء ، وفلاسفة الفلاسفة ، وقصص القصاص ، وسجع السكبان ، وترانيم الأحبار والرهبان .

فهذه شهادة تجيء بإعجاز القرآن من أمة الجن التي من شأنها أن تستعلى على

(١) سورة الأحقاف آية ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة الجن آية ١ — ٢

كل شيء في عالم الإنسان ، وتستصغر شأنه . . فإن الجلى تملك من القوى ما لا يملك الناس ، وتأتى من الأعمال ما يعجز عنه البشر . ولهذا ينسب إليها كل عمل رائع ، ويوصف بها كل ذى حيلة وحول من الناس ، وقد سخر الله الجن لسلطان عليه السلام لتخرج له من الأعمال ما يعجز الناس عنه . . يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتمائيل وجنات كالجواب . وقدور راسيات ،^(١)

ولما للقرآن من هذا الشأن وتلك المنزلة ، وهذا الامتياز على الكلام ؛ فقد أضفى عليه سبحانه ونعالى من الصفات ما يشهر بأنه ذات لها حياتها ، وكالاتها ، ولها فاعليتها في الحياة ، وتتمرفها في الوجود .

« يس . . والقرآن الحكيم » . . ولأنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ،^(٢) فقد وصف القرآن بالحكمة . . وهي صفة والذات العاقلة المدبرة ، المتصرفة . كذلك وصف بالعزة في قوله تعالى : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »^(٣)

والعزة صفة للعاقل الذى ترفعه صفاته إلى حيث لا يناهه هون ، ولا يلحقه ضعف ، ووصف كذلك بالمجادة في قوله تعالى : « ق . . والقرآن المجيد ، . . والمجادة مقام من مقامات القوة والمنعة ، من يلتمها فقد حانقه الحزى والضعف .

وليس هذا بالكثير على كلام ، هو من كلام رب العالمين . . نزل به الروح الامين على رسوله الكريم . . « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »^(٤) .

ومن أجل هذا كان للقرآن هذا السلطان الأسر على النفوس . . فما استمع إليه مستمع حتى وجد له من الرهبة والجلال ما لا يحمد شيئاً منه لأروع آيات البيان ، من صور الكلام

جاء عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ، موفداً إليه من قريش ، يدعوه إلى ما أرادت قريش أن تدعوه إليه ، من ترك هذا الدين الذى فرق به بين قومه ،

(١) سورة سبأ: آية ١٥ . (٢) سورة الزخرف : آية ٥٣ .
(٣) سورة فصلت : ٤١ — ٤٢ . (٤) سورة الحشر: آية ٢١ .

وأثار دواعى العداوة بين الصديق والصديق ، والقريب والقريب ، وعرض عليه ماعرض من صور الإغراء للتخلل عن دعوته . وكان فيما عرض له ، أن تلتزم له قریش كل من حذق فى معالجة المصرع والجنون من الكهنة والعرافين ، إذا كان مابه مس من الجن ، أو عارض من الجنون . وأن يجعلوا له مايشاء من المال إن كان ذلك غايته من هذه الدعوة التى يدعو إليها ، أو يجعلوه ملكاً عليهم إن كان يهوى الملك والباطان .

فقال له الوليد فيما قال : يابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رؤياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . !

فلما فرغ عتبة ورسول الله يسمع قال : أقدم فرغت أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاستمع منى ؟ قال : أفعل ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم . . حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته ؛ قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (١) » ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه . ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد . ثم قال : قد سمعت أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك !

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ! ! فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورأى أنى سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ؛ والله ما هو بالشعر ؛ ولا بالسيح ولا بالكهانة . . يا معشر قریش : أطيعونى واجعلوها بى ، واخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن أقواله الذى سمعت نبأ عظيم . فإن تصبه

العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكم ملككم وعزه عزكم ،
وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه ! ، فقال هذا رأيي فيه
فاصنعوا ما بدا لكم . (١) .

والرسول الكريم يصف القرآن بصفات تكشف عن الخير الكثير المخبوء
فيه ، وتبين عن الزاد الطيب المشتغل عليه .

يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « إنه ستكون فتن كقطع الليل .. قيل
فما الهجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى .. فيه نبأ من قبلكم ،
وخبر ما بعدكم .. وحكم ما بينكم . وهو فصل ليس بالهزل .. من تركه تحبباً
قسمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .. وهو حبل الله المتين . ونوره
المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم . هو الذي لا تزيف به الأهواء
ولا تذهب معه الآراء . ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملأه الأتقياء ، من علم علمه
سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى
صراط مستقيم » (٢) .

وقال صارات الله وسلامه عليه : « من أراد علم الأولين والآخرين فليثق
بالقرآن » .

من أجل هذا الذي ضم عليه القرآن من جلال ورواء ، مع ما فيه من العلم
والحكمة — فقد وقف القرآن تناخاً عالياً عن أن يطاوله قول ، أو يدانيه بيان ..
خرست الألسنة أن تذكرك مسالكه ، وأن تبلغ مراميها .. وعرف أصحاب اللسان
والفصاحة مكانهم من الاستخزاء والبعجز إذا بدا لهم أن يحاكوه ، أو يجروا على
سننه ، فأمسكوا ما جرى على ألسنتهم من كلام أرادوا أن يحروه في ميدان القرآن ،
يقول ابن عطية في مقدمة تفسيره المسمى « الجامع المحرر » : « يظهر لك قصور
البشر مطاولة القرآن — أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يتفرد فيها جهده

(١) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٢١٣ .

(٢) صحيح مسلم

ثم لا يزال ينتقحها حولاً كاملاً ، ثم تعطى لأحد نظيره ، فيأخذها بقريجة خاصة ، فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل .

وكتاب الله لو نزع منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد « (١)

سمع أعرابي قارئاً يقرأ ... : والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، ثم جعل فاصلة الآية . : والله غفور رحيم ، فقال الأعرابي : ما هذا ؟ ف قيل له قرآن ، فقال ما هذا بقرآن . فتنبه القارئ ، فصيح فاصلة الآية بقوله تعالى : : والله عزيز حكيم . فقال الأعرابي : عز ، لحكم ، فقطع !!

فأجاز القرآن في ذاته حقيقة مقررة لم ينازع فيها أحد من أولياء الدعوة الإسلامية أو خصومها ، فقد وقف متجدياً كل ذى لسان منذ نزل إلى اليوم أن يأتي بآية أو سورة من مثله ، فلم يكن في الناس من وقف في وجه هذا التحدى ول يكون أبد الدهر ،

يقول الجاحظ : إن محمدًا صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها في العقل مرقع كمرقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة ، مع ما فيها من الشعراء ، والخطباء ، والبلغاء ، والدهاة ، والحلماء ، وأصحاب الرأي والأكيدة والتحارب والنظر في العاقبة — إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي وصدقت في تكديبي .

ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم واختلاف علمهم ، والكلام كلامهم ، وهو سيد عملهم ، فقد فاض بيمانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغالبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم حتى قالوا في الحيات والعقارب والذئاب ، والكلاب ، والخنافس ، والجعلان ، والحمر ، والحمام ، وكل مادب ودرج ، ولاح لعين وخطر على قلب ولهم بعد أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيدة والرجز والمزدوج

(١) مقدمتان في علوم القرآن . . نشرها أثر جفري سنة ١٩٥٤ م ٢٧٩ .

والجائس ، والأسجاع ، والمشور . وبعد ، نفذ هاجوه من كل جانب ، وهاجى أصحابه شعراءهم ونازعوا أحلامهم وحاجوه فى المواقف وحاصوه فى المواسم وبادروه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم وقتلوا منه ، وهم أنبت الناس حقداً . وأبعدهم مطلباً ، وأذكرهم لخير أو لشر ، وأحماهم بالعجز ، وأمدحهم بالقرة - ثم لا يعارضه معارض . ولم يتكلف ذلك خليب ولا شاعر ! ؟

ومحال فى التعارف ، ومستنكر فى التصديق ، أن يكون الكلام أحمر عندهم ، وأيسر ماثلة عليهم ، وهو أبلع فى تكذيبه ، وأنقض لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه فيجتمعا على ترك استعماله ، والاستغناء به ، وهم يبدلون مهجهم وأموالهم ويخرجون من ديارهم ، فى إطفاء أمره ، وفى توهين ما جاء به - ولا يقولون بل ولا يقول واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم وتستهلكون أموالكم وتخرجون من دياركم ؟ والحيلة فى أمره يسيرة والمأخذ فى أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطباءكم كلاماً فى نظم كلامه كأقصر سورة يتخذ لكم بها ، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها . (١)

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

« فالإسلام فى هذه الدعوة ، والمطالبة بالله ووحدايته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلى ، والفكر الإنسانى الذى يحرى على نظام نظرى ، وهو ما نسميه النظام الطيىمى .

« فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخذش لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بمسححة إلهية (٢) .

ويقول أيضاً :

« ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده ، والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده ،

(١) رسائل الجاحظ ص ١٤٣ .

(٢) الإسلام والصحفانية ص ٥٤ .

وليس من اختراع البشر. هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتابة ، ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال ، مقوما للمعوج ، كافلا بظلام عام لحياة من يهتدى به من الأمم . . وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تنتهي إليه قوتهم ، فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على الداعي فلهيهم أن يأتوا به . . قال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله .

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما بما يناوله العقل بالفهم فهي معجزة عرضت على العقل . . وأطلقت له حق النظر في أنشائها ، ونشر ما انطوى في أنشائها . . فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها . أما معجزة موت حتى بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهي ما ينقطع عنه العقل ، ويحمد لديه الفهم ، وإنما أتى بها الله على يد رسوله لإسكات أقوام غابهم الوهم ، ولم يضيء عقولهم نور العلم . . وهكذا يقيم الله بجزته الآيات للأمم على حسب الاستعدادات ، (١) .

• • •

لا يعرف التاريخ البشري كتاباً لقي من العناية والاهتمام ما لقي القرآن الكريم من عناية أتباعه ، واهتمامهم به ، والثناء لهم إليه .

نقول ذلك . . وبين أيدينا الحجة القاطعة في هذا العدد المديد من المؤلفات التي خلصت لخدمة القرآن . وقامت لاستكشاف أسرارها ، واجتماع ثمرات هديها .

ومن أجل هذا كانت تلك الألوف المؤلفة من كتب التفسير التي ضمت عليها المكتبة العربية ، والتي ذهب أضعافها في ثمانية الفتن والأحداث التي مرت بالمسلمين . وإذا كانت كتب التفاسير هي الطريق المباشر الذي سلكه المفسرون لخدمة القرآن ، فإن هناك طرقياً أخرى سلكها السالكون لخدمة كتاب الله ، وهي لا تقل أثراً في خدمته عن هذا الطريق .

فهناك العلوم الكثيرة التي عني بها المسلمون دراسة وتأليفاً .. بعضها عربي صميم ، وبعضها أخذه العرب عن غيرهم من الأمم ، فعلوم القراءات ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والمنطق ، والفلسفة ، والطب ، والرياضة ، والفلك .. وكثير غيرها إنما اتجه إليها المسلمون أول ما اتجهوا لخدمة القرآن ، وتمهيد الطرق لفهمه ، وتمهية الأجواء للدلالة على إعازه ..

فكانت علوم اللغة مثلاً لصيانة مادته .. وكان علم النحو لحفظ إعرابه ، والأدب لتذوق أساليبه ، كما كان المنطق والفلسفة الرد على خصومه .. وهكذا .

ومن عجب أن يكون هذا كله من عمل الأفراد ، ومن وحى ضمائرهم ، دون أن تقوم عليه دولة ، أو تجمع له جماعة .. ولهذا كان ذلك الاختلاف المتعجب في كل علم ، وفي كل فن من فنون العربية وعلومها .. إذ كان كل فن ، وكل علم قد اشترك فيه أفراد الأمة — أعني علماءها — فرداً فرداً ، كل فرد له رأيه ، وله فهمه ، ما وسعه الرأي والفهم .

فالمسألة الواحدة يلقيها المفكرون جميعاً ، كل برأيه ، يتناولها حسب استعداده ، واجتهاده .

ومن هنا كان الاختلاف الذي لا يكاد يحصر ، والذي لا نجد له شبيهاً عند أمة من الأمم ، أو في لغة من اللغات .

وحسبنا أن نشير إلى الفقه وما في أحكامه من آراء ، والنحو وما في مسائله من خلاف .

وقد كان لهذا الخلاف في الرأي آثاره الحمودة ، وآثاره السيئة معاً ..

فمن آثاره الحمودة أنه يرى في أي مسألة ، وفي أي حكم آفاقاً من النظر وأنماطاً من الفهم ، يستطيع الواقف على هذه الآراء المتخالفة أن يرى الأمر من جميع جوانبه ، وأن يلقاه من كل وجه من وجوهه .

فإنه في مجال هذا الآراء المتخالفة ، والمقولات المتباينة . يتعري الشيء من لقائف الغموض ، ويتبدى لعين النظائر من غير حجاب .

وهذا المحمود ذاته هو المذموم أيضاً ، فكثيراً ما يشير هذا التناقض للنسكرة
بليلة في الفكر ، واضطراباً في الرأي ، تنهب بالمرء فيه المذاهب ، فتتركه الحيرة
حين تتصادم أمامه الحجج ، فلا يدري ما يأخذ وما يدع ، وما يعمل منها أو يهمل .

وعلى أي فإن كثرة الآراء حول موضوع من الموضوعات إنما هو تمحيص
له آخر الأمر ، ولا يلبث أن يتهدى الناس — مع الزمن — إلى الرأي الراجح
فيه ، والوجه السليم منه .

فلا فزع إذن لكثرة الخلافات التي دارت حول المسائل الإسلامية - وهي
في الغرور لاني الأصول — ولا تنظر إليها إلا على أنها أضواء كاشفة ، وشعاعات
مضيئة إن زانت بها بعض الأبصار ، فإنه يتهدى بها معظم الأبصار .

° ° °

ونعود إلى حديثنا عن القرآن . . فنقول :

لقد بلغت عناية المسلمين بالقرآن أن عدوا حروفه ، حرفاً حرفاً ، وكلدته
كلية كلمة ، وآياته آية آية . . بل وأكثر من هذا .. لأنهم ردوا حروفه إلى حروف
المعجم كلها ، وحصروا حظ كل حرف منه .

عناية لا نظن أنها وجدت لأي أمر اتصل بحياة الناس ؛ أفراداً أو جماعات ..
ولم تكن هذه العناية بالقرآن إلا من وحي الإيمان به ، وبأنه من عند
الله ، وأن كلماته من كلام الله .

فلم تكن نظرة المسلمين إلى القرآن نظرتهم إلى كتاب سماوي يحمل إلى الناس
شريعة ، ويقيم لهم ديناً ، وإنما هو فوق ذلك كلام الله الأزلي الأبدي .. ففي
كل كلمة أسرار ، وفي كل حرف سر وبركة .

وقد سمح القرآن بأن ينفذ هذا الشعور عند المسلمين ، وأن يمالأ أيديهم من
أسراره وعجائبه ، وأن يصدقهم القول بأنه من عند الله ، وأنه كما يقول الله تعالى

« لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بشئ هنا القرآن لا يأتون بشئ ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (١) .

وهذا التحدى للجن والإنس على مدى الأزمان هو الذى يقطع كل جدل بأن القرآن هو كلام الله ، وأنه معجزة الرسول الخالدة ، وأن هذه المعجزة قائمة ، وأن هذا التحدى قائم لا تنقضه الأيام ، مهما ولدت الحياة من ذكاء وعبقرية ، ومهما جاء فى الأجيال من أذكىاء وعباقرة .

* * *

والظاهرة الواضحة فى التحدى بالقرآن أنها لون فريد فى التحدى . . فما عرف الناس قولاً لا تقايل مهما بلغت بلاغته ، وعلت فصاحته ، أن يتحدى الناس جميعاً أن يقولوا مثل قوله . .

إن موازين الكلام لا تخضع لقاعدة محددة ، ولا تنزل عند شرط معين . . وإنما هى موازين تخضع — فى قدر كبير منها — إلى المزاج ، وإلى العاطفة والوجدان . . إلى جانب العقل ومنازع التفكير .

إن فن القول واحد من الفنون الجميلة كالموسيقى ، والبحت ، والرسم . . تتفاوت أنظار الناس فيها ، وتختلف معاييرهم لها . .

ومن هنا لم يحفظ التاريخ الإنسانى حكماً قاطعاً على عمل فنان أو جانب من عمله ؛ أنه نهاية القمة ، التى لا يلقى لها مرثى ، أو لا يحاوزها أحد .

وغاية ما يمكن أن يقال لإزاء عبقریات الفنون وروائعها أنها أعمال خالدة ، أو أنها فريدة من فرائد الفنون .

نخذ مثلاً لذلك الشعر الجاهلى . .

لم يستطع النقاد على كثرة محاولتهم وطول نظرهم فيه ، أن يشعروا شعر شاعر فى المنزلة المنفردة وحدها بالمسكان الأول . . وغاية ما بلغوه فى هذا أن عدوا جماعة من كبار الشعراء ، ورفقوهم إلى المسكان الأول جميعاً ، وأفسحوا لكل واحد طريقاً يدخل منه إلى هذا المسكان . . أمرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ،

والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب (١) . . إلى آخر هذه الأحكام التي كانوا يحكمون بها على عمل شاعر من أولئك الشعراء الكبار .
وأكثر من هذا ، فإنهم في ديوان الشعر العربي عامة لم يتفقوا على البيت الأول أو القصيدة الأولى في هذا الشعر .

وهذا الذي نقوله في الشعر العربي نقوله أيضاً في الشعر الأوربي . . فهذا « شكسبير » قد غاش زمناً في منزلة الرجل الإلهي ، ثم لم يلبث الزمن أن أضاف أدبه إلى المتحف الذي يضم كنوز التراث الإنساني .
إن شعر « شكسبير » وإن كان آية الآيات في روعة البداية ، وعمق الفكرة ، ورصانة الأسلوب . . فإنه قد مضى زمنه . . وأصبح من مخلفات القرون ، وآثار الأولين . . لا يلائم روح العصر ، ولا يجرى مع أسلوب التعبير الذي يتفق مع أذواق الناس . . إنه أشبه بالخلي التي كان يلبسها ملوك العصور الوسطى . . رائعة ، معجبة بألوانها ، وأصباغها . . إلا أنها لا تلبس في هذا العصر إلا في حفلات السكر ، وعلى مسارح التمثيل في الروايات التاريخية .

* * *

وإذا كان القرآن بهذه المنزلة في قلوب المسلمين ، وإذا كان ذلك هو إيمانهم به ، وتقديرهم له ، واجتماعهم عليه ، فإن أعداء الإسلام وقفوا من القرآن موقف المستخف به ، العائب له ، المشكك في منبعه الذي فاض منه ، وفي الوحي الذي نزل به ، وفي الرسول الذي دعا الناس إليه !

وسنرى كيف كان كيد أعداء الإسلام لكتاب الإسلام ، ولنبي الإسلام . وكيف كانت رمياتهم الطائشة تكاد تصيب المقاتل من رمايتها .

ويلوح هنا سؤال : إذا كان القرآن على تلك الصفة الذي تجعل له ذلك السلطان القاهر على النفوس ؟ وإذا كان يحمل في كيانه دلائل إعجازه . فما الحاجة إلى النبي ؟ وإذا كان هناك ما يدعو إلى نبي يقدمه للناس ، فإن مهمة النبي

(١) أي أن كل شاعر من هؤلاء كان مبرزاً في فن من فنون الشعر ، فأمرؤ القيس في الصيد ووصف الخيل ، والنابغة في الاعتذار ، والأعشى في وصف الخمر ، وزهير في المدح .

لا تعدو أن يعرض القرآن عرضاً ، ثم يدعه يحدث عن نفسه ، ويشهد لإعجازه .
وإذن تكون مهمة الرسول هينة محددة ، ويكون دوره في الرسالة الإسلامية
دوراً ثانوياً ، يستطيع كل إنسان أن يؤديه من غير أن يكون مزوداً بقوى خاصة
في كيانه الروحي ، والنفسي ، والعقلي ، والجسدي . . فما تأويل هذا ؟

ونقول :

أولاً : لا بد من رسول يبلغ دعوة الله ، وينقل كلماته إلى الناس . . وهذا
ما ينبغي أن يسلم به باديء ذي بدء ، فإن كلمات الله إنما تحمل إلى الناس بواسطة
رسل يتخيرهم الله لهذه المهمة العظيمة . . فكان « محمد » هو الرسول المتخير لتلقي
القرآن وتبليغه .

وثانياً : كون القرآن يحمل في كيانه دلائل صدقه وإعجازه لا يخفف العبء
الملقى على كاهل النبي ، ولا ييسر مهمته في تبليغ دعوته ، بل إن ذلك الموقف ذاته
يدعو إلى أن يكون النبي الذي يحمل هذه الرسالة مزوداً بصفات . . أقوى وأعظم
من تلك الصفات التي زود بها إخوانه من الأنبياء . . فيكون هو في ذاته معجزة
يتأدى منها إلى الناس شواهد تشهد له ، وتنبئ عن صلاته بالسماء ، بما يحمل في
كيانه من أمارات السمو ، والعظمة ، والنبيل ، التي لا ترى على صورتها الكاملة في
أحد غيره .

إن دلائل الإعجاز في القرآن مع أنها تنظم القرآن كله ، وتجري في كل آية
من آياته . . لا تكفي وحدها في حسن استقبال الناس لها ، وفي صدق فظرتهم
إليها ، ووزنها بميزان الحق والإنصاف . . فإن الضلال والعتاد الذي يستولي على
كثير من النفوس يهوى على الناس سبيل الهداية ، ويزيف عليهم حقائق الأشياء ،
فإذا الخير في أعينهم هو الشر الصراح ، وإذا النعمة المسافة إليهم نقمة وبلاء .
وشواهد التاريخ أكثر من أن يرصدها عد .

فلقد جاء موسى إلى فرعون بالمعجزات المحسوسة القاهرة : فألقى عصاه فإذا
هي ثعبان مبين ، ونزع يده . فإذا هي بيضاء للناظرين ، (١) . فكان ذلك في نظر

فرعون سحر ساحر، وشعوذة مشعوذ.. وقال فرعون: «إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم». فإذا تأمرون؟ قالوا أرجه وأخاه، وابعث في المدائن حاشرين، يأتوك بكل سحار عليم» (١).

واجتمع السحرة ليبطلوا سحر موسى.. واجتمع الناس ليسموا هذا الأمر.. وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون؟ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، (٢).

فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإسكنم إذن لمن المقربين!.

قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون.. فألقوا حبالهم وعصيهم، وقالوا بعزة فرعون.. إنا لنحن الغالبون.. فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، (٣).

وفوق الحق، وبطل ما كانوا يعملون، فغلبوا هنالك، وانقلبوا ضاغرين، وألقى السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين.. رب موسى وهرون (٤).
 إن أهل الدراية والخبرة هم الذين عرفوا فرق ما بين الحق، والسحر.. وتكشفت لهم المعجزة فأمنوا.. أما فرعون فقد ظل سادراً في ضلاله حتى بعد أن خذله من اعتر بهم واستنصر.. فقال «أمنت له قبل أن أذن لكم؟ لأنه لسكيرم الذي علمكم السحر.. فسوف تعلمون، (٥).

ثم، كم من آية جاء بها موسى إلى بني إسرائيل فما تكاد تغرب شمس يومها يزحف ظلام الكفر والضلال على قلوبهم.. ويتأجج الأمر إلى معجزة جديدة، ثم لا تلبث أن تغرق في طوفان الظلام. وهكذا تتتابع الآيات، وتترى المعجزات واحدة إثر أخرى، والظلام يزداد كثافتاً، والقلوب تزداد صلادة وقسوة!

(١) سورة الشعراء: آية ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة الشعراء: آية ٣٩-٤٠.

(٣) سورة الشعراء آية ٤٢، ٤٣.

(٤) سورة الأعراف: آية ١١٨-١٢٢.

(٥) سورة الشعراء: آية ٤٩.

وعيسى عليه السلام يرى الناس معجزات القاهرة باهرة : يحيى الموتى، ويرى
العلل التي لا يعرف الطب لها دواء ، وينزل مائدة من السماء . . فما تفعل كل هذه
المعجزات في قلوب القوم شيئاً ، ولا تزيدهم إلا إصراراً على ما هم فيه من
كفر وضلال !

فإذا كان هذا هو شأن الناس مع المعجزات المحسوسة التي تقع بين أيديهم ،
وتحت أسماعهم وأبصارهم ، فإن ذلك يكون أسد وأقوى ، في وجه المعجزات التي
يسدل عليها من وحى الكلمات ودلول الألفاظ ، في القرآن الكريم ؟

إن الإعجاز القرآني يخاطب العقل ، ويناجي الوجدان ، على حين أن الإعجاز
في معجزات الرسل إنما يجابه الحواس ، ويصادم ناموس الطبيعة القائم في الناس ،
فيحدث في الحياة زلزلة عنيفة ، تنبه الغافلين ، وتوقظ الياسم .

لهذا كان الإعجاز القرآني في حاجة ملزمة إلى قوة تظاهره، وتفتح له القلوب،
وتوجه إليه العقول ، وتقيم له في الحياة مكاناً راسخاً ، وتحمل له في الناس
قدماً ثابتة .

وهذه القوة التي يحتاج الإعجاز القرآني إلى مظاهرتها ينبغي أن تكون هي
ذاتها معجزة ، تتكشف في كيانها آيات القرآن ، وتجلي في أفعالها وتصرفاتها
أضواؤه وأنواره . . وذلك ما كان عليه الرسول الكريم ، الذي حمل إلى الناس
معجزته الخالدة . . « القرآن » ، فكان هو صلوات الله وسلامه عليه عنوان هذا
الكتاب الكريم . قرأ فيه الناس — قبل أن يقرأوا آيات الكتاب — آيات
محكمة معجزة . . من الخلق العالی ، ومن الأدب الرفيع . . فكان كما يقول عن نفسه :
« أدبني ربّي فأحسن تأديبي » . . وكما وصفه القرآن بهذا الشاء العظيم من رب
العالمين : « وإنك لعلی خلق عظیم » (١) . . وكما تقول السيدة عائشة في كتابها الجامعة
لصفاته : « كان خلقه القرآن » .

فليس في إعجاز القرآن على تلك الصفة التي اشتمل عليها في كيانه ما يخفف

(١) - سورة القلم آية ٤ .

من مهمة الرسول الكريم في أداء رسالته ، وفي تحلية حقيقتها للناس . . بل إن الرسالة التي تحيى على تلك الصورة ، فتحمل الإعجاز بين طياتها ، وفي تناسل حروفها وكلماتها في حاجة أشد الحاجة إلى مبلغ يتخير لها من الصفوة الكرام في الرسل .
ليستطيع — كما قلنا — أن يفتح لها القلوب ويوجه إليها العقول ، ويهيء لها مكافئاً آمناً مستقراً في الحياة ، لتظل كهذا أبد الدهر مصدر إشعاع للمؤمنين ، ومنار هدى للسالكين . .

ولولم يكن من وراء القرآن تلك الشخصية العظيمة التي وقفت تلقى به على الأسماع آية آية ، وسورة سورة ، خلال ثلاث وعشرين سنة — لظل القرآن — إن يكن قدر له وجود على غير تلك الصورة — لظل كنزاً مخبوءاً ، لا يعرف للناس ما يضم من خير ، وما يحوى من رحمة وهدى !

إن الذى يقرأ القرآن غير متمثل تلك الذات الكريمة التي حملته إلى الناس ، وأذنت به فيهم ، ليفقد كثيراً من ذلك الحلال والجمال الذى كان جديراً أن يجده لو أنه قرأه متمثلاً صاحب الرسالة . . يتلقاه من السماء ، ويحرك به لسانه قرآناً عربياً لقوم يؤمنون !

إن أنفاس الرسول الكريم تسرى في آيات الكتاب آية آية . . وإن شميم سيرته الطيب ليفوح في ثنايا كلمات الكتاب الكريم وحروفه .

ومن هنا ندرك العبء الثقيل الذى حمله الرسول الكريم في تبليغ الرسالة ، وحملها إلى مواطن الإقناع والإيمان من الناس . . فإنهم يطالبون النبي بمعجزات محسوسة تصدق دعواه ، وهو لا يملك معجزة غير هذا الكلام الذى يوحى إليه :
« أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (١) .

ومن هنا أيضاً ندرك ثقل هذه المهمة ، التي يقوم بها الرسول وليس بين يديه معجزة محسوسة . . يغشى بها الأبصار ، ويخرق بها الأسماع ، ويذهل بها العقول .

إن كل ما بين يديه هو هذا الكلام الذى يوحى لإياه . وهو معجزات تملأ الوجود ، لو وجدت عقولا سليمة وقلوباً واعية . . وهيهات أن تجد تلك العقول ، وهذه القلوب فى ظلام الجاهلية ، وفى عصبية قريش وكبريائها .

ومن أجل هذا دعا الله نبيه أن يحمل عبء هذه الجهاد ، وأن يصبر له . . فإن العبء الذى ألقى عليه عبء لا يستقل بحمله غير أولى العزم من الرسل . . « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل (١) » . . « وإنا نسلك عليك قسولا ثقيلا ، (٢) » . . « فلا تطع الكافرين وجاهدكم به حمادا كبيرا » (٣) .

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . . وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى الله لى . . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

يقول القاضى عياض : « معنى هذا عند المحققين بقاء معجزته ، ما بقيت الدنيا . . وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها ، ومعجزات القرآن يقف عليها — الناس — قرناً بعد قرن عياناً ، لا خبراً ، لى يوم القيامة » (٤) .

ومعنى هذا أيضاً أن معجزات الرسل معجزات تحمل فى كيانها قوة قاهرة ، يخضع لها الناس بمجرد ظهورها فيهم . . فإن أية ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة يجتمع لها الناس ، ويقولون فيها ما يقولون ، ثم يجتمعون عليها ويستجيبون لها . . فما أكثر ما تجرف العجائب والغرائب — حتى الزائف منها — أفئدة كثير من الناس ، وتستهوئ قلوبهم . .

ونحن نشهد فى الحياة ما بفعل مهرة المنهوذين بألباب الناس ، بما يبدون لهم من ضروب الخوارق الزائفة التى تعتمد على الخداع والنضليل . فكيف بالمعجزات السماوية التى تطلع على الناس على غير مألوف الحياة كما لو تطلع الشمس فى منتصف الليل ، ووسط ظلامه الحالك ؟ .

(١) سورة الأحقاف: آية ٣٥ . (٢) سورة المزمل: آية ٥ .
(٣) سورة الأحقاف: آية ٥٢ . (٤) الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ص ١٣٥ .

فتلك هى معجزات الرسل ، يؤمن الناس على مثلها ، ولو لم تقع على يد رسول
يتحدى الناس بها . .

أما معجزة « محمد » فهى وحى أوحى الله إليه . . تدرك المعجزة فيه عن
طريق العقل . . والعقل يصحب الناس جميعاً ، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم .
إن معجزات الأنبياء أمام مشاهديها وحدهم ، وليس لغيرهم حظ منها ،
أو نصيب فيها . .

أما معجزة « محمد » فهى تجاه العقل الإنسانى كله . . لكل إنسان نصيبه فيها ،
وحظه منها . .

« إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا « محمداً » كانت فى الواقع معجزات وقتية ،
وبالتالى معرضة للنسيان السريع . بينما تستطيع أن تسمى معجزة الآيات القرآنية
المعجزة الخالدة . . وذلك أن تأثيرها دائم ، ومنعولها مستمر . ومن اليسير
على المؤمن — بل وغير المؤمن — أن يرى فى كل زمان ومكان — أن يرى
هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله .

وفى هذه المعجزة نجد التعليل الذى لا ينتفى عن الانتشار الهائل الذى أحرزته الإسلام .
ذلك الانتشار — الذى لا يدرك سببه الأوربيون ، لأنهم يحملون القرآن ،
أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة ، فضلاً عن أنها
غير دقيقة (١) .

ويقول ابن خلدون : « فاعلم أن أعظم المعجزات ، وأشرفها ، وأوضحها
دلالة — القرآن الكريم المنزل على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الخوارق
فى الغالب تقع مغايرة الوعى الذى يتلقاه السبى ، ويأتى بالمعجزة زاهدة بصدقه ،
والقرآن هو بنفسه الوعى المدعى ، وهو الخارق المعجز . . فشاهده فى عينه ،
ولا يفتقر إلى دليل مغاير له ، كسائر المعجزات مع الوعى . . فهو أوضح دلالة ،
لاتحاد الدليل والمدلول فيه . . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من

(١) محمد رسول الله . . ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود .

نبي من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلی ، فأنا أرحون أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة . . .
يشير إلی أن المعجز متى كان بهذه المثابة فی الوصوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحى — كان الصدق لها أكثر ، لوضوحها فكثير المصدق والمؤمن ، وهو التابع والامة ، (١) .

ويمكن أن نحصر مقولات أولئك المدعين على القرآن تلك الادعاءات الباطلة في أمور . . منها :

أولا — أسلوب القرآن :

فقد وقف الزريون من أسلوب القرآن مواقف متناقضة ، فبينا يرفعه بعضهم إلی منزلة الإعجاز التي أودعها الله فيه ، إذا يزحزحه بعضهم عن تلك المنزلة ، ويرميه بالغموض ، وبالتكرار ، وبما شاء خياله المريض أن يصوره من صور الزرابة والتجريح !

بل إن الكاتب الواحد ليقع في هذا التناقض في مقرراته التي ينتهي إلیها في أية نظرة ينظرها إلی القرآن . . فإذا قال قولا لم يثبت عليه ، وجاء في أعقابه بتدريعات وتعايقات ، تقف منه موقف الخلاف والمناظرة .

وأغلب ما يقع من ذلك التناقض عند أصحاب الآراء المحررة من الهوى والتعصب إنما هو نتيجة عدم الفهم لطبيعة الوحى ، وللأسلوب الذي نزل به القرآن .

وقد قلنا من قبل إن علماء الغرب عامة يعتقدون أن القرآن من « نوح ومحمد » وأنه إذا كانت بينه وبين السماء صلة فهي صلة غامضة يتلقى منها إشارات مبهمه يحولها إلی أفكار ، ثم يترجمها في ألفاظ وعبارات هي « القرآن » .

(١) مقدمة ابن خلدن ص ٩١ .

وإلى هذا الجهل بطبيعة الوحي ، وبصلة محمد بالسماء جهل آخر بمعرفة اللغة العربية ، وبندوق أساليب الجمال فيها . والاهتداء إلى مواطن الحسن منها . . .
قلو أن هؤلاء الباحثين في القرآن من أولئك العلماء حظا من الحس الفني بأساليب البيان لوقاهم ذلك شر هذه المزالق التي كثر فيها عثراتهم وسقطاتهم في القرآن ، فقتالوا تلك المقولات الهزيلة الباطلة .

محمد والقرآن عند غير المسلمين :

أشرنا من قبل إلى أن الذين عرضوا للبحث في العقيدة الإسلامية من غير المسلمين كانوا من أمرهم على غير بينة . . . سواء منهم من جاء إلى تلك الدراسة بقلب مريض ، يحمل للإسلام الحقد والعداوة ، أو من جاء إليها باسم العلم ، وتحت راية البحث عن الحقيقة .

ذلك أن هؤلاء جميعاً ينسبون القرآن إلى «محمد» ، ويجعلونه من صنعه ، وتدبيره . . . وأهداهم طريقاً في هذا الشأن — وهم نفر قليل — من يرى أن محمداً كان يتلقى أمر السماء في صورة إشارات ورموز أشبه بالخواطر التي يجدها الإنسان عند شأن مع الشئون التي يهتم لها ويعنيه أمرها . . . ثم يتولى «محمد» صياغة هذه الإشارات أو الخواطر ، في قوالب لفظية هي ما عرف باسم القرآن .

ونقول : إننا قد أشرنا إلى هذا من قبل ، وكشفنا عن الدوافع التي تولدت عنها هذه الأباطيل — سواء أكانت متعمدة أم غير متعمدة — ونريد أن نقف هنا وقفة خاصة مع أولئك الباحثين الذين ترى أنهم طلبوا وجه الحق في هذا الأمر ، فأخطأهم التوفيق للوصول إليه . أما تلك المفتريات المتعمدة فإنها تحمل في كيانها معاول هدمها ، التي ينسكرها آخرها أولها ، وينقض لاحقها سابقتها . . .

واستمع في هذا إلى قول عالم بحسبه من أصحاب الآراء الحرة ، ونراه من طلاب الحقيقة فيما يرض له من دراسة وبحث في الشريعة الإسلامية . . .
هذا العالم هو «جرونيباوم» مؤلف كتاب «حضارة الإسلام» . . .

وهو على ما به من هذه الصفات التي نراها فيه ، وعلى ما بذل من جهد في التحقيق والتمحيص — لم يستطع أن يحفظ توازنه وهو يعبر الطريق إلى الحقيقة التي كان ينادي بالوصول إليها — حسب رأينا — في شأن القرآن .

استمع إليه في حديثه عن أسلوب القرآن . يقول :

« لقي أسلوب القرآن من الغربيين نقداً إجماعياً شديداً ، وشاركهم في ذلك بعض المسلمين ، !

هذه حقيقة يقررها « جرونيياوم » في شأن حملات النقد التي لقيها القرآن من الغربيين عامة ، ولا شيء في هذا ، فذلك أمر معروف سلفاً .. أما مشاركة بعض المسلمين في هذه الحملات فلا يمكن أن تكون .. ولا ندفع هذا بمسند تاريخي ، وإنما مستندنا في دفعه هو أن المسلم الذي يستحق هذه الصفة لا يمكن أن يكون مسلماً وفي قلبه شيء من الارتياب أو الشك في أن القرآن كله كلام الله .. وهيئات أن يعقل أن إنساناً يؤمن بالله ثم يطعن في كلامه !

ثم يقول « جرونيياوم » :

« وقد يكون لبعض هذا النقد ما يبرره .

« على أن غلو الغرب عامة في هذا النقد إلى حد إنكار ما للقرآن من فضائل لغوية ، وإسناد التكرار وغيره إليه ، ليس من الإنصاف ولا التقدير الحسن في شيء ، .

إذن ما هو الإنصاف وما هو التقدير الحسن عند « جرونيياوم » ، إذا كان يأخذ على قومه عدم إنصافهم للقرآن وسوء تقديرهم له ؟ .

لنستمع إلى رأيه في هذا .. يقول :

« فالكتاب على ما هو عليه اليوم بين أيدينا ليس هو الكتاب كما أبلغنا إياه محمداً ، .

بالحياة الأمل . أهذا هو الإنصاف ، أهذا هو التقدير الحسن ؟ .

واستمع إلى ما هو أدهى وأمر ! . . يقول :

« بل الواقع أن كتاباً بأكمله لم يوح إليه قط .

« بل كانت توحى إليه رؤى قصيرة ، ووصايا ، وأمثال ، وقصص ذات

هغزى ، أو أحاديث في أصول العقيدة ! ، (١)

ما مصدر هذه الرؤى ؟ وما طبيعتها ؟ أهى منزلة من السماء أم هى أنخزة
تفيض من خواطر «محمد» وتندرب من مسارب تفكيره ؟ أهى رسالة سماوية
يحملها ملك كريم ، إلى نبي كريم أم هى همسات جن ووسوسة شيطان يلقى بها
في قلب كاهن ، أو سمع ساحر ؟

لا تعدو المسألة أحد هذين الأمرين : نبي ، أم مشعوذ ...

فإن كان نبياً فالصلة التى تكون بينه وبين السماء لا تكون صلة رؤى وأحلام ،
ولأنما هى صلة واعية مدركة ، تلمس الحقائق ، وتملاها يديها .

وإن كان مشعوذاً ، فهذا شأن آخر !

ثم يقول :

« ولعله — أى النبي — كان ينوى أن يجمع شتى أجزائه المتعددة — أى
أجزاء الرؤى التى صورها محمد قرآناً — وأن يجمدها — إن صح هذا القول —
حتى تتخذ صورة القوانين الدينية ، وإن لم يكن فى الإمكان إنبات ذلك » .

ولعل هذا القول هو أشنع قول وأنكره فى شأن القرآن .

أترك «محمد» حقاً هذه الدنيا ، وأخلى مكانه منها قبل أن يتم رسالته التى
فدبته السماء لها ؟ أهذا عمل يليق برسالة دينوية بعث بها مبعوث من دولة أو سلطان ؟
أيمكن من حسن الرأى والسياسة أن يكون هذا المبعوث قائماً بين يدي من
بعث إليه يؤدى ما أرسل به ثم يعزل قبل أن يتم رسالته ؟ وإذا جاءت ظروف
قاهرة اقتضت عزله ، ألا يكون هناك من يقف موقفه ويكمل ما بدأ به ؟ ذلك
أقل ما ينبغى أن يحدث لسد هذا الخلل ، الذى لا يمكن أن يقع إلا تحت ظرف
قاهر لا يستطيع الناس دفعه ! .

فهل يتصور أن تعجز السماء عن أن تصنع لرسولها المبلغ عنها أن يقوم على أداء الرسالة إلى غايتها؟ أين تدره الله إذن؟ وأين الحكمة المرادة من رسالته؟ لا، لا، إن ذلك القول لا يستقيم مع منطوق ، ولا يجري مع تفكير سليم أبداً .

أما ورائق التاريخ الوثيقة المحررة ، فإنها تشهد بأن رسول الله قد بلغ الرسالة على وجهها الأكمل ، وأنه ظل قائماً عليها يتلوها آية آية حتى فرع منها في ثلاث وعشرين سنة . .

لقد كان من تدبير السماء أن تمد للرسول أسباب البقاء في مقام التبليغ ، وأن تلقى إليه بين وقت ووقت بجانب منها . فكان كل يوم — خلال الثلاث والعشرين سنة — يتوقع رسالة جديدة من السماء يضيئها إلى رسالته . . حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وتمت كلمة الله آذنت السماء للنبي بذلك ، وأعلنته بانتهاء مهمته . . فجاءه الروح الأمين جبريل عليه السلام يوحى إليه قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . . فكانت هذه الآية من أواخر ما نزل من القرآن ، وفهم كثير من المسلمين عند نزولها أنها تنهى لإيهم رسول الله .

هذا ما نزل به القرآن صريحاً في هذا الشأن . . وهو وثيقة لا تقبل شكاً ، ولا جدلاً باتفاق المسلمين ، وغير المسلمين .

أما ما وردت به الأخبار الصحيحة ، فهو أكثر من أن يحصى أو يحصر ، وجميعها تجتمع على أن القرآن قد تم على هذه العمدة التي بين يدي المصحف قبل أن يترك الرسول هذه الدنيا ، وأنه كان محفوظاً حفوظاً موثقاً في كثير من الصدور ، كما كان مجموعاً كاملاً عند كثير من الصحابة .

وثابت من الأخبار الصحيحة أن جبريل كان يراجع النبي ويدارسه القرآن مرة في شهر رمضان ، وفي السنة التي توفي فيها الرسول قرأه عليه مرتين لا مرة واحدة . فكان ذلك إشارة وداع بين جبريل ، وبين النبي .

أما ما صنعة « أبو بكر » في شأن القرآن ، فلا يمدو أن يكون فقلا له من الصدور التي حفظته بعد أن استشهد عدد كبير من الحفاظ في حروب الردة ، وفي حرب « اليمامة » بالذات ، مع مسيلة الكذاب !

إن الذي فعله أبو بكر هنا هو أن يكتب القرآن في صحف حتى يظل بمأمن من خطر النسيان عند من حفظوه ووعوه في صدورهم ، أو من خوف افتقاد حفظه بالموت في مواطن الجهاد .

فكن من الحزم أن يقع هذا العمل ، وأن يكون بين يدي خليفة رسول الله وثيقة كاملة من كتاب الله

أما ما كان مكتوباً من قرآن بصورة كاملة ، أو غير كاملة عند الصحابة ، فلم يكن على الصورة المطلوبة لحفظه وصيانته . . إذا كان الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن إنما فعلوا ذلك لغاية أخرى غير التي قصد إليها أبو بكر ، وهي أن يستأنسوا لما حفظوا بما كانوا يكتبون ، وليكون ذلك المكتوب مرجعاً خاصاً لهم عند النسيان أو النك في آية أو كلمة ، أو حرف ! .

وفضلاً عن ذلك . فإن هذا المكتوب كله كان في رقاع مختلفة الأشكال والأحجام والأنواع . . فكانت صحف القرآن عند جامعيه أنماطاً غريبة من كل ما كان يكتب فيه ذلك الحين . . فبعض الصحف من العظام . وبعضها من سعف النخيل ، وبعضها من قطع الجلد ، وبعضها من الفخار أو الخزف . . إلى عديد مما كان يصلحه الكتاب ويهيئونه للكتابة من أية مادة تصلح للنخط عليها . .

وفضلاً عن ذلك أيضاً ، فإن المداد الذي كان يكتب به كان في اختلاف عوره وألوانه على صورة أشد مما كان عليه اختلاف الصحف والرقاع .

إن الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن لم يكن بين أيديهم شيء من وسائل الكتابة في صورة مهيأة لأداء هذه المهمة ، يجدها الكتّاب حاضرة بين يديه في كل حال ، وإنما كانت تنزل آيات الكتاب على رسول الله . فيتلوها على أصحابه فيحفظونها . ثم يبادرون إلى كتابتها بما يقع لأيديهم من رقاع أو مداد .

فهي على صورتها تلك لا تصلح أن تكون مستنداً قريب المأخذ سهل التناول، واضح المعالم يمكن الرجوع إليه بعد فترة من الزمن .

أما الصور التي كتب القرآن في عهد أبي بكر فقد كانت أقرب إلى السكال من أية صورة كتب بها إلى ذلك الحين ..

فلقد اجتمعت الدولة لهذا العمل ، وحسنت له ما عدها من إمكانيات مادية وإنسانية . ليجيء على الصورة التي تحقق الصور المنسودة ، وهي تسجيل القرآن في سجل من صحف خفيفة الخلل ، مصقولة ، منسقة أشبه بمانرى في تلك المخطوطات التي سجلت في القرن الأول أو الثاني .

أما ما صنعه « عثمان » رضى الله عنه فقد كان غايته جمع المسلمين على قراءة واحدة بعد أن كثرت اختلافات القراء مما عده المسلمون أمراً خطيراً ، قد تهتمق جذوره وتمتد ، فتصل إلى القرآن في أصوله ذاتها .

فأراد « عثمان » أن يضع حداً لهذا الخلاف ، وأن يجمع المسلمين على قراءة واحدة هي قراءة زيد بن ثابت ..

وليس الخلاف الذي اهتم له « عثمان » وفزع منه خلافاً في ترتيب الآيات في السور ، ولا في زيادة آيات ونقصها .. فقد كان القرآن مرتب الآيات والسور على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقع خلاف في وضع آية مكان آية ، ولا زيادته أو نقص في آيات أية سورة ، وإنما كان الخلاف في النطق ببعض الكلمات من إمالة أو إثمَام أو إدغام ، أو في صورة الكلمة التي لا يخرج الاختلاف فيها عن معناها ، وذلك على ما نراه في القراءات المعروفة التي يقرأ بها القراء اليوم .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : مررت بهشام بن حكيم بن حزام وهو يقرأ الفرقان - أى سورة الفرقان - في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعت قراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئها رسول (١٩٠ - السبي محمد)

الله صلى الله عليه وسلم ، فكذت أساوره (١) في الصلاة ، فانتظرت حتى سلم ، فلما سلم ، لبسته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي أسمعك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أقرأني هذه السورة التي تقرؤها . . قال : فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله . . لى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأني سورة الفرقان ! قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر . . اقرأ يا هشام . . فقرأ عليه القراءة التي سمعت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . . ثم قال : اقرأ يا عمر . . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : هكذا أنزلت . . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرأ منه ما تيسر ، (٢) .

وعن أبي بن كعب قال : اختلفت أنا ورجل من أصحابي في آية ، فترافعنا فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ يا أبي ، فقرأت ، ثم قال للآخر ، اقرأ ، فقرأ فقال : كلا كما يحسن بحمل ، فقلت : ما كلانا محسن بحمل (٣) ؟ قال : فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدري ، وقال : أى أبى إن القرآن أنزل على . . فقلت : على أعلى حرف أم حرفين ؟ فقلت : بل على حرفين . . ثم قيل لى : أعلى حرفين أم أربعة أحرف ؟ فقلت : بل على أربعة ، فلم يزل بي حتى انتهى إلى سبعة أحرف ، كلها كاف شاف ، ما لم تختتم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة . . وإذا كانت « عزيز حكيم » فقلت « سميع عليم » ، فإن الله « سميع عليم » ، (٤) .

(١) أساوره : أخذ برأسه ، أو وثب عليه .

(٢) مقدمتان في : علوم القرآن ص ٢٠٧ ، والرسالة للأمام الشافعى ص ٢٧٣ .

(٣) « ما » هنا استفهامية وليست نافية .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٠٨ .

والاختلاف في القراءات يقع على وجوه منها :

أولاً : الاختلاف في إعراب الكلمة أو حركات بنائها ، لا يزالها عن صورتها في الكتابة ، ولا يميز معناها نحو قوله تعالى : «هن أطهر لكم» (١) .
«هن أطهر لكم» .. وقوله : «وهل يجازي إلا السكور» (٢) ، و «هل يجازي إلا السكور» .. وقوله : «يأمرون الناس بالبخل» (٣) و «بالبخل»

ثانياً : الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها ، بما يغير معناها ، ولا يزالها عن صورتها ، نحو قوله تعالى : «ربنا باعد بين سفارنا» (٤) و «ربنا باعد بين أسفارنا» وقوله : «وإدكن بعد أمة» (٥) ، و «بعد أمة»

ثالثاً : أن يكون الاختلاف في حرف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ، ولا يزال صورتها ، ونحو قوله تعالى : «وانظر إلى العظام كيف ننشرها» (٦) .
«وننشرها» .

رابعاً : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ، ولا يغير معناها ، كقوله تعالى : «لأن كانت إلا صيحة واحدة» (٧) و «صيحة واحدة» و «كاله المنفوش» (٨) و «كالصوف»

خامساً : أن يقع الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : «وجاءت مسكرة» (٩) و «جاءت مسكرة الحق بالموت» .

سادساً : أن يكون الاختلاف بما يزال صورة الكلمة ومعناها ، كقوله تعالى : «وطاح منضرد» و «طلع» (١٠) .

سابعاً : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان .. كقوله تعالى :

- | | |
|------------------------|--------------------------|
| (١) سورة هود : ٧٨ . | (٢) سورة النساء : ٢٧ . |
| (٣) سورة البقرة : ٣٧ . | (٤) سورة سبأ : ١٩ . |
| (٥) سورة يوسف : ٤٥ . | (٦) سورة البقرة : ٢٥٩ . |
| (٧) سورة يس : ٢٩ . | (٨) سورة القارة : ٥٥ . |
| (٩) سورة ق : ١٩ . | (١٠) سورة الواقعة : ٢٩ . |

« وما عملت أيديهم » « وما عملته » (١) .. وقوله : « فان الله هو الغنى الحميد » (٢) و « فان الله الغنى الحميد » .

ففي هذا المجال كان يقع الخلاف بين القراء والدارسين لكلام الله .. فبين هذا الخلاف بينهم جدلاً ، ويبحث فيهم شيئاً من العاق والشك .. فعمل عثمان رضى الله عنه بمشورة أصحابه رسول الله عليهم ، وأمر بجمع الناس على قراءة واحدة من تلك القراءات .

عن مصعب بن سعد قال : لما كثر اختلاف الناس في القرآن قالوا : قراءة بن مسعود ، وقراءة أبي ، وقراءة سالم مولى أبي حذيفة (٣) ١ فجمع — عثمان — أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال : لئن رأيت أن أكتب مصاحف على حرف — أى قراءة — زيد بن ثابت ، ثم أبعث بها إلى الأمصار .. قالوا : نعم ما رأيت .. قال : فأى الناس أعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص .. قال : فأى الناس أكتب .. قالوا زيد بن ثابت .. كاتب الوحى فليمل سعيد . وليكتب زيد بن ثابت .. قال : ثم كتب مصاحف ، فبعث بها إلى الأمصار .. قال : فرأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : أحسن والله عثمان .

وكان عثمان بعد أن كتب القرآن على قراءة زيد بن ثابت أمر بتحريق المصاحف التي ليست مع هذه القراءة .. فكثير من بعض الناس القول في عثمان رضى الله عنه بأنه حرق المصاحف ، ١ .

يقول صاحب مقدمة كتاب المباني : « وأما المصاحف التي أمر — أى عثمان — بتحريقها ، فإنها — والله أعلم — كانت على هذا النظم أيضاً — أى النظم الذى عليه مصحف عثمان — إلا أنها كانت مختلفة الحروف على حسب ما كان النبى صلى الله عليه وسلم سوغ لهم القراءة بالوجوه إذا اتفقت فى المعنى ، وإن اختلف

(١) سورة يس : ٣٥

(٢) سورة الحديد : ٢٤ .

(٣) أى أن كل جماعة تركت قراءة من هذه القراءات وتفضت لها .

اللفظ ، ثم بان لما باتفاقهم على هذا الوجه الواحد أن الإباحة التي كانت في قراءة القرآن من اختلاف اللفظ بالكلمة إذ اتفق المعنى قد نسح ، وأنه لا تجوز القراءة بما يخالف هذا المصحف المتفق عليه ١ ، (١) .

هذا ما كان من عمل الخليفةتين أبي بكر وعثمان في كتابة المصحف ، لم يجاوز عملهما ما كان من شأنه صيانة القرآن وحفظه كما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . . لم يزيدوا فيه حرفاً ، أو ينقصوا منه كلمة !
ولكن العلماء الغرب رأياً آخر في هذا . .

فهذا « جرونيباوم » الذي نقف إزاء آرائه هنا يقول في صدد هذا العمل الذي كان من الخليفةتين أبي بكر وعثمان :

« ومن الأمور التي لا سبيل إلى معرفتها بما تبقى لدينا من معلومات — استبانة الأسباب التي دعت الأئمة القراء بإشارة الخليفة « عثمان » إلى تنظيم ما خلفه الرسول من الوحي . . »

ثم يقول : « والراجح أنه — أى القرآن — لم يفقد أو ينسى منه إلا جزء يسير جداً (٩٩) في ١١٤ سورة بالضبط تختلف في طولها اختلافاً بهيماً . . »

« كذلك ليس في الإمكان في كل حالة من الحالات تقديم تفسير مرض عن السبب الذي من أجله ضمت هذه الفقرة إلى تلك لتكون سورة واحدة . . أو لماذا قرر الكتاب أن يضعوا السور الطويلة أولاً ، وقصار السور أخيراً ، وإن كانت الأخيرة تحتوى في معظم الحالات على المواد القديمة ١ ، (٢) »

هذا هو رأى « جرونيباوم » في حقيقة القرآن ، وقد تولى السلف الرد على مثل هذا الافتراء . .

يقول صاحب كتاب مقدمة المباني :

« ولئن ساغ لاحد أن يشك في أن هذا القرآن بجميع سورته وآياته هو الذي قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على أصحابه رضوا الله عنهم ، وتحدى العرب أن يأتوا بمثله فلم يجيبوه إلى ذلك . . وهو الذي تلقى المهاجرون والأنصار

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٤٤ . (٢) حضارة الإسلام ص ١٠٩ .

وتلاوته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلوه من بعدهم ، وهلم جرا .
إلى أن اتصل بنا — ليسوغن له أن يشك في أن محمداً قد كان بمكة ، يدعى النبوة ،
ثم هاجر إلى المدينة ، وأنه قد كان بينه وبين المشركين وقعة بدر ، ووقعة أحد ،
وسائر الوقائع ، ثم توفي بالمدينة ، وهو المدفون بها ١١

وإذا كان من أظهر الشك فيما ذكرناه مكابراً لنفسه ، إذ لا يمكن الشك في
ذلك لمن خالط الناس فسمع أخبارهم ، كذلك لا يمكن في أن هذا القرآن هو
الذي قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على الناس — شك ألبتة ١

ثم يقول :

« ولو قد اقتصرنا في دحر الملحد وقذعه على هذا القدر ، لقد كان ذلك
كافياً ، غير أننا يجب أن نذب عن هذا الخبر ، إذ قد يمكن أن يقع فيه ريب .
وإن لم يمكن ذلك فيما قلناه من أن القرآن هو ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم
عن ربه تبارك وتعالى .

و فأقول : إن القرآن كان مجموعاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه
ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يسكتب له أن يضعها
في موضع كذا . . ومن المعلوم الذي لا خفاء به أن النبي صلى الله
عليه وسلم كان يوم أصحابه في الصلوات الخمس ، لا يخل بذلك في سفر ،
ولاحضر ، فقرأ في الركعتين من كل صلاة بسورة مع فاتحة الكتاب . . ويسمعهم
ذلك في النداء والعش . . فإذا كان يسمعهم — ليت شعري — إن كانت آيات
القرآن متفرقة ، ولم تنظم السور حتى أنها نظمت في أيام أبي بكر ، أو أيام عثمان ؟
فماذا كان يقرع العرب حيث يقول الله تعالى : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (١) ؟
وذلك مما نزل بمكة . ثم قال تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » ونزل ذلك
بالمدينة ؟ . . ولو كان ذلك على ما نعتلوا لم يسكن العباس بن عبد المطلب يهدر (٢)
يوم حنين حيث انهزم القوم ، فيقول : يا أصحاب سورة البقرة ، وسورة

(١) سورة هود آية ١٣ .

(٢) في الأصل يهرب ، وهو خطأ ، أو تصحيف .

آل عمران . . هذا رسول الله . . يستدعيهم بذلك إليه !

« ومن مـَاهِر ما تقلت الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « اقرأ القرآن في كذا ليلة . . » يدعوهُ إلى التيسير . . وهو — أى عباده — يقول : إني أطيق أكثر من ذلك . . إلى أن قال له : « اقرأ القرآن في ثلاث ليال ، . . . »

« وعن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على » فقلت : أعليك أقرأ ، وعليك أنزل ؟ فقال لى : « أحب أن أسمعه من غيرى » قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » قال : فرأيت عيذه تذر فان ، فقال لى : حسبك . . (١)

ثم يعرض صاحب المبانى للحديث الذى يروى عن زيد بن ثابت فى جمع القرآن أيام أبى بكر . . فيقول :

« الوجه فى ذلك عندنا أن القرآن قد كان بحملته معلوما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وكانت السور معدودة ، لا يريب فيها أحد منهم ، غير أنهم لم يكونوا قد جمعوها بين الدفتين ، ولم يلزموا القراءة توالى سورها ، فكان الواحد منهم يقرأ سورة البقرة ، ثم يقرأ سورة النساء أو الأعراف ، أو نحو ذلك ، من غير ولاء (٢) للسور . . .

« وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج فى سرية ، فنزل فى وقت تنبيهه سور ، فإنه كان إذا رجع فأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ويتبع ما فاتته على حسب ما ينسحل له ، فيقع فيما كتبه تقديم وتأخير على هذا الوجه (٣) ،

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٧ .

(٢) أى من غير ترتيب مخصوص للسور .

(٣) أى أن هذا التقديم والتأخير يقع فى السور لا فى الآيات .

« وقد كان منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب ، على ما كان من عادة العرب في حفظها أنسابها ، وأشعار شعرائها من غير كتابة .

« ومنهم من كان يكتبها في مواضع مختلفة من قرطاس ، أو عسيب ، أو لخاف — على ما يروى في الحديث — ثقة منهم بما كانوا يعهدونه من حد المسلمين في حفظ القرآن ، وشدة تعهدهم له . . » (١)

ثم يتطلى « جرونيباوم » سبباً من عند ميرا الباعث على ترتيب السور . فيقول : « فقد يكون تشابه الموضوعات في حين ، ويكون تماثل الفواصل في آخر هو السبب الذي دعا إلى الجمع بين آيات كانت في الأصل مستقلة بعضها من بعض » (٢)

وأنت ترى ما في هذا القول من جرأة على الحق ، واعتداء على حرمة التاريخ . إذ ضرب هذا العالم بالمستندات التاريخية الثابتة الموثقة التي بين يديه ، والتي تحدث عما كان من عمل لأبي بكر وعثمان في جمع القرآن — ضرب بهذه المستندات عرض الحائط وراح يصطاد من عالم الخيال تلك الآراء المضطربة المشوهة التي لا تقوم على أصل ، ولا تستند إلى دليل . .

فالقرآن — كما قلنا — قد تم نزوله ، وجمعه وترتيبه قبل أن يرايل الرسول الكريم مكانه من الدنيا ، وأن آلافاً عدة من صدور المسلمين كانت تحفظه كله كما نراه اليوم بين دفتي المصحف .

وبحسبنا ما قلنا في هذا من قبل لدفع هذا الضباب عن أضواء القرآن الكريم . . وبحسب هذا القول الذي يقوله « جرونيباوم » — بحسبه من التفاهت والسقوط من عيني صاحبه أن يجيء عقب هذا القول فيقول :

« ومهما يكن من شيء ، فلا علينا إذا افترضنا أن محمداً لم يقصد ألبة أن يجعل التوجيهات السياسية ، والمواد التشريعية ، وأساطير (كذا) الكتاب المقدس ، والحاجة للكفار مجتمعة كلها في فصل واحد ، أبعاد محدودة تحديداً دقيقاً ، لا سبيل إلى نقضه » (٣) . .

(٣) حضارة الاسلام ص ١٠٩ .

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٣٢ .

(٣) المصدر السابق — نفس الصفحة .

إذن « فمحمد » هو الذى رتب القرآن وأخرجه على هذه الصورة الى عرفها المسلمون ! فإن لم يكن « محمد » هو الذى عمل هذا ، فقد عمله أصحابه . . وإن لم يكن قد عمله أصحابه فقد عمله هو ١١ .

كل شيء جائز هنا عند الكتّاب إلا أمراً واحداً لا يدخله فى حسابه ، ولا يجعله فرضاً بين هذه الفروض ، وهو أن يكون القرآن من عند الله ، وأن يكون ترتيبه وجمعه بتوقيف من الله ! ولو أنه كان يضع فى حسابه هذا الفرض لوجد فى قول الله تعالى لنبيه الكريم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إنا علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » (١) — لوجد فى هذه الآيات عاصماً يعصمه من الانزلاق فى هذا الخطأ المبين . . فالنبي لا يحرك لسانه إلا بإذن من الله ، وإلا بعد أن يستمع إلى ما يلقي إليه من وحى ، . وأن الله هو الذى يتولى جمع القرآن . وأن محمداً متبع يتبع ما يتلقاه من السماء . . بل وأكثر من هذا ، فإن كلام الرسول ذاته الذى يبين به الشريعة هو من عند الله أيضاً . وإن لم يكن من القرآن المقروء ، فالله هو الذى يتولى بيان القرآن وشرحه على لسان النبي . . « ثم إن علينا بيانه » . . فالنبي يستمد أقواله من أمداد السماء : « وما ينطق عن الهوى » (٢) .

ثم يعود جرونيماوم بعد هذا مباشرة فينسب ترتيب القرآن إلى الصحابة . يقول : « وربط جامعو القرآن عدداً من قصص الأنبياء بعضه مع بعض ، فتولد عن ذلك فى بعض الأحيان شيء من الرتابة المملة (كذا) لم يكن النبي مسئولاً عنه بحال ! ! فى القرآن رتابة مملة .

لأن الذين جمعوا القرآن ربطوا قصص الأنبياء بعضه مع بعض !

وهى تهمة لا يخفف منها ، بل ربما يزيد من سناعتها - القول بأن النبي لم يكن مسئولاً عنه بحال .

(١) سورة القيامة آية ١٦ - ١٩ .

(٢) - سورة النجم آية ٣ .

ومفهوم هذا القول أن المسلمين قد عبثوا بالقرآن بعد النبي وجمعه جمعاً
مخللاً ، ملاً . . ومفهوم هذا المفهوم أيضاً أن القرآن الذي مع المسلمين ليس هو
القرآن على الصورة التي كانت مع النبي .

والنبي غير مسئول عن هذا الذي حدث في القرآن من هدم وتخريب !
ولو كان هذا السكاتب ينبت على وجه واحد ويقف عند رأى لكان في
ذلك ما يضيق مجال الأحذ والد معه . . ولكنه يراوغ ، ويتقلب من رأى إلى
رأى . . وها هو ذا يعود للمرة الثالثة أو الرابعة مناقضاً لرأيه في مسألة واحدة .
يقول وكأنه يبرر لهذه الرتابة التي جاءت — كما يقول في القرآن — وكأنه
يراهها ضرورية في الرسالة التي كان يقوم بها النبي . . يقول :
« وكذلك أيضاً يجب ألا يغرب عن البال أن « محمداً ، إنما كان ينبغي أن
يعلم وأن يصلح . .

« والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل إلى التكرار
بنفس الالفاظ تقريباً . .

« ونحن الذين لانقرأ القرآن من أجل إصلاح أمرنا ، ولا ابتغاء التهذيب
الخالق لنفوسنا تساورنا آمال خاطئة حين ننظر في كثير من فقرات الكتاب !
« فإن كثيراً من الآيات لم يكن قصد النبي من نقله إلى الناس هو الاستتارة
الذهنية ، بل توطيد مبادئ جديدة للتقوى والأخلاق (١) . . »

ثم يأخذ لهذا الرأي سنداً من مقولات بعض علماء الإسلام في معرض
الاستدلال على حكمة التكرار في القرآن . . فيقول :

« هذا أحد كتاب المسلمين في القرن العاشر (٢) يقول : « ولأن الإنسان
قد يقرأ بعض القرآن ، ويحفظ شيئاً منه دون شيء — فلم يخل الله عز وجل كل
موضع منه من ترغيب أو ترهيب ، وادكار واعتبار ، تفضلاً منه على عباده ،

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٩ .

(٢) هو أبو بكر الصولي المتوفى سنة ٩٤٦ .

واستدعاء اطاعتهم ، ونهياً عن عصيانهم . فوقع الشكرار لذلك^(١) .

ويعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

« والواقع أن ما يبدو لنا من مأخذ في طريقة العرض يكون له معنى مخالف لذلك تماماً — أى لتلك التى تبدو أنها مأخذ — حين يوضع القرآن موضعه الحق من التاريخ الأدبي للعرب . .

ذلك أن اثر العرب لم يكن يستخدم قبل عصر النبي إلا في تسجيل الذكريات القبلية المتصلة بالوقائع الحربية ، أو ما عدناها من حوادث البادية ، ثم صوع الأمثال الموجزة ، وقواعد التشريع . . ويلوح أن اثر المسجوع كان قاصراً على المأثور من أقوال السكهان . . أما الشعر الذى كان قد تطور تطوراً كبيراً في العبارة والصياغة الفنية فإنه تحاشى الموضوعات الدينية ، ولم يكن هناك أسلوب معتمد يمكن أن تقدم فيه المباحثات الكلامية أو التشريعية . . ولا سوابق أو شواهد للشعر تتعاقب يشمون الآخرة .

ثم يقول :

« لم يستعمل محمد ، ألبتة في القرآن شيئاً من أوزان الشعر التقليدية ، بل راح يفك لإسار اثر المسجوع ، ويقوم اعوجاجه . ويملاً تضاعيفه حتى أصبح مركباً ذلولاً لرؤاء العجيبة (كذا) عن عذاب اليوم الآخر . . كما أنه دخل قسراً على نثر مستعص غير فاضح طريقة التعبير بعبارة جلية محدودة ، عن مبادئ تجريدية ، أو شرائط قضائية ونظرات سياسية . .

ثم يقول :

« ولسكن محمد » هو الذى وجد الصيغة العربية للتعبير عما صار أخص خبراته الشخصية ! ولن يستطيع إدراك المدى الكامل لما بلغه من نجاح في إدخال هذه الموضوعات الجديدة في ذلك الأدب العربى المقيد بالأوضاع والتقاليد

(١) من أدب السكاتب للصوى . . طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .

لأبملاحظة إختلاف الأجيال التالية في مواصلة الحديث في تلك الموضوعات
الشعرية السابقة - موضوعات الجنة والنار واليوم الآخر والحساب وتضمينها
حتى أشعارهم (١)

لقد طأطأ وقوفنا في هذه المسألة - مسألة أسلوب القرآن وما جاء فيه من
تكرار ، وما قيل في جمعه وترتيبه - ولكن لم يكن بد من هذه الوقفة الطويلة
إذ كان الرجل الذي تخيرناه ليكون مثلاً للنقاد العالم الحر من كتاب الغرب ، لم يستطع
أن يستقيم على الحياد ، وأن يتحرر من موروثات العصبية . . بل حشد ذكاءه
كله للدراغة والمخائلة . . يلوح لك بقولة الحق ، فيخيل إليك أن الرجل رجل
عدل وإنصاف ، فإذا أنت لم تنظن إلى هذه الخدعة وقعت في مزلق من تلك
المزلق الكثيرة التي يلقي بها فيما لوح لك به حق . .

لأنه بهذا الأسلوب المموه بمهارة وحذق يستطيع أن يخدع كثيراً من يلقاهم
بالحقائق ملففة في لفائف رقيقة من الزور والبهتان ، فيختلط عليهم الأمر ،
وتضطرب في قلوبهم أمواج الشك . .

إن في كلام الرجل كثيراً من الحق ، كما أن فيه كثيراً من الباطل . .

وأعجب ما في هذا أن يحىء الرجل بالحقيقة واضحة ، ثم يحىء كذلك بالباطل
صريحاً واصحاً في الأمر الواحد ، ويجمع بينهما في صور شتى . . وهذا أبعد في
السيك ، وأعمد في التضليل ؛ من يحىء بالحق متلبساً بالباطل ، أو بالباطل متستراً
في الحق !

ولعل أصدق ما قاله الرجل هنا في قوله في تفسير التكرار الذي جاء في
القرآن . . حين يقول :

« والواظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل التكرار
بنفس الألفاظ تقريباً . . »

وذلك لاشك وجه من وجوه الحكمة في تكرار ما تكرر من عبارات

(١) حضارة الإسلام لجرونيانوم ص ١٠٨ وما بعدها .

ومعاًن فى القرآن .. كما هو الحال فى سورة الرحمن ، وفى سورة المرسلات ، كما هو الحال أيضاً فى قصص الأنبياء ..

ولكن هذا التكرار ليس من عمل « محمد » وإنما هو من تدبير الله فى إنزال القرآن ، وفيه هذه المواقف التى تتكرر فيها الألفاظ والمعانى ، حيث تقتضىها دواعى الحال ، فى الأمور ذات الصفة المهمة الخطيرة ، أو فى الحالات التى تزدهم فيها النفس بالحواطر المزعجة ، فيرسل لىها العزاء ، والسلوان ، حالاً بعد حال ..

وقد كان من عادة النبي عليه الصلاة والسلام أن يعيد الكلمة أو الجملة ثلاث مرات .. وذلك فى المواقف التى تقتضى العناية والاهتمام ..

عن أنس رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم .. وإذا أتى على قوم سلم عليهم ثلاثاً حتى يفهم (١) .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها : «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثاً لو عده العباد أحصاه » .

ونكتفى بهذا القدر فى مواجهة هذا الباطل الذى يقول به علماء الغرب فى أسلوب القرآن ، وفى تكراره وفى جمعه وترتيبه .

التشريع فى القرآن :

والأمر الثانى الذى يقف منه الغربيون موقف التهجم والتطاول على القرآن هو الأحكام التى جاء بها ، والشرعة التى دعا لىها ، وأقام دعوة الإسلام عليها . والمفتريات هنا كثيرة متشعبة ..

تجىء أحياناً على طريقة المقايسة إلى الشريعة الموسوية أو العيسوية . وتجىء تارة بالمناظرة مع الأفظمة والشرائع المادية التى يعبدت فيها الناس . وتلتقى جميعها عند القول بأن الإسلام — سواء كان ديناً سماوياً أم وضعياً —

(١) زاد المعاد فى هدى خير المعاد جزء ٢ ص ٦٥ .

(٢) الشفا للقاضى عياض جزء ١ ص ١٠٨ .

فإنه إنما وضع لحياة البادية ، وجاء مقيداً على أحوالها وظروفها ، وأنه إذا خرج إلى محيط غير هذا المحيط ، وإذا جاوز هذه الأحوال والظروف اصطدم بظروف وأحوال لا يستطيع مواحمتها ، ولا الحياة فيها .

إن الشريعة الإسلامية — عن هؤلاء الغربيين — شريعة بدائية ، لا تستقيم أبداً مع الحياة المتحضرة ، ولا تتجاوز مع حاجات الناس في تلك الحياة !

وغاية القائلين بهذا القول أن يحصروا الإسلام في دائرة ضيقة من الزمان والمكان .. فهو لا يصلح إلا للجماعات البدوية ، ولا يعيش إلا في البيئات المتخلفة التي لم تنطلع عليها شمس الحضارة الحديثة ، ولم تنفذ إليها شعاعاتها .

وهم بهذا إنما يرون أن يضعوا « متاربس » من الوهم والخداع أمام زحف الإسلام ، وأن يكسروا من حدة انطلاقه في مشارق الأرض ومغاربها ، على رغم ما يليق من مقاومة المبشرين ومحاربه بكل سلاح ، واضطهاد الداخلين فيه ، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية والسياسية . .

ثم هم من جهة أخرى يحاولون أن يضعوا حواجز نفسية بين الإسلام وبين المؤمنين به ، بما يخيّلون انضعاف العقول ، ولذخروا بالمدنية الغربية والمأخوذ من يبريقها — أنهم إنما يحقرون عقولهم ، ويرخصون مواهبهم ، وينزلون من شخصياتهم إذ يلبسون هذا الزي البدوي ، ويعيشون فيه ، على حين يعيش الناس في عصر الذرة ، ويستعدون لغزو الفضاء وسكنى المكواكب !

وقد كان لهذه المفتريات سلطان على كثير من أصحاب الشخصيات الملهوزة ، التي لم تنهأ لها المعرفة الصحيحة بالإسلام ، ولم يتح لها حظ من الإيمان القائم على العلم والمعرفة ، فكان من السهل الميسور أن تغزو هذه الأفكار الخبيثة تلك القلوب التي عاش فيها الإسلام من غير أن يثير فيها عاطفة ، أو يحرك شعوراً .

وشتان بين هذه الدعوى التي يدعيها الغربيون وأشباع الغربيين على الإسلام وبين حقيقة الإسلام والغايات الكبرى التي جاء لتحقيقها في هذه الحياة !

لقد جاء الإسلام لهداية الإنسانية كلها ، وإفادة مجتمعاتها جميعاً ، على مدى الأزمان ، وفي مختلف المواطن .

والقرآن الكريم يجعل بين آياته الكريمة مضمون دعوته تلك ، ويؤذن في الناس بها . . . وفي موضع آخر من هذا الكتاب تحدثنا عن الإنسانية الإسلام ، ودعوته الشاملة لكل من يدخل في معنى الإنسانية من بنى آدم . . . فاجاء الإسلام إلى العرب وحدهم ، وما قصر خطابه عليهم ، بل لأنه لم يوجه إلى العرب خطاباً أبداً ، وإنما جاءت أوامره ونواهيته كلها متجهة إلى الناس جميعاً : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (١) . . . « يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وقوله : « يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تفرغوا الحياة الدنيا ، ولا يفرغكم الله الغرور . . . إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » (٢) . . . « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . . . » (٣) .

قلنا هذا ، وقلنا إن الإسلام هنا جاء على غير ما جاءت الديانتين الموسوية والديسوية ، حيث كان متوجه شريعتهما إلى بنى إسرائيل وحدهم دون الناس . . . كما قلنا إن الذين آمنوا بهاتين الديانتين من غير بنى إسرائيل إنما هم يتعاطون طعاماً لا يصلح لهم ، ولا يصلحون له . . . إذ كانت هاتان الشريعتان لشعب له ظروف خاصة ، وأحوال متصلة به . . .

ونقول هنا إن الإسلام في دعوته العامة التي حملتها أوامره ونواهيته ، كأنطق بها القرآن . لم يكن مجرد دعوة تهيب بالناس جميعاً ليوسع دائرة اختصاصه ، وليمد في قطر دائرته ، وإنما كان إلى جانب هذه الدعوة يحمل كل أسباب الحياة

(١) سورة لقمان آية ٣٣ .

(٢) سورة يونس آية ١٠٨ .

(٣) سورة لقمان آية ٣١ .

(٤) سورة الأعراف آية ٢٧ .

المادية والروحية لكل من تبلغ أسماعهم دعوة الإسلام ، فى أى مكان ، وفى
أى زمان .

والجدل فى مجال عرض المبادئ الإنسانية التى جاء بها الإسلام ، ومقايستها
إلى الشرائع السماوية أو الوضعية قد تشتمل فيه معارك الكلام ، ويستخدم الصراع ،
فتغرق الحقيقة فى دخان هذا الصراع ، وتضيع معالمها فى غبار هذا العراك ..

فلأنتمجدهم هنا إلى عرض حقائق الإسلام ، ولأنستعرض مقولات الخصوم
فيها ، وما تحمل من بهتان وزور .. فذلك - كما قلنا - قد لاينهى النزاع باتتصار
حاسم لآى عن الفريقين المتنازعين .

ولئما الذى تقدمه شاهداً يشهد للإسلام بسلامة مبادئه ، واستقامتها مع طبيعة
الحياة ، وتقلب المجتمعات البشرية فيها ، وتنقلبهم معها جيلاً بعد جيل — الذى
تقدمه شاهداً لهذا هو التطبيق العملى للإسلام ومبادئه ، وما كان لهذه المبادئ
من آثار فى الحياة الإنسانية : المادية والروحية على السواء .

جاء الإسلام إلى الحياة ، فتخبر أجذب بقعة فيها .. ونزل بين جماعات ضائعة
ضالة فى غياهب الصحراء ، وفى بطون أوديتها وجبالها .. قد ركبتهم طباع تنضح
بالشر ، وترمى به كل من يتصل بها من قريب أو بعيد .. فلا يلقى لإنسان لإنسانا
بمودة ، ولا يمد إليه يداً مودعة مسالمة ، وإنما هو البغى والعدوان ، وهو الصراع
بالخبايا والآنياب لتنجلى المعركة عن قاتل أو مقتول .. « فمن لم يكن ذمياً أكلته
الذئاب » ، ومن لم يكن قاتلاً فهو المقتول .

لقد تخبر الإسلام هذا الموطن بالذات لبدأ منه رحلته الطويلة مع الحياة .

هذا أول شاهد يشهد للإسلام بأنه جاء من جهة عليا .. حكيمة مدبرة ..
وأنه وضع أقدامه على أول الطريق الصحيح لإصلاح الحياة ، وعمرانها .. حين
بدأ بالجذب والفقير منها ، فأخرج منه جماعات تفيض بالخير والشر .

إن الغيث لا يعرف فضله ، ولا تشهد آثاره إلا فى موطن القفر والجذب ..

حين تستقبله هذه المواطن فتجيب به ، وتتحرك في أحضانها أجنة النبات ثم تنشق عنها ، فإذا هي زروع ناضرة ، وأزاهير متفتحة ، وثمرات دائية القطوف مختلفة الطعوم .

وليس كهنه النهادة شهادة تنطق بفصل الغيث ، وتحدث عن آثاره : فانظر إلى آثار رحمة الله . . كيف يحيى الأرض بعد موتها ، (١) . وترى الأرض هامة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اعتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، (٢) وهكذا جاء الإسلام محيى الغيث إلى هذه المواطن المجدة المقفرة ، فاهتزت به وربت . وأنبتت من كل زوج بهيج !

ولا يستطيع مكابر - مهالج به العناد - أن ينكر آثار هذه الرحمة الشاملة التي أخصب بها كل حديب ، وعمر بها كل خراب في أنحاء الجزيرة العربية ؛ منذ دخل الإسلام في قلوب القوم ، وعمرت تلاوة القرآن دورهم وساجدهم . . . فهذه الأمة التي جمعها الإسلام من أشلاء ممزقة ، وأقام بنيانها من أنقاض متهالكة . . هذه الأمة التي أتم الإسلام إعدادها في ثلاث وعشرين سنة - هي مدة الدعوة الإسلامية - هذه الأمة قد واجهت أكبر قوتين كانتا تقسمان العالم بينهما . . واجهتهما ولم تكن قد تمرست بالحروب العامة الشاملة ، ولم تكن تعرف من فنون الحرب ما تعرف أمة الفرس وأمة الروم - ومع هذا فقد هزمت الدولتين العظيمتين معاً .

فوضعت يدها على دولة الفرس كلها ، واستولت على بلاد الشام ومصر من دولة الرومان . . كل هذا في بضعة سنوات من وفاة النبي !

وقد يبدو لحاسد أو مجادل أن يقف من هذا الإعجاز الرائع لقوة الإيمان التي كان بها هذا الفتوح فيقول : إن هذه الفتوح الإسلامية لم تكن عن فعل الإيمان ، ولا من وحى الإسلام . . وإنما هي قوة مخربة مدمرة من قوى الشر . . انطلقت من قلب الصحراء كما يطلق الإعصار العاتق فيدمر كل شيء ! وفي التاريخ فعاليات

(٢) سورة الحج آية ٥ .

() سورة الروم آية ٥٠ .

(م ٢٠ - المي محمد)

لمثل هذا .. فلقد اجتاحت التتار دولة الإسلام في وقت أقل مما احتاحت فيه ميوش المسلمين دولتي الفرس والروم !!

وهذا القول ، وإن يكن في ظاهره ما يصل ويخدع ، إلا أنه مع قليل من النظر تتمتع فيه أوجه الخلاف الديد بين الأمرين ، فلا يبدو بينها وجه يلتقيان فيه .

فأولاً : لم تكن قوة الإسلام الزاحفة حملة عسكرية تحمل إلى الناس الموت والحراب ، والدمار ، شأن الحملات العسكرية الممبأة بروح البقرة ، وحب السيطرة والغلب .

ولأنما كانت قوة الإسلام الزاحفة شعبة منيئة ، تحاول أن تخترق بشعاعاتها سحب الظلام المتكاثف على قلوب الناس وعقولهم ..

كانت قوة الإسلام الزاحفة بعثة إنقاذ ، تحمل إلى الإنسانية الضالة أطواق النجاة ، ملقاة بنفسها في مواطن الموت في سبيل الحق والخير الذي تجمله بين يديها ، ليأخذ الناس بحظهم من هذا الحق والخير !

كانت قوة الإسلام الزاحفة لا ترفع سيفاً في وجه من يقول كلمة التوحيد ، وينضم إلى موكب الدور إنه حينئذ يصبح واحداً من تلك الجماعة ، له مالها وعليه ما عليها .

فهل كان شيء من هذا في حملة التتار ، أو غيرها من حملات الفتح والغزو ؟

لا ينبغي على هذا ، فقد تولى التاريخ الإجابة الواضحة المسببة !

وثانياً : كانت قوة الإسلام الزاحفة تعمل للبناء ، لا الهدم .. وكانت يدها البانية قوية ، حكيمة ، عادلة ، خيرة .. تبنى الحق والخير .. وتقيم ما تبنى على دعائم متينة من العدل والإحسان .. ومن أجل ذلك فقد رسخ ما بذت ، وزاد مع الأيام قوة ، وارتقاء .. حتى أن الكسرات التي كانت تصطب هذا البناء بين حين وآخر لم تكن لتقوص البناء ، أو تضيق معالمه . ولأنما هي صدوع وشرخ لا تلبث يد الإسلام أن ترأب الصدع ، وتسد الثلمة !

وهذه حضارة الإسلام التي عرف الغرب آثارها وأقام حضارتها الحاضرة

على أضواء مشاعلها — هذه الحضارة لا تزال قائمة في بطون الكتب ، وفي معالم الحياة التي يقوم عليها اليوم مجتمع يضم أربع مئة مليون مسلم !

أف هذا كان شأن التار ، ودولة التتار ؟

إن دولة التتار لم تقم إلا في ظل الإسلام ، فقد أعلن قائدها إسلامه — إن صدقا وإن كذبا — ليضمن لدولته الدائمة — حياة تحت راية الإسلام . . ومع هذا ، فقد ذاب التتار في الدولة الإسلامية ، كما ذاب غيرهم من الأمم والنسب التي ضمها الإسلام إليه وصبغها بصبغته .

فالقول بأن القوة العربية التي عبأها الإسلام لتكون طليعة بعوك النور — القول بأنها كانت ظاهرة من ظواهر الطبيعة العاتية قول لا يستقيم مع الواقع ، ولا يستند إلى شيء من مرويات التاريخ ؛ حتى الضعيف المكذوب منها .

قلنا إن أول النواهد على أن الرسالة الإسلامية رسالة سماوية تستند إلى قوة عليا لا حدود لقوتها — أنه تخير لدعوته هذا المكان الحديب المقفر ، الذي لم يشهد يوما من الأيام أمهة سلطان ، ولا سطوة دولة ، كما عرف اليونان ، والرومان ، والفرس ، وكما عرف الفراعنة ، بل والتابعة باليمن .

من هذا المكان المقفر الحديب كانت نقطة انطلاق الإسلام ، ومركز دعوته . فإن الطبيب — كما يقول السيد المسيح — لا يزور إلا المرضى .

ومن جهة أخرى . . فإن قيام الدعوة الإسلامية في هذا الموطن كان خير مكان يصلح لتربية إنسانية تستقيم مع مبادئ الإسلام ، وتستجيب لمشاعرها للغداء الطبيب الذي يحملها إلى الناس .

والأمة العربية — على ما كان بها من فقر ، وما في حياتها من مخلفات الفقر والحاجة كانت لا تزال في صميمها سليمة فقية من العوارض والآفات التي أصابت الشعوب التي تمرست بالمادية وعاشت فيها زمناً ، ثم خذلتها الحياة ، وتركها أشبه بالهشيم .

ومن هنا كان أثر الإسلام في الأمة العربية قويا واضحاً ، منجزاً . . كالفيض
يصبب أرضاً بكرًا ، لم يمتص مادتها الغذائية نبات أو شجر .

وهذا ما يمكن أن يفسر به قوة الجماعة الإسلامية الأولى ، مع قلة عددها ،
وشح مواردها ، وهذا ما يفسر أيضا ظهور هذا العدد الكبير من عظماء الإنسانية ،
مثلا في صحابة رسول الله ، وما أظهروه من عظمة في فنون السياسة ، والحرب
وفى تنظيم الدول ، وبناء الشعوب . إلى ما اشتملت عليه نفوسهم العالية من ترفع
عن ماديات الحياة ، واستعلاء على مطالب الجسد والنفس الأمارة بالسوء .

ولا نذكر الأسماء ، ولا نعرب الأمثال . . فكل صحابة رسول الله مثل
لهذا ، وكل أعمالهم شواهد له .

فالذين يحاولون أن يصوروا الشريعة الإسلامية بأنها شريعة متخلفة ، لا تصاح
إلا في الحياة البدائية ، ولا يعيش عليها إلا من يسكنون الغابات والكهوف —
هؤلاء الذين يضعون شريعة الإسلام في هذا الوضع هم — كما قلنا — ليسوا
أعداء الإسلام وحسب ، بل هم أعداء الحياة نفسها ، أعداء الإنسانية كلها . .
إذ يحاولون أن يجلبوا عن الناس هذا الخير الذي نزلت به آيات الكتاب الكريم ،
ليكون رحمة للناس ، وشفاء من تلك الأدواء التي تغتال ما بينهم من أواخر
الآخوة ، وصلات المودة والرحمة ، وتوقد بينهم العداوة والبغضاء التي تشعل
فيران هذه الحروب المدمرة . والتي تبيت الناس دائما على ذعر وفزع .

إن شريعة الإسلام هي التي جعلت من تلك الجماعة المبددة الضائعة في رمال
الصحراء أمة تظال بأجنحتها أجمعاً ، وشعوبا . . تنشر فيها العدل ، والأمن ، وتقيم
في ربوعها مدنية مزهرة ، وحضارة قائمة على أصول رأسخة من العلم والفن .

يقول « ول ديورانت » في كتابه قصة الحضارة :

لم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل عصر النبي إلا في مسميات
اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين في شبه الجزيرة باسم :
« السركنوى ، ويلوح أنه هو نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العربى .

« وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً في نمو روح العزلة فيهم .
« فالعربي لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لآية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولاءه تتناسب عكسياً مع سعة الجماعة التي يدين لها بالولاء (١) .

ذلك هو الوصف الدقيق للحالة التي كانت عليها الحياة الفردية أو الجماعية للعرب في صحراء الجزيرة . لم يسكن العرب أمة من الأمم ، وإنما كانوا جماعات متناثرة ، هنا وهناك ، يكوفون وحدات . . كل وحدة تسمى قبيلة ، وتلك هي الوحدة الكبرى ، أو الأمة التي ينتمى إليها العربي ، ويدين لها بالولاء . . أما ما وراء هذه الوحدة القبلية فلم يكن بموضع تفكير عند أحد منهم .

فكان من معجزات الإسلام أن أقام من هذه الجماعات المشتتة المتناثرة ، مجتمعاً متماسكاً متجانساً . . يشد بعضه بعضاً ، فكان كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحنى والسهر .

وهذا ما نشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها (٢) .

ولا يذكر التاريخ مجتمعاً إنسانياً جمعت بين أفرادها روح الإخاء ، والمودة ، والإيثار مثل المجتمع الإسلامي الذي أقامه الرسول ، وورثه خلفاؤه الراشدون من بعده .

فقد كان هذا المجتمع أشبه بأسرة تجمع بين أبوين عطوفين ، وأبناء بررة كرام ، لا يلقى أحد أحداً إلا بالمودة ، ولا يبذئ أحد مع أحد إلا على حب وسلام . فإذا تحدثت المجتمعات الراقية اليوم عن التكافل الاجتماعي ، وعن التقارب بين الطبقات فيها ، فإنها لتستخرى إذا نظرت إلى ما حققه المجتمع الإسلامي من

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ١٠

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣

هذا التكافل والتقارب على صورة كاملة ، لا يقوم عليها سلطان غير سلطان الضمير ، ولا يزعها وازع غير وازع الدين .

يقول « ول ديورانت » المؤرخ العالم الفيلسوف :

« ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ، ما فرض عليهم » محمد ، لإعانة الفقراء .

« وكان يحض كل موص بأن يخصص من ماله جزءاً للفقراء .

« وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير » (١) .

وليس الذى فرضه الإسلام من بر بالفقراء والمساكين هو ضريبة بالمعنى المفهوم فى العرف الاقتصادى اليوم ، وإنما هو زكاة . . والزكاة معناها : النماء والزيادة ، والطهارة ، والطيب . . فيقال : زكا العلام يزكو زكاة ، إذا نما وتب . . ورائحة زكية أى طيبة . .

فالزكاة التى يؤديها المسلم عن ماله فيها زكاة لهذا المال أى نماء له ، وفيها طهر وطيب لصاحب المال المزكى . . وهذا ما نجده فى الآية الكريمة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكهم بها » (٢) . والآية الكريمة : « الذى يؤتى ماله يتزكى » (٣) .

وستان بين من يبذل المال فى سبيل الفقراء والمحتاجين وملء مشاعره أنه يعقد صفقة رابحة ، ينال بها نماء ماله ، وطهاره نفسه ، ومرضاة ربه ، وبين من « يدفع » الضرائب وليس فى نفسه أى معنى من تلك المعانى الطيبة الكريمة . . وإذا تحدثت المدينة الحديثة عن فضلها فى تخليص رقاب الأرقاء ، وفى القضاء على الرق ، فلتذكر أولاً صنع الإسلام فى تحرير الرقيق ، وما حملت

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ٥٩ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٣) سورة الليل آية ١٨ .

تعاليمه من مساواة مطلقة بين الناس ، لا يتفاضلون إلا بالعمل الطيب ، فلا حساب للأحساب ، والأنساب ، والألوان ، والدماء ، في موازين الإنسانية ومنازل الناس في المجتمع الإنساني . .

لتذكر المدنية الحديثة هذا ، ولتذكر معه أن مجتمعاتها وإن تخلصت من الرق على الصورة التي كانت معروفة من قبل ، وهي تملك الإنسان وعده سلعة تباع وتشترى — فإن هناك صوراً كثيرة للرق لا تزال قائمة يمثلها الاستعمار الذي لم يتخلص منه بعض الجماعات الإنسانية إلى الآن ، كما تمثله التفرقة العنصرية بين زنوج أمريكا والأمريكيين ، وبين السود في أفريقيا وبين الأوربيين . . كما يمثلها المحتكرون وأصحاب رؤوس الأموال في أوروبا وأمريكا .

لتذكر المدنية الحديثة هذا كله ، ولتقف وقفة لإجلال وإكبار وخشوع أمام عظمة الإسلام ، وسمو المعاني الإنسانية التي غذى بها مشاعر أتباعه ، ليتعاملوا بها فيما بينهم . . وفيما بينهم وبين الناس جميعاً .

سأل رجل الذي صلى الله عليه وسلم : كم أعفو عن الخادم ؟ . فصمت النبي الكريم ثم قال : أعف عنه كل يوم سبعين مرة . .

وليس حصر عملية العفو في هذا العدد بواقفة به عدد هذا الحد ، بل غاية ألا تسكون له نهاية . . وأن يتعمل العفو حالاً بعد حال .

وعن ابن المنكدر أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له ، فجعل العبد يقول : سألك بوجه الله ، فلم يعنه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ، فانطلق إليه ، فلما رأى الرجل رسول الله ، أمسك يده فقال رسول الله : سألك بوجه الله فلم تعنه ، فلما رأيته أمسكت يدك ؟ فقال الرجل : هو حر أوجه الله يا رسول الله . فقال له النبي : لو لم تفعل لسنعت وجهك النار . .

ولم يكن هذا مجرد مبادئ وتعاليم يلقيها الرسول في آذان أصحابه ، وإنما كان

صلوات الله وسلامه عليه القدوة الطيبة والأسوة الحسنة في كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

عن أنس — خادم الرسول — قال : « خدمت الرسول عشر سنوات ، فما قال لشيء عمله : لم عمله ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ، ؟ » .

فليست منزلة الخادم عند من يخدمه أو العامل عند صاحب العمل بالمنزلة التي دون من يخدمه أو يعمل معه ، وإنما الأمر بينهما قائم على التعاون لدفع عجلة الحياة . . هذا هو وضع العامل عند صاحب العمل في الإسلام .

يقول النبي الكريم : « إخوانكم خولكم . . استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم ، ١ » .

فأى نظام من أنظمة العمل ، وأى قانون من قوانين المال يرتفع إلى هذا المستوى الرائع الكريم الذي رفع به الإسلام منزلة العمل ، ومكانة العامل جميعاً ؟ .

وأى عقد من عقود العمل يضمن للعامل هذا الحق الأدبي عند صاحب العمل ، ويقيمه عليه ، ويؤديه له ، في صورة عبادة وقربى إلى الله ؟ .

« إخوانكم خولكم ، » .

الأخوة هي الأساس الذي يقوم عليه عقد العمل ، بين العامل وصاحب العمل .

الأخوة أولاً وقبل كل شيء .

أخوة مقررة ، متبادلة بين الطرفين . .

أخوة قائمة مقررة قبل أن تكون بينهما صلة تعامل أو عمل .

أخوة إنسانية . . يلتقيان أو يفرقان دون أن ينقطع بينهما هذا الرباط الوثيق الذي جمعهما الله فيه .

وهذا هو السر في تقديم كلمة « إخوانكم » على كلمة « خولكم » ، في الحديث الشريف .

وفي قول الرسول الكريم : « استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » تنبيه قوى إلى تسخير العمل والعامل معاً ، وأن من كرامة الإنسان أن يعمل ما وسعته قدرته وكفايته ، فإذا لم يمكن في استطاعه الوفاء بالعمل ، فلا عليه أن يستعين بمن يحد منه العون .

فأين من هذا الإحساس اليقظ بكرامة العمل وقيمته — هذه المشاعر المربية التي يعيش فيها كثير من الأغنياء الذين يحسبون الترفع عن العمل ، وفراغ اليد ، والعقل والقلب منه — مدرجاً إلى العظمة ، ومرقى إلى مقام السيادة ؟

إن الإسلام يدعو كل ذى طاقة جسدية أو عقلية أن يوجه طاقته تلك إلى العمل المنتج المفيد ، وأن يضم جهده إلى جهده غيره ليضاعف الثمرة وينميها .

وليس في الإسلام ولا في المسلمين من يقعه الترفع والتعالى عن أن يكون عاملاً مع العالمين ١٠٠ والرسول الكريم يقول: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ، وكان نبي الإسلام أكل مثل وأروع شاهد لهذه الدعوة المباركة . . كان يخفض نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويقم بيته ١٠٠

* * *

هذا جانب من التشريع الاسلامي ، وأثره في الحياة . . فهل تنقص الحياة المعاصرة شيئاً من هذا ؟ وهل تعلو الحياة في أعلى مستوياتها على هذا المستوى الذي ارتفعت إليه الحياة في ظل الاسلام . وعلى أيدي المسلمين في العصر الذي عملت فيه مبادئ الاسلام عملها ، وأخرجت ثمراتها ؟

إن الدين يحاولون أن يشوهوا مبادئ الإسلام ، ويشوشوا عليها ليرتكبون لإثماً غليظاً في حق الحق ذاته ، وفي الجناية على كثير من الناس قد يصرفهم هذا الضلال عن الوقوف على مبادئ الاسلام والانتفاع بها .

وما يضاعف من هذا الإثم ويزيده شناعه أن يكون في هؤلاء الطاعنين على شريعة الاسلام من ينهج نهجها ، ويسير عليها . ويلتفع بمقرراتها في منازع حياتها ، وفي أسلوب معيشتها ، ثم يلقي الناس بلمان مة ملط عليها ، متسكراً لها !

صياغة أحكام الشريعة :

وقد يحاوز الناقدون من علماء العرب مفاهيم الشريعة الإسلامية إلى نقد الصياغة المقننة لهذه المفاهيم ، وذلك ليلقوا في روع من يقرأ لهم أن أسلوب القرآن ومعانيه ، وحيالاته كلها مستمدة من الحياة العربية ، مستلهمة من روحها . ملتقطة من لسانها . . وأن الشريعة التي جاء بها القرآن ليست إلا تهديدا ، وتنظيلا لما عرف العرب في جاهليتهم من أخلاقيات تدور معهم في مدارات الحياة إلى يحيونها ويتقبلون فيها ١ .

فمن ذلك ما يقوله مؤلف حضارة الإسلام « جرونيباوم » في أسلوب القرآن وصياغته لأحكام الشريعة . . يقول :

« وانه ليعبر — أى القرآن — في بعض الأحيان على طريقة الشعراء ١ .

ويضرب لهذا مثلا ، فيقول :

« فالوحي يعترف بالتأثر بقوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » (١) ولكنه لكي يزين للناس روح الصلح والوفاق في تسوية المنازعات الدموية يضيف إلى تلك قوله : « لعلكم تتقون » .

« وفي مكان آخر يستعين الوحي في هذا الصدد بقصة قابيل وقتله أخاه هابيل ويتخذ هذا المفزى الخلقى ... والبي معارض للقصاص ، وإن رغب في إجازته في ظروف معينة ، غير أنه لم يخرج أفكاره في صيغ قانونية ودقيقة : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور (٢) » .

والإسلام ، أو بمعنى آخر القرآن ليس ككتاب قانوني جنائي أو مدني ، وليس

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٢) حضارة الإسلام ص ١١٦ والآيات من سورة الشورى ٤٠ — ٤٣ .

لائحة إجراءات ، كل همه تحديد الجرائم ، ووصفها الوصف الكاشف لها ،
ورصد العقوبة المنسدة أو المخففة لكل جريمة .

ليس القرآن على تلك الصفة التي ينظر إليه من حلالها العريون ، ويحصر
نظرتهم إليه فيها ، وإنما هو قبل كل هذا كتاب تربية وتعليم ، كتاب بناء للأخلاق ،
وتقويم للسلوك ، وليست غايته ضبط المجرم متلبسا بجريمه . وإنما مقصده الأسمى
تقويم المجرمين وصددهم عن السبيل المعوجة والمنحرفة بما يلقى في قلوبهم من هداية ،
وما يشيع في ضمائرهم من يقظة وصحو !

ذلك هو مقصد الإسلام الأول فيما يشرع من شرائع ، وفيما يرصد من عقاب
ثم يجرى بعد هذا دور التكييف للجرائم التي تقع ، ووزنها بميزان مستقيم عادل ،
ليحسب لها الجزاء المستقيم العادل !

ويقول : « جرونيوم ، أيضاً في هذا الصدد :

« كان لعرب الجاهلية محصول لنوى غير قليل من المصطلحات الاخلاقية ،
ولكنهم لا يكادون يماسكون أبسط مبادئ القانون المدني أو الجنائي .. »
ونسلم بهذا ..

ولكنه يتخذ من القول ذريعة ليقول :

« حتى إذا استن (محمد)^(٢) شريعة مجتمعة أراد أن يتجاوز البت في الحالات
الفردية ، وأن يصوغ قواعد عامة .. إما على أساس العرف القديم ، أو على وفق
مراكب فيه من إحساس بالعدالة مرهف ، شديد الامتياز .

والشواهد الأدبية الوحيدة التي كان يستطيع أن يسير على هديها لم تكن سوى
عموميات مجملة كالتى ترد أحياناً في الشعر ، كما كانت إلى حد ما قواعد لا تجيء
مباشرة وصريحة ، بل ملخصة وضمنية ، وذلك عندما يمدح الشاعر بعض النابهين
من الأفراد ، أو يذمهم .. لتمسكه بفضيلة من الفضائل ، أو تجافيه عنها .

(١) وليس « محمد » هو الذى يستن العمريّة الإسلامية ، ولكن هكذا يريد العريون .

فإذا أحبطت إحدى القبائل مسعى لرجل أجبي عنها في طلب الثأر ، وأبت أن تتخلى عن ابن من أبنائها كان قد تورط في نزاع دموى ، راح (زهير) يمدحها بقوله :

كرام ، فلاذو الوتر يدرك وتره لديهم ، ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم
وفهم يصور قواعد السلوك الصائب بمتبى الزوج ، ولكن بغير الطريقة
التي ترضى المشرع . . . ثم إن أدب الحكمة كان يزود الناس بمدخرات أخاذه
من الحكم الخلقية الماثورة .

والبغي يصرع أهله والظلم مرتعه ونعيم

• ولكن الغي لم يكن ليجد أى مرجع فينهل منه عندما تقضى عليه الظروف
بتمعريف الظلم ، أو تعين الطريقة التي ينبغي أن يتبعها القانون في المنازعات
المدنية (١) .

والمغالطات هنا واضحة مفضوحة ..

فإذا كان القرآن قد سلك الترغيب في مكارم الأخلاق مسلك الإنارة الوجدانية
فليس معنى ذلك أنه يطرق النفوس كما يطرقها الشعر وما يحمل من صور المدح
أو الذم لخلق من الأخلاق ، أو عمل من الأعمال .

وفرق كبير بين صنيع الإسلام في هذا ، وبين ما يتضمن الشعر من فصائح
وحكم . . . فإن القرآن تشريع ملزم . . . يتبع العمل السيء بالجزاء السيء في العاجل
والآجل معاً . . . وليس كذلك ما يجيء في الشعر مما يمدح أو يذم من أخلاق ، فإنه
لا إلزام فيه ولا متوجه به إلى جهة عليا تملك من الناس ما لا يملكون هم من
أنفسهم . . . وتجازى الخير بالخير أضعافاً مضاعفة ، وتجزى بالسيئة على قدرها
أو تعفو عن مفرقتها !

* * *

هذا ، وقد اختلفت نظرات بعض الناظرين في سيرة الرسول من المسلمين ، وغير المسلمين ، فلم يستطيعوا أن يروه بشراً رسولاً .. يعطى للبشرية فيه حقها ، كما يعطى النبوة منه حقها ..

فلقد رأى كثير من غير المسلمين أن تأنس النبي بالحياة البشرية لا يلائم النبوة ، ولا يؤاثر الرسالة السماوية التي اختير لها .. فهم يكادون يقولون : إن النبي ينبغي أن يحيا حياة الملائكة .. لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، ولا يتزوج وقد سبقوا إلى هذا القول بما قاله كفار قريش عن النبي فيما حكاه القرآن عنهم : وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ (١) .

وكثير من المسلمين قد دخل عليهم من هذه المقولات ما عمى عليهم الرؤية الصحيحة . للبشرية القائمة في كيان النبي فحاولوا أن يصفوا حساب البشرية من كيان النبي ، وأن يروا النبي مالكا لا بشراً رسولاً ..

ولعل أكثر ما لُحج به غير المسلمين من سيرة الرسول ، وحاولوا أن ينالوا من مقام النبوة هو زواج النبي ، وما اجتمع في بيت النبوة من زوجات ..

فلقد كان هذا الجانب من حياة الرسول أقرب شيء يمد إليه أعداء الإسلام أيديهم .. ويبسطوا فيه ألسنتهم كلما أرادوا أن يهاجموا الإسلام في شخص نبيه الكريم .

ولهذا فإننا سنقف عند هذه المسألة وقفة نلقى فيها هذه المفتريات ، ونكتشف عن زيفها ، ونقول قولة الواقع عنها ، وكلمة الحق فيها .

الباب التاسع

بشرية الرسول

ونعود بعد هذه الوقفة التي وقفناها مع سيرة الرسول ، وما وعى التاريخ منها ، وما ألقى إليها القصاص والمؤرخون من إضافات ، وما أدخل عليها الوضع ، وأصحاب البدع والأهواء من ألوان الباطل الزيف ، ليلبسوا الحق بالباطل ، وليشوهوا معالم هذه السيرة الوضيئة المشرقة .

نعود بعد هذا لننظر في موقف الرسول نفسه من جلال النبوة وروعها ، وما كان يأخذ الناس من هذا الجلال وتلك الروعة !

وليس في مقدور أى إنسان مهما يكن إدراكه لبشرية النبي وتيقنه منها ، أن يحبس في نفسه تلك العواطف التي تجيش أمام هذا الجلال المهيب الذي لا يرى في هذا الوجود إلا في ظلال النبوة ، وفي رحابها العنى الطهور !

وحسبك أن تذكر هنا ما يروى عن موقف عمر بن الخطاب حين صدك سمعه قوله من يقول : إن النبي قد مات وكان قد سبق ذلك توعدك وشكاة من الرسول ، حالت بينه وبين إمامة المسلمين للصلاة ، فأقام أبا بكر مقامه فيها !

لقد أنكر عمر — كما يقول المؤرخون — هذا القول ، ورده على قائله في صرامة وعنف .. بل يقال : إنه سل سيفه ، وتوعد من يقول هذه القولة بأن يعلوه بسيفه ! ، بل ويقال أيضاً : إن عمر قال : إن رسول الله لم يمت ، وإنما ذهب لميقات ربه ، كما ذهب موسى ، وسيعود ليقطع السنة قوم كذبوا وضلوا !

وسواء أكانت هذه الروايات صحيحة في جملتها أم غير صحيحة ، فإن فيها دلالة على هذا الشعور المذهل الذي طغى على المسلمين حين نعى إليهم النبي

الكريم ١٠٠ حتى ليبلغ بهم هذا أن يسكروا على الموت أن يتخطى حدوده وينال من الرسول ما ينال من الناس !

ولاشك أن المسلمين كانت ألسنتهم في هذا الوقت رطبة ندية بآيات القرآن الكريم التي تحدث عن الرسول ، وعن عراض البشيرة التي تعرض له ، ومنها عارض الموت الذي لا مفر منه .

فلم يقف القرآن في أن يقرر للرسول نصيبه من هذا العارض الذي ينال كل نفس في قوله : « كل نفس ذائقة الموت » ، وفي قوله تعالى : « كل من عليها فان » ! لم يقف القرآن عند هذا ، بل أفرد للرسول قولاً خاصاً ، ينص في صراحة على أن الرسول ميت لا محالة ، كما يموت الناس جميعاً . . فقال تعالى : « إنك ميت ولأنهم ميتون » وقال سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

نقول : إن أي مسلم — بل إن أي إنسان — يقف من النبي موقف المتأمل في ذاته ، والمطلع لأحواله وتصرفاته ، والراصد لحركاته وسكناته ، والمستقبل لنفحاته وبركاته — لا يستطيع أن يحبس ما يحبس في نفسه من عواطف الإجلال الذي يبلغ مبلغاً لانهاية له ، حتى يكاد ينسى أنه أمام بشر يعيئن على الأرجح ، ويحيي في دنيا الناس !

وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يعلم ما له في قلوب أصحابه والمخاطلين له من أثر قوى صاغط على عقولهم وقلوبهم . . إنهم يرون إنساناً سماوياً يعيش معهم ، ويحيي حياتهم ثم إذا هرمتصل بالسماء ، يتلقى كلام رب العالمين ، من رسول رب العالمين « جبريل » . . وإذا آيات القرآن تنسرق من فم الرسول ، فتغمر المجلس نوراً علوياً ، وينتشي بها المؤمنون نشوة تكاد تطير بها الأرواح طيراناً من الأجساد إلى عالم النور !

يعلم الرسول ، بل ويرى تلك الآثار القوية التي يجرها المسلمون من شعاعات النبوة وأضوائها . . فيجمل جاهداً على أن يمسك بالمسلمين أن يذهب بهم الحال

إلى أن يقولوا فيه ما قال أتباع المسيح في المسيح . من أنه ، الله أو ابن الله . !

فما ترك الرسول الكريم حالا مواتية من أحوال أصحابه ، يكشف لهم فيه عن الجانب البشري منه إلا طلع عليهم به . ولفتهم إليه ، وأمسك بعقوطينهم أن تضل ، وبمشاعرهم أن تضطرب ، وعادتهم إلى ما يدعونهم إليه دينهم من أفراد الله وحده بالعبودية ، وإنزال المخلوقين جميعاً إلى مقام الاتقياء للخالق والتعاضد أمام جلاله وعظمته ! لا فرق في هذا بين نبي وغير نبي . بل إن النبي هو أكثر الناس معرفة بهذه الحقيقة ، وأشدهم تنبهاً لها ، وقياماً عليها .

شواهد من أحوال الرسول :

ولو أراد إنسان أن يقف من سيرة الرسول الكريم على شواهد هذه الحال التي يكشف فيها لأصحابه عن بشريته ، وعبوديته ، وخضوعه لضرورات الحياة الإنسانية ، وتلبسه بها - لو أراد إنسان أن يجد لهذا شواهد من حياة الرسول لما كان له أن يتخير حالا دون حال ، أو يقف عند شأن دون شأن ، بل إن سيرة الرسول كلها ، وأحواله كلها ، وشؤونها جميعاً شواهد عدول على أن الرسول كان إلى جانب قيامه بأمر الدعوة وتبليغ الرسالة قائماً كذلك بتحديد مهالم شخصية في نفوس أصحابه . ووضعها في إطار بشري خالص ، ليس فيه من امتياز على غيره إلا ما فضل الله به عليه باختياره لتلك الرسالة السماوية واعطفائه لها ، وإلباسه اللباس النفسي والروح والجسدي الملائم لها ، دون أن يخرجه ذلك كله عن أن يكون إنساناً من الناس ، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق . !

القرآن وشخصية الرسول :

ولم تدع الشريعة الإسلامية تقرير بشرية الرسول وتوكيدها إلى الرسول وحده ، وإلى ما يقول عن نفسه من أنه إنسان قبل أن يكون رسولاً ، وأنه يحكم هذه الطبيعة يعيش في مجال الإنسانية . ويتحرك في محيطها . لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله !

لم تدع السريعة الإسلامية للرسول وحده أن يكشف لأصحابه عن هذه الحقيقة، بل جعل ذلك أيضاً وحياً من السماء، مستطوراً في كتابها المنزل على النبي . . حتى لا تترك سيلاً لتأول أن يتأول فيما يقول الرسول الكريم عن نفسه . . كأن يحسب هذا القول على سبيل التواضع من الرسول لربه ، والتخاضع في مقام العبودية لخالقه . . وهو في واقع الأمر حق لأمريته فيه ، وإن حمل معه ما حمل من الولاء والخضوع والتخاضع لله رب العالمين !

من أجل هذا تكررت في آيات الكتاب الصور التي تحدد شخصية الرسول، وتضعها في الإطار البشري ، الذي لا يسمح لأتباعه أن يخرجوه من هذا الإطار، وإن بلغ ما بلغ من جلال ، وكمال .

يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ، » (١) ، فالآية تده إلى الرسول أولاً ، ليعلم من نفسه أنه بشر ، وهو عالم فعلاً ، ولكن ليسكون ذلك تقريراً ، وتوكيداً لهذا العلم ، وتنتج ثانياً إلى من يعينهم أمر النبي من المؤمنين وغير المؤمنين ، ليعلموا أن هذا الإنسان الذي حمل بالسماء المحلى بالسكالات ، ليس إلا بشراً من البشر ، وإنساناً من الناس . .

ويقول سبحانه وتعالى لنبيه أيضاً : « قل سبحان ربي . هل كنت إلا بشراً رسولاً » (٢) . . وهذا القول الذي أمر الله نبيه أن يقوله إنما هو رد لما كانت تريد قريش منه ، ودفع لهذا الفهم الخاطئ لطبيعة النبي ، إذ حسبوا أن النبي إله قائم في الأرض يتصرف في الوجود كيف يشاء ، فجاءوا يطالبون النبي بما حكاها القرآن عنهم « وقالوا لنؤمن لك حتى تدخر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تصبوا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترفى في السماء » . وإن فزمن لرفيك حتى تنزل طلياً كتاباً فترؤه » ، قل سبحان ربي . . هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » ، لأنه بشر . .

(٢) سورة الإسراء آية ٩٣

(١) سورة المائدة آية ١٧٠

وكونه رسولا لا يخرج من البشرية ؛ ولا يطوع له أن يأتي بغير ما يرسل به ؛
ويوحى إليه ١ .

ولا يقف القرآن عند حد القول الصريح ببشرية الرسول ، بل يذهب إلى
أبعد من هذا فيقرر أن للرسول كل خصائص البشرية ، ومخلقاتها . إنه كسائر
الناس ، لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ، وأنه لا يهدي من
أحب ، ولا يملك الشفاعة إلا بإذن ربه ، وأنه يحزن . ويألم . ويضيق صدره .
وتقر عينه .

وهذه هي طبيعة الحياة البشرية ، وللرسول نصيبه منها .
يقول الله تعالى : « قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله ، ولو
كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء . . . إن أنا إلا نذير
وبشير أفوم يؤمنون » (١) . . . ويقول سبحانه : « إنك لاتهدي من أحببت ،
ولكن الله يهدي من يشاء » (٢) . . . ويقول سبحانه : « ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق
بما يمكرون » (٣) . . . ويقول عز من قائل : « واصبر نفسك مع الذين يدعون
ربهم بالهداء والشي يريدون رحمة ، ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ،
ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ؛ وانبع هواه وكان أمره فرطاً » (٤) . . .
وهذه كلها منازع بشرية ، تنهه إليها نفس الرسول ، كما تنهجه نفوس الناس ،
فيدعوه الله سبحانه إلى تجنبها ، والحذر منها ١ .

أما دور الرسول في مجال التطبيق العملي لتقرير بشريته بين أتباعه فهو كما قلنا
دور ممتد من أول بعثته إلى أن الحق بالرفيق الأعلى . . . وشواهدة تنظم حياة
الرسول كلها في هذه المرحلة العظيمة من حياته .

ولم نرض هنا بفرض مواقف الرسول الكريم في هذا الشأن ؛

١ - جاء أعران إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض شأنه ، فلما دأبوا ليتحدثوا إليه

(٤) - سورة القصص آية ٦ .
(٤١) - سورة الزمر آية ٢٨ .

(١) سورة الأعراف آية ١٨٨
(٣) سورة البقرة آية ١٢٧

اضطرب كيانه ؛ وتلعم لسانه ؛ لما أخذه من هبة الرسول وجلاله . . تلك الهيبة وذلك الحلال اللذين لم يبعثهما في نفس الاعرابي ماتبعت في النفوس أبهة الملك وصوله السلطان بما يحشد لها من حرس ؛ وحجاب ، وبما يقوم فيها من ألوان الترف ؛ وعجائب التحف ونواديرها — وإنما مبعث تلك الهيبة وذلك الجلال هو ما تشع به ذات الرسول الكريم من عظمة نفسية ، وصفاء روحى . . تسرى منها إلى من حوله موجات من النور العلوى . يحد لها الناس مساً أشبه بمس الكهرباء !

ويعود إلى ذلك الاعرابي ، فتجده بين يدي الرسول ، وقد علاه البهر ، وبلله العرق . . وإذا الرسول الكريم يبعث إليه نسمة ندية عطرة ، تشيع في كيانه الطمأنينة والسكينة ، ويسقيه من رحيق كلباته الطيبة ما ينهش روحه ، ويمسك أوصاله . فيقول له رسول الله ﷺ : هون عليك . . فإنى لست بملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ! . .

إنه إنسان من الناس ، ولد لأبوين كما يولد كل إنسان . . ثم هو — وإن كان ندياً — لم يبتعد عن الجماعة الإنسانية بما يتخذ الملوكة والباطرة من أقمعة الآبهة والسلطان التي تعزهم عن المجتمع الإنساني . . إنه ابن امرأة تأكل القديد .

٢ — وأخرج أبو داود في سننه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت . ثم أتى السقاية ، فقال : اسقوني . فقال له ابن عباس ألا نخوض له سوفا ؟ . فإن هذا يتناول منه الناس ! فقال صلوات الله وسلامه عليه : اسقوني مما يسرب الناس . 11 .

وكيف يعتمزل البى الناس ، ويعتمزل الحياة التي يحيونها وهو الطبيب الذي يعالج أدواءهم ، ويطلب علمهم ؟ وهل يعتمزل الطبيب مرضاه ؟ وهل يرضى الألب أن يكون في خير لا يصيب منه أبناؤه خطأ كحظة ؟

وهل الذين في ريب من رسول الله ، ومن رسالته أن يلقنوا عنه هذه الأحوال منه أيرأ ماذا كان يطلب بدعوى النبوة والرسالة إن لم يكن ليدأ بها ؟

وما المآرب التي قصد إليها ، وما النايات التي حققها ؟ أين المال الذي جمع ؟ وأين التاج الذي وضع على رأسه ، وأين متع الحياة التي تحف به ؟ وهل يدخل لإنسان في مثل هذه التجربة ، ويدعى مثل هذه الدعوى ، ويحمل فيها ألوان الغر والاذى ، ثم إذا استجاب الدار ، لدعوته ، وداروا حول مشيئته ، وساقوا إليه مغنم النصر — فنفض يديه من كل هذا ، وعاش على الكفاف من كل شيء . . ؟ في المطعم ، والمبلس ، والمسكن . . ؟ فكانت حجراته التي يأوى إليها حجارة مرصوة . . سقفها من الجريد . . لا تزيد على أى كوخ أو خيمة . . وكان أكثر طعامه خبز الشعير ، وإدامه الخل . . لا يشبع منهما . . وقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول : « إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نسترقد نارا ، إن هو إلا التمر والماء . » (١) . . وعنها رضى الله عنها قالت : « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله . » ١

وعنها رضى الله عنها قالت : « ولقد مات — أى النبي — وما عندي شيء يأكله ذى كبد إلا شطر شعير في رفلى . »

وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاويا لا يجدون عشاء . » ١

وعن أنس رضى الله عنه قال : « ماأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا فى سكرجه (٢) ، ولا خبز له مرقى ، ولا رأى ساة سميطا (٣) قط . »

فهذا طعامه صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح الله له تلك الفتوحات التي شملت الجزيرة العربية كلها . طعام غليظ خشن ، وهو مع غلظه وحشوته قليل لا يشبع .

ولإذا جلس صلى الله عليه وسلم للكل جلس مستوفرا على الأرض ،

(١) الشفا جزءه ص ١٩ هـ

(٢) السكرجة : الصفة التي يوصف فيها الطعام هـ

(٣) الساة : السميط التي تشوى بالمار هـ

لا ينصب له خوان ، ولا يتكئ على أريكته أو يحوها . وكان يقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » (١) .

وأما فرشته الذى ينام عليه فكان أدمأ حشوه ليف ، وعن حنيفة رضى الله عنها قالت : كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم مسحاً (٢) نثنيه نثيتين ، فينام عليه . فثيابه له ليلة بأربع ، فلما أصبح قال : ما فرشتهم إلى الليلة ؟ فذكرنا ذلك له ، فقال : ردوه بحاله ، فإن وطأته منعته الليلة صلاتي » !

لأنه نبي صاحب دعوة ، وليس طالب ملك ! ولا صاحب دنيا ... فلقد سيقته إليه الدنيا بحدافيرها ، وترادفت عليه ، فتوحها ، إلى أن توفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى في نفقة عياله .. وكان يدعو ويقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

٣ — قالت أم العلاء الأنصارية :

لما قدم المهاجرون المدينة .. اقترعت الأنصار على سكنائهم ، فصار لنا عثمان ابن مظعون في السكنى ! فرض .. ثم توفى .. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل .. فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب .. فشهادتي أن قد أكرمك الله ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ قالت : لا — والله لا أدري ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد أتاه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير .. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ، ولا بكم ! (٣)

ولم نه صلوات الله وسلامه عليه — وإن يكن نبياً — بشر ، مقيد بقيود البشرية .. لا يعلم الغيب ، ولا يدري ما يفعل به ولا يغيره .. فذلك مما استأثر الله سبحانه وتعالى به .. « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » (٤) .

٤ — عن عمر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تظروني كما أظرت النصارى ابن مريم .. إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

(٢) المسح : السكساء من الشعر .

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٥

(١) الشفا جزء ١ ص ٦٦ .

(٣) النبوات لابن تيمية ص ٩

وعن أنس رضى الله عنه : إن كانت الأمة من إمام أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتطلق به حيث شاءت ، حتى تقضى حاجتها .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاشتري سراويل ، وقال للوزان زن وأرجع . فوثب إلى يد النبي صلى الله عليه وسلم وقبلها ، فغضب النبي يده وقال : هذا تفعله إلا عاجم بملوكها ، ولست بك . إنما أنا رجل منكم .. ثم أخذ السراويل ، فذهبت لأحملها ، فقال : صاحب الشيء أحق بشيئيه أن يحمله . (١)

أفببق بعد هذه التربية القولية والعملية من رسول الله لأصحابه ولاتباعه ما يدع فى نفوسهم إثارة من شك فى بشرية النبي ؟ وأنه عبد الله ، ورسول الله ؟ كلا ، ثم كلا .

ما شهدت به الأعداء :

ولسكنرة ماكان فى حياة الرسول من صور التواضع ، ومن المواقف الكاشفة عن طبيعته البشرية — لم يستطع الدارسون لسيرته . من غير المسلمين — أن يخفوا هذه الحقيقة ، على رغم ما لديهم من استعداد طبيعى للبحث عن مواطن الضعف فى تلك السيرة الطيبة ، والتوصل إلى ذلك بأسمى الأسباب ! هذا إذا كان الباحث طالب حقيقة ، وقليل من هؤلاء من وقف موقف الحياد والإنصاف من سيرة النبي . أما من كان من أولئك الباحثين من فحسب نفسه للنيل من رسول الإسلام فإنه يتعمى عن الحقائق ، ويقف متسترا فى طلال الإنكوار والريب التى يسوقها مساق اللمز والنمز !

نقول إن المؤرخين من غير المسلمين — منصفين أو مغرضين — لم يستطيعوا أن يخفوا ماكان فى سيرة النبي . من مواقفه التى كشف بها عن بشريته ، وعمل على إزاحة التعورات التى كانت ترتفع لأنظار أصحابه ، مما تفيض به مشاعرهم من

عواطف الإجلال والتعظيم الممزوجين بالولاء الخصب ، والحب الخالص لذات
الرسول وصفاته !

١ - فهذا العالم الفيلسوف الإنجليزي ، ول ديورانت ، يقول : « ومع اصطلاح
النبي بهذه الشؤون كلها - أى القسام بأمر الدعوة وتنظيم شؤون الحرب والسلام في
المجتمع الإسلامى - فقد كان حجم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس ، وكثيراً
ما كان يعترف أن ثمة أموراً لا يعرفها ، ويحتاج على الذين يظنونه أكثر من
إنسان يجرى عليه ما جرى على الناس جميعاً . من موت ، ووقوع في الخطأ .. ولم
يدع في يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات . » (١) .
هذه قوله رجل على غير دين الإسلام ، لا يحمل عاطفة تعطفه على هذا الدين ،
ولأن يكن في نفسه شيء فهو أن يجله المزامر والعثرات !

فلقد عز عليه أن تغفل منه هذه الحقيقة ، وأن تغلبه شواهد التاريخ الصادقة عن
أن يغفل هو منها - عز عليه هذا ، فألقى على تلك الحقيقة التي قررها مرغماً
أنفاساً من صدره المريض ، يتصاعد منها دخان خبيث يخلط بين الحق والباطل ،
ويجمع بين العسل والسقم . فيقول بعد هذا القول الذى أرغمه الواقع التاريخى على
قوله - يقول : لسكرته - أى النبى - على هذا لم يكن يستسكف أن يستعين
بالوحى فى الأغراض البشرية والشخصية كما حدث حين نزل الوحى مؤيداً
زواجه من زوجة زيد متبناه » (٢) .

وعجيب من مثل هذا العالم الفيلسوف أن يسمح لعقله بهذا العبث بالمسطق
والخروج على المثل القائل : « إذا كنت كذوباً فممكن ذكورك » !
لأنه يعترف بأن « محمدآ » نبي . .

هل يتفق ووظيفة النبى أن يكذب على الله ؟ وأن يصطنع وحياً يوحيه إلى
نفسه ، ثم ينسبه إلى الله ، ليعتمد به حاجة من حاجات نفسه ، وينسج به هوى
من أهوائه ؟

(١) قصة الحضارة الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ٤٣ .

(٢) قصة الحضارة الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ٤٣ .

أمن يفعل هذا يكون نبياً حقاً .. ؟ وهل يكون رسول السماء خائفاً لرسالة السماء ؟ إن هذا اتهم الله — سبحانه — إذ لم يكن الرجل الذى اختاره لحمل رسالته إلى الناس بالرجل الأمين الصالح لأداء هذه المهمة .. وسو. اختيار الرسول يلقي اللائمة كلها على من أرسله !

هذا ما يجرى عليه منطق الناس فى الحياة — فهل يصح أن يكون من كمال الإنسان حسن اختياره لمن يودى عنه أمراً من الأمور، ثم لا يكون هذا السكال لله فى اختياره لأنبيائه ورسله ؟

إن القول بأن أنبياء الله ورسله يقولون على الله ... فيه تجديد على الله وكفر به ! وأهون من هذا أن يشتم النبى بأفه غير نبى . فهذه تهمة ، وإن كانت شنيعة ، إلا أنها دون تلك التهمة التى تقر النبى فى مكانه من النبوة ، ثم ترميه بالكذب على الله ، والافتراء على ما أرسل به : « ومن أظلم مما افتترى على الله كذباً .. أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء » (١) .

إن المنطق الذى يقبل^٣ مثل هذا القول فى شأن الانبياء ، منطق مقابو ، يتأذى منه العقل ويتقرز منه ...

٢ — وهناك عالم فيلسوف آخر كان له فى هذا الجانب من حياة الرسول نظرة أشمل وأعمق من نظرة المؤرخ العالم « ول ديورانت » .. كما كانت نظريته تلك أبعد من الهوى ، وأقرب إلى الحق من نظرة صاحبه ! إنه جوستاف جرونيباوم مؤلف كتاب « حضارة الإسلام » .. فقد وقف وقفة طويلة عند تلك القصص الكثيرة التى أدخلها القصاص ، ورواة الأخبار على سيرة الرسول ، وكشف عن تلك الدوافع التى تسجت من أجلها تلك القصص ..

فهو يعترف أولاً بأن حياة الرجل العظيم تنطوى على شرارة إلهية ، تجعل لصاحبها شأنًا فى نظر أصحابه ، ومكانًا من قلوبهم .. وأن الأعمال العظيمة التى

تجرى على يديه تطلق في الداس أعمدة الخيال ليمسحوا منها غروباً من القصص التي لا يمسكها منطق ، ولا يحكمها عقل ..

يقول « جرونيباوم » : « إن انتلوا حياه الرجل العظيم على قدر من الشرارة الإلهية أقوى بأساً مما لدى إخوانه الضعفاء لآية حافاة بالمعانى للعالم كافة !

» ذلك أن رسالته تؤذن بيده مرحلة جديدة في قصة هذا العالم .

« ولا شك أن القوى التي ينك إساها ستكون رهن إشارته ، وستكون أهم أدوار مقامه في هذه الأرض موضع الترحاب أو المحاكاة من العالم الذي كان مجرد ظهوره فيه ذا أثر في حظه ومجراه !

« وإن القلوب الساذجة الغفل لتروح تنسج الخوارق وشياً تحيط به حياة الرجل المزله العظيم ، غافلة عن أن هذه الخوارق تغض من شأن النصر الإنساني الذي يحرزه بطلم (١) » .

وطبيعاً أن « جرونيباوم » يتخذ من مدلول كلمة « العظيم » مرقى يرقى به إلى الحديث عن العظمة السكامة في النبي ... فهو إنما يناقش هنا قضية المعجزات التي تنسب إلى نبي الإسلام .

واللفتة الذكية البارة من « جرونيباوم » هنا هي إشارته إلى غفلة أولئك الذين يرون أن عظمة النبي إنما تتجلى في كثرة الخوارق والمعجزات التي كانت بين يديه — وهم في الواقع إنما ينتقصون من كفاح النبي ، ويقطعون الطريق على هذا الكفاح الإنساني أن يتلبس بالحياة ويتق بأحداثها ، وينتصر عليها ... لأنه حينئذ انتصار يفوح من عرق الجهد الشخصي ، وهو جهد يحسب له ، وينسب إليه .. أما الخوارق والمعجزات ، فلا يملك الرسول من أمرها شيئاً ، وإنما هي أمانة تلقاها من السماء وأداها للناس ١١ .

ثم ينتقل « جرونيباوم » إلى موقف النبي من تلك الموجات التقديسية التي كانت تتدافع في عقول أصحابه وقلوبهم .. فيقول :

« حرص محمد مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه بفضل من الله ، لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولا له تعالى . . »

« وفيما عدا هذه الخصوصية — خصوصية اختياره للرسالة — ليس ثمة شيء يفرق بينه وبين إخوانه من البشر . »

« ولأن علمه بالغيب لمحدود بما يريد الله أن يعلمه لإياه . »

« فكل ما لم يرشده لإليه الوحي فأمر قد يضل فيه السبيل . »

« وليس له بعمل المعجزات يدان . »

« وكلما لج أعداؤه في تحديهم لإياه بأن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أب ذلك ، غير عانى بسخرية الساخرين ، وخيبة أمل المتشككين . . ذلك أن رسالته نفسها هي آيته ، وأمارته ! :

« وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ؟ قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . (١) ... »

ثم يعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

« على أن حصافة « محمد » لم تجده نفعا . . فهما أنكر لم يكن إنكاره ليقنع العرب أنه بشر مثلهم ، تعوزه البصيرة الخارقة التي تنفذ حجب الغيب وآفاق المستقبل . »

« ولم يكذبته على وفاته طويل زمن حتى ثار الخيال الشعبي متغلبا على نصوص الوحي نفسها ، ومغطيا على الاحتجاجات الفاترة التي أبداها ذوو الضمير الحى من الفقهاء — وراح يتقص من جديد سيرة النبي ، واضعا لإياه في صورة الساحر القوى II

« ولقد رانت عليهم تلك الرغبة الساذجة ، تعظيم البطل برفعه فوق درجة الإنسانية إلى أقصى حد مستطاع ، وظاهرهما على ذلك التقليد الهريش الذى يؤكّد من أهميته الشخصية الفذة ، بما ينسب إليها من تعاون العالم الروحى كله وإياها... »

ثم يعرض المؤلف صوراً من القصص التى يرى أنها أضيفت إلى السيرة النبوية لترفع من شأن النبى - كما توهم واضعوها .

وهنا يكشف عن العناصر الغريبة التى دخلت فى تاريخ السيرة وأضيفت إليها . فيقول : « وثم أفاخيص عن معجزات زرداشتية ، وهيلينستية ، وبوذية ، تنسب بمنتهى الحرية إلى شخص الرسول ! »

ثم يقول : « وإن اللهفة على تمحيّد رسول الله ، وإخراجه عن طن طبيعة البشر لأمر كانت تحركه فى مدارج معينة تلك النزعة المعنوية فى الناس عامة ، بل فى نفس محمد نفسه (٩٩) فى إظهاره فى صورة النبى المطابق لسمة الأنبياء كافة ! »

« فكل ما أثبتت به دعاوى الرسل يعاد قوله فى « محمد » !! فليس يكفى أن تسند له أعماله ورسالاته ، بل لابد من تسويغ الإيمان برسالاته ، وذلك على الأقل بإظهاره فى قوة الأنبياء الآخرين المرهوبين . »

ثم يقول : « لأنه من المحتمل أن هذه الأساطير كانت مقصورة فى بادئ الأمر على غير المؤمنين ، وأن القصاص المحترف كان المسئول الأول عن صوغها ونشرها . ولكن بعد فترة وجيزة شرع جملة الفقهاء يحسون الدلائل النبوية هذه جمعاً منظماً ! »

« كان الفقهاء يبدعون قوين . فإن الخيال الشعري كان يصر على اعتبار رسول الله نبياً صاحب معجزات .. ثم إن إجماع المؤمنين على المطالبة بالاعتراف بالعناصر الإعجازية فى حياة « محمد » كان كافياً فى حد ذاته لحل الفقهاء على الاستجابة لهم .. »

« إلا أن التحدى الميحي الذى كان يطالب المسلمين بتقديم الشواهد الخارقة على نبوة « محمد » اضطر هؤلاء الفقهاء إلى استجابة سريعة ! »

وقد استمر ضجيج المجادلين المسيحيين عفيفاً لا تهدأ له مفارقة حتى بعد أن أسرف المسلمون في الاستجابة لتلك المطالب المسيحية (١) .

وهذا الكلام كلام رجل منصف إلى حد ما ، فقد كشف عن طبيعة هذا القصص الخرافي الذي دخل به القصاص والوضاع على سيرة الرسول ، كما كشف عن تلك الدوافع التي اندفعت منها هذه القصص في صورها الخيالية المبهلة !

على أن « جرونيدياوم » لم يرض لنفسه أن تسخو بهذه الحقيقة ، وأن تقول كلمة الحق ، ولو كانت مرة . . فرمى تلك الرمية الخبيثة الماكرة خلال كلمات مشرقة يدعمها الحق ، ويزينها المنطق حتى لتكاد هذه الرمية تمر دون أن ينتبه لها أحد . . .

فيقول فيما نقلنا عنه آنفاً : « وإن اللهقة على تمجيد رسول الله وإخراجه عن طبيعة البشر لأمر كانت نحركه في مدارج معينة تلك النزعة المطوية في الناس عامة بل في نفس « محمد » نفسه . في إظهاره في صورة النبي المطابق لسنة الأنبياء كافة ! !

« بل في نفس محمد نفسه ، ! .

كذب مفضوح بشهادة أهله . فقد قرر المؤلف من قبل أن النبي كان حريصاً أشد الحرص « على أن يؤكد للناس مدة رسالته أنه بشر . ذو طبيعة إنسانية . . وأنه بفضل من الله لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولاً لله تعالى . وكالبج أعداؤه تحديهم إياه في أن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أبي ذلك ، غير عابئ بسخرية الساخرين . . ولا خيفة أهل المتشككين) . . هذا ما يقره المؤلف ، فهل يتفق مع هذا القول أن يقول : إن في نفس « محمد » نزعة تنزع به إلى تمجيد نفسه . وإخراجه عن طبيعة البشر ؟

أهذا من ذلك ؟ كلا . فشتان بين الحق والباطل . وبين الرأي والهوى .

وما نحسب المؤلف كان على غير معرفة كاملة بسيرة الرسول حتى نجد له

(١) حضارة الإسلام ص ١٢٤ .

العذر لهذا الخلط المبین . . فالعلم الذى بين يدي الرجل من تلك السيرة الكريمة قد أتاح له أن يبني آراء سديدة ، وأن يصدر أحكاماً عادلة . . . ولكن الذى أتى منه هذا الكاتب أنه لم ينظر إلى الرسول على أنه مبعوث السماء ، وترجمان الملائ الأعلى ، وإنما نظر إليه في حدود الإنسان الذى لا صلة له بالسماء ، وأن في هذا الإنسان جانباً من جوانب العظمة التى تبرز في كثير من الناس على اختلاف الأمم والأزمان .

ولو نظر هذا العالم الكبير إلى « محمد » على أنه نبي . لما رمى هذه الرمية الطائسة ، التى لا تستند إلى شيء من الواقع الذى يعلمه علم اليقين من سيرة الرسول والذى لم يستطع أن يخفيه ، فقرر في أول هذا الحديث أن « محمداً » قد حرص مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه ينزل من الله لا يستحقه ، ولا يعرف له سبب اختيار رسولاً له تعالى . . فكيف يتفق أول هذا الحديث مع آخره ؟ لأنه لم يضحج حقاً قديماً على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام لم يستطع هذا العالم الكبير أن يحبس في صدره فتملت منه عن قصد أو غير قصد .

إن أعظم العظمة في « محمد » أنه بشر ، وأنه في ثوب البشريّة هذا استطاع أن يعالج على الضعف الإنساني ، وأن يقهر ظلام الطين الذى خلق الإنسان منه ، وأن يحيل هذا الظلام نوراً متتابعاً يضيء الوجود ، ويكشف للناس الطريق إلى السماء . . إلى عالم الحق ، إلى الله رب العالمين .

إن بشريّة « محمد » وما بلغ بها الله من كمال وجلال لشهادة قائمة بين الناس ، تخدمهم أطيب الحديث وأصدقها عن الكمال والجلال المودع في الإنسانية ، والمنطوى في كيانتها ، وإن الطريق لمفتوح أمام الإنسان إلى التحليل في آفاق الكمال إلى المآل النهائي . على قدر ما يبذل من جهد للاستعلاء على نزعاته وأهوائه . . وأنه بقدر ما يمد يده إلى السماء ، وبقدر ما يفتح قلبه لأنوار الحق فيها ، يكون ارتفاعه وعلوه في عالم التراب .

الباب العاشر

المرأة في حياة النبي

اتخذ أعداء الإسلام من تعدد زوجات النبي ، ومن تعدد الزواج في الإسلام مطعنا على هذا الدين ، واعتباره شريعة تركي مطالب الجسد البهيمية . ولا تنفى بالجانب الروحي والنفسي في الإنسان !

ويصور أعداء الإسلام الشريعة الإسلامية من خلال هذه النظرة إلى تعدد الزواج فيه — بأنه دين جماعة من الأعراب الثائمين في الصحراء ، المحرومين من طبيبات الحياة ، فكان من تدبير هذه الشريعة — لكي تحذبهم إليها ، وتقريهم بقبولها — أن استجابت لأحلامهم التي كانت تطرق خواطرهم في اليقظة وتظهر على مسرح حياتهم في النوم ، فجعلت من مقرراتها تأويل هذه الأحلام بإطلاق سراح هذه الخواطر ، وإرخاء العنان لها لترعى حيث تشاء ، مما يندى شهوات الجسد ، وينبع جوعتها !

فهناك النساء . . مثنى وثلاث ورباع . . للمسلم أن يتزوج أربعا ، فأربعا يخلى فريقا ، ويمسك فريقا . . إلى غير حد محدود !

وهناك ألوان الطعام ، والمشتريات التي تمد المعدة بأوقود الذي يحيل هذا الطعام إلى طاقات تستهلك في معركة الحياة مع المرأة !!

فإذا لم يجد المسلم بين يديه هذه المتع الجسدية كما تصورها له أحلامه وخواطره في هذه الدنيا ، أحلامه الإسلام إلى وجود آخر يجد فيه تلك المتع على صورة أتم وأوفى ، حيث حفات الخلد في الحياة الآخرة ، وحيث النعيم المقيم فيها ، وحيث الحور الولدان لمن يريد ، وحيث هناك الأنهار من لم يتغير طعمه ، ومن غسل مصفى ، ومن خمر لذة للتناوب !

هذا هو المفهوم الذي يحاول أعداء الشريعة الإسلامية أن يظهروها به ويعرضوها في الناس على صورته .

وهم يتخذون من نبي الإسلام ، والقائم على شريعته غرضاً منصوباً لسبامهم الطائشة .. حين يعرضون من سيرة الرسول هذا العدد الكثير من النساء اللاتي تزوج بهن ، ويعدون تجاوز النبي عن العدد الذي أباحتها الشريعة للمسلم ، وبإمساكه تسع نساء أو عشر أمهات ، في حين أنه لا يجوز للمسلم أن يمسك أكثر من أربع - يعدون هذا التجاوز عمالة من النساء له ، إن كان ذلك بتدبير من النساء ، أو بإشراك لهن فيه ، وترضياً لها إن كانت شريعته من عمله ! ويقول أصحاب هذا القول : إن النبي جعل قانون شريعته بحيث يخضع لمطالبه ، ويستجيب لحاجته في هذا الباب .. !

فتراهم يقولون مثلاً :

« إن النبي حين يرى هذا العدد الكثير من النساء في حوزته ، ويرى أبصار المسلمين ، وغير المسلمين تتجه إليهن - حين يرى ذلك يحسب بقرآن يحرم على المسلمين أن يدخلوا بيته : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث .. إن ذلكم كان يؤذي النبي ، فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب .. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً » (١) .

ثم من جهة أخرى يقرأ على نسائه قرآناً يفرض عليهن فيه الحجاب : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفًا ، وقرن في بيوتكن ولا تهرجن بينهم » (٢) .

ثم من جهة ثالثة يقرأنا يبيح لنفسه ما لا يباح لغيره نبي ثم على شريعته :

(٢) سورة الأحزاب : ٣٣ - ٣٤ .

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

« يا أيها النبي إنا أحللمنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك
« ما أفاء الله عليك . وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات
خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد
النبي أن يستنكحها ، خالصة ، لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم
في أزواجهم ، وما ملكت أيماهم — لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا
رحيما ، توجي من تشاء منهم ، وتؤوي إليك من تشاء ، ومن ابتغيت من عزلت
فلا جناح عليك ، ذلك أدنى أن تقر أعينهن ، ولا يحزن ، ويرضين بما آتيتهن
كلهن ، والله يعلم ما في قلوبكم ، وكان الله عليا حكيما » (١)

كل هذا ، الذي يستنزهه محمد من قرآن ، أو يجيء به من عنده ، إنما ليبلغ
به حاجة نفسه من النساء ، وليتبع شهوته منهن !

هذا هو نبي الإسلام في تصور المستشرقين له ، وفي نظر من نظر إلى الإسلام
من الغربيين بوجه عام ..

لأنهم لا يرون حياة النبي إلا في جو « الحريم » ، ولا تقع أبصارهم من سيرته
إلا على هذا الأفق ، لا يبرحه أبدا . ولا يتحول عنه إلى غاية من غايات الحياة .
أما الرسالة وأعباؤها . وأما الدفاع عن المجتمع الإسلامي وحمايته .
وأما سياسة الحرب والسلم لهذا المجتمع . فذلك كله من وراء ظهر « محمد » ومن
نافذة الحياة عنده .. هذا ما يقول به غير المسلمين ممن يرصدون حركات الإسلام
ويترقبون الدوائر به !

أما مقطع الحق في هذه الآراء ، فلا نحب أن نفرده فيه بالحكم لها أو عليها
كما لا نحب أن نقول فيها قولاً قبل أن نضع لإزاءها الحقائق التاريخية النابتة ،
وقبل أن نشهد واقع الحياة على مصامين هذه الآراء ، وما فيها من عناصر التجاوب
مع الطبيعة البشرية ، وتفاعلها مع الزمن ،

الرجل والمرأة :

الصلة بين الرجل والمرأة أمر طبيعي ، تدعو إليه الحياة . وتنادى به غريزة بقاء النوع . تلك الغريزة التي تملأ كيان كل حي ، وتحمله على أن يستجيب لها . وينتهى إلى الغاية التي ترمى إليها ..

وأى خلل في هذه الغريزة يكون من أثره خمودها ، أو القضاء عليها — هو خروج على الطبيعة ، وانحراف عن الوضع السليم للكائن الحي فيها ..

فليس مما يعيب إنساناً من الناس أن يكون على الصحة والسلامة ، وأن تكون غرائزه الحيوية ، أو الحيوانية عاملة ، تؤدي وظائفها على الوجه الذي يحفظ وجوده في ذاته ، وفي نوعه جميعاً .

أيعيب الإنسان أن يأكل ويشرب لأن الحيوان يأكل ويشرب ؟

أيعيب الإنسان أن ينام لأن الحيوان ينام ؟

أيعيب الرجل أن يتصل بالمرأة لأن الحيوان متصل ذكره بإنثاه ؟

كلا .. فإن بقاء الناس في الحياة مرتبط بما يحفظ هذه الحياة التي هي جسد يتمتذى ، ويتناسل ، كما تمتذى وتتناسل الكائنات الحية جميعاً ..

نعم .. إن الإنسان يفارق الحيوان في أن له وراء هذه الحياة الحيوانية حيوات أخرى عقلية ، وروحية ، ونفسية !

ولا بقاء ، أو بمعنى آخر لاجود للحياة العقلية والروحية والنفسية لإنسان من الناس إلا في إطار هذه الحياة الحيوانية . التي من مستلزمات وجودها وبقائها الغذاء والتناسل !

وقد يقول المتفلسفة أو الروحانيون .. إن الإنسان لكي يكون إنساناً ينبغي أن يوهى الصلة بينه وبين الحياة الحيوانية ، بمعنى أن يحتزى من الحياة الحيوانية بالقدر الذي يحفظ حياته وحسب ، وألا يتجاوز ذلك بحال أبداً ، فإن أى وقود (م ٢٢ — البى محمد)

تد به الإنسان جسده . ويميزه به شهواته هو تبخير الجانِب كبير من حيوانه العقلية والروحية والنفسية ، وهو تبيد لتلك الحيوات ، وإضماف لها ..

وفي هذا القول حق ، ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن التحيف على حاجة الجسد ومطالبه ، والمصادمة العنيفة لعرائزه ورغباته ، هو في الجانب المقابل للإفراط في الشهوات ، وتخمّة الجسد بإشباعها .. كلا الأمرين غير محمود .. وخير الأمور أوسطها ، .. فلا الإفراط محمود النتائج ، ولا التفريط مأمون العواقب !

ولهذا كان من شريعة الإسلام القصد في كل شيء .. ومنه القصد في مطالب الحسد وحاجاته .. « وكأوا واشربوا . ولا تسرفوا .. » لأنه لا يجب المسرفين . وقد ذم الله الكافرين الذين لا يحبون إلا لأجسادهم ، ولا يتفكرون في خلق السموات والأرض . ولا يرجون حياة وراء هذه الحياة .. كل همهم أن تنال أيديهم ما يقدر عليهم من حياتهم الدنيا ، والذين كفروا ، يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم .. كما كان من تدبير الإسلام أنه حرم الرهبانية ، فقال نبي الإسلام : « لا رهبانية في الإسلام . » !

النبي البشر :

ونبي الإسلام بشر ، لم يقل هو أو لم يقل عنه أتباعه ، أو لم يتحدث القرآن الذي نزل عليه - إنه غير بشر . بل إنه يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، وكونه رسول الله ، ومصطفاه لرسالته لم يخرج ذلك عن طبيعة البشر ، ولم يخله من ضرورات الحياة البشرية .. فهو يجوع ، ويظمأ ، ويشبع ، ويروي ، ويتزوج ، ويام ، ويستيقظ ، ويحزن ، ويسر ، ويمأ ، ويشكو .. ويبول ، ويتغوط .. إلى غير ذلك مما هو من شأن الناس ، في هذه الحياة !

ولإذن فزواج النبي شأنه شأن كل مطلب من مطالب الحياة ، وضرورتها عند الناس ، فليس بدعاً إذن أن يتزوج ، وأن تكون له زوج وولد !

فالزواج في الإسلام — كما هو في الحياة — شريعة من شرائع هذا الدين ،

وسنة من سنه ، كما هو سنة من سنن الحياة ، وشريعة من شرائعها . لا يعدل عنه إلا جائر ، ولا يزهد فيه إلا معتل سقيم !

يقول النبي الكريم : النكاح سنن ، فمن رغب عن سنن ، فليس مني ، !

وهنا اعتراض لا بد منه ؛ وهو أن الذين أرادوا أن ينالوا من فبى الإسلام وأن يشوشوا على شريعته لم يقفوا عند زواجه مجرد الزواج ، وإنما كانت وقفهم وتطاولهم عند هذا العدد الكثير من الزوجات اللائى تزوج بهن الرسول ، من ثيبات وأبكارا ، ومن أجاس وألوان .

فإذا العدد الكثير من الزوجات المختلفات سنناً ، ولوناً ، وجنساً ، ماذا كانت غاية النبي منه إلا المتعة ، وإلا الإسراف الشديد فى هذه المتعة ؟ وطاهر الأمر يعطى لهذا القول شيئاً من المنطق الذى يقيمه على تلك الصورة ، ويلبسه لباس القبول والتسليم .

إنسان يضم إلى بيته اثنتى عشرة زوجة ، فيهن غير واحدة من ذوات الجمال والشباب . . ثم ماذا وراء ذلك إلا انتمتع بهن ، ووصل حياته بحياتهن ؟ وماذا يقال عن مثل هذا الإنسان إلا أنه مزواج معلم ، وأنه زير نساء ، وأسير شهوة ؟

وماذا ينبى لإنسان من متحه آخر فى الحياة ، يسكون له فيه شأن ومكان بعد أن صرف وقته كله . وجهده كله فى عالم الحريم . ودنيا النساء ؟

وهذا الظاهر الذى يضع على أفواه الواقعين فى سيرة النبي هذه المقولات الزائفة — يخفى وراءه الحقيقة التى تقوم وراء هذا الظاهر شائخة ، مشرقة ، واضحة ، حتى ليسكون هذا الظاهر بمنزلة الظل الواقع تحت قدمى الإنسان فى رابعة النهار .

الحقيقة ، والظل :

والذى يعنى عن هذه الحقيقة ، وينتج عينيه على الظل المرتسم منها ، لا يمسك من الحق بشيء ، ولا يستدل على الحقيقة بدليل . . .

وكيف تقول عن إنسان إنه إنسان من صفته كذا ، وكذا ، وأنت لا تنظر

منه إلا إلى ظله الملقى على الأرض ؟ وكيف تأخذ من هذا الظل صفاته التي
تحدد شخصيته ، وتحدث عن ملاحظه ؟ إن موقف الذين نظروا في سيرة الرسول
من غير المسلمين لم يكن أعدل من هذا الموقف الذي يقفه من ظل لإنسان من
يريد أن يتعرف على صفات هذا الإنسان . . وهم من أجل هذا لم يروا محمداً
النبي ، وهم ينظرون في سيرته ، وإنما رأوا سواداً حسيوه سواد إنسان !

وهم من أجل هذا أيضاً راحوا يلتقون على هذا السواد أحكاماً مختلفة مضطربة ،
ليس فيها من الحق شيء ، وليس فيها من واقع أمره كثير أو قليل !

ومن عجب أن يشمل كثير من المسلمين بهذه النظرات الخاطئة ، وأن
يحرفهم الخناس فيبادروا إلى خوض المعركة في هذا المستوى المنحدر في منخفضات
التضليل ، ومتاهات الخداع !

فزواج النبي بأكثر من امرأة وقد ذهب به أعداء الإسلام هذا المذهب من
التشنيع والتضليل ، ولم يحتسبوا فيه إلى عقل ، أو ضمير . بل استجابوا لنوازع
السكرامية والحقده — هذا الزواج وإن يكن ذهب به أعداء الإسلام — هذا
المذهب . فإننا نحن المسلمين . وأعني أولئك الذين تصدوا للرد على هؤلاء
الطاعنين — لم نحسن الرد على هذا التشنيع . ولم نقل ما ينبغي أن يقال من حق
في هذا الأمر . . إذ لم ننظر إليه في واقعه مجرداً عن هذا التصوير الخاطيء الذي
صوره الخصوم به ، ولم نخرجه عن هذا الإطار المصطنع الذي احتجزوه فيه ،
فاندفعنا وراء هذه التصورات الخاطئة ، وعيننا بالرد عليها بما يشبه أسلوب
المخالفة في قضايا المنطق . . فإذا قال الخصم هذا ليل ، قلنا هذا نهار . وإذا قال
هذا الشيء أسود ، قلنا إنه أبيض . . نقول ذلك مجرداً أن القائل بهذا معروف لنا
مقدماً بأنه لا يقول في الإسلام وفي نبي الإسلام إلا مقولات الحقائق وأضدادها ،
وهذا الإحساس المتسلط على المسلمين من جهة غير المسلمين يجعل الذين ينتصبون
منا للرد على مقولات أعداء الإسلام لا يكلفون أنفسهم أدنى جهد في هذا .
ولمّا حسبهم أن يأتوا بقلب الصورة التي جاء بها الخصم . لتكون هي صورة
الحق عندنا ، الذي نرضى عنه ، ونسعد به .

وقد عرفنا في مواقف كثيرة من قبل أن حصوم الإسلام لا يدمبون هذا المذهب الساذج في المحرم على حقائق الإسلام . . لأنهم لا يقبلونها هكنا على هذا الوجه المكشوف ، بل لأنهم يرون الواقع الإسلامى في صورته التى يعرفها المسلمون ولا ينكرونها ، ثم يسلطون على هذه الصورة — فى حرص وحذر — سحباً رقيقة ماكرة لا تكاد ترى ، تحمل فى طياتها ألواناً متممة ، تتكاتف شيئاً فشيئاً حتى تلمس معالم الحقيقة دون أن يتنبه لذلك أحد ، إلا بعد أن يقضى الأمر وتقوح رائحة الكذب والافتراء !

وفى موقفنا نحن المسلمين من زواح البى لم يكن لنذهب إلى أبعد من هذا المذهب الذى أشرفنا إليه وهو أن نلقى الخصم بشد ما يقول به . . وكفى ! !

ومثل هذا الأسلوب لا يفتح الخصم ، ولا يخدم الحقيقة . . لأنه لا يقوم إلا على أكثر من التماس الادعاءات التى يلقى بها إلى الخصم فى مقابل ادعاءاته . . سواء أ كان ذلك مما يقتضيه الواقع ، ويتطلبه الحال ، أم كان مما حكة ونكفأ . .

وفى هذه القضية بالذات وقع أكثر علمائنا فى هذا ، وتورطوا فيه . .

فإذا قال أعداء الإسلام : إن « محمداً » قد ركبته شهوة طاغية فخر المرأة فراح يتزوج الواحدة بعد الأخرى حتى بلغ بساؤه اثنتى عشرة زوجة — كان ردنا على هذا فى كثير من الأحيان لا يتجاوز النظر إلى زوجات النبى ، ووصفهم جميعاً — عدا واحدة أو اثنتين موضع المحاللات على المعاش ، اللأى لا يصلح للرجال ، وإن صليت منهن واحدة أو أكثر فقد كافت والنبي عنها فى شغل ساعل بالدعوة والبقاء الأعباء الثقيل ، ومواجهة الأحداث المبهولة التى جاءت من قبل أعداء دعوته ، ثم باشتغاله بالدفاع عن المجتمع الإسلامى وملاقة أعدائه فى ميادين القتال ، ثم فى القيام على تربية المسلمين ، وشرح مبادئ الشريعة لهم . . وهكذا . .

وهذا دفاع حق ، ومقبول بلاشك . . ولكننه إن أَرْضَى الحقيقة ، ورصى عنه المسلمون فإنه لن يجد مقنعاً عند غير المسلمين . . بل وعند بعض المسلمين !

فلقد غفل هؤلاء المحامون عن حياة النبي قبل البعثة . وقبل أن يحمل هذا العبء الثقيل ، الذى نذبه السماء له ، وشغلته به !
فإذا كانت حياة النبي قبل البعثة ، وقبل حمل أعباء الدعوة . . فى عهد الشباب والشباب حيث يشتد سلطان الشهوة ويبلغ غايته فى الاستبداد والتحكم فى كيان الإنسان ؟؟

لابد أن يكون ، لمحمد ، شبابيه ، وفتاءه ، وما تدعو إليه دواعى الشباب والفتاء ! كان سليم البدن ، معافى من كل داء ، فكان من السلامة والصحة والقوة بحيث لا يرى إلا على أتم صورة للشباب العربى الممتلئ قوة وصحة ، فى هذه البيئة التى لا يحيا فيها إلا الأقوياء الأصحاء !

وسيرة النبي الكريم تحدث عن قوته وطولته التى ظل محتفظاً بها بعد أن قارب الستين من عمره ، وبعد أن مر بهذه الأحداث ، واحتمل ما احتمل من أعباء . . فكان يشهد الحرب ، ويخوض غمارها ، فى ثبات وقوة وعزم . . وقد كان موقفه يوم واحد ، حين هزم المسلمون ، وفى حنين يوم انكشف عنه أصحابه مما أثار عجب أعدائه قبل أصدقائه الذين بلوا شجاعته عن قرب ، وخبروه عن تحربه . . .

يقول على بن أبى طالب : « كننا إذا حمى البأس واحمرت الحدق انقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم » . .

فإذا عن شباب النبي ، وهو ما هو هذا الشباب من القوة والفتاء ؟

إن من ينكر أن « محمداً » كان فى كيانته من الرغبة فى المرأة ما فى كيان أقوى شاب فى بيئته إنما ينكر حقيقتين معاً . حقيقة تاريخية ، سجلتها مواقف النبي فى الحرب . . وحقيقة شرعية هى سلامة البدن ، وصحة الجسد ، وكمال بنائه لأنبياء الله ورسله . . وقد شهد الواقع لأنبياء الله جميعاً بهذه القوة الجسدية ، إلى جانب قواهم الروحية والنفسية .

وقد تحدث القرآن عن قوة موسى . . « قالت ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين » (١) .

وعن قوة يوسف : « قال اجعلنى على خزائن الارص .. لى حفيظ علم » .
وعن قوة داود « وقتل داود جالوت » . وكان حالوت هذا فارس الفرسان
ونال الأبطال فى عصره .

وعدم . إن ه محمدآ ، كان له من القوة الجسدية رصيد كبير إلى جانب هذا
الرصيد العظيم من القوة الروحية والنفسية .

وهو بهذه القوة الروحية والنفسية استطاع أن يحفظ توازنه ، وأن يعلب
دواعى القوة الجسدية ، وأن يحمى شبابه من أن تستبد به شهوة ، أو تغلبه
نزوة . . وهذا هو فارق ما بين السكال والنقص ، وفصل ما بين الإلهان
والحيوان : توازن القوى الجسدية والروحية ، وتبادل بين مطالب الجسد
وأشواق الروح

فإنى إذن على ما به من قوة جسدية ، وعلى ما فيه من رغبة قوية للبرأة ، كان له
من قوته الروحية ما يستطيع به أن يملك زمام أمره ، ويتحكم فى هذه الرغبة ،
وينفق من هذه القوة بالحساب الذى لا يمحور على شىء من حياته الروحية ،
ولا يوهن من هذه الصلة الوثيقة التى بينه وبين الملائة الأعلى !

وشاهد السيرة النبوية قائمة تحدث بلسان صدق مبين عن هذه القوة الروحية
التي كان يسبطنها النبي على قونه القوية المنبهضة من الجسد نحو المرأة !

إن هذه القوة الجسدية ، والرغبة القائمة فيها للبرأة عند النبي — شأن كل
قوة جسدية عند أى إنسان — هذه القوة وما فيها من رغبة للبرأة لو أنها كانت
فى كيان إنسان آخر غير النبي لجلت حياته كلها منامرات فى مراتع الشهوة ،
ولما تركت له لحظة يفرغ فيها لشيء آخر وراء هذا السحر المضطرم ، ولما كان له
فى حياته حال غير هذه الحال !

ولكن ه محمدآ ، بما أراد الله به من كرامة ، وما أفاض عليه من فضل قد أعطاه
حظه كاملا من هذه القوة ، كما أعطاه حظوظه كاملة من قوى النفس والروح ،

فجرت قوته الجسدية في هذا المستوى العالى الذى كانت تجرى فيه قواه الروحية والنفسية ، بعيدة عن الرجس والدنس ، مبرأة من كل شائبة ، نقية من كل سوء . لم يتزوج ، محمد ، إلا في الخامسة والعشرين من عمره .. ومع هذا فما أخذت عليه في فترة شبابه تلك الفترة الحرجة ، التى يحتل فيها توازن كثير من الأسباب — ما أخذت عليه ميالة هوى ، ولا نظرة سوء ، وما كان منه غدوة أو روضة إلى مراتع اللهو ، ومواطن السمر التى كان يفضاها شباب قريش ، حيث يلهون ، ويسمرون ..

لقد سلطت قريش كل ماتملك من قوى لتقع على سقطة أو زلة لمحمد ، فتأخذ بها ، وتفضحه على الملأ بأنه جاء بشريعة تحرم الزنا ، وتحرم الخمر ، وهو الذى كان من شأنه كيت وكيت ، ومن أمره مع فلانة وفلانة كذا وكذا .. لم تجد قريش شبهة من الشبه في هذا المجال ، تقيم منها حجة لإسقاط دعوته ، وكان هذا الصنيع أقرب شيء وأيسره لينهى ما بينها وبين محمد ، من خصام ، لو أنها وجدت سبيلا إليه .

وهذه الحقيقة السافرة عن نقاء صفحة « محمد » قبل النبوة قد حملت غير المسلمين على أن يعترفوا بها ، لأنها أكبر من أن تنسك ، وأعرف من أن تخفى .. يقول « ول ديورانت » :

ولم يتعاط « محمد » الخمر التى حرمها هو على غيره ، (١) .

لم يكن ماعرف عن « محمد » من عفة وطهارة قبل البعثة ناجماً عن ضعف ، أو خمود في رغبته للبراءة ، وطلبه لها ، وإنما كانت تلك العفة وهذه الطهارة عن نفس نقية ، وروح طاهرة ، تأبى الخبث ، وتتأذى منه ، وتضيق به . قال ، أبو العباس المبرد :

قسم كسرى أيامه ، فقال : يصلح يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للحوائج .. !

قال ابن خالوية تعليقا على هذا ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم : ويعلمون
ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، ١

• ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم جزأ يرمه ثلاثة أجزاء : جزء الله ،
و جزء آلهله ، و جزءاً لنفسه . ثم جزأ أجزاءه - أى الجزء الذى لنفسه -
بينه وبين الناس . فكان يستعين الخاصة على العامة ، ويقول : أبلغوا حاجة من
لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم
الفرع الأكبر ، (١) .

هذه هى العظمة فى أرفع منازلها ، وأكمل أحوالها . إنه يملأ بشخصيته
الحياة كلها ، ويأخذها من جميع أطرافها . يتحكم فى كل شىء ، ولا يتحكم فيه
أى شىء !!

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها :

• كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل ، ويباشر وهو صائم ، ولكنه أملككم
لإربه ، •• (صحيح مسلم جزء ٣ / ص ١٣٥) (٢) .

هذا ، وقد طلق النبي نساءه جميعاً شهراً كاملاً . فكيف كان صبره على هذا
الاتصال بينه وبين المرأة ؟

ولقد كان يطوف على نسائه جميعاً فى ليلة واحدة . فكيف هجرهن هذا الهجر
الطويل وقدر عليه ؟

إنه كما قلنا - قوة النفس ، و سمو الروح ، اللذان يتحكمان فى شهوة الجسد ،
ولا يتحكم فيهما شهوته !

وإنه لمن الخطأ الفاحش أن يقول الدافعون لهذه التهمة الملققة : إن النبي

(١) الشفاء الجزء الأول ص ١٠٦

(٢) الإرب الرعة ، والشهوة ، والمباشرة : الملامسة ، والمداغة : مما يكوين
الرجل والمرأة قبل اتصالهما .

صلى الله عليه وسلم كان قليل الرجولة في المراه ، أو أنه فنل في كيانه الشهوة الداعية إلّا .

إن ذلك نقص في الرجولة ، وليس كالا كما يفهمه - خطأ - بعض من يطلب مزيداً من العصمة للنبي ، أو يسوق كالا إليه على تلك الصفة . . . والسبي في هذا الذي كان عليه من قوة رغبته في المرأة ، وشدة طامبه لها ، مع قدرته على هجرها ، وإمساك نفسه عنها - أكل كالا ، وأسمى عصمة . من كل كال ، ومن كل عصمة .

يقول القاضي عياض :

، النكاح دليل الكال ، وصحة الذكورية .

« فإن قلت : كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل ، وهذا يحى بن زكريا عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه أنه كان « حصورا ، ؟ فكيف ، يثنى الله عليه بالعجز لما تعده فضيلة ؟ . . وهذا عيسى ابن مريم عليه السلام تبطل من النساء ، ولو كان كما قررته لنكح ؟ »

ويجب القاضي عياض على هذا الاعتراض . . فيقول :

« فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه « حصور ، ليس كما قال بعضهم لأنه كان هيوباً (١) ، أو لا ذكر له ، بل لقد أنكر هذا بعض حذاق المفسرين ، وتماد العلماء ، وقال هذه بقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتها ، كأنه حصر عنها ، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة في النساء .

« وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمها ، إما بمجاهدة النفس ، كعيسى عليه السلام ، أو بكفائية من الله كيحيى عليه السلام ..

(١) أى يهيب لقاء النساء ، والاتصال بهن .

ثم هي - أى القدرة على المكاح - فى حق من أودر عليها ، وملكها ، وقام بالواجب فيها ، ولم تشغله عن ربه - درجة عليا . وهى درجة نبينا صلى الله عليه وسلم ، الذى لم تجعله كثرتهم - أى كثرة النساء - عن عبادته ربه ، بل زاده ذلك عبادة لتحسينهن ، وقيامه بمحقوقهن ، واكتسابه لهن ، وهدايته لهن ، (١) .

على أن الذى يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبى مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على هذا الجانب من الحياة الإنسانية ، ويفعل الجوانب الأخرى التى تتجه إليها نزعات الإنسان ، ورغباته اتجاه أقوى لا يقل عن الاتجاه إلى المرأة ، والرغبة فيها !

فهنالك إلى جانب المرأة شهوات أخرى تستبد بالإنسان ، وتغلب مراجعها فى كيانها .. كشهوة المال ، والجاه ، والسلطان ، وكشهوة الطعام ، واللباس ، وصور كثيرة من حياة الترف والزينة التى يقتتل من أجلها الناس ..

هـ زين للناس حب الشهوات من النساء ، والبهين ، والقناطر المقنطرة من الذهب ، والفضة ، والحليل المسومة ، والأنعام ، والحلوت .. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، (٢) .

ففى هذه الشهوات يتقلب الناس ، إليها يتسابقون ، وعاليا يتزاحمون .. وليست واحدة منها بمغنية عن الأخرى .. بل إن بعضها ليفرى ببعض ، حتى لكأنها كائن واحد ، وهى منه بمنزلة الأعضاء فلا يكمل وجوده إلا بها ، ولا تؤدى هى وظيفتها إلا معه !

ونخذ أى مطلب من هذه المطالب ، نجده لا يمكن أن يستكمل وجوده ، ويستوفى حقيقته إلا إذا رفدته هذه المطالب الأخرى وغذته ، كما يرفدها هو ويغذيها .
مطلب المرأة مثلاً .

هل يكفى أن يجد الرجل الذى ركبته الشهوة إلى النساء - امرأة أو أكثر وهو جائع فارغ الجيب والبطن ؟ .

(١) الشفا للقاصى عياض جره ٩ ص ٦٨

(٢) سورة آل عمران : آية ١٤

لأنه لابد له من أن يتغذى الغذاء اللذيذ ، ولابد أن يوفر لجسده الراحة ، وأن يتاح له فرص الاستجمام من عناء ما بذل في لقائه بالمرأة ، كي يجد القدرة على الاستجابة لداعى شهوته إليها .

ثم لابد لمثل هذا الإنسان أن يطلب المال ، ويلج في طلبه ، ويتهاكك على جمعه ، كي يجد حاجته من النساء ، وكي يجدن في جواره من تنوع الحياة ما يرغبن في السكن إليه ، والرغبة فيه ، وهل يسكنى المرأة أن تجد رجلاً يضمها إلى نساها . ويمكنها حفظها منه . ثم لا تطعم به هذا الطعام الشهى . ولا تحيا الحياة التى تجد فيها مطالبها المادية موفورة ، قريبة من يدها ؟

ثم لابد له أيضاً من أن يطلب الجاه والسلطان فإن هذا مما يهيء له حياة تقدره على أن ينال كثيراً مما يطلب ، وتدنى منه كثيراً مما يشتهى !

قلنا : إن الذى يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال البى — مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على حاله مع المرأة ورغبته فيها ، بل ينبغى أن تمتد نظراته إلى المطالب الأخرى التى لها سلطانها على النفوس ، والتى لا تقل الرغبة فيها عن الرغبة فى المرأة ، والتى لا يمكن إشباع الرغبة فى المرأة إلا بها .

قلنا هذا — ونقول للذين قالوا فى نبي الإسلام من استكثاره من النساء . وإفراطه فى الحياة معهن ..

نقول لهؤلاء — انظروا هذا الجو الذى كان يحيط بالحياة الزوجية التى كان يحياها أزواج النبي معه ؟

أكانت هذه الحياة ، حياة ترف ، ومتع ، ولذات جسدية ؟ وهل من أحل هذه الحياة أحسن النبي ، وحرصن على السكن إليه ، والحياة فى ظله ؟

لقد شهدت الدنيا كلها أن الحياة المادية فى بيت النبوة كانت حياة كفاف ، بل وجوع يكاد يكون متصلاً . . .

فالنبي كان يلقي أهله فيسأل هل من طعام ؟ وكان أكثر ما يكون الجواب : لا طعام ! فيحمد الله ، ويطوى نهاره صائماً . . . هكذا كان أغلب أيامه . . .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « ما تبع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز ، حتى مضى أسبيله » .

وتقول : « لقد مات النبي صلى الله عليه وسلم وما في بيته شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير في رق لي » .

أما فراشه فهو كما تقول السيدة عائشة : « كان فراشه الذى ينام عليه صلى الله عليه وسلم أدماً ، حشوه ليف » .

أما البيت الذى يضم نساءه فهو « خوخات » ، أنسبه بالأوكاخ التى يتخذها رعاة البدو فى الصحراء للوقاية من الحر أو البرد لعدة أيام .

يقول « ول ديورانت » :

« كانت المساكن التى أقام عليها — النبي — واحداً بعد واحد كلها من اللبن لا يزيد اتساعها على اثنتى عشرة أو أربع عشرة قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمل ، (١) » .

هذا هو ما أمسك به رسول الله من الحياة الدنيا ، وما ضم إليه من حطامها ، ولو شاء أن يأكل فى صحاف من ذهب ، وأن يتخذ له قصر أشبه بقصر كسرى ، يسوق إليه ألوان الحياة ومفاتنها — لو شاء ذلك لكان حاضراً عتيداً عنده ، بعد أن استجابت الجزيرة العربية كلها لدعوته ، وآمنت برسالته ، وجعلت كل حياتها رهن كلمته وإشارته !

ولسكنه رسول السماء ، ما جاء بتلك الرسالة العلوية لتكون لحسابه ، وإنما هى لحساب الإنسانية كلها ، ولم يطلب بجهاذه فى سبيلها ما عند الناس ، وما فى دنيا الناس ، وإنما طلب بها ما عند الله من رحمة ورضوان !

ونساء النبي شاركنه هذه الحياة ، ووجدن فى جواره من أنوار النبوة ، وجلالها ما أسعدهن ، وأنساهن شظف العيش ، وخسونة الحياة . . فلقد كان

الغذاء الروحي الذي وجدته في ظلال النبوة زاداً طيباً ، ملا حيانهم راحة ورضى !

ومع هذا ، فقد شعر الرسول الكريم بأن الحرمان الذي يعيش فيه نساؤه ربما كان مفروضاً عليهن بحكم الطاعة للرسول ، والولاء له . . فهن كسليات مفروض عليهن أن ينزلن عند حكم الآية الكريمة : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . . والنبي الكريم يريد أن يمنحن حق المرأة في اختيار حياتها التي ترصاها . . وأن يكن منه زوجات وزوجاً ، لامسليات وفيياً . .

وقبل أن يقول النبي كلمته في هذا الذي دار في خاطره ، وقبل أن يلقى نساءه ليخبرهن بين الحياة معه ، واحتمال العيس على تلك الصورة التي يعشنها ، وبين أن يطلق سراحهن — قبل أن يفعل النى هذا جاءت كلمة السماء لتقول عنه ما كان يريد أن يقول هو له . .

« يا أيها النبي قل لأزواجك . . إن كنتم تردن الحياة الدنيا ، وزينتها ، فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً . . وإن كنتم تردن الله ، ورسوله ، والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ، (١) .

فها تان الآيتان تسجلان في غير لباس : أى حياة كان يحياها النبي في نسائه ، وأى حياة كان يحياها نساؤه معه ؟

لإنها حياة لا يراد بها الحياة الدنيا وزينتها . . فإن كن يردن الحياة الدنيا وزينتها فلأنهن ان يجدنها عند النبي ، وهو صلوات الله وسلامه عليه لا يحول بينهن وبين هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من زينة إن أردنها ، بل سيختل بينهن وبين ما يردن ، بعد أن يتمتعن متعة المطلقات . .

ها تان الآيتان وثيقتان تاريخيتان ، ليس بين وثائق التاريخ كلها ما يدانها صحة

وثبوتاً .. إنهما في صدور الألوف والملايين من البشر وعلى أفواههم وألسنتهم منذ عهد النبوة إلى اليوم ، محموطتين أو ثقب الحفظ من أى تعديل أو تحريف ! ليست الحياة الدنيا وزينتها من مطالب النبى ، ولا من مطالب من يسكن إليه من زوج وولد !

هذا ، ما أذاعه القرآن على أسماع الناس ، وأعلنه فيهم على لسان النبى الكريم . ورأوا واقعه ورأى العين فى حياة النبى ، وحياة زوجته معه .. ! فهل يعقل عاقل أن يكون النبى على غير ما نطق به القرآن فى هذا الشأن ؟ وهل يعقل عاقل أن يحيا النبى حياة منعمة رافهة ، ثم يحىء القرآن لينفى عن هذه الحياة ما فيها من نعيم ورفه ؟

ماذا يقول أعداء النبى إذ ذاك من يهود وغير يهود ؟ بل ماذا يقول المسلمون أنفسهم من الصحابة وغير الصحابة . . ماذا يقولون عن النبى ، وعن القرآن ؟ ولو أن هذا القرآن لم ينزل كله على النبى ، ولو أن هاتين الآيتين لم يسكن لهما شأن خاص ، وملايسات ذات دوى وقت نزولهما — لكان هما مكان للتأويل المنحرف ، والتخريج المريب .. ولكن القرآن نزل كله على محمد ، وهاتين الآيتين فاضت عنهما أحاديث وأخبار فى سيرة النبى . وفى سيرة زوجته ، وفى سيرة آباء وزوجاته . كفى بكر وعمر .

وبعد ..

فنعود ونقرر مرة أخرى إنه لا يضير النبى أن يكون آخذاً بحظ الرجل من المرأة ، فذلك — كما قلنا — من ضرورات الحياة البشرية ، ودعوة من دعواتها . والعجز عنها — إنما ينشأ عن خلل فى تكوين الجسد وسلامته !

لا يضير على النبى إذن أن يكون على ما كان عليه من سلامة الجسد ومسحة الأعضاء ، وقوة البذية ، ثم يكون له إلى المرأة داع ، وله فيها رغبة .. لأنه لإنسان ونبى معاً .. ومن السكال أن يعطى الإنسانية فيه حقها ، وأن يؤدى للنبوة حقوقها !

ولسكن ينبغي ألا يفهم هذا على أن زواج النبي من كل هذا العدد من نسائه كان لإشباع حاجته من المرأة وقضاء رغبته فيها ..

فكثير من زوجات النبي كان زواجه بهن لغير هذا ..

كان زواجه لبعثهن تطبيقاً لحاضرن ، أو عزاء لهن ، أو رحمة بهن ..

فإنه مع ما في كيان النبي من قوة بادية ، وحيوية ظاهرة ، لم يكن مصرف هذه القوة وتلك الحيوية في جانب واحد من جوانب الحياة ، بل لقد كان أكثر هذه القوة وتلك الحيوية منصرفاً في القيام بأمر الدعوة في ميادين السلم والحرب ، وفي التمسك لها في قلوب المؤمنين ، ولقاءهم أفراداً وجماعات ، ويسألونه في أمور دينهم ، ويحفظون بالحديث إليه ، ويسعدون بالقرب منه .. فإذا جاء الليل ، وسكنت الحياة ، وآوى الناس إلى مضاجعهم قام ليله أو شطراً كبيراً منه ساجداً ، وقائماً ، يناجي ربه ، ويقرأ ما نزل عليه من كتابه . . وكان ذلك دأبه حتى تورمت قدماه !

ومع هذا ، فإن ما بقي له بعد ذلك من وقت ، ومن قوة وحيوية كان كافياً لإرضاء نسائه وقضاء حق الزوجية لهن .

فمن أنس رضى الله عنه : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدور على نسائه في الساعة من الليل أو النهار ، وهن إحدى عشرة » .

وعن طاوس ، قال : « أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة أربعين رجلاً » .

وعن سلمى مولاة رسول الله قالت : طاف النبي صلى الله عليه وسلم ليلة على نسائه التسع ، ويطهر من كل واحدة منهن قبل أن يأتي الأخرى ، وقال : « هذا أطهر وأطيب » .

وننظر نظرة سريعة في زوجات النبي ، والاحوال والظروف التي تزوجهن فيها ...

١ - خديجة بنت خويلد :

أول امرأة تزوج بها النبي . وقد تزوجها قبل البعثة ، وكان إذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره ، وهن في نحو الأربعين ؟

ولم يتزوج عليها حتى ماتت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم . وقد تجاوزت الستين ، كما قارب هو صلوات الله وسلامه عليه الخمسين .

ومن هذا نرى أنه قد ذهب أكثر شباب النبي مع امرأة واحدة ، قد كبرت ، ولم يكن فيها مأرب للرجال .

ومع هذا ، فقد كانت أحب نساء النبي إلى النبي . . . وقد ظلت ذكرها الطيبة تجرى على لسانه بين نسائه ، فيجندن في أنفسهن غيرة منها .

عن عائدة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الشاء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فادركتني الغيرة فقلت هل كانت إلا عجوزاً أبذل الله خيراً منها ؟

« فغضب حتى اهتز مقدم شعره ، ثم قال : « لا والله ، ما أبذلني الله خيراً منها . . . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء . قالت عائشة : فقلت في نفسي لا أذكرها ببيتة أبداً » ؟

وانظر سبب هذا الحب الذي كان من الرسول الكريم للسيدة خديجة ؟ أكان لجمالها ؟ أو لشبابها ؟ إنه لم يمكن لشيء من هذا وإن كان لها جمال ، ولها شباب وإنما لأنها كانت أول من استجاب لدعوته وآمن برسالته ، ووقفت إلى جواره تشد من عزمه ، وتخفف من آلامه .

وكان هذا الحساب للمرأة في نظر الرسول يغني عن متابعة النظر في زياته الأخرى ، للتعرف على الغايات التي كان يبغيها النبي الكريم من الزواج بمن تزوج بهن .

ويكفي أن نذكر هنا أنه قضى شبابه مع امرأة واحدة ، وأن هذه المرأة كانت تكبره بأعوام ، حتى لقد أدركتها النخوخة ، ولم يكن هو قد بلغ الخمسين من عمره .

ويكفي أن نذكر أنه — صلوات الله وسلامه عليه — لم يذكر في معرض الكشف عن حبه لها شيئاً مما كان لها من جمال وشباب في أيامها الأولى معه ، وإنما ذكر نبلمها ، ومثانة حلقها ، وعظمة وفائها ، وسابقة إيمانها .

كان يكفي هذا أو بعض هذا .. ولكن لا بأس من أن نمضي في النظر إلى هذه الريحات .. ففيها عظات ، وعبر ، وفيها دروس نافعة ، وحكم بالغة .

٢ — سودة بنت زمعة :

تزوجها النبي بمكة بعد موت السيدة خديجة .

وكانت حين تزوجها الرسول في سن متقدمة ، وهاجرت مع النبي إلى المدينة وتقدمت بها السن ، وبدأت بين نسائه في موقف حرج ، فهم النبي بطلاقها فقالت له : لا تطلقني . وأنت في حل من شأني ، فإنما أريد أن أحسر في أزواجك ، وإني قد وهبت يومي لعائشة ، وإني ما أريد ما تريد النساء ، فأمسكها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصار يقسم أيامه لبقية نسائه دونها ، ويجعل نوبتها لعائشة .

وواضح من هذا أن النبي إنما هم بتطليقها ليتغفها من عبء الزوجية ، بعد أن أصبحت في هذه السن المتقدمة . وقد كان النبي حريصاً على أن يعطيها نصيبها كبقية نسائه من المبيت عندها في يومها الذي لها . فلما نزلت عن هذا الحق ارتفع الحرج الذي كان بينه وبينها . فأمسكها عنده بين نسائه .

٣ — عائشة بنت أبي بكر :

تزوجها النبي وهي بنت تسع سنين ، وكان صلوات الله وسلامه عليه قد شارف الخامسة والخمسين !

والجدير بالنظر هما ، أنما نرى النبي . وهو في مطلع شبابه ، واكتمال فوته
يتزوج من أكر منه سناً ، بل ومن تكون قد بدت عليها الشيخوخة ، كما رأينا
في الزيتتين الأوليين له من السيدتين « حديجة ، وسودة » . ثم هو وقد ولى
شبابه ، وجاءته أعباء الرسالة . وأثقالها ، وما لاقى من أجملها من ضروب الآلام ،
وشقى المسئوليات - يتزوج فتاة في التاسعة من عمرها !

أف هذا زواج يراد به المتعة حقاً ؟

قد يكون ذلك لشباب في مستقبل العمر . يرفب نمو شبابه وشبابها معه ، ففي
مستقبل أيامهما فسحة فسيحة للمتعة !

أما والزواج في مثل هذه السن ، في الخامسة والخمسين . . فإذا ينتظر من
مرور الأيام والسنين إلى أن تنضج فتاته ، وتصبح أهلاً للقاء الرجل ؟
كم عاماً تقدر لهذه الفتاة حتى تصلح لأن تكون زوجة . . ؟ سنتين ؟ ثلاثة ؟
أربعة ؟ . . خمسة ؟

إن أدنى هذا العدد لا يصبر عليه من في هذه السن إذا كان يريد بزواجه مجرد
الزواج ، ومجرد المتعة به ! . . فإن الأيام التي تمضي تخطر به نحو الشيخوخة
والضعف ، بينما تخطو بفتاته نحو الشباب والاكتمال !
لماذا فلا بد أن يكون للزواج هنا غاية غير المتعة ، ومطلباً أسمى من الزواج
لمجرد الزواج . .

والمعروف أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه هو والد السيدة عائشة ،
والمعروف أيضاً أن مكانه من رسول الله ، كان المكان الأول من الحب والتقدير ،
لما كان من موقفه في الإسلام ، وبلائه مع رسول الله ، واحتماله العذابات الأولى
في سبيل الدعوة الإسلامية . .

كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال — على أصح الروايات — فهو هذا
كان ثانياً اثنين — الرسول ، وهو — في الإسلام ، كما كان ثانياً اثنين إذ هما في
الغار كما يذكر القرآن الكريم .

وقد أذن الرسول الكريم — وهو بمكة — لأصحابه بالهجرة . ولم يأذن لأبي بكر ، ليكون طيراً له ، وسعداً .. فذا هاجر النبي إلى المدينة كان أبو بكر رفيق هجرته دون المسلمين جميعاً !

ومن أجل هذه المواقف التي وقفها أبو بكر من الإسلام ومن رسول الله كانت له تلك المنزلة عند الله ، وعند رسول الله ، وعند المسلمين !

فلقد رفع الله شأن أبا بكر ، وأذاع في العالمين ذكره وفضله ، فأسار إليه في القرآن أكثر من مرة ..

ففي هجرته مع رسول الله ، وتخفيه معه في غار ثور .. يقول الله سبحانه وتعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه ، لا تحزن .. إن الله معنا » (١) . وصاحب الرسول في الغار هو أبو بكر الصديق ، بإجماع لم يخرج فيه أحد .

وفي حديث الإفك .. الذي امتحننت فيه السيدة عائشة . كان الذي تولى كبر هذا الإثم ، وأطلق لسانه بالعائنة قريب لأبي بكر ، اسمه مسطح .

فلما برأ الله السيدة عائشة ، وقطع السنة السوء فيها بمانزل من القرآن ، حلف أبو بكر ألا ينفق على فريسه هذا ، وكان من قبل محسناً إليه ، باراً به .. فترسل قوله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » (٢) .. وكان أبو بكر هو المشار إليه هنا في هذه الآية ، فامتثل لأمر الله ، وعاد بالفضل والإحسان على قريبه هذا !

هذا هو أبو بكر ، وقد أسمع الله عليه هذا الفضل ، واختصه بهذا الإحسان فذكره في القرآن ورفع ذكره بهذا الذكر !

فإذا يصنع رسول الله لأبي بكر لقاء ما صنع أبو بكر معه ؟ وماذا يعمل ليجزى إحسانه بإحسان وفضله بفضل ؟

لقد رضى رسول الله عنه كل الرضا ، ورضا رسول الله ربح عظيم في الدنيا والآخرة ، لأنه من رضا الله ورضوانه !

ومن تمام هذا الرضا أن يدنى الرسول أنا بكر منه إلى أقرب مكان يمكن أن يكون . . لأنه لا يكتفى لأبي بكر أن يلقاه في مجالسه بين المسلمين في المسجد ، وفي الصلاة ، وفي غير المسجد ، وغير الصلاة . لأنه يريد أن يتيح له مريداً من الفرص للقاء الرسول ، ويؤثره من بين أصحابه بأن يدخل عليه بيته متى أحب . فكان أحكم تدبير لهذا أن يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة . ليكون في ذلك زيادة في إمداء أبي بكر منه . وباب يدخل منه إلى بيت الرسول ، ويحلب إليه في حلوته مع أهله . . وكان في التمجيل بزواج الرسول من السيدة عائشة قبل أن تمضي . وتصبح أهلاً للزواج — كان في هذا مبادرة بالخير لأبي بكر وتمجيل به له .

ولعلنا نستطيع إذ نلتمس أسباب هذا الحب والتدليل الذي كان من الرسول الكريم لزوجته عائشة أن نضيف ذلك كله ، أو أكثره إلى حب الرسول لأبيها أبي بكر ، وجعل هذا الحب والتدليل الذي يمنه الرسول عليها زيادة في الحب والإيثار الذي أضفاه على أبيها . .

« روى عن عمرو بن العاص قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أحب الناس إليك ؟ قال : عائشة . قلت : فمن الرجال ؟ قال : أبوها ؟

ولقد اكتسبت السيدة عائشة من حب رسول الله لها بركات من السماء والأرض . . فكان لها هذا الذكر العظيم بما حلت من العلم ، والمعرفة ، وما حفظت من حديث الرسول ووعت من آثاره ، على حداثة سنّها ، إذ توفى عنها رسول الله وهي ابنة ثمانية عشر عاماً !

ثم كان لها من الله ذكر عظيم في القرآن إذ نزلت آيات الكتاب مبرئة لها ، ناطقة ببراءتها وطهارتها : فقال تعالى في حق من أذاعوا هذا السوء فيها ، وافتروا هذه القرية عليها « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ،

بل هو خير، لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم» (١) .. ثم قال فيمن استمع إلى هذا الحديث ، وأعطاه أذنيه : «ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إلفك مبين» (٢) . ثم التفت القرآن إلى أصحاب هذا الإلفك يسألهم البينة عليه ، وما يندم من حجة . «ولولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذلتم يا آباي السعداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» (٣) ثم يلفت مرة أخرى إلى الذين استمعوا لإلفك الآفكين : «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك .. هذا بهتان عظيم» (٤) ، والذي يتدبر آيات القرآن التي جاءت في هذا الشأن يجد فيها شواهد ناطقة على ما للسيدة عائشة من منزلة كريمة عند الله ، إذ دفع عنها القرآن هذا الإلفك دفعاً قوياً ، وكان في هذا الإلفك خير كثير ، ونعمة من الله ورضوان للسيدة عائشة ، ولا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» (٥) .

عن القاضي أبي بكر الطيب قال :

«إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسب إليه المشركون سبحانه لنفسه ، كقوله «وقالوا اتخذه الرحمن ولداً ، سبحانه» (٥) في آي كثير . وذكر تعالى ما نسبته المنافقون إلى عائشة ، فقال : «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه» (٦) سبحانه نفسه في تنزيهاها من الدعوى ، كما سبحانه نفسه في تنزيهاها من السوء» (٧) .

هذه هي الزوج الأثيرة عند رسول الله ، وأحب الناس إليه ! لم يكن زواجه منها صلى الله عليه وسلم لشهوة ، لأنه حين تزوجها لم نسكن بلغت بعد سن الاستبراء ، ولم تكن دوافع الزواج بها المتعة الزوجية بقدر ما كانت غاية ذلك تكريم أبي بكر ، وإيثاره وإدناؤه إليه ، وملء قلبه غبطة ورضى في ضم فائدة من كبده إليه ، وإنزالها أكرم المنازل في بيت النبوة .

(١) سورة البور : آية ١١ (٢) سورة النور : آية ١٢

(٣) سورة البور : آية ١٣ (٤) سورة النور : آية ١٦

(٥) سورة الأنبياء : آية ٢٦ (٦) سورة النور : آية ١٦

(٧) نهاية الأرب — الجزء الثامن عشر ١٧٦

٤ — حفصة بنت عمر :

وما يقال في زواج الرسول الكريم من عائشة ، يقال كثير منه في زواج حفصة بنت عمر بن الخطاب . وإذا كان شأن عمر في الإسلام في الميزة الثانية بعد أبي بكر ، وإذا كان مكانه من رسول الله بالمكان الثاني لأبي بكر . . . وهذا أمر لا يحتاج إلى شرح أو بيان ، إذ كان أسرته ، وإفصاة أحباره أظهر من أن يدخل عليه شرح أو بيان !

كانت حفصة من المهاجرات ، وكانت قبل زواج رسول الله بها عند خنيس ابن حذافة الهمص ، وكان ممن شهد بدرأ . . فلما مات عنها ، وتأيمت ، ذكرها عمر لأبي بكر وعرضها عليه ، فلم يرجع إليه أبو بكر كلمة ؛ فغضب من ذلك عمر ، ثم عرضها على عثمان حين ماتت زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم ، فأنطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسكا إليه عثمان وأخبره بعرضه « حفصة » عليه . . فقال رسول الله : « يتزوج » « حفصة » من هو خير من عثمان ويتزوج « عثمان » من هو خير من « حفصة » . . ثم خطبها رسول الله من عمر ، فتزوجها ، فلقى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب ، فقال : لا تجحد على في نفسك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد ذكر « حفصة » فلم أكن لأفشي سر رسول الله ، ولو تركها لتزوجتها . . ثم زوج رسول الله « عثمان » بابنته « أم كلثوم » . . ولهذا سمي عثمان بندي النورين ، إذ تزوج بابنتي رسول الله : رقية ، وأم كلثوم . . ولما ماتت أم كلثوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان : « لو كانت عندنا ثالثة زوجناكها يا عثمان » (١) .

وأنت ترى من هذا أن الزيجات كانت بين النبي وأصحابه ، وبين الصحابة والصحابة قائمة على معيار الوثيق للصلوات التي بينهم وشدها وأصرها بلحمة النسب ، والمصاهرة .

٤ — زينب بنت حزيمة :

كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين . . وكانت قبل رسول الله عند الطفيل ابن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فطلقها ، ثم خلفه عليها أخوه عبيدة ابن الحارث ، فقتل عنها يوم بدر شهيداً ، فتزوجها رسول الله (١) .

وقد مكثت عند الرسول ثمانية أشهر ثم ماتت .

٦ — أم سلمة ، هند بنت أبي أمية :

وكانت قبل رسول الله عند أبي سلمة بن عبد الله المخزومي . وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة ! فلما مات عنها زوجها تزوجها رسول الله ، وأصدقها فراشاً حشوه ليف ، وقدحاً ، وصحنه ، ومجنية (٢) .

٧ — زينب بنت جحش :

كان اسم زينب برة ، فسميها رسول الله زينب . . وقد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد ، بن حارثة متبناه ، ! وقد وقعت بينها وبين زيد نفرة ، إذ كانت قرشية ، وزيد غير فرشى . . وللنفس وزنه عند العرب ، رجالاً ، ونساء ! ولما لم يستقم الأمر بينهما طلقها زيد . . فتزوجها رسول الله .

وقد لفظ المنافقون بهذا الزواج في عهد الرسول ، وقالوا حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه ؟ فأقر الله سبحانه وتعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٣) . . وقال تعالى : « ادعهم لأبائهم هو أفسط عند الله » (٤) . . فدعى « زيد » من يومئذ زيد بن حارثة ، وكان من قبل يدعى زيد بن محمد .

(١) في بعض الروايات أنها كانت عند عبد الله بن جحش ، مات عنها شهيداً يوم أحد فتزوجها رسول الله .
(٢) المجنية : الرحي .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٤٠ (٤) سورة الأحزاب : آية ٥

وهذا التدبير العملي أبطل الإسلام عادة التبني التي كانت شائعة عند العرب ... ولو اقتصر فيها على حكم القرآن لظلت بعض علائق هذا التبني قائمة مقام العادة في النفوس ، وظل في الناس من لا يرضى بزواج من يجعل منزلته عنده بمنزلة ابنه ، وإن رضى بحكم الإسلام فدعاه باسم أبيه الذي ولده .

٨ - جويرية بنت الحارث :

وهي من سبي بني المصطلق ، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس . تقول السيدة عائشة : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكانت بنته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحه (١) ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله تستعينه في كتابتها - أي في عتقها - ؛ قالت عائشة : فرأى الله ما هو إلا أن رأيته على باب حجرتي فكبرهتها ، وعرفت أنه سيرى - أي النبي - منها ما رأيته .. فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله : أنا جويرية بنت الحارث ابنة أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، وقد وقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس ، فكانت به على نفسي ، فحمتك أستعينك على كتابتي ؛ قال : « فهل لك في خير من ذلك ؟ » قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقض عنك كتابتك وأتزوجك ؛ وقالت : نعم يا رسول الله قال : « قد فعلت » .. قالت - السيدة عائشة - خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بجويرية بنت الحارث ، فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ١١ فأرسلوا ما بأيديهم .. فلقد أعتق بترويجه - أي النبي - إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق .. فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على أهلها منها ، (٢) .

وطبيعي أن الجبال وحده لم يكن هو داعية الرسول إلى زواجه من جويرية

(١) أي بالغة قدراً كبيراً من الملاحه والحس

(٢) نهاية الأرب جزء ٨ ص ١٨٣

هذه ، بل كان من دواعى هذا الروح لكرام عيزة قوم ذاك كما يقول الرسول الكريم : « أكرموا عزيز قوم ذل » . كما كان من دواعيه لكرام أهلها الذين دخلوا فى الإسلام بهذا الذى صمعه المسلمون مع من وقع فى أيديهم منهم .

٩ — أم حبيبة بنت أبى سفيان :

كان زوجها عبد الله بن جحش من مهاجرى المسلمين إلى الحبشة ، وقد هاجرت معه . ثم ارتد زوجها عن الإسلام هناك ، وثبتت هى على إسلامها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها له ويزوجها إياها ، فخطبها النجاشي لرسول الله . وأصدقها أربع مئة دينار .

وواضح من هذا الزواج مافيه من ترغيب لهذه السيدة الكريمة وهى فى غربه عن أهلها . بعد أن فارقها زوجها كما فارق دينه ! كما أن فيه أيضاً استرضاء لابن سفيان .

وتخفيف من حدة العدواة التى فى قلبه لرسول الله (١) .

١٠ — صفية بنت حيى بن أخطب :

كان أبوها سيد بنى النضير . من بنى إسرائيل . من سبط هرون بن عمران عليه السلام . فلما غزا الرسول بنى النضير . ووقع حصن « أبى العقيق » فى يد المسلمين جىء إليه بسباياهم . وكانت فيهم صفية بنت حيى . فأعتقها رسول الله ، وتزوجها !

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها — بعد أن تزوجها وهى تبكى ، فقال ! ما يبكيك ؟ قالت ؛ بلغنى أن عائشة وحنصة تنالان منى وتقولان : نحن خير من صفية ! نحن بنات عم رسول الله وأرواحه ! ، فقال لها : ألا قلت لهن : كيف تسكن خيراً منى وأبى هرون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد ؟ ! .

١١ — ميمونة بذت الحارث :

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة سبع من هجرته ، في عمرة القضاء ،
وفد خطبها عليه حمزة بن أبي طالب ، وكانت أحبتها أسماء زوجة الجاهليين ، وأختها
سلمى عند حمزة ، وأحبتها أم الفضل عند العباس بن عبد المطلب .

١٢ — ريمانة بنت زيد بن عمر بن حنيفة بن شمعون :

وهي من يهود بني قريظة ، وكانت قد وقعت في السبي يوم قريظة ، فكانت
صفي (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت
الإسلام ، فأعتقها وتزوجها . وقيل إنه لم يتزوجها ، بل كان يطؤها ملك اليمن ،
وأنه خيرها بين العتق والتزويج ، أو تكون في ملكه ، فقالت : أكون في ملكك
أخف على وعليك ، فكانت في ملكه حتى توفي عنها .
والرواية الأولى أثبت وأرجح .

• • •

هذه هي زيجات النبي ، وأولاء كن زوجاته . والاحوال والملايسات
التي تزوجهن فيها .

ولن يستطيع منتصف ، يحترم الحق ، ويحترم العقل ، أن يقول إن هذا العدد
الكثير من النساء اللاتي جمعهن الرسول في بيت الزوجية — كن لإشباع رغبته
في النساء وإرواء ظمئه منهن !

إن ذلك افتراء على التاريخ ، واعتداء على الواقع ، ولما جترأ على الحق .

يقول ول ديورانت في شأن زيجات النبي :

• ولقد كان بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي
توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه . وكان بعضها زيجات سياسية ، كزواجه بحفصة

(١) الصبي : ما يختاره الرسول من العيمة .

بذت عمر الذي أراد به أن يورث صلته بأبيها ، ركر واجاً من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم ، وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد^(١)

فإذا تعلق مغيط من الإسلام ، محقق على شريعته . بهذا اللون الظاهري للصورة التي يبدو فيها هذا العدد الكثير من النساء في بيت النبوة — إذا تعلق بهذا اللون الظاهر . من الصورة . وعمى عن إيجاباتها . وتغافل عن المعاني الجليلة السامية التي تنطق بها — فحسبنا أنه لن يستطيع أن يجد حتى كلمة زور تستوجب له ليلهم النبي مع ما يدعيه له من قوة شهوته إلى المرأة — في شيء من عنته وطهارته . في حياته كلها . قبل البهثة وبعدها . وذلك مما يزيد النبي عظمة إلى عظمته . وجلالا إلى جلاله .

• • •

الباب الحادى عشر نبى المسحمة

الخير والشر ، والدور والظلام ، والطمأنينة والقلق ، والرجاء واليأس ،
والعافية والسقم ، والفقر والغنى ، واليسر والعسر ، والسعادة والنقاء . هذه
وكثير غيرها من المتناقضات هى دنيا الناس ، التى قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وأن
تدور أمورهم على هذه الاضداد المتقابلة المتناقضة فى كل شىء منها .

فليس فى هذه الحياة شىء لا يضاده شىء ، ولا يقف له ، حتى لسكان ميزان
الحياة لا يقوم إلا على هذا التراجع بين السكفتين . . فى إحداهما النىء ، وفى
الأخرى تقيضه !

انظر إلى الحياة بالمنظار الذى يروك تجد أنها ليست لوهاً واحداً أبداً فى أى
حال من الأحوال . . إن نظرت إليها بمنظار أسود حالك السواد . بدا لك من
خلال هذه الظلمات الكثيفة التى تسد وجه الأفق سحاعات من النور ، ولمعاً من
الضوء تخط السواد بالبياض ، وتفسد عليك هذه الصورة « السوداء » التى
وقعت فى شباك تشاؤمك ويأسك ، فإذا أنت ممسك بخيوط هذا الضوء ، متعلق
بسحاعات الأمل والرجاء . . وإن نظرت إليها بمنظار سحرى يريك الأشياء فى
حلل عروس تحف بها الهجة ، وترف عليها أطيايف السعادة طلع عليك من
خلال ذلك وجوه كئيبة كالحة تدخل فى هذا الفرح القائم ، وتضرب بيدها فى
عقده المنتظم ، فيتناثر ، وتنفج بأفواها فى أنواره ، فتضطرب ، وإذا هذا المنظر
البهيج الجميل نطله سحابة كثيفة ، كما تكسف السحب وجه الشمس فى يوم مشرق
من أيام الربيع !

تلك هى الحياة . . ليست خيراً محضاً ، ولا شراً خالصاً ، وإنما هى

مزاج من الخير والشر معاً ، لا ينفرد أحدهما في هذه الحياة ، ولا يستقل بوجوده فيها ! .

وكذلك الناس .. أخيار وأشرار . لن تخلو الحياة أبداً من وجهيهما معاً ..
فما خلصت الحياة للأخيار ، ولا وقعت كلها ليد الأشرار ..

وتمثل هذا في الإنسان الفرد . تجده تركيبة ، من الخير والشر .. فليس هناك ذلك الإنسان الذي يحسب خيراً لا شر فيه ، كما أنه ليس هناك ذلك الإنسان الذي يحسب شراً لا خير معه !

ولنما الحياة في شئونها ، والناس في جعلتهم ، والإنسان الفرد في خاصته —
خير وشر ، أشبه بتلك المركبات الكيميائية التي تخرج بين حمضين ، وتواف
بين عَصْرين ..

على هذه الصفة قامت الحياة ، وعلى تلك الصورة صيغت الناس ، وصيغها
الغاس ، فألفتهم وألقوها .. سنة الله .. ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

• • •

نقول هذا ليستقيم في فهمنا أن الرحمة الخالصة ليست هي الدواء في كل حال ،
وليست الطعام السائغ الذي تحيا عليه النفوس في كل حين .

وأنبياء الله ورسله هم أطباء الإنسانية وأساتها . ومن تدير الطيب الحكيم
أن يجعل لكل حال حالاً ، وأن يصف لكل داء دواء . فهناك داء دواؤه الخمية
والإمساك عن الطعام زمناً ، وهناك داء دواؤه طعام دون طعام .. وهناك
داء تقضى مصلحة الجماعة أن يغيب مع صاحبه في التراب اتقاء لعدواه ، ودفعاً
للبلاء الذي يشجم عنه إذا لم يكن من الممكن شفاؤه من هذا الداء .

وحين يحمل رسل الله إلى الناس رحمة السماء فإنما هي دواء تستقيم عليه نفوس ،
وتضييق به نفوس ، وتفتيح له قلوب ، وتستغلق دونه قلوب .

إن النور الذي يغمر الوجود ، نعمة يعيش فيها الناس ، ويحييها الأحياء ،

وتتكشف به مسالك الطريق إلى أبواب الرزق . . ولكنه عدو مبين للحنافش
مثلاً . . يمزله عن الحياة ويعمى عينيه عن موارد الرزق ، ومواقع الخير . .
لأنه لا يحيا إلا في الظلام الخالك ، ولا تنها له الحياة إلا في ظلمات الليل البهيم .

وفي الناس من ارتكست نفسه وانتمكست طبيعته ، فلا ينتفع بأزوار السماء ،
ولا يتقبل الرحمت التي تحيى منها على يد رسل الله وأنبياؤه ثم لا يقف الأمر به
عد هذا ، بل يحاول جاهداً أن يطفىء هذا النور ، ويبدد تلك الرحمت . . فإنها
— في تقديره — العدو المبين له . . ولو استطاع الحنفاش أن يسد وجه الشمس
بحناحيه لفعل ، ولو غرق الناس والأحياء في بحار الظلام . . إنه لا يريد
نوراً أبداً !

ولأنه لم يكن يصل هذا النور السامى الذى تحمله رسالات الرسل إلى أقوامهم
لابد أن يدفع عنها كل ما من شأنه أن يعطل وظيفتها ، أو يعوق سيرها
إلى غاياتها .

ومن أجل هذا كانت كل رسالة سماوية تحمل معها من القوى المضاربة على
يد المعندين عابها ، والمهوقين ، والواقفين في وجهها — تحمل القدر الذى يناسب
قوى الشر والعدوان المواجهة لكل رسالة .

فإذا كان العناد إجماعياً . وكان الشر مستولياً على الجماعة كلها . . كان العقاب
على قدر الجرم . فناء إجماعياً ، وهلاكاً كامبياً يأتي على كل شيء . .

أما إذا كان في الجماعة راشدون : رأوا الهدى فاهتدوا ، وسمعوا منادى
الحق فأجابوا ، فإن العقاب لا يقع إلا على الميئوس من هدايتهم ولانقاذهم .

• وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم . وحملناهم للناس آية ، (١) .

وكان ذلك بعد أن لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . يدعوهم إلى
الله . ويرفع لهم أعلام الهدى والرشاد . فما استقاموا ولا استجابوا . .

وكان أن دعا ، نوح ، عليهم دعوته . فاستجاب الله له .
« وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكافرين ديّاراً . إنك إن تذرهم
يصلوا عبادك : ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً » (١) ..

« إنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ،
وأصروا . واستكبروا استكباراً ، ثم إنى دعوتهم جهاراً ، ثم إنى أعلنت لهم
وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم لأنه كان غفّاراً ، يرسل السماء عليكم
مداراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جمات ويجعل لكم أنهاراً ..
مالكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً » (٢) ..

فماذا بعد هذه المصابرة ، وهذا الغدو الروح بالروح ؟ لم هذا والمرضى
يشرّون فى رحة الطبيب ويحسبونه بكل ما يقع فى أيديهم .

وهكذا كان الشأن فى قوم : عاد ، وثمود ، وقوم لوط .. عصيان عنيد :
عقابه الإبادة التامة التى لا ينجو منها إلا القليل .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم
الكتاب والميزان .. ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد
ومنافع للناس » (٣)

يقول ابن قيم الجوزية فى تفسير هذه الآية : « من عدل عن الكتاب قوم
بالحديد .. وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « أمرنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن نضرب بهذا — يعنى السيف — من عدل عن هذا
» يعنى المصحف » (٤) !

فالإسلام دين قام على الدعوة بالحق ، فمن لم ير فى الحق مقتضياً .
فالسيف . . .

(١) سورة نوح : آية ٢٧ (٢) سورة نوح الآيات من ٧ — ١٤

(٣) سورة الحديد : آية ٢٥

(٤) السيرة الشرعية : لابن تيمية ص ١٢ ،

لأنه لا بد للحن من قوة تزيد ، وتدفع عنه يد المعتدين الظالمين . . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله . (١) .

الإسلام والسيف :

من مفتريات الغرب على الإسلام ، ومحاولاتهم النيل منه ، والزاوية عليه القول بأن العقيدة الإسلامية إنما قامت على السيف واستندت إليه في حمل الدار عليها وإلباسهم لباساً ، وأنه لولا سطوة سيوف المسلمين وما فعلت في رقاب الناس لما كان للإسلام أن يبلغ هذا الذي بلغته دعوته . ولا بسط سلطانه على هذه الآفاق البعيدة في الشرق والغرب التي يسطر سلطانه عليها .

ولما نواحت عن عقول هؤلاء الغربيين عمالة الحقد على الإسلام . وتبخرت من أدمغتهم أدخنة النبل الدمين له ، لرأوا أنهم قد حافوا الأمانة العلمية التي جاءوا إلى الناس بها ، ودسخوا عليهم من أبوابها ، بهذه المقولات التي تقولوها على الشريعة الإسلامية ، وعلى رسولها الأمين . .

ولو أننا وجدنا عذراً لرجال الدين منهم . من الذين نشئوا على التعصب لعقيدتهم وخلق المجادة عليها ، والقداسة لها ، ولم يشارها بالحسن الجميل من كل شيء دون غيرها ، ولم يظاها محاسنها بالقاء الريب والشكوك على من يناقشها أو يهددها في وجودها - لو أننا وجدنا عذراً لرجال الدين من هؤلاء العلماء ، فإننا لن نجد مثل هذا العذر للعلماء غير الدينيين ، الذين تخصصوا للبحث العلمي . ونذرنا أنفسهم له . .

ولو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به للعلماء المعصوم الماخذية حيث استحكم الجدل ، وسيطرت السفسطة على عقول العلماء ، وحيث كانت مذاهب الكلام ، وتركيبات المنطق هي المادة التي يقيم منها العلماء مذاهبهم ، ويعلمون بها صروحها - لو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به هؤلاء العلماء الثباين لما وجدنا شيئاً من ذلك للعلماء المعاصرين الذين أدخلوا معهم تلقينات العلم التلقيني ، وأفرغوا عقولهم من تلك المسلمات التي آمن بها الناس من غير بحث أو تمحيص ، حين أعادوا بناء العلم على أسس المجزأة في

(١) سورة الحج آية ٤٠

سحق الحياة ، وتحيص الحقائق وتنقيتها بمعطيات الحس والملاحظة .

إن هذه القولة التي يقولها العلماء الغربيون المعاصرون عن الإسلام هي إحدى رمياتهم الهزيلة الطائفة فيما يرمون به الإسلام من أباطيل ومفتريات !

ونحن لاندفع أن الإسلام قد أعمل السيف في رقاب أعدائه وخصومه ، وأنه أطلعهم به بساً وقلق هجمات ، وأراق دماء .

هدد حقيقة غير منكورة ، فلم يحاول الإسلام أبداً أن يقول إن شريعته لا تستعمل السيف ، بل إنه دعا إلى استعمال السيف وعرض عليه تحريصاً شديداً ، لأنه لم يعمل إلى اتباعه قولة السيد المسيح : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ، بل حمل إليهم : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١) . بل دعا إلى أكثر من هذا ، دعا إلى أن يستعمل المسلم في ميدان المعركة إذا لم يكن له بد من لقاء العدو . فليقتل خصمه قبل أن يقتله الخصم . قال تعالى : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين » (٢) . فالقتل بين المؤمنين هو الجزاء الذي يجب أن يكون للكافرين ، وهو الحساب الذي ينبغي أن تختم به المعركة بين المؤمنين والكافرين !

لقد دعا الإسلام إلى الجهاد في سبيل الله ، وإلى الإقدام في الحرب ، والثبات في وجه الأعداء ، ومجد الاستشهاد في ميدان القتال ، وجعل منازل الشهداء مع النبيين والسديقيين . وحسبنا أن نقرأ في كتاب الله قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » (٣) . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (٤) ، وقوله جل شأفه : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أخنتموهم فشدوا الوثاق » (٥) . وقوله سبحانه : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص » (٦)

(٢) سورة البقرة : آية ١٩١

(١) - سورة البقرة : آية ١٩٤

(٤) - سورة الأنفال : آية ٤٥

(٣) - سورة الأنفال : آية ١٦

(٦) - سورة الصف : آية ٤

(٥) - سورة محمد : آية ٤

هذه الآيات ، من كتاب الله لعلم أن الإسلام قد جعل الجهاد بالسيف في سبيل الدعوة والدفاع عنها أمراً واجباً ، من كل عنه ، أو نخاض في ميدانه ، أوتبت في الانطلاق إليه ، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب المسوق والعصيان ، واستوحب غضب الله ومهته (١) .

هذه حقيقة لاندنهما ، ولكن ليست هي الحقيقة كلها . . إنها تنظر الحقيقة أوبعضها . أما النطر الثاني من الحقيقة ، أو القدر الأكبر منها فهو الدعوة الإسلامية ذاتها ، أو بعض آخر حتمائ هذه الدعوة ، وما تحمل إلى الناس في يديها من خير كثير . ورحمة واسعة . وأن هذا الخير ، وتلك الرحمة هما مقصد الدعوة وغايتها . أما السيف الذي قام إلى جانب هذا الخير وتلك الرحمة ، فإنه ليس أمراً مقصوداً لذاته . وإنما هو شيء عارض ، لا ينبغي أن يكون من مقومات الدعوة ولا أن يحسب عليها . لأنه الحارس الذي يقف وراء هذا الكنز الثمين ، يدفع عنه غارات اللصوص ، والمتهمين ، والخاطفين .

أرأيت إلى هذا العدد من الشرطة . يقوم على حراسة هذه الخزائن التي تضم الأموال الطائفة وكرائم الجواهر والخلي في مصرف من تلك المسارف المالية ؟ ثم أرأيت إلى اللصوص يتسللون إلى هذه الخزائن ، يريدون الاستيلاء على ما يتقدرون على حمله منها ؟ ثم أرأيت إلى الشرطة وقد تنبهوا إلى هؤلاء اللصوص ؟ ثم أرأيت هؤلاء اللصوص وقد تنبهوا إلى ما يريد الشرطة بهم ؟ ثم أرأيت إلى تلك المعركة التي نشبت بين الفريقين ؟ وإلى الدماء التي سالت ، والأرواح التي ذهبت ؟ ثم . . ماذا ترى فيما حدث ؟ هل ينقص ذلك من قيمة الخزائن وما أودع فيها ؟ وهل يقع لوم على الشرطة وما نالت أيديهم من المعتقلين ؟ وهل تأخذك هؤلاء اللصوص أو يقتلهم وجرحهم مرحمة ؟ لأنهم أئمة معتدون ظالمون . . قتلهم اليد الأمينة الحارسة . . وذلك جزاء الظالمين » .

(١) تأمل هذا الإشعار إلى تلك الكناية اللطيفة الرائعة التي قصد منها تنفير المؤمنين من التراجع عند ملاحظة الأعداء في قوله تعالى : « فلا تولوهم الأدبار » حتى السكأن الذي يفر لأنما يكشف عن - و - نه .

إن أمر الدعوة الإسلامية - وكل دعوة سماوية - ليس دون هذه الخزائن وما تشمل عليه من أموال ، وإن بلغت ما بلغت من نفاسه ووفرة : فإن الروح الذى تقولاه رسالات السماء أهم بكثير من أمر الجسد الذى تتجه إليه هذه الأموال ! ومن جهة أخرى . فإن الإسلام ليس وحده هو الذى دفع بالسيوف بعضى الباغين عليه ، وكيد الكافرين لدعوته ، فإن الرسالات السماوية جميعها قد حملت الناس مع ما حملت من أفوار الهداية والرحمة صوراً مختلفة من الذنر ، وألواناً متعددة من النكال لمن كذب برسول الله ، ووقف فى سبيل دعوتهم ، وبسط يده أو لسانه بما يسوؤهم !

وهل طوفان نوح أو صواعق عاد ، أو مرسلات هود ، أولوط ، أقل لهلاكاً وتدميراً مما فعلت سيوف الإسلام بالعصاة والمكذبين ؟

وهل لما رقع فى بنى إسرائيل من مسخ ، وارتكاس من الطبيعة البشرية إلى طبيعة الفردة والخنازير دون ما أحدثت سيوف الإسلام فيمن أصيبوا بها ، وكانوا من إصرعها ؟

ليس الإسلام إذن بدءاً بين الرسالات السماوية فى الالتجاء إلى السيوف حين لم يجد النصيح ، ولم تغن البليات ؟ بل إن السيوف لأرحم كثيراً مما حل بالمعاقدين المخالفين للرسول فى الأهم السابقة !

يقول الله سبحانه وتعالى فى شأن المكذبين بالرسول : « فكلما أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة . ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا . » وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، (١) وقد كانت السماء فى الرسالات السابقة هى التى تتولى تأديب العصاة ، والتشكيل بهم ، على حين أن الرسالة الإسلامية قد جعلت أمر ذلك لدى النبى ومن اتبعه من المؤمنين ، ليبتلى ما فى قلوبهم ، وليحصى ما فى صدورهم ، حتى ترسخ قواعد الإسلام ، ويثأكد مقامه فى الحياة ، وليكون للمؤمنين فى كل زمان ومكان إشراكه فى هذا الغرس الطيب الكريم الذى غرسه النبى ، حتى يرووه حتى وعائته ، وحتى

يحد الناس فيه ريح الإيسار، فيما فسوا إليه، ويخططوا أنفسهم به . . . رى هذا ما ينبغي
عن أن هذه الرسالة هي رسالة الإنسانية كلها، وأن الناس قد شاركوا في رعايتها
والقيام عليها .

وفي الرسالة الموسوية أول دعوة إلى الجهاد في سبيل الله . . وهي أشبه بالطلقة
الأولى في المعركة الإنسانية بين الإيمان والكفر . ولكنها حركة لم تبدأ إلا في
الرسالة المحمدية . .

لقد سأل موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وأن يطهروها من
الملاحدين ، فأبوا أن يسمعوا له ، وأن يلقوا عادوهم هناك .

ويقص القرآن الكريم هذا الذي وقع بين موسى وقومه . . فيقول سبحانه
وعلى : « ولما قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم
أنبياءاً ويعلمكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ، ادخلوا
الأرض المقدسة ، التي كتب الله لكم ، ولا ترمدوا على أدباركم فتقلبوا خواسر . .
قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن
يخرجوا فإنا ندخلها . . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا
عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ،
قالوا يا موسى : إنا لن ندخلها أبداً ما دموا فيها . . فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا
ههنا قاعدون ، قال : رب إنى لأملك إلا نفسى وأخى فأفرق بيننا وبين القوم
الفاسقين . . قال : فإنها حرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض . . فلا تأس على
القوم الفاسقين » (١) .

لم يقدر لبني إسرائيل أن يحملوا هذا الشرف الذى نذبتهم السماء له : ودعتهم
إليه ، بل استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فكان هذا الإجماع الآثم على الذكول
عن الجهاد في سبيل الله ، وعن تلقى هذا الشرف بإهلاك العصاة . . الذى كانت تتولاه
السماء ونذبت الإيمان له ، ليكون له شرف المشاركة في هذا الأمر العظيم .

(١) هذان الرجلان هما موسى وأخوه هرون كما يدل عليه سياق الآيات : « لا أملك

إلا نفسى وأخى » . . وفي المائدة من ٢٠ — ٢٦

وعمل الزمن عمله في بني إسرائيل من بعد موسى ، وولدت الحياة منهم من
يرضى الجهاد في سبيل الله . . ولكنهم قلة لا تقبل الدعوة ، ولا يشهد
بهم دين .

يقول الله سبحانه وتعالى : « ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى ؟
إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ! قال هل عسيتم إن كتب
عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من
ديارنا وأبنائنا ؟ » (١) . . فإذا كان من أمرهم بعد أن كتب عليهم القتال ؟

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم . والله عليم بالظالمين . . » (٢)
الآيات . . إنها ثلثة من فلتات الحياة أن يوجد في القوم من يقاتل في سبيل دعوة
الله ، ينصر بها دينه ، ويؤيد كلمته ، ولو كان ذلك من قلة بحيث لا يذكر :

ولكن ما هكذا كان الشأن حين دعا محمد ، إلى الجهاد . . لقد استجاب
إليه المؤمنون جميعاً . وألقوا بأنفسهم في أحضان الموت . لا يبالون أن يلقوه
مصباحين أو عسسين . إن المسلمين جميعاً كتيبة معبأة للحرب ، والجهاد في سبيل
الله . . ما كان للمؤمنين أن يتخلفوا عن رسول الله ولا أن يرغبوا بأنفسهم
عن نفسه . .

فلقد كان من فضل الله على العرب أن فتح قلوبهم لدعوة الإسلام ، ثم ضاعف
هذا الفضل بما حبيب إليهم من أمر الجهاد في سبيل الله ، وجعلهم أهلاً لحراسة
هذا الدين ، ودفع بهم كل يد آثمة تريد أن تنال منه .

لقد كانت الدعوات السماوية في الأمم السابقة تؤيد من السماء بالقوى القاهرة
المهلكة : من طوفان ، ومصواع ، وسحابة من سجيل ، وريح صرصر عاتية ،
وغيرها مما يذهب بالمسكدين المعاندين ، وبما منهم من مال وبنيين .

(١) وقد كانت ساجدتهم مع موسى لا تزال ماثلة . والآية من سورة البقرة رقم ٢٤٦ .

(٢) سورة البقرة : ٢٤٧

لأنه لم يكن آنذاك في الإنسانية مكان لمل هذه المهمة النبيلة . ولم يكن في الناس - غير رسول الله - من يستحق أن يقوم بالحراسة على الدعوة السماوية وحمايتها من السفهاء . وهذا ما يؤيد مذهبنا لإليه من قبل أن الإنسانية كانت قبل الرسالة الإسلامية في أطوار لم تبلغ بها مبلغ الرشد . . . ولهذا لم يصح أن يقوم في الناس أوصياء على الناس . . . لأنهم جميعاً في طور مادون الرشد، ولا يقوم بالوصاية إلا من كمل ورشد .

فلما أن جاءت الرسالة الإسلامية التقت مع الإنسانية وقد طلعت فيها ظلائع الرجولة ، وبزغت من بينها بواكير الرجال - نذبت السماء من آمنوا بهذه الدعوة أن يكونوا هم حمايتها ، والذائدين عنها . لأنهم - وقد أصبحوا الإنسان الذي خلق على صورة الله - أن يكونوا خلفاء الله في الأرض وعلى الناس .

هذه حقيقة من حقائق الدعوة الإسلامية، وفضل من أفضالها على أهلها المؤمنين بها . ثم هي من جهة أخرى شهادة للعرب أنهم كانوا البواكير المتفتحة في الإنسانية كلها ، وأنهم أول من التقى بالسماء ، واستأهل حمل رسالتها، وحمل مسئولية حمايتها والدفاع عنها (١) .

وندع هذه المقارنة بين الديانات السماوية ومواقع العقاب وصوره فيها للمعاندين والمكذبين ، لننظر في تلك الدعوات والمذاهب غير الدينية التي تتجه إلى تغيير الأوضاع والنظم القائمة في المجتمعات الإنسانية . . ماذا أربن في سبيل هذه الدعوات وتحقيقاتها من دماء ؟ وماذا أزهد لدعمها والتسكين فما مرأ - داح ؟ ولا نسأل إذا كانت هذه الدعوات وتلك المذاهب صالحة أم فاسدة، وإنزاد . . تلد خيراً أم شراً . . أم عقيماً لا تلد شيئاً ؟ فإنها على أي حال لا ترتفع إلى مستوى الدعوات السماوية التي خلصت للخير ، وخلت من الدوافع الذاتية والأهواء الشخصية ؛ لأنسأل عن هذا ، ولسكن لننظر كيف سارت هذه الدعوات في طريقها ، وكيف كان بدؤها ونشأتها ؟ وكيف ذهب بريقها الذي استهوى الناس

(١) لعل هذا الرأي يفتح مجالاً للنظر عند علماء الحياة - في مدى تأثير البيئة الصحراوية وخاصة الصحراء العربية - في السكبان الإنساني وإنضاج ملسكاته : فإن المواطن المختلفة من الأرض أشبه بالأبحام، والناس في كل موطن هم الأجنة في هذه الأبحام .

لأول أسرها ، ثم تحرر ، هذا البريق إلى نا ، تامل . . استغرق بها أولياؤها قبل
أعدادها . . وخذ لذلك مثالا : الثورة الفرنسية . . إنها قامت على مبادئ إنسانية
رفيعة . رسمتها أفلام الكتاب ، ولونتها قممائد الشعراء ، وهامت بها أفئدة
الجمهير . فكانت هتافاً يملأ الآفاق بالحرية والإخاء والمساواة . . واندفع الناس
ثورة عارمة وفي زحف مجنون ، يبشرون بهذه المبادئ ، ويجلون بها للناس عن راس
عليها بهجة العرس ، وفضرة النعيم . ولكن سرعان ما تنحوت هذه الثورة إلى مجزرة ،
فسالت الدماء ، أنهاراً بلا حساب ولا صرامة . . لا يدرى أحد الطريق إلى الذجاة . .
فلا يكفي أن ينضم إلى صفوف الثائرين ، ولا أن يتحلى بشايرهم ، ولا أن يردد
هتافهم . . فلن يجبه ذلك من أن يساق إلى المقصلة . مادام هناك من يدس له
ويشوي به ، ويكيد له عند من صارت إليهم سمات الأمور .

فأين هذا من دعوة الإسلام بمبادئه ؟ لقد كشف الإسلام للناس عن دعوته ،
ورفع لهم أعلام الذجاة . . فن استظل بها فقد ضمن السلامة لنفسه وماله . . من
قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقد أصبح في الإسلام مسلماً ، لا سبيل لأحد
عليه . . يقولها بلسانه ، وإن لم يعتقد بها في قلبه . إنها جواز المرور إلى الأمن
والسلامة . . وهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر . . إنها حسابها في الدنيا ، يصدق
فيها بقوله . . أماما في قلبه حسابها على الله الذي لا تخفى عليه ماتخفى الصدور .

فلم يترك الإسلام الأمر في دعوته طوى الناس وشهواتهم ، وسكيلون بالكيل
الذي يرضى منازعهم ، ويجزى مع أهوهم . . وإنما الذي صنعه الإسلام هو أن
أقام إلى جانب دعوته حجازاً بين الحق والباطل هو شهادة الله لا إله إلا الله ،
وأن محمداً رسول الله . . يقولها الإنسان فيتحول من الكفر إلى الإيمان ، وليس
لأحد عليه بعد هذا من سبيل !

أما القلوب وما تنطوى عليه فأمرها إلى الله . . ليس لأحد أن يدعى الكشف
عما فيها من خير وشر . . من إيمان أو كفر . .

يقول النبي الكريم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد
رسول الله . فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم . . وحسابهم على الله » !
وفي حديث ذي الخويصرة ، وقد استبان منه للمسلمين ما استبان من ربح

النفاق . . وبدا لأحد الصحابة أن يستأصل هذه الجرثومة العنصرية . . لم يمكنه
النبي منه ، وقال : « هل اشتقت عن نلبه ؟ » . . ومن أجل هذا احتفى بالإسلام
كثير المنافقين من لاخلاف لهم ، ولا مروءة عندهم ، وإفقه على الرغم من أمارات
النفاق البادية عليهم . فإن الإسلام قد تركهم وشأنهم . وجعل الكلمة التي ينتموا
بألسنتهم دون أن تدخل قلوبهم - وقاية لهم ، وستاراً يستترون فيه ومدخل يدخلون
به في المجتمع الإسلامي .

ولا شك أن هذا المنهج على ما فيه من نغرة ينفذ منها ذوو النفوس الضعيفة
هو أعدل منهج يمكن أن يقوم بين الناس . وبعضهم من الدسائس والرشايات إلى
إن أدانت مذنباً فإنما تدين لإزائه عشرات من الأبرياء الذين لا ذنب لهم . ولهذا
كان من مبادئ الإسلام : « الخطأ في العفو عشرات المرات خير من الخطأ في
العقوبة مرة واحدة » .

ونخذ مثلاً آخر - غير الثورة الفرنسية ومذابحها - الثورة الروسية . إنما
جاءت باسم الاتصاف للطبقات الفقيرة الكادحة وتخليصها من العبودية والإذلال
لأصحاب رؤوس الأموال ، من طبقات الأمراء وأصحاب الأعمال !

كم ذهب في سبيلها من ملايين البشر الذين حصدهم من جل قادة الحركة زعماءها ؟
وكيف غرق الناس في بحار من الفوضى فلا يدري أحد ما المصير الذي يصير إليه
في مصبحة أو محماه ؟ ولا يدري أحد الاتحاد الذي يتجه إليه فيجده عنده الأمن
والسلامة ، إن مشى في ركب الثائرين لم يأمن أن يجيء من يشهد عليه أنه ليس
على دين الثورة . ولم ؟ لأن أسارى وجهه تقول هذا ، أو أنه سمع يقول كلاماً
يشتم منه ربح العداوة للثورة ، أو أن فلاناً سمعه يقول كذا وكذا . . أو لا هذا
ولا ذاك . . إنه ليس من شأنه أن يسأل : لم ؟ إن عليه أن يمد رقبته لسيف
الجلاد وحسب ، دون أن يفتح فيه !

هذا شأن كثير من المذاهب والدعوات المدنية التي ربما تكون قد نشأت عن
دوافع إنسانية كريمة ، وقامت من أجل مقاصد طيبة نبيلة ، ولكنها عند دخولها
في دور التطبيق العملي اصطدمت بالمعانددين ، أو الخاقدين أو الجاهلين ، فكان

صراعهم صراعاً لا تحكمه قاعدة عامة شاملة تفرق بين الأولياء وبين الأعداء،
وإذا الناس جميعاً متهمون ، وإذا كل إنسان متهم إلى أن تثبت براءته ، وذلك
على عكس القاعدة القضائية التي تقول : « كل إنسان بريء إلى أن تثبت إدانته » .

* * *

ولا يأس من أن فسطرد هنا بعض الاستطراد ، فنسأل : ترى لو أخذت
الدعوات والمذاهب المدنية بالمبدأ الإسلامي وطبقته في مجال الحياة العامة لنسر
مذاهبها ، واتسكين لها - أكانت تصادف بعض النجاح الذي صادفت الدعوة
الإسلامية؟ أو بعبارة أخرى : لو أن كل دعوة من هذه الدعوات المدنية جعلت لها
شعاراً مادياً يعرف به الأولياء من الأعداء هذه المعرفة الظاهرية التي لا تكشف
عن الواقع الذي عليه الناس - أكان ذلك يبلننها النجاة ، ويدفع عنها كيد الكائدين ،
ومكر الماكرين؟ ونقول في غير تردد أن نعم ! فليس بعد هذه التجربة الكبرى
التي اتبعتها الإسلام في دعوته - من يستطيع أن يدفع هذا الجواب أو ينقضه !

أستطيع الدعوات المدنية أن تقفو أثر الدعوة الإسلامية ، وتستطيع أن
تضمن - مقدماً - نجاحاً مؤكداً ، وأن تأمن النكسات التي تعترى كثيراً من
الدعوات .. ولكن .

ولكن ليس هذا على إطلاقه .

فليس كل دعوة صالحة لأن تدخل في مثل هذه التجربة الإسلامية ، وأن تظهر
بعض النجاح الذي قدر لها .

فهنالك دعوات هو جاء طائشة ، تمنحمت عنها تقول مضطربة ، وتنقصت بها
صدور محرومة ، ونزوات طائشة . ومثل هذه الدعوات لا يمكن أن تحتفظ
بحياتها إلا كما تحتفظ الدود الذي يتولد من الجيف . إنه لا يتحرك إلا ليموت

وفي التاريخ - في الشرق والغرب - شواهد كثيرة لهذا ..

دعوة بابك الخرمي مثلاً (١) . وهو فارسي ظهر أيام « قباذ » بذهب إلى باحى

(١) الخرمي : لفظة أعجمية تدل على ما يلذ وما يشتهي .

دعا فيه إلى انتهاب كل شيء ، راسخ لال كل شيء .. فاجتمع إليه الجياع والحر ومون ، والمنهلون . وهافت أصحاب اللدات على دعوته تماقت الذباب على العسل ١ .

هذه الدعوة قد صادفت في أول أمرها نجاحاً ملحوظاً ، باجتماع الناس عليها ومظاهرتهم لها .. واذكن سرعان ما عصف بالنااس أعاصيرها ، فأفسدت حياثهم وقلبت أوضاعهم ، وانقلب أكثر الناس من دعايتها حرباً عليها .

وهكذا شأن الدعوات التي تخرج على طبيعة الحياة ، وتقلب أوضاعها .. لأنها حينئذ لاتجد من الناس من يندعها ويشد أزرها ، لأنها لاتحصل بعقل أو بقلبه .

فلكي تجدد الدعوة مدخلا للتجربة الناجحة يجب أن تكون دعوة لإسافية . بمعنى أنها تستخدم الصالح العام للناس وترعاه ، فلا تكون لحساب فرد ، أو جماعة . أو طائفة ، وإنما هما للناس ، ولخير الناس . إن لم يكن كل الناس فالغالبية العظمى فيهم . ثم لا يكفي أن تكون هذه الدعوة كلاماً يصاع في عبارات طلية ، أو أساليب منطقية ، وإنما يجب أن يكون الداعي أو الدعاة لها مؤمنين بها عن فهم ، متحمسين لها من غير تعصب . يدعون لها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويحيثون بها إلى الناس عن إقناع .

إن مثل هذه الدعوة لاتلبث أن تجدد كل يوم ، لأمؤمنين بها فاعسب ، بل دعاة يسندون الدعاة ، ويقفون إلى جوارهم ومن ورائهم .. لأنها ليست دعوة فرد ، ولانكها دعوة الحياة .. دعوة الناس جميعاً .

وفي الناس دائماً — في كل عصر ، وفي كل أمة — منجرون ، لا يستجيرون لدعوات الخير ولا يستقيمون عليها .. وهؤلاء ينبئ — لكي تسلم الدعوة ، ولكي يصل الخير إلى أهله — أن يضرب على أيديهم ، وأن يرصد لهم العقاب الرادع الذي يناسب كل حالة ..

وهنا ممكن الداء وموضع الخطر ، فما أكثر ما تختلط الأمور . وتختل

الوازن ويفلت الزمام من يد القائمين على الدعوة ، فيسكون البلاء ، ونكون
النتيجة .

يصف دائماً بأحاب الدعوات كثير من أصحاب الألهواء والضلالات . يزنون
لهم الأمر ، ويفتخون لهم أبواب السكيد والانتقام ، في صورة من يبغي النسخ ،
ويريد الحيز . . وقد يتهذه هؤلاء الناصحون من القول . ولطف المدخل ما يفرى
أصحاب الدعوة بالاستماع إليهم ، والأخذ بمشورتهم ، وهنا يفتتح الباب الذي
لا يسد أبداً . بل يزداد على الأيام اتساعاً ، وتزداد الفتنة به عمقاً وامتداداً . .

ولعلنا نجد العبرة ماثلة في فتنة وقعت في المجتمع الإسلامي — هي فتنة خالق
القرآن - التي قسمت المسلمين شيخاً وأحزاباً . وحملت الخليفة « المأمون » على
ما به من عقل وما عنده من حكمة — حملته على جناحها وأشرفت به على هاوية
كادت تذهب بخلافته .

ولم يكن المأمون هو الذي يطرق هذا الأمر ، ولا أن يفتح له عقله أو أذنه ،
لولا أن التف حوله عصبية أرادت أن تنتقم من عصومها ، فلم تجد سبيلاً غير هذه السبيل
التي تضعهم أمام الخليفة موضع المخالف لرأيه ، الخارج على عقيدته !

وانظر كيف كان مكر هذه العصابة وكيف كان تدبيرها !

فأولاً : أوقعت في نفس المأمون ، بعد مدارسات ومباحثات في مجالسه
العلمية — أن القرآن مخلوق ! لأن كل شيء مخلوق لله ، والقرآن شيء وإن كان
كلام الله فهو مخلوق !

وثانياً : كل من لا يعتقد هذا المعتقد فهو مشرك بالله . مستوجب العقاب ،
وكان أن فوجيء الناس بهذا الرأي ، ووقع العلماء في محنة ! الخليفة — وهو القائم
على حماية العقيدة — لا يرى المؤمن مؤمناً حتى يقول إن « القرآن مخلوق » !
والعلماء يرون هذه القولة بدعة ، لأنها لم تكن من مقولات السلف ، ولم تكن
موضعية نظرية ومبحث ، ولم يكن لها مكان في مقررات العقيدة .

ولذلك أن تقرأ مسجناً من اختبار هذه المحنة لنرى كم أذيق الناس فيها من بلاء
وكم نزل بهم من كرب ؟ حتى أن الإمام الخليل أحمد بن حنبل قد قيد . وحبس
وضرب ، وكادت تذهب روحه بما نزل به من بلاء !

نقول هذا لنقرر أن الدعوات المدنية كثيراً ما تدخل عليها العناصر العريية ،
فتمسك على القائمين بها بديبرهم المستقيم ، وتلتوى بمقاصدهم الطيبة .

والناس هم الناس ، أيأ كانوا من رجاحة العقل ومثانة الخلق ينضعون
للمؤثرات الخارجية ، ويتأثرون بالندوافع السخسية ، والريجات الذاتية .

وليس هناك من عاصم لمن يقومون على أمور الناس إلا الرجوع إلى
« قانون » يحكمون إليه ، هم وخمومهم على حد سواء .

لا بد من شريعة تحكم بين الناس . لكل جريمة جزاؤها ، من غير إفراط
ولا تفريط .

و « الإسلام » يعصم دماء الناس وأموالهم إلا بحق . . هذا مبدأ قرره الإسلام
من أول يوم جاء .

فكل ما وقع من الذين عارضوا الدعوة الإسلامية . قبل أن يدخلوا في
الإسلام — كل ما وقع منهم من أذى للرسول الكريم قدحاه الإسلام ، منذ اللحظة
الأولى التي دخلوا فيها مع جماعة المسلمين في الإسلام .

فدخل أولئك الذين حاربوا الدعوة وأذوا رسول الله حين دخلوا في الإسلام
بصفحات بيضاء ناصعة ، لم يعلق بها شيء مما كان منهم قبل أن يسلموا .

فهذا « وحشى (١) » قاتل وحزة ، أسد الله ، وعم النبي ، وأحب الناس
إليه . . يدخل في الإسلام ويعيش في المسلمين مسلماً ، لا يناله لسان يسوره ولا تده
إليه يد بأذى .

وعمر بن الخطاب يرى قاتل أخيه زينة ، فلا يزيد على أن يقول له : « والله

(١) وحشى هذا عند حبشى ، كان يجيد استعمال الحرب ، وقد جعل له سيده الخلامس
من الرن إذا هو قتل حرة في غروة أحد : وقد فعل ، تقتل حرة ، وتحرر من الرق .

لا أحببك أبداً حتى تحب الأرض الدم المسفوح ، فيقول الرجل : وهل ذلك يعنى
«تقاً هو لى ؟ فيقول عمر : أما هذا فلا . فيقول الرجل : لا بأس . إنما تبكى على
الحب النساء !

« العدل » القائم على مبادئ ثابت مستقيم هو الذى ثبت أركان الدعوة
الإسلامية ، ويمكن لها فى القلوب .

« والعدل » الذى يقول به الإسلام هو « العدل » المطلق ، العدل الذى لا يتغير
وجهه أبداً ، ولا يتأله أسد دين أحد .

* * *

ونعود إلى حديثنا عن الإسلام ، وأن السيف لم يكن الأداة العامة فى انتشاره .
ودخول الناس فيه أفواجا

فيقول - إلى ما قلناه ، من قبل - إن سيف الإسلام قد أغمد منذ أكثر من
ألف عام . ولا زال الإسلام يهزم القلوب فى أربع مئة مليون من البشر ،
ولا زال الناس يدخلون فى الإسلام أفراداً وجماعات وأما ، وليس للإسلام سيف ،
بل إن السيف تشهر ضد الإسلام فى صور من حملات التبشير ، والاضطهاد
للمسلمين فى المواطن التى يتجه أهلها إلى الإسلام عن اقتناع ، دون أن يدلهم
عليه لغراء بمال أو منصب وإنما دليلهم إليه مبادئه الإنسانية العادلة ، وشريعته
السمحاء .

وانظر فى آفاق العالم الإسلامى تجد أن كثيراً من هذه الآفاق قد دخلها
الإسلام دون أن يسلم فيها سيف ، أو مراق قطرة دم ..

فمثلاً أندونيسيا ، وأطراف الصين ، وسومطرة وجاوة وفيها جميعها أكثر
من نصف العالم الإسلامى .. هل كانت ميادين حرب بين الإسلام والإلحاد ؟
وهل شهدت جيوش المسلمين تطوها بخيلها ورجلها ؟ إن الإسلام قد دخل ذلك
الوطن فى غير حملة ولا صخب .. دخلها كما يدخلها شعاع الشمس على الناس

في يمتثلهم أو نومهم دون أن يطرق بآء أو يسكنر نافذة . . لنا يتحسس النافذ المتوسحة فيتسلل منها في رفق إلى الحرات، والساحات، فيغمرها بالنور والدفء، على حين يتقف مترصداً النوافذ المضاءة والأبواب الوعدة حتى تمتح فيتدفق منها تدفق السبيل الغامر .

هكذا دخل الإسلام على أهل تلك البلاد كما دخل على أوطان كثيرة أخرى في أفريقيا مثل السنغال ، والسمال ، وأوغنده ، وجنوب إفريقيا ، وغيرها .

o o o

وندع هذا كله ، ونسلم جدلاً ، للقائلين — كيداً أو جهلاً — بأن الإسلام قامت دولته على السيف ، وأن السيف وحده هو القوة العاملة فيما كان للإسلام من امتداد في المشرق والمغرب .

نسلم بهذا جدلاً .

ولكن لنا سؤال نريد جواباً عليه من أصحاب هذا القول : ما الذي يمسك نظام الإسلام اليوم ؟ ومن الذي يقوم عليه ، فلا تفلت منه من هذه الأمم والنحوب التي يتدين به ؟ إن النظام الذي يقوم بالقوة ويعتمد عليها لا يبقى في الحياة لحظة واحدة إذا ذهبت عنه تلك القوة أو ضعف شأنها .

وواقع الإسلام اليوم ، وقبل اليوم ينبىء عن أن القوة التي صحبت الدعوة في أول أمرها لم يعد لها مكان .. وأنه لا سلطان لأحد على أحد في مواطن الإسلام في أن يدين بأى دين ، أو لا يدين بدين أصلاً .

رأ كثير من هذا . . الدعوة الإسلامية نفسها صريحة صراحة لا تقبل جدلاً في أنها لا تعتمد بشيء . . حسناً كان أو شيئاً — إذا جاء عن طريق الإكراه .

فن آمن مكرهاً ، فلا إيمان له . . كمن كمفر مكرهاً ، فليس من المكفر في شيء . يقول الله سبحانه وتعالى :

« من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ، وقلبه مطمئن بالإيمان . » ولكن

من شرح بالكفر صدراً فهل لهم غضب من ربهم ولهم عذاب عظيم « (١) .
ويقول نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه : « رفع عن أمتي الخطأ ،
والنسيان ، وما أكرهوا عليه » .

الدين . . إيمان ، ولا يكون إيمان تحت مؤثرات مادية تهدد الإنسان في ماله
أو دمه أو عرضه .

الدين . هو إيمان . . والإيمان حب وتقدير وإجلال لما يقع الإيمان به . .
فسكيف بدين يدخل على الناس من طريق الإرهاب والتهديد . . إن النفس
لا تنضج على مثل هذا الدين إلا السكره والمقت والازدراء ، وإنما ستلاحظ كما
تلاحظ المهددة الطعام الفا . د .

وأمر الإسلام من أوله إلى آخره قائم على ألا كراه في الدين ، حتى تنفتح
له القلوب وحتى يقع منها موقع الحب ، يخاطبها بخالصة الروح للجسد .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لا كراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي . .
فن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام
لها ، والله سميع عليم » (٢) . .

فالسيف لم يستعمل إلا لفتح الطريق للدعوة حتى تبلغ أسماع الناس ،
وحتى يدفع عنها حملات التضليل أو الإرهاب التي كان يقوم بها أعداء هذه
الدعوة . . من المأسكين ومن أهل الكتاب . . وحسبنا أن قلب الصفحات
الأولى من حياة الدعوة أنرى ما لقي النبي والمفر القليل من حبه السابقين إلى
الإسلام من بلاء ، وما احتملوا من شدايد . . حتى أنهم قد سدت عليهم منافذ
الطوق إلى الهجرة عن الأهل والوطن ، فرأى بدينهم وتنفيذاً لهذا الضيق الذي
بلغت به القلوب المتناجزة !

وأرى من جانيب آخر تلك المعثرات الخبيثة والمراضات الدنيئة التي كان

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) - سورة النحل : آية ١٠٦

(٢) - سورة البقرة : آية ١٩١

يذيعها اليهود في الناس ، ويدبرونها للكيد للإسلام ولبنى الإسلام . ولما دخل في الإسلام .

فكان لا بد أن يسكون للسيف موقف هنا . . وأين يكون موقفه إذن إذا تخلف عن هذا الموقف ، ليمضى بقافلة الرحمة والخير إلى حيث تنتظرها الإنسانية لتجد فيها زادما العتيد لحياتها ، ولما بعد حياتها . . ؟

فإذا سلمت القافلة من يد اللصوص وقطاع الطريق ، ووصلت إلى أهلها سالمة فقد آن للسيف أن يغمد . . إلا أن تسول لقطاع الطريق ، وللصوص ، أن يحركوا الثمن ، أو يعينوا عليها .

ولا إكراه في الدين . . قد تبين الرشد من الغي . . فهذا هو مبدأ الإسلام الذي تقرر بعد أن رسخت قواعد الدين ، وبعد أن وجدت الدعوة طريقها مفتوحة بينها وبين الناس . . يحيمون إليها أو يجيء إليهم . . على حد سواء .

ودع عنك ما يذهب إليه بعض من يستبد بهم الخناس الكاذب من العلماء والفقهاء الذين يقولون — بغير علم — إن هذه الآية منسوخة بآية أخرى أطلقوا عليها آية السيف ، وهي قوله تعالى :

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (١) .
« قاتلوا المشركين كافة » . . هذا المقطع من الآية هو الذي تعلق به من تعلق من الفقهاء والمفسرين ، فجعلوا منه وثيقة لإعلان حرب على غير المسلمين ، إعلاناً عاماً ، قائماً أبداً ، لا فرق بين أن يكون ذلك في مقام الدفاع أو العدوان .
وتحميل هذا المقطع من الآية هذا المعنى هو مما لا تعين عليه دلالة النص ، ولا يلتقي معه المقطع الآخر من الآية نفسها ، كما لا يشهد له الحال الذي نزلت الآية فيه . .

فأولاً : « قاتلوا المشركين كافة » لا يمكن أن يفيد العموم المطلق ، ولما كان على المسلمين أن يتسبكوا في حرب شاملة مع جميع المشركين على هذه السكرة الأرضية . ولما كانوا في حكم المخالفين لأمر الله ، الخارجين عن طاعته ، إذا هم لم يفعلوا ذلك ويحققوه .

(١) - سورة التوبة : آية ٣٦

ومحاربة المسلمين للمشركين على هذه الصورة أمر مستحيل لا يمكن أن يتحقق في أى ظرف ، وفي أى حال . والتكليف به تكليف بما لا تسعه النفوس ، ولا تقوم له .. وشريعة الإسلام شريعة يسر لا حرج فيها .. « ما جعل عليكم في الدين من حرج » (١) . « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » (٢) . « لا يكلف الله نفسه إلا الوسع » (٣) .

وثانياً : المقطع الثانى من الآية : « كما يقاتلونكم كافة » هو فى مقابل « قاتلوا المشركين كافة » .. وهذا يدل على أن المسلمين ليسوا هم البادئين بالحرب ، ولا يقتال جماعى الجماعات المشركين ؛ وإنما المشركون هم المعتدون ، فكما اعتدوا فى جموع جمعوا لها الشيع والاحلاف ، فعلى المسلمين أن يجمعوا جموعهم لهم وأن يقاتلهم جميعاً .. « قاتلوا المشركين كافة .. كما يقاتلونكم كافة » .

وثالثاً : نزلت هذه الآية فى غزوة الأحزاب « الخندق » .. وفيها جمعت قريش جمعوا ، وأحلافها من كل ملة وقبيل .. وبهذا الجمع الغفير رمت قريش المسلمين ، فكان لزاماً على المسلمين أن يكونوا جميعاً جهة واحدة ضد المشركين جميعاً .

وعلى هذا فليست هذه الآية — آية سيف — كما يسمونها . وليست ناسخة للآية المحكمة : « لا إكراه فى الدين ؛ قد تبين الرشد من الغى » .

ثم كيف يستساغ أن يقول الله لنبيه « لا إكراه فى الدين » .. ويقرر له أن الدين لا يكون عن إكراه . ولا يثمر ثمرة طيبة إذا جاء عن هذا الطريق ، ثم يأمره أن يعلن هذه الحرب الجماعية على غير المسلمين أياً كافوا ، وأين وجدوا ؟ أهذا منطق يقبل لإنسان أن يكون له ، وينسب إليه ؟ فكيف بالحكيم الخبير .. رب العالمين ؟

وكيف يلقي النبى والمسلمون معه المشركين فى حرب عدوانية عامة ، والله سبحانه وتعالى يقول له : « أفأنت تسكره الناس حتى يكرهوا مؤمنين » (٤) ؟ ويقول له :

(٢) سورة البقرة : آية ١٨٥

(٤) سورة يونس : آية ٩٩

(١) سورة الحج : آية ٧٨

(٣) سورة القرة : آية ٢٨٦

« ليس عليك هدام ، ولسكن الله يهدي من يشاء ، ويقول له : « عليك البلاغ وعلينا الحساب » .. ويقول له : « لست عليهم بمسيطر ، ويقول : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ويقول : « إنما أنت منذر .. واسلك قوم هاد » ويقول : « وما على الرسول إلا البلاغ » ويقول : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم .. فإنهم ظالمون .. » (١) وكثير من الآيات غير هذه تدعو إلى هذا الموقف .. وورودها على هذه الكثرة لتؤكد هذا المعنى ، ولتكون للسيف الذي يحمله النبي والمسلمون معه أومن بعده - أشبه بالمؤشر الذي يضبط وجهة المدفع عند انطلاقه حتى لا يصيب غير الهدف الموجه إليه .

وأكثر من هذا ، فإنه في سورة التوبة ، وهي آخو منازل من القرآن وفيها بضع وسبعون آية تحدد موقف المسلمين من المشركين .. وقد بعث رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رافداً به أبا بكر - أمير المؤمنين في الحج - ليعلم المشركين بها ..

في سورة والتوبة الآية التالية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلأيقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة ففسرهم الله » (٢) . فهذه الآية صريحة صراحة قاطعة بأن الأمر بقتال المشركين ليس أمراً عاماً على إطلاقه في كل زمان وفي كل مكان .. فهو لاء مشركون كانوا يشاركون المسلمين في الحج والطواف بالمسجد الحرام ، وذلك بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا .. وكان أولى الناس بالقتال وأحقهم بالقتل هؤلاء المشركين الذين يخاطبون المسلمين ويذشون المسجد الحرام .. ولكن دعوة الإسلام هذه لم تسكن للتحرّض على قتالهم أو الأمر به ، وإنما هي لإعلانهم بالألا يقربوا المسجد الحرام ، ومتى بعد عامهم هذا !

فما أعظم هذا الدين ، وما أكثر رحماته بالناس .. حتى بالمشركين .. أعدائه السافرين ..

لأنه لم يشأ أن يعجل بطردهم - وهم رجس - ولو شاء لكان في المسلمين القوة

(١) سورة آل عمران: آية ١٢٧ . (٢) سورة التوبة : آية ٢٨ .

المبيرة المبيدة لهم .. ولكنه سمح لهم إن يطرفوا بالبيت ، وأن يملغوا حاجتهم منه .. لأنه لم يكن أنذرهم بذلك من قبل .

وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى :

« قاتلوا الدين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الدين أو تواتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١) .

ومجى هذه الآية بعد الآية السابقة بيان كاشف للعلة التي من أجلها ينبغي أن يضحي المسلمون بما كان يعود عليهم في موسم الحج ووفود المشركين إليه ، ومشاركتهم في هذا الزواج المادى الذى يكون عادة في مثل هذا الموسم ..

إن على المسلمين أن يضحوا بهذا النفع المادى في سبيل تطهير المسجد الحرام من هذا الرجس الذى يطوف به ، مع المشركين الذين يقتربون منه .. وعلى المسلمين أيضاً أن يعملوا على تطهير المجتمع الإنسانى من الشرك والمشركين ، وخاصة فى مواطن الطهر والقداسة « الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الدين أو تواتوا الكتاب » .. قاتلوهم « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

فهذه الآية وسابقتها فى مساق واحد .. لقتال المشركين الذين يطوفون بالبيت الحرام بعد أن أنذروا بالألا يطوفوا بعد عامهم هذا .. فإن عادوا بعد هذا الإنذار وجدوا المسلمين لهم بمرصدة ..

الجهاد .. فى الإسلام :

الحرب شر لا بد منه .. ودواء من تقتضيه طبيعة الحياة الإنسانية لعلاج الأدواء الخبيثة ، والعمل المستعصية .

وفى الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

لأنها سنة الحياة .. سلام وحرب .. وخير وشر .

والإسلام دين الفطرة . وتعالى به وأحكامه قائمة عليها ، مقدرة بمقدارها .
فما كان على فطرة الناس من أمور فهو دين وشريعة . . وما خرج على الفطرة
وخالف طريقها ، فليس من الدين ، ولا من الشريعة .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الحرب التي قامت في ظلال الدعوة الإسلامية
كانت حرباً دفاعية لاهجومية ، وأن غاية هذه الحرب كانت اقتلاع الأشواك ،
ورفع الحواجز التي اصطفتها المشركون في طريق الدعوة ليصدوا الناس عنها ،
وليحولوا بينهم وبين الاتصال بها ، والتعرف عليها !

وقد عرفنا أيضاً أن آيات القتال التي جاءت في القرآن داعية إلى قتال
المشركين والضرب على أيديهم أين كانوا ، وحيث وجدوا — كانت غايتها تعبئة
شعور المسلمين ، واستئثارهم بحميتهم للذود عن الدعوة وإرهاب أعدائها حتى
لا يجدوا فيها مطعماً ، وحتى ينحسم الأمر بين الإسلام والكفر ، ويوضع حد للفتن
التي يدفع بها المشركون إلى مواطن المسلمين . . . وقاؤهم حتى لا تكون فتنة ،
ويكون الدين كله لله ، (١) . . . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
ترهبون به عدو الله وعدوكم ، (٢) !

عرفنا هذا ، وقلنا إنه بعد أن قويت شوكة الإسلام ، وانجحر أعداؤه ،
أخذت الآيات القرآنية تنزل بالدعوة إلى إخماد السيوف التي لم يعد لها مكان بعد
أن أدت مهمتها ، وبلغت غايتها . . فما كان بالإسلام حاجة إلى إراقة ما أريق
من دماء ، لولا أن هذه الدماء كانت إراقتها أمراً تدعو إليه المصلحة العامة لسلامة
الإنسانية وخيرها . . إنها دماء فاسدة في الكيان الإنساني ، وفي إراقتها شفاء من
هذا الصداع الذي يزعج راحة هذا الكيان وسلامته . . إنها أشبه بعملية «الفصص»
تذهب ببعض الدم وإن كان الدم ينبوع الحياة ، وسرها الممسك بها :

وكذلك الجصورم وهي أمراض بعض أعضائها لبعض وقام
هذا هو صميم الإسلام في تشريع القتال : لا عدوان إلا على الظالمين ،
فما جاء الإسلام ليقيم بين الناس العداوة ، وليوقد بينهم نار الحرب . . وما جاء
عقيدة سماوية لذلك ، وإنما جاء ليزرع الود ، والمحبة ، وليؤلف بين القلوب

المتنافرة وليجتمع بين الشيع المتباعدة ، ولتتبع العصبيات التي تولد الحقد والضغينة بين الناس والناس .

والجمال التطبيقي لدعوة الإسلام أصدق شاهد لهذا ، فقد انضوى تحت لواء الإسلام السادة والعميد ، والأشراف والسوقة ، ووقف الناس جميعاً في مقام واحد ، ليس لأحد فيه فضل على أحد إلا بالتقوى .

فما اختلفت الدعوة قريشاً بشيء ، ولا ميزت العرب بشيء ! لأنها دعوة الله لعباده جميعاً ، وهي رحمة للناس جميعاً . . . كالشمس ، والهواء . لا يجهان عن أحد ، ولا يؤثران بلداً عن بلد !

وأيها الناس : إنني رسول الله إليكم جميعاً ، . . . ليس للعرب ولا للعجم ، وإنما لهم جميعاً .

وليس بين المسلم — في شريعة الإسلام — وبين غير المسلم عداوة . . . فهما إن فرق بينهما الدين ، فقد جمعتهما أواصر الإنسانية ! وهي أواصر يمكن أن يعيش الناس فيها على مودة ووفاء ، فإن دعوة الإسلام — في صميمها ليست إلا توثيقاً لهذه الصلات الإنسانية ، وإقامة قواعدها على أسس ثابتة ، ودعائم متينة ، تمسك بميزان العدل والحق والخير بين الناس . فلا يضطرب ولا ينحرف !

ولا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . . . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، (١)

فأي سماحة بعد هذه السماحة ، وأي دين مثل هذا الدين في سماحته تلك ؟ أو أي مذهب مثل هذا المذهب يسع الأولياء والأعداء ، ويسط لهم يده جميعاً ؟ أي دين أو أي مذهب رفع هذه الحواجز القائمة بين الناس من مختلف الأجناس ، والألوان ، والعقائد ، والألسنة ، والمشارب ، وجمعهم على

مائدة الحياة ، في مودة ووفاق ، كما فعل الإسلام بالمجتمع الإسلامى فى المجتمع الإنسانى ؟ .

ودع ما يتحدث به الغربيون من تسامح الديمقراطية وإنسايتها ، فإنها لا تعدو أن تكون أحاديث منمقة مزوقة ، ينكشف زيفها ، ويبطال عملها ، عند التطبيق ، وعند ملامسة الواقع الذى يعيش فيه الناس .

إن العصبية للون ، والجنس ، وللعقيدة ، مازال يملأ نفوس الغربيين ، ويتحكم فى تصرفاتهم ، فإذا الناس عندهم بيض وسود . . وإذا العالم فى نظرهم غرب وشرق ، وإذا الشعوب فى حسابهم مسيحيون ومسلمون !

ولو أخذنا نحصى الشواهد ، ونضرب الأمثال لهذا ، لاستولى ذلك على زمام المواقف منا ، وخرج بنا عن موضوعنا الذى نهالج به .

ولكن حينما أن ننظر إلى مأساة فلسطين نظرة خاطفة . . فى هذه النظرة السريعة ينكشف تعصب الغرب ، وينفضح زيف دعواه التى يدعيها عن مبادئه الإنسانية الديمقراطية . .

فأو كان الفلسطينيون غير عرب . . أكان يلقى بهم فى العراق يموتون جوعاً ، وبرداً ومرضاً ؟

وهل شهد التاريخ أمة تجلى عن وطنها فى القرن العشرين ، وعلى مرأى ومسمع من جمعية الأمم المتحدة ، بل وبتدبير الأمم المتحدة التى يسيطر عليها الغرب ، ويوجه سير الأمور فيها ؟

وهل كانت الهدنة الأولى بين العرب واليهود فى سنة ١٩٤٨ وقد أوشك العرب أن يدقوا بجيوشهم تل أبيب ، هل كانت هذه الهدنة التى دعت إليها الأمم المتحدة إلا الخنجر المسموم الذى أغمد فى صدر الشعب العربى لينزع تلك القطعة الغالية من الأرض المقدسة لتسكون مراتها خصباً لعصابة من جرائيم اليهود ، تستوطن فلسطين ، وتخرج منها أهلها منسردين ، محردين من كل ما كان لهم من مال ومتاع وديار !

وقد عاشت هذه المأساة ، وسلخت من عمرها قرابة خمسة عشر عاماً إلى يومنا هذا ولا ندرى إلى متى تعيش . . . ولكن الذى ندرىه ويسجله التاريخ أن العالم الغربى الذى يزعم لنفسه الوصاية على العالم باسم الإنسافية والديمقراطية قد استساغ هذه المأساة ، وكأنها أمر مألوف لم يدخل على العالم بما يزعج ضميره ، ويؤذى وجدانه !

ولو كان أبناء فلسطين غير عرب لما استساغ الغرب هذا المسير الذى صاروا إليه . فقد كانت الحرب العالمية الأخيرة — مثلاً — بما وقع فيها من أحداث قادرة على أن تنبذ أمماً وتمحو شعوباً وتجلبها عن أوطانها فى الميدان الأوربى ، ولكنها مع ذلك احتفظت لكل أمة بأهلها وأرضها ، وبعضها لا يعدو أن يكون فى صغره قرية من القرى « كما مارة موناكو » مثلاً ؟ ولم ؟ لأن أبناء أوروبا - مهما يكن الأمر بينهم — لا يمكن أن يسترقوا ، وأن يباعوا فى الحياة بيع العبيد . . .

أما غيرهم من أمم الشرق فلا عليها أن تطرد ، وتشرد ، وتهيم على وجهها . ومأساة أبناء فلسطين لم تقع على الصورة التى وقعت بها لأنهم عرب وحسب ، ولكنهم عرب ومسلمون معاً . . . وهذا مما ثبت أقدام المأساة ، وأكدها ، ويمكن لها . . . فإن كون الشعب الفلسطينى شعباً مسلماً هو جريئة غليظة ، إلى كونه شعباً عربياً . . . لأن الغرب على رغم لادينيته اليوم وعلى رغم دعوى التسامح التى يدعيها حيال المعتقدات الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية وغيرها ، فإنه مازال يحمل للإسلام بهوع خاص دون سائر المعتقدات والمذاهب — مازال يحمل قدراً كبيراً من البغض والكراهية للإسلام والمسلمين ، وإن الحرب الصليبية التى وجهها الغرب إلى الإسلام منذ تسع مئة عام وإن سكن لها فإنها ما تزال تخفى تحت رمادها جحراً يتضرم حنقاً وغيظاً على الإسلام ، ومازال يرمى دين آونة وأخرى بشرر وشر ينال من الإسلام ومواطنيه ما ينال من ضر وأذى .

وارجع البصر إلى مواطن الإسلام خلال موجة الاستعمار التى اجتاحت قارتى آسيا وأفريقيا خلال القرنين الماضى والحاضر تجد أن ما وقع على الإسلام ومواطنيه من آثار الاستعمار وسيئاته أضغاث ما وقع على الشعوب غير الإسلامية

التي أُصيبت به ! فإذا كان ما وقع عليه الاستعمار أمة ينسب أهلها إلى المسيحية كانت يد الاستعمار رفيقة عليها رحيمة بها ، بل إن الاستعمار لا يجد له مقاماً فيها ، فسرعان ما يرحل عنها وينسحب منها إلى أقطار إسلامية جديدة به !
الحبيشة — مثلاً — أمة للمسيحية مكان فيها . فما حدث لها ؟

إنها الدولة الوحيدة بين دول أفريقية هي التي سلمت من الاستعمار ومن جرائمه ، فلم يدخلها في حسابه ، ولم يضمها إلى قائمة الأمم التي يتعامل معها ؟ !
ولم ؟ لأنّها ما يزهد فيه الاستعمار لقلة مواردها ، وضآلة شأنها ؟ كلا ، فإن فيها موارد كثيرة ، وخيرات موفورة ، ومجالات للاستغلال ، ومواقع « استراتيجية » لها شأنها في الحرب ، وفي السلم .
فماذا إذن ؟ لأنها في حساب الدول المسيحية ! وهذا وحده كاف لأن يمررها عن موكب العبيد الذي ينتظم الشعوب المستعمرة .

لقد كانت قبيل الحرب العالمية الأخيرة حرب بين إيطاليا والحبيشة . . وفيها استولت إيطاليا الفاشية ، التي كانت تنفتح فيها في شهية محمومة إلى التوسع والاستعمار . .

وكانت هذه فرصة لإيطاليا الوحيدة للتوسع والاستعمار الذي تشده ذاك ، ولم يكن لها فرصة غيرها .
فماذا حدث ؟

الذي حدث هو ما كان ينبغي أن يحدث لأية دولة « مسيحية » غابت على أمرها في مجال الحرب ، ووطئت أرضها حيرش أعدائها .
لقد طلبت عصبة الأمم ، — وكانت هي المنظمة الدولية إذ ذاك — طلبت إلى إيطاليا أن تنسحب من الحبيشة .

فلما تلمسأت فرضت عليها « عصبة الأمم » هذه حصاراً اقتصادياً ، وطلبت إلى جميع الأمم المتمثلة فيها أن تنفذ هذا القرار ، وألا تتعامل مع إيطاليا ، حتى تنصاع لطلاب العصبة ، وتجلو عن الحبيشة . . وقد كان ! فلم تحتل إيطاليا مقاطعة العالم لها ، بخلت عن الحبيشة بعد بضعة أشهر من احتلالها .

أو لو كانت الحبشة دولة « إسلامية » - دولياً - وهي في حقيقتها دولة إسلامية لأن غالبية أهلها من المسلمين ، ولكن ضعف أحوال المسلمين قد مكنت للعناصر المسيحية القليلة أن تسود وأن تحكم ! لو كانت الحبشة دولة إسلامية دولياً أكان جلاء إيطاليا يحدث . . وعلى تلك الصورة ؟

ولماذا إذن لم تجل الجيوش الإنجليزية عن مصر إلا بعد نحو ثمانين عاماً ؟ ولماذا لم تجل فرنسا عن الجزائر إلا بعد قرن وثلث قرن وإلا بعد أن استتبسل أهلها - وبعد أن استئسوا - فدخلوا في صراع غير متكافئ مع المستعمرين وضحووا بأكثر من مليون شهيد ؟

ومثل آخر أوضح من كل هذا وأكثر دلالة على ما عند الغرب من حقد دفين على الاسلام - الدولة العثمانية . . كانت تضم تحت سلطانها شعوباً إسلامية وغير إسلامية . . فإذا حدث عندما وهنت قوة العثمانيين ، ولانت شوكتهم !

لقد أقام الغرب حرباً صليبية جديدة على الدولة العثمانية فنشبت حرب « البلقان » التي حشدت بها أوروبا قوى كثيرة - ظاهرة ومستترة - في ميادين الحرب ، وفي مؤتمرات - أو مؤامرات - الصلح ، وانتهى ذلك الدور بقطع الاوصال الأوروبية من جسم الدولة العثمانية . . فانسلخت بلاد البلقان كلها ، وخرجت من الدولة العثمانية : - اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، الصرب ، ومقدونية الأوربية وغيرها !

أهو موقف إنساني وقفته أوروبا مع الدول المغلوبة على أمرها والخاضعة لسلطان العثمانيين ؟ قد كان ذلك يمكن أن يسجله التاريخ ! ولكن ماذا يقول في الوجه المقابل لهذا الموقف ؟

لقد هزمت تركيا مع حليفاتها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى . . وكالحال مع كل مهزوم فرضت عليها عقوبات . . وكان من تلك العقوبات أن تنسأخ عنها الدول الباقية تحت سلطانها ، وهي دول إسلامية كلها ! وكان المنطق يقضى - كما حدث في الولايات التي كانت تابعة لتركيا من القطاع الأوربي ، كان المنطق يقضى أن تحكم كل دولة من الدول الإسلامية نفسها بنفسها . .

ولسكن الذى حدث كان على غير هذا ! لا لعلة إلا أن هذه الدول تدين بالإسلام ، وتلك جريمة لا تغسل أوضارها إلا بالاستعمار !!
ولقد قسمت التركة على الغرب المستعمر ، فهو الوارث ، الشرعى ، لتلك التركة . .

فذهبت فرنسا بالشام ، وجعلت منه دولتين : سوريا ولبنان .
وضعت إنجلترا يدها على العراق ، وتسرق الأردن ، وأقامت فى الأولى حكماً ملكياً وأقامت فى الثانية أميراً على إمارة — وكلا المملك والمؤمر لا يملك ، ولا يأمر .

أما فلسطين — الجزء الباقى من بلاد الشام — فقد جعلت لإنجلترا وصية عليه وصاية انتهت بتسليم فلسطين لليهود !!
وهكذا تم توزيع الأسلاب والغنائم .

أفرايت إذن كيف كان نضيج هذه الضغائن التى يحملها الغرب للإسلام والمسلمين ؟

على أننا لسنا فى مقام السكتف عن جنايات الغرب وآثامه فيما جر على البلاد الإسلامية من مصائب ومحن . . . ولسكننا هنا إزاء مقايضة بين مبادئ الإسلام فى الأخوة والمحبة والبر بالناس جميعاً وبين دعوى الغرب فى ظل المدنية الحديثة لتلك المبادئ الكريمة ، والتهم التى يرمى بها الإسلام من أنه دين حرب وعداوة يثيرها أتباعه فى وجه من يخالفهم ولا يدخل فى دينهم !

ونسأل عن السلام الذى نعم به العالم فى ظل المدنية الحديثة فلانجد إلا حروباً قائمة فى كل مكان ، تتجمع شيئاً فشيئاً حتى تكون حرباً عالمية يصلى العالم كله بنارها ، ويحترق فى لهيبها . .

ففى خلال النصف الأول من هذا القرن قامت حربان عالميتان بسبب أطماع الغرب ومدنية الغرب . . وبسبب هذه الاطماع لم يبت العالم ليلة واحدة دون أن تسكون هناك حرب فى جزء من أجزائه . . هذا إلى جانب الحرب « الباردة » التى تهدد العالم فى كل لحظة بحرب عالمية ثالثة ، تنطلق فيها الصواريخ محملة بالقنابل الذرية والهيدروجينية . وحسبك أن تتصور وقوع هذه الحرب ، لتعرف المصير

الذى يصير إليه العالم . . إنه الفناء الذى لا يبقى على صورة من صور الحياة على هذه الأرض .

فأين هذا من دعوة الإسلام إلى السلام ، دعوة مخلصه ، تنبع من أعماق حقيقة من كل مبادئه ..

فكل ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من مبادئ إنما غايته تقويم الإنسانية كلها فى أفرادها وجماعاتها ، حتى يقوم بين الناس ميزان العدل ، فلا عدوان على الضعفاء ، ولا اعتداء على أموال الناس ودمائهم وأعراضهم . . فن خرج عن هذا الطريق القويم وجد العقاب العاجل الذى يردعه . إلى جانب العقاب الأخرى الذى ينتظره .

لقد أقام الإسلام من مبادئه سياجاً متيناً يحمى الناس - كل الناس - من الناس - كل الناس . . إن المجتمع المثالى الذى أقامه الإسلام بمبادئه ليس مجتمعاً مطلقاً على نفسه بما فيه من خير وشر ، وإنما هو مجتمع أشبه بالشجرة المثمرة الطيبة ينتفع الناس بشعرها . . فن قاته ثمرها فلن يفوته الانتفاع بظلها . . ومن حرم من هذا وذاك فلن يحرم النظر منها إلى منظر معجب يسر الناظرين .

فما عند المسلم من مبادئ دينه وأحكام شريعته لا يتعامل به فى المجتمع الإسلامى وحده وإنما يتعامل به مع الناس جميعاً . . مسلمين وغير مسلمين . .

فالمسلم شخصية واحدة . . لا تنقسم إلى شخصين أو أشخاص ، فيكون لها مع المسلم حال ، ومع غير المسلم حال أو أحوال . . كلا .

فإذا أمر الإسلام بالوفاء بالعهد ، فإنما هو وفاء واحد لكل الناس وفى جميع الأحوال . قال تعالى : « وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم » . . ويقول ربى الإسلام : « من أمن رجلاً على نفسه فقتله ، فأنا بريء من القاتل ، وإن كان المقتول كافراً ، هو قول واحد للناس جميعاً ، وتشريع واحد ينزل عليه الناس جميعاً .

وإذا دعا الإسلام إلى العدل وأمر به ، فإنما هو عدل واحد ، لكل الناس وفى جميع الأحوال . .

يقول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم

بين الناس أن تحكموا بالعدل (١) . . بين الناس عامة ، وليس بين المسلمين وحدهم؟
ويقول سبحانه وتعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو
أقرب للتقوى » (٢) .

هكذا كل مبدأ كريم ، وحلقى قويم جاء به الإسلام ، وكل ما جاء به كريم
وقويم إنما هو خير عام يعود فضله على القريب والبعيد على المسلمين . وغير
المسلمين جميعاً .

كالبحر يلقى للقريب جواهرها منه ، ويرسل للبعيد سحائبها

° ° °

عدود على بدء :

قد يشير دعاة التشنيع على الإسلام ، والتشويه لحقائقه اعتراضات على هذا
القول فيلقونك بعدد من الأسئلة الخبيثة الماكرة . . وكأنهم يجهلون جوابها
ولا يعرفون وجه الحق فيها . .

فتراهم يقولون مثلاً : لماذا يدفع الإسلام أتباعه زمراً إلى ميادين الحرب
ويصور لهم الموت في ساحة القتال بصورة شبيهة ، يحرصون على الفوز بها : حتى
ليتدافعون إلى ساحة القتال تدافع الإبل العطشى على موارد الماء ؟
ولماذا يمجّد الإسلام البطولة ، والفروسية على هذا النحو الذى يمثل حياة
الفروسية فى العصور الوسطى ؟

أذلك مما يعده الإسلام لقيام السلام فى الحياة ؟ وهل سلام مع هذه النفوس
المعبأة للقتال ، والموطنة على الموت للانتقال فى رحلة سعيدة إلى عالم الخلود ؟ إن
مثل هذه النفوس إن لم تجد باباً مفتوحاً للقتال عملت بكتنا يديها على فتحه
أو تحطيمه ، لتجد طلبتها ، ولتحقق الأمنية التى تحرص عليها !!

وقد يبدو لهذا القول ظاهر مقبول إذ أنه يجرى على مألوف الحياة التى لا تقوم
على دين ، ولا ترجع إلى شريعة إنسانية كشرعية الإسلام .

« فالنازية ، حين عبأت شعور الشعب الألماني للحرب ، وملاّت رؤوس الشباب بهذا الهوس المسعور باستعلاء الشعب الألماني وامتياز عنصره ، وحقه في السيادة على العالم - حين عملت النازية على هذا وحققت له اندفع الشعب الألماني نحو الحرب بكل قواه ، وكان من هذا أن قامت الحرب العالمية الأخيرة !

وشئ مثل هذا كان من « الفاشية » الإيطالية التي أرادت أن تحزو حذو النازية الألمانية وأن تجري معها .

وشتان بين ماصع الإسلام في أتباعه ، وبين تلك النزوات التي دعت إليها النازية الفاشية وما على شاكلتهما من دعوات .

وشتان بين إنسان تنمى فيه ملكاته الإنسانية ، فتملؤ كيانه قوة ، وعزماً كما تملأ عقله حكمة ورشداً ، وتملأ قلبه مودة ورحمة .. وبين إنسان تغذيه بطبايع الحيوانات المفترسة . وتستنبذ له مخالف الأسود وختل الذئاب ، ومكر الثعالب !

فالإسلام حين دعا إلى القوة ، وحين مجد الأقوياء ، فإنما لتكون هذه القوة قوة عاملة لحساب الخير ، قائمة على ميزان الحق والعدل .. قوة يحكمها خلق ، ويصممها دين ، وإلا كانت غير محسوبة على الإسلام ، ولا عاملة تحت لوائه .

القوة في ذاتها كمال مطلوب ، وعدم بلوغها نقص وقصور .. ولكنها تكون عيباً حين تتحول إلى أداة شر ، وتستحيل إلى أعصار مدمر .

وقد أراد الإسلام لأنبأه القوة المادية والمعنوية معاً .. قوة الروح ، وقوة الجسد ، لا ليكونوا نموراً وأسوداً يأكلون الناس ، وإنما ليكونوا أعزاء ، أقوياء ، تجدد مبادئ الإسلام في كنفهم حمى كريماً تتمتع فيه أزهارها ، وتنهض ثمارها ، أشبه بالأرض الطيبة التي تشتمل على عناصر القوة والخصب . فالنبت الطيب لا يؤتى ما عنده إلا في أرض طيبة .. فإذا ضمت أرض سبخة فكدة ذبل ومات .. « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » (١) .

فالقوة حين تضبطها قوى الخير والعدل تكون رحمة وبركة على نفسها وعلى من حولها ، أما حين تنعزل عن هذه الضوابط أو تتفلسف منها ، فإنها تكون شراً وبلاءً ، على نفسها ، وعلى من يتصل بها ، أو يدنو منها !

والقوة التي يزكها الإسلام ، ويحث أتباعه على تحصيلها هي هذه القوة الملاجمة بلجام العقل والحكمة ، والحب والرحمة .. قوة مستبصرة ، تعرف طريقها ، وتنتجه إلى غاياته ، ولهذا لم يحمد القرآن القوة إلا ومعها الأمانة ... الأمانة التي تمسك بالقوة أن تجور على حق ، أو تعتدى على ضعيف .. قال تعالى على لسان ابنه نبي الله شعيب في مرسى عليهما السلام : ديا أبت استأجره .. إن خير من استأجرت القوى الأمين (١) ، قوة ترفضها أمانة .. أمانة هي اليد الممسكة بزمام القوة أن تميل إلى ظلم أو فساد في الأرض ، أو بغى أو عدوان بغير حق !

إن الإسلام ليدعو كل مسلم أن يكون قوياً ، ممسكاً من القوى بأقوى أسبابها ، محصلاً لأكرم جواهرها .. قوة عامة شاملة .. قوة في الروح ، وقوة في الجسد .. وقوة في الخلق . وقوة في العلم .. قوة في كل جانب من جوانب الحياة ، وفي كل كنف من أكنافها ..

لأنه حين يحصلها المسلم تكون .. دطاقة ، كبرية من القوى ، يشتمل عليها كيانه ، ويدفع بها في مجالات الحياة فتعلم يديه من كل خير فيها ..

فإذا كانت داعية الحرب خف إلى ميدانها منطلقاً كالريح المرسلة ، فإذا واجه الأعداء كان إحصاراً عاتياً لا يريم مكانه حتى تقتل أو يقتل !

إن الإسلام كان يعطى كل حال حالها .. وحال الحرب ليست لهو ولا لعباً .. لأنها الحرب .. وليس لمن يشهدها إلا أن يكون على حال من حالين : قاتل أو مقتول ..

فهل ترى يدع الإسلام أتباعه أن يكونوا في عداد القتلى ؟ فمن إذن لجهة الخير يحميها ؟ ومن الدعوة السماء يقوم عليها ؟

وهل من شريعة العدل أن يقتل دعاة الإصلاح ويسلم الطغاة والمفسدون ؟
إن ذلك تأباه الحكمة والعدل !

فليكن إذن ما يجب أن يكون . . وهو أن يلقي المسلمون أعداءهم في المعركة وهم مزودون بالقوى النفسية والمادية ، ليكونوا أقدر على أن يصيدوا من أن يصابوا . . واستمع إلى قوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا . . بأنهم قوم لا يفقهون » (١) . . الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً ، وإن يكن منكم منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين ، (٢) .

فإنك تجد في هاتين الآيتين الكريمتين كثيراً من مواقع العجب والدهش :
فن ذلك أن هذه المقابلة النسبية بين قوة المسلم وبين قوة خصمه في الآية الأولى تنبئ فيما تنبئ عنه أن المسلمين في أول أمرهم كانوا قلة . . وهم — فوق هذا — جبهة الإسلام والسابقون إلى غايات الخير من الناس — ومن أجل هذا كان الحرص عليهم أشد ، والضن بهم ألزم . . فلا يقتل أحد منهم إلا في مقابل عشرة يقتلون من الجبهة المعادية !

ومن ذلك أيضاً أن الخير لا يوزن بالشر . . والحسن لا يباع بالسيئ . . فإن كان ذلك أمراً لا بد منه — وهو أمر لا بد منه — فليكن الطيب الواحد في مقابل عشرة ؟ !

وأهلك تذكر هنا تدبير الإسلام في الحسنة والسيئات . . فإن الحسنة تذهب بعشر سيئات . . إن الحسنات يذهبن السيئات ، (٣) . وهذا وجه يمكن أن نرى فيه المعنى الذي أشرنا إليه في الآية السابقة من تقويم المسلم بعشرة من مقاتليه في ميدان الحرب ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين . .

« والفقه ، الذي ختمت به الآية وجعلته صفة منفية عن مقاتلي المؤمنين هو الفقه الذي يمتنع المرء وعياً مبصراً ، مستقيماً مع الفطرة ، فيولد في كيانه إيماناً

(١) سورة الأنفال: آية ٦٥ (٢) سورة الأنفال: آية ٦٦ (٣) سورة هود: آية ١١٤

راسخاً بالخير والعدل . . وكراهية بالامة للعوج والانحراف . . فإذا تامل قاتل عن عقيدة واضحة بيده . . وليس كذلك غير المؤمن . . إن فزاده فارح من كل معنى من معاني الخير والحق ، وإنما تدور في فزاده حيالات من أوهام وأباطيل لا يجد منها في محال القتال مداد يمد به بالصبر ويلقى إليه بالعزم . وهذا المعنى ذاته نجده في المنافق . . فإن أبرز صفاته ألا صفة له . . إنه أشبه بالهرباء ، يتلون كما تتلون ويدور كما تدور . . ولهذا كان وصف المنافقين الذي وصفهم الله به هو أنهم لا يفقهون : قال تعالى ، ذلك بأنهم آمنوا ، ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، (١) .

فالفرق بين المسلم وبين غير المسلم هو هذا ، الفقه ، الذي عبأ به الإسلام نفوس المسلمين ، مما كشف لهم من معالم الخير وما أراهم من آيات الحق . وانظر كيف تفعل أجهزة الدعاية في نفوس المقاتلين ، وكيف تقدم إلى جانب العتاد والسلاح ، عتاداً أقوى من أى عتاد ، وسلاحاً أمتنى من كل سلاح . إن غاية هذه الأجهزة هي تعبئة النفوس ، بما تلقى إليها من التصورات ، وما تحمل إليها من المعاني ؛ التي تزيدها معرفة وفقهاً — إن حقاً ، وإن كذباً — بموقفها من عدوها هذا المرقب الخائر ، الظالم . . أبدأ !!

وفرق كبير بين قضية الحق التي يدافع عنها الإسلام ويجمع عليها الانصار ، ويبدل من أجلها المهج والأرواح ، وبين قضايا محتلطة ظاهرها حق مفترى ، وباطنها أحقاد وأطماع ، ونزوات وشهوات .

ولم يعرف أعداء الإسلام من الإسلام إلا جانب السيف الذي قام بين يدي الحق ؛ برد عنه هجمات المبطلين ، وصلالات المضللين — فإننا نريهم جانب الرحمة التي حملها الإسلام إلى الناس ، وحمل معها السيف الذي يحميها ، ويثبت مغارسها في الأرض .

* * *

الباب الثاني عشر

نبي الرحمة

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

- ١ -

النبوة :

النبوة رحمة راحمة حيث كانت ، وحير غدق حيث أصابت . لأنها تحمل كلمة السماء إلى الناس محملة برحمة الله لعباده ، موقرة بالخير لمن أقبل بها ، وفتحت قلبه لها .

فها بزغ في الناس نبي من أنبياء الله أو رسول من رسله ، إلا والباس منه في معرض الرحمة ، وفي عارض بمطر بالرفد والخير العميم .

فبين يدي كل نبي نور يضيء دنيا الناس ، ويكتنف لهم معالم الطريق إلى الخير والحق . . وعلى ألسان كل نبي كلمات ربانية ترسم للناس مباحج العمل لغايات الخير والسعادة . . يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (١) . . ويقول سبحانه : « رسلنا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٢) ويقول سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٣) . . فأنبىاء الله ورسله هم حجة على عباده . . لأنهم يحملون إلى الناس « أطواق النجاة » حين تضطرب بهم سفينة الحياة ، وحين تنطمس أمامهم معالم الطريق إلى شيطان الأمن والسلامة ! فمن استجاب لهم ، وتناول ما في أيديهم من أضواء الحق ، وأطواق النجاة ،

(٢) سورة النساء : آية ١٦٥ .

(١) سورة الحديد : آية ٢٥

(٣) سورة الإسراء : آية ١٥

سلم وبها ، وكان من العائزين برحمة الله ورضوانه .. ومن أبى واستكبر أن يمد يده إلى هذا الحبل الممدود لنجاته ، واستنقاذه من الهلاك الممطل عليه ، فلا ينوم إلا نفسه ؟
• ومن اهتمدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . (١)

إن أنبياء الله ورسوله هم رحمة حالصة ، لا أجر عليها . ولا من معها . لإنها من الله ، وإلى عباد الله ، ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الله . (٢)

فما حملت دعوة نبي ، أو رسالة رسول شيئاً من شأنه أن يضيق به الناس أو يقتضوا به . لإنها دعوة تحمل إلى الناس الحياة لموات القلوب ، والهدى لضلالات العقول ، كما يحمل النيث الحياة لضموف الأحياء ؛ أو مامن شأنه أن يكون في الأحياء : أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله الظلمات ليس بخارج منها ؟ ، (٣)

نعم .. قد يضيق بعض المنحرفين ، والمتسلطين بدعوات الأنبياء لأن انحرافهم لا يستقيم معها ، ولأن تسلطهم لا يحيا في ظلها .. إذ هي دعوة من شأنها أن تقيم العوج ، وتقضى على التسلط ، وتقيم بين الناس موازين المساواة والعدل .

وهن أجل هذا كان الذين يعادون الأنبياء ، ويسدون الناس عنهم هم دائماً أصحاب السلطان ، وأرباب الجاه والغنى ، إذ يحسبون في هذا الذي تحمله الدعوة النبوية إلى الناس من عدل وإحياء — تمضيحاً لما معهم من سلطان وجاه ، وذهاباً لما بين أيديهم من مال وحطام !! أو هو أقل تقدير لزجاج لما هم فيه من حال رضوا بها وأطمأنوا إليها ..

ولو عقل هؤلاء لعرفوا أن النبي لا ينزع سلطانهم ليضعه في يده ، ولا يأخذ ما لهم ليمنيفه إلى نفسه .. فما جاء رسل الله لطلب جاه أو سلطان ، وما عملوا على جمع المال ، ولا تشييد القصور والاستكثار من الخشم والخم .. لإن دعوة النبي وجهاده وكفاحه من أجل الناس ، ولحساب الحق والعدل ، وليس له من شيء إلا ما فصل الله به عليه من منزلة كريمة عنده ، وثواب طيب لما حمل من عبء الدعوة . ولما لقي في سبيلها من عت وأذى : « إن أجرى إلا على الله ،

ولو عقل هؤلاء الذين يعادون الأنبياء ، لعرفوا أن دعوتهم هي دعوة الحق والإحسان ، والعدل والبر ، وأنها لا تتعرض للسلطان العادل ، ولا تقف في وجهه الغنى ، إذا كان فيه حق الله وحق السائل والمحروم .

قد يصاب بعض الناس من الشمس بضربه . أو من الماء بهصة . . ومع هذا فإن الشمس هي سر الحياة ، والماء هو أصلها ومحسنها . فالتطلع الشمس في كل مكان وليجر الماء في كل صوب ، وإن أودى بالشمس خلق ، وغرق أو ذبح بالماء خلق ، فإن هذا الذي يذهب هو ضريبة الحياة للأحياء .

وكذلك دعوات الأنبياء قد تصيق بها بعض النفوس ، وقد يهلك بها بعض الناس ، ولكن ذلك لا ينقص من قدرها ، ولا ينال من جلالها ، فإن الذي يذهب ويعطب لا يعد شيئاً إلى جانب الذي يبقى ويسلم .

الرسالة المحمدية :

وإذا كانت دعوات الأنبياء رحمت وبركات على الناس في أجيالها وأوطانها ، فإن رسالة محمد ، رحمة شاملة ، وبركة عامة ، للناس جميعاً ، من كل أمة ، ومن كل جنس ، على مدى الأيام والدهور .

إنها رسالة لا تخص أمة من الأمم ، ولا تنتهي عند زمن من الأزمان . . فهي ليست للعرب وحدهم ، وليست لعصر النبوة وحده . . فما العرب فيها إلا لسانها وترجمانها ، وما عصر النبوة إلا مطالعها ، ومجلى أنوارها . . ثم هي بعد ذلك رحمة متباعدة في الناس كلهم ، وحظ مقسوم لجميع الأزمان ؛ « قل يأيتها الناس : إن رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله . . النبي الأمي .. الذي يؤمن بالله وكلماته . . » (١)

ومن أول آية نزلت من القرآن شعر النبي أنه رسول الله إلى الناس كافة ، إذ كانت الآية شارحة لقضية الإنسانية ، من حيث أنها مخلوقة من معدن واحد ،

(١) سورة الأعراف: آية ١٥٩ .

فليس لأمة ، ولا لعب فصل أو امتياز في الأصل والنسأة . . ولا في الدم أو الموطن ، ولا في الزمن السابق أو اللاحق .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » (١) .

فهذه أول آية يتلقاها الرسول من السماء ، وتفتح بها رسالته : الله هو خالق كل شيء . . والإنسان هو من مخلوقات الله . . قد خلق من علق !

هذا هو عنوان الرسالة المحمدية : « الإنسان ، . . الإنسان مطلقاً ، في أى مكان ، وفي أى زمان !

والقرآن الكريم كله ، في أحكامه وتشريعاته ، وفي أوامره ونواهيه ، وفي نصائحه ووصاياه — مخاطب الناس جميعاً ، ويدعو الناس جميعاً . . بهذه الكلمة العامة الشاملة : « يا أيها الناس » أو « يا بني آدم » أو « يا أيها الإنسان » . ولم يختص العرب أو قريشاً بمخاطب أبدأ ، فلم يقل يا أيها العرب ، أو يا بني إسماعيل ، أو يا أبناء عدنان وقحطان . . كما كان ذلك شأن أنبياء الله ورسله في أقوامهم ، ومن أرسلوا لهم . . فكان كل نبي يدعو قومه خاصة كما حكى القرآن الكريم ذلك في قصص الأنبياء : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين » (٢) .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً .. قال يا قوم . . . » (٣) .

« وإلى عاد أخاهم هوداً .. قال يا قوم . . . » (٤) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً .. قال يا قوم . . . » (٥) .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكّرهم بأيام الله . . » (٦) .

(٢) سورة نوح: آية ١

(١) سورة العلق: آية ١

(٤) سورة هود: آية ٥٠ .

(٣) سورة هود: آية ٨٤

(٦) سورة إبراهيم: آية ٥ .

(٥) سورة هود: آية ٦١

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوني ، وقد تهللون أنى رسول الله إليكم ؟ » (١)

« وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تدبجوا بقرة » (٢) .
وهكذا كانت دعوات الأنبياء في أقوامهم خاصة ... ولم تعد أقوامهم ، ولم تجاوز حدود أوطانهم .

وأكثر من هذا .. فالذى يقرأ التوراة والإنجيل — على ما هما عليه الآن — يجد فيهما حرصاً شديداً على احتجاج الرسالة الموسوية ، والرسالة العيسوية عن الناس ، وقصرها على بني إسرائيل خاصة .. فلم يكن لهاتين الرسالتين متوجه لغير بني إسرائيل ، ولم يكن لهُذين النبيين الكريمين — موسى وعيسى — شأن بداية أحد من الناس غير شعبيهما الذى بعثا إليه .. والقرآن الكريم يذكر ما بين موسى وفرعون فيحدد العاية التى من أجلها أرسل موسى إلى فرعون . وهى تخليص بني إسرائيل من قبضته ، وإخراجهم من تحت سلطانه ، الذى بسط عليهم فيه يد القهر والاذلال « يقتل أبناءهم ؛ ويستحي نساءهم » . ولم يكن لموسى دعوة مباشرة إلى فرعون ليؤمن بالله ، اللهم إلا ما قد يلح فرعون من دلالات تدل على الله ، فيما قدم له موسى من معجزات ، تصدق دعواه أنه رسول رب العالمين ، قد أرسله إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل .. يقول الله سبحانه وتعالى لموسى وهرون :

« اذهبا إلى فرعون إنه طغى ؛ فقولا له قولاً ليناً ، لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا ، إننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى » (٣) .

ويقول سبحانه على لسان موسى مخاطب فرعون : « يا فرعون ، إني رسول

(١) سورة الصف: آية ٥

(٢) سورة البقرة: آية ٦٧ .

(٣) سورة طه: الآيات ٤٣ — ٤٧ .

من رب العالمين حقيقى على ألا أقول على الله إلا الحق ، قد جمعتك بآية من ربك فأرسل معى بنى إسرائيل ، .

والتوجهات التى يلقى بها موسى إلى فرعون إلقاء مباشر أهى فى الواقع لحساب الغاية الأصلية من الرسالة الموسوية ، وهى تخليص بنى إسرائيل من العذاب الممير ، فإذا دعا فرعون إلى الله فإنما ليستقيم على الحق ، وليأخذ بنى إسرائيل بالرحمة والعدل . . التى يأمر الله عباده بها . . يقول سبحانه وتعالى : « اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ » (١) أى ليخشى الله فى بنى إسرائيل ، ويرضى يده القابضة على رقابهم !

وليس معنى هذا أن فرعون لا تقوم عليه الحجة بدعوة موسى له إلى الإيمان بالله . . كلا . فإن موسى قد دعاه إلى الإيمان بالله ، وأقام عليه الحجة بتلك الدعوة ، وما قام على دلائل صدقها من آيات معجزة قاهرة ! ولكن لم يكن ذلك إلا لأن لفرعون شأناً فى حياة بنى إسرائيل ، فهم فى ملكه ، وتحت سلطانه ، ولأنهم لم ينجسوا من هذا السلطان كان لابد أن يكون ذلك عن رضى من فرعون ، ولا يرضى فرعون حتى يخرج عن طبيعة البطش والقهر والظلم ، التى تستبد به ، ولا يكون ذلك إلا عن إيمان بالله وعن مراقبته وحسنه . . ومن هنا كان موسى رسولاً إلى فرعون ، وداعياً له إلى الله ، وإلى الرفق بعباد الله . . فلما لم يستجب فرعون لهذه الدعوة ، ولم يرسل بنى إسرائيل مع موسى ، كان لله تدبير . . فأوحى الله إلى موسى أن يخرج بنى إسرائيل متخفياً بالليل ، وأن يهرب إلى حيث لا سلطان لفرعون . . : « أن أسر بعبادى ليلاً ، إنكم متبعون ، وאתرك البحر رهواً . . لإنهم جند مغرقون » (٢) .

أما التوراة فإنها كلها لبنى إسرائيل ، ليس فيها شيء لأحد من الناس غيرهم . . حتى أن الله هو إلههم وحدهم دون الناس ، لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا ينال برحمته وفضله سواهم . . هو رب الجنود ، وهو ، « رب إسرائيل » ، وليس رب الناس ، ولا رب العالمين !

(٢) سورة الدخان: آية ٢٣ ، ٢٤

(١) سورة النازعات: آية ١٧ - ١٩

« وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل وقل لهم : أنا الرب إلهكم ، مثل عمل أرض مصر التى سكنتم فيها ، ومثل عمل أرض كنعان التى أناأت بكم إليها لانعملوا ، وحسب فرائضهم لا تسلكوا » (١) .

« وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا إلى مقدمة .. من كل من يحبه قلبه يأخذون تقدمتى ، وهذه المقدمة التى تأخذونها منهم .. ذهب وفضة ونحاس ١٠٠ » (٢)

وهكذا كل ما حملت التوراة من تشريع هو موجه إلى بنى إسرائيل ، لايراد به غيرهم من الناس . إنه تشريع « مفصل » على « كياس » هذا الشعب ، وهو « دواء » لا يصلح إلا لهذه الجماعة التى حملت فى كيانها تلك الجراثيم الخبيثة التى أفسدت فطرة الله فيها ، وكان أصدق وصف ما وصفهم به المسيح فى قوله : « يا أولاد الحيات » .

وكذلك « الإنجيل » .. وصاياه كلها لبنى إسرائيل ، ومعجزات « عيسى » كلها لبنى إسرائيل .. فهو إذا أبرأ الكمى ، والعمى ، والبرص فى بنى إسرائيل لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا يمد يداً إلى سواهم :

ففى إنجيل متى : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى قواحي صور وصيدا ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم ، وصرخت إليه قائلة : ارحمنى ، ياسيد يا ابن داود ! ابنتى مجنونة جداً .. فلم يجبها بكلمة .. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ! ، فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ! فأنت وسجدت له قائلة : ياسيد .. أعنى ! فأجاب وقال : ليس حسنأ أن يؤخذ خبز البنين ، وي طرح للكلاب الضالة ! ! فقالت : نعم ياسيد : والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط على مائدة أربابها ! » (٣) .

(١) الإصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين .

(٢) الإصحاح الخامس والعشرون من سفر الخروج .

(٣) إنجيل متى : الإصحاح الخامس عشر .

فأظفر كعب كان موقف السيد المسيح مع هذه المرأة التي علقت آمالها به ؟ وكيف أذلت كعب يائها ، ونزلت إلى منزلة الكلاب ، لتتال من فئات المسائفة المملودة لبنى إسرائيل ؟ !

وليس فى هذا ما يؤخذ على الرسالة والعيسوية . . فهو رسول الله إلى قومه . . مهمته محددة بهؤلاء القوم . ليس له شأن بما عداهم من الناس . . وذلك شأن جميع الرسل المبعوثين من قبله . . كل رسول داعية إلى الله فى قومه ، منغول بهم عن كل ماعداهم .

ولكن الذى لا يستقيم مع هذه الدعوة المحددة القول بأن عيسى ، هو ابن الله أو هو الله ، أو ما شاكل ذلك من الادعاءات . وأنه إنما جاء على تلك الصورة البشرية المجسدة ، ليكون له مكان بين الناس ، يعيش فيهم ، ويحيى معهم ، ثم تختم حياته بالصليب ليكفر الخطيئة التى تعيش فى الناس . من ميراث أبيهم آدم ، وليطهرهم منها !

وفى هذا القول تنافقت ، وبطلان من وجوه كثيرة :

فأولاً : لو كان المسيح هو الله أو ابن الله تجدد فى صورته التى عاش بها فى الناس لما كان له مكانة فى بنى إسرائيل خاصة ، ولا قصر دعوته عليهم . . ولما كان الإله الذى يقرم على السموات والأرض ، ويديطر رحمته للناس جميعاً .

وإذا كان من تدبير عيسى — وهو الله أو ابن الله — أن يكفر خطيئة آدم فى أبنائه ، فكيف يحل هذا التكفير لبنى إسرائيل وحدهم دون أبناء آدم ، وكلهم آخذ بنصيبا من تلك الخطيئة ؟ . . معقول جداً أن يحى النبى إلى جماعة من الناس ، وأن يطلع عليهم بالهدى والرحمة والبركة ، كما يصيب الغيث جانبا من الأرض فيحضر ويمرع على حين تظل هناك كثير من وجوه الأرض مغبرة كالحة مجدبة ! ولكن غير معقول أن يحى الله فى صورة بشر ليخلص الناس من الخطايا ، ثم يختص بهذه الرحمة التى أرادها للناس — فريقاً منهم ، ويحجزها عن

العالية العظمى من الناس . . إن ذلك تدبير لئلا يدخل في حكمة الله ولا يحصى . مع عدله . فأين يذهب الناس بعد أن قبض الله عنهم يده التي بسطها لحفنة قليلة من الناس هم بنو إسرائيل ؟

وثانياً : لماذا كان المسيح الإله قد جاء ليخلص الناس ، وليحمل عنهم خطيئتهم ، فذلك — إذا سلمنا به — إنما يكون لجيل الذي أدركه المسيح الإله من أجيال الناس ، وقد يمتد للأجيال اللاحقة لهذا الجيل . أما الأجيال السابقة لظهور المسيح من عهد آدم إلى يومه الذي ظهر فيه فإنهم بمعزل عن هذا الذي جاء المسيح من أجله ، لا يبالهم منه شيء ، لأنهم لم يؤمنوا به ، ولم يعتمدوا بهاء المعمودية الذي باركته يد المسيح !

وإذا كان ذلك كذلك ، فما شأن هذه الأجيال الكثيرة التي تقدمت لظهور المسيح من آدم إلى يوم ظهوره . لماذا لم تأخذ فرصتها من التطهير ؟ ولماذا لم يحىء إليها المسيح في الصورة التي جاء بها ، وللغاية التي قصد إليها منذ هبط آدم إلى الأرض ؛ ليسح بيده على ظهر آدم أو أبنائه فيطهرهم ويحمل خطيئتهم وخطايا الأجيال المتعاقبة من ذرائعهم ؟ ألم يكن ذلك هو الذي تقتضيه الحكمة والعدل ، إن لم يكن من مقتضيات المنطق والعقل ؟

والم يكن ذلك هو الذي يناسب الغاية التي يدعيها المدعون لنجى المسيح الإله ، وهي تطهير خطايا الناس وحمل أوزارهم ؟

إن القول بأن السيد المسيح هو الله أو ابن الله هو قول أبتر ، لا يستقيم أبداً ، على تملك الصورة التي يدعيها المدعون له .

إن المسيح إلهاً فليكن شأنه عاماً في الناس ، ورحمة شاملة لهم في أجيالهم جميعاً . . من آدم إلى أن ينتهي دور الناس على هذه الأرض لا أن يكون ذلك لبنى إسرائيل خاصة . . وإن لم يكن المسيح إلهاً . وكان نبياً من أنبياء الله ورسولا من رسله ، فلتكن دعوته في بنى إسرائيل ولبنى إسرائيل ، شأن الرسل والأنبياء من قبله !

المسيح إله أو بى . . إله للناس جميعاً . . أو نبى فى بنو إسرائيل ، ولا ثالث وراء هذين الأمرين

الرحمة الدائمة الشاملة :

وعجب أن تقصر يد المسيح الإله ، أو الإله المسيح عن أن تمس برحمته الناس جميعاً وأنها تضيق بهم إلى الحد الذى لا يسع أحداً عير بنى إسرائيل . . ثم يكون لإنسان من الناس ، ولد بشر من البشر محض الإنسانية ، حالص البشرية ، ليس إلهاً ولا ابن إله ، — يكون لهذا الإنسان أن يحمل رحمة السماء إلى الناس جميعاً . من كل أمة وفى كل جيل !

عجب هذا . عجب ألا يتساوى الإله مع الإنسان . . وأن يكون المسيح الإله دون محمد ، الإنسان النبى !

فهذه رسالة محمد ، قد حملها صاحبها — بتدبير السماء — إلى الناس كافة . . فأذنهم من أول يوم بما أمر الله سبحانه وتعالى أن يؤذنهم به : « يا أيها الناس . . إني رسول الله إليكم جميعاً » (١) . وجاءت آيات الكتاب تحمل أحكام الشريعة للإنسانية كلها : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢) . « يا أيها الناس اتقوا ربكم . . إن زلزلة الساعة شئ عظيم » (٣) . « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (٤) . « يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنا ما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » (٥) . « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك » (٦) . « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » (٧) .

- | | |
|-----------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الأعراب : آية ١٥٨ | (٢) سورة البقرة : آية ٢١ |
| (٣) سورة الحج : آية ١ | (٤) سورة لقمان : آية ٣٣ |
| (٥) سورة يونس : آية ١٠٨ | (٦) سورة الألفطار : ٦ - ٨ |
| (٧) سورة الأعراب : آية ٢٧ . | |

وهكذا تتكرر دعوة الإسلام على لسان الرسول ، وفي آيات القرآن في تلك الصورة العامة للناس جميعاً ، لا يلتبس بها شيء من التخصيص بأمة دون أمة ، أو بجيل دون جيل .. ففي خير مطلق للناس جميعاً ، ورحمة مبسطة لكل من يتعرض لها ، ويمد يده إليها !

وقد ظهرت آثار هذه الدعوة الشاملة العامة منذ اليوم الأول للإسلام، فدخل فيه منذ أيامه الأولى ، بل منذ يومه الأول العبيد والأحرار ، والعرب ، والعجم ، فكان بلال ، — العبد — وسلمان — الفارسي — من أول الناس إسلاماً ! سئل النبي صلى الله عليه وسلم : من أول من بايعك على الإسلام ؟ قال : حر وعبد — .. قيل : إن الحر هو أبو بكر والعبد هو بلال .

ولعل في هذا البدء الذي بدأ به الإسلام من أن يكون أول المستجيبين له حر وعبد — لعل في هذا ما ينبئ عن طبيعة هذه الرسالة المحمدية ، وأن حظ الناس فيها سواء ، وأن للعبد مثل ما للحر منها . وأن العبيد والأحرار فيها في كفتي ميزان . لأنهم جميعاً أبناء طينة واحدة .. كلكم لأدم ، وآدم من تراب ، كذلك كان من مقررات الرسالة المحمدية دعوة النبي للملوك والقيصرة ، والرؤساء من غير العرب ، فبعث النبي بكتبه ومبعوثيه إلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى كسرى ملك الفرس ، وإلى المقوقس رئيس القبط في مصر ، يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بالله والاستجابة لله ولرسوله .. فالملوك والسوقة والأحرار والعبيد ، والرجال والنساء كلهم مدعون إلى الإيمان بالله والاستجابة لداعى السماء .. ثم إنه لم تمر سنوات على الدعوة الإسلامية حتى دخل في دين الإسلام كثير من الأمم والشعوب ، من جميع الأجناس . ومن مختلف الأمم .. وكان مسكنهم في الإسلام بمنزلة واحدة .. لأفضل لعربي على عجمي ، ولا لأسود على أحمر .. إلا بالقوى .. . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، (١) .

فأين من هذا ما ادعى لدعوة المسيح الإله أو الإله المسيح ؟

ولا تنتظر إلى ما صارت إليه دعوة السيد المسيح بعد أن انتهى دوره فيها ، وبعد أن ردها أصحابها من بنى إسرائيل ، وأبوا أن يقبلوا هذا الرسول الكريم ، وأن يعترفوا به وبرسالته . . فلم يؤمن به إلا نفر قليل لا يكاد يذكر من بنى إسرائيل . . لا تنتظر إلى هذا ، ولا إلى من دخل في دعوة المسيح من غير اليهود . . فإن دعوته لم تكن إلا لليهود خاصة ، ولم يكن للسيد المسيح تدبير فيما حدث بعد ذلك من دخول غير اليهود في دعوته . . فإنه لم يتجه بدعوته إلى أحد غيرهم ، ولم يحاول أن يقول كلمة واحدة لقيصر أو لجنود قيصر الدين كانوا يحكمون إسرائيل ، ويعيشون بين اليهود . .

فإذا قدر لدعوة السيد المسيح أن تخرج من محيطها إلى محيط آخر ، وأن تتحول من شعب إلى شعوب أخرى ، فإن ذلك لم يكن من طبيعة الرسالة ، ولم يكن من أهدافها .

ذلك لأن الرعايا التي حملتها رسالة السيد المسيح لا يمكن أن تنقلب الحياة ، وأن يعيش فيها الناس أجيالا وأزماناً ، وإنما هي دواء مر المذق لشعب إسرائيل الذي كان قد أصيب في روحه بداء ذهب بكل ما فيه من مقومات الإنسانية ، وبالعناصر الطيبة فيها . فكان لابد من هذا الدواء المر الثقيل ، ليخلص هذه النفوس المنكوسة من دائها الوبيل .

ومن أجل هذا نرى هذا التفاوت البعيد بين حياة المسيحيين ، وبين الدعوة المسيحية ، فما استقام المسيحيون على تلك الدعوة في أي دور من أدوار حياتهم فيها . . لأن مقررات هذه الدعوة لم تكن للحياة العامة ، ولم تكن للناس جميعاً ، وإنما هي لفترة من فترات الحياة . ولجيل معروف من أجيال الناس .

ولو أراد المسيحي أن يكون مسيحياً حقاً ، مستقيماً على دعوة المسيح . لكان راهباً يعيش في إطار من الإذلال لنفسه ، والانطواء على ذاته . . !

ولا شك أن مثل هذه الحياة لا تستقيم بها حياة الناس ، ولا يصبر عليها كثير من الناس .

وكيف يستطيع الناس أن يحيوا حياة طبيعية في ظل هذه الوصايا التي ألقاها السيد المسيح في أسماع اليهود فجعلوا أصابعهم في آذانهم دونها ؟ وهل يستطيع الناس أن يقوموا على الوفاء لمثل هذه الوصايا ؟

يقول السيد المسيح في بعض وصاياه : « قد سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر . . بل من لطمك على خدك الأيمن فاحول له الآخر أيضاً . . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين !

« سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم . . ١ » (١)

وأحسب أن النفس البشرية لا تتسع لهذه الوصايا ، ولا تستقيم عليها . . إن الناس هم الناس ، وليسوا ملائكة يمشون في الأرض . . وما نحسب أن الحياة على هذه الأرض تسمح بتجربة ناجحة لهذه الوصايا في أى مجتمع بشري . يقول « جان جاك روسو » ، في مدى التطبيق العملي لتعاليم المسيحية :

« ويقولون لما إله إذ وجد شعب من المسيحيين الحقيقيين فإنهم يؤلفون مجتمعاً هو أكثر المجتمعات التي تتصورها كمالاً وأنا لا أرى في هذا الفرص سوى صعوبة كبرى واحدة ، وهي أن المجتمع المسكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعاً بشرياً . . بل أقول أيضاً إن هذا المجتمع المزعوم لن يكون رغم كل كماله أقوى المجتمعات ولا أدومها ، فبقدر كماله ستهوزه الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكه في كماله ؛ ذاته . .

ويقول : « إنى أخطئ » إذ أتحدث عن جمهورية مسيحية ، فالسكلمتان متناقضتان : إن المسيحية تفسر بالعبودية والطاعة . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيداً ، (٢) .

ويقول « نيتشه » في سخرية : « إن المسيحي الوحيد مات على الصليب !! » .

(١) إنجيل متى : الإصحاح السادس .

(٢) العقد الاجتماعي ترجمة عبد الكريم أحمد ص ٢٣٧ .

نستطيع بهذا أن نقرر في يقين نقض ما يدعيه المدعون المسيح من أنه خارج عن طبيعة البشر ، وعن سنة الأنبياء من قبله . فنقول إنه بذر ، ولأنه هو نبي ، ورسول إلى بني إسرائيل وخدمهم دون الناس .

وأكثر من هذا ، فإننا نستطيع أن نقرر أيضاً أن الذين تابعوا السيد المسيح وآمنوا بدعوته من غير اليهود هم دخلاء على هذه الدعوة ، يتناولون من طعام غير معد لهم ، وغير متناسب مع طبيعتهم . لا يصلح لهم ولا يسلمحون له . إن الرسول ليس رسولاً إليهم ، والرسالة لم تكن سرعاً لهم . فكيف يدينون بدين لم يدعوا إليه ، وشريعة لم يحسب لهم حساب فيها ؟

ولو كانت شريعة موسى ، أو المسيح شريعة عامة شاملة لسكان إيمان المؤمنين بهما من غير اليهود إيماناً صحيحاً ، لا شائبة فيه ، بل هو الإيمان الواجب على كل عاقل أن يدين به ، ويستقيم عليه .

ولسكن الأمر — كما قلنا — على خلاف هذا ، فالديانة الموسوية ليست لأحد غير اليهود ، ولا متوجه لها إلا هذه الجماعة من الناس ، لتعالج داء « محلياً » متوطناً فيهم ، متمكناً في نفوسهم . . وليس الدواء الذي تحمله شريعة موسى وتؤكدُه وصايا المسيح إلى هذه الجماعة المريضة بالذى تصلح عليه نفوس غير تلك النفوس ، أو يداوى به داء غير هذا الداء !

وهل رأيت مريضاً بالحمى — مثلاً — يتداوى بالدواء الذي يوصف للبرد؟ وهل يغير ذلك من واقع الأمر شيئاً أن يكون الطبيب الذي تشخص داء البرد ووصف علاجه هو ماهو في العلم والمعرفة ؟ ذلك هو الحال سواء بسواء في الديانة العيسوية فهي امتداد لشريعة موسى وتأكيدها . بل هي تكرار للدواء لذات الداء الذي يكمن في كيان بني إسرائيل .

• • •

وقد يقول قائل : إن شريعة الإسلام ذاتها تدعو إلى الإيمان بالشريعتين الموسوية والعيسوية ، وأن القرآن يقول : « قلوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ،

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، (١) .

ونقول في إيجاز : إن الذى تدعو إليه شريعة الإسلام من الإيمان بالمؤمنين وما أنزل عليهم ، هو التصديق بالرسول ، والتصديق بما جاءوا به ، إذ أن ما جاءوا به هو الهدى والخير ، وهو الحق من عند الله ، وليس المراد بهذا التصديق العمل بالشرائع التى جاءوا بها ، فقد جاء القرآن بهذا الخير كله ، وبهذا الهدى كله .

• • •

وندع هذا كله لنعود إلى حديثنا عن الرسالة المحمدية من جانب الرحمة العامة فيها ، فنقول إنما قبل أن ناتمى النواهد والأدلة على هذه الرحمة العامة فى الرسالة المحمدية نجد القرآن الكريم قد تولى تجاية هذه الحقيقة ، فجاء فيها بالقول الفصل فى غير موضع منه ، وفى غير آية من آياته . فقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢) . وقال سبحانه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٣) فالرسول مبعوث لرحمة الناس جميعاً . . . وليس شئ فى باب الرحمة بالناس أفضل من استنقاذهم من الضلال ، وتزكية نفوسهم وتطهيرها من الرجس . إن ذلك يعادل الحياة بعد الموت ، والبصر بعد العمى ، والسمع بعد الصمم . « أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ » (٤) ورسالة محمد ، تحمل للناس جميعاً الهدى فى رفق ، وفى لين . فليس فيها هذا البريق الذى يختلف الأبصار ، ثم يخبى ، وليس فيها هذا الجف الذى تنقطع له الأنفاس ، وينقطع دوفه جهد كثير من الناس .

إنها ليست رسالة طوارئ ، كما جاءت كثير من الرسالات فى أحوال مضطربة ، وطروف قاسية . قد ركب الناس فيها ظهر العتمة ، ولجوا طابع

(١) سورة النقرة : آية ١٣٦ (٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .
(٣) سورة التوبة : آية ١٢٨ (٤) سورة الأنعام : آية ١٢٢ .

الوحوش السكسرة .. فكان محى الرسول فى مثل هذه الأحوال ، وفى مواجهة تلك الظروف ، إنما هو للإنقاذ الحاسم السريع ، الذى لا يمتثل مهلة أو تطاولا فى مدة الإنقاذ . . ومن أجل هذا كان إعلان حالة الطوارئ ، هو العلاج الحاسم فى مثل هذه المواقف ، ومن أجل هذا أيضاً كانت عملية الرسول أحياناً تنتهى بالبتر الحاسم ، والتدمير الكامل للمجتمع المريض الذى بعث إليه ، حين لم يكن ينفع العلاج ، ولم يفيد الدواء . . فقد شهد كثير من الرسل مصرع أقوامهم واستئصال فروعهم وأصولهم . . لم ينج منهم إلا قلة تعد على الأصابع .

« الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة . . كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية . (١) . . » وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فماً أبقى ، وقوم نوح من قبل . . لأنهم كانوا هم أقظم وأطغى ، (٢)

فالإهلاك الجماعى ، والإبادة العامة ، والاستئصال الشامل لهؤلاء المنحرفين داعية من دواعى التأمين للإنسانية ، وحمايتها من عدوى هذا الانحراف الذى لا يرجى له شفاء ، والذى إن عاش فى الناس امتدت عدواه إلى غير المصابين به ، فتعم به البلوى ، ويشمل البلاء .

أما الرمالة المحمدية فإنها لم تجيء من أجل أمر عارض ، ولا لحالة طارئة فى جيل من أجيال الناس . . وإنما جاءت للناس جميعاً فى جميع أحوالهم وأزمانهم . . ولهذا لم يكن من تدبيرها تلك الإجراءات السريعة الحاسمة التى تنهى الموقف بين النبي وقومه فى لحظة واحدة ينتهى فيها كل شيء ، ويسكن فيها كل شيء ، فلا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . . بل إن تدبيرها قائم على ترويض الناس ، وأخذهم بالرفق ، وإعطائهم الدواء جرعة جرعة ، على فترات متفاوتة ، وأزمان متباعدة .

(١) سورة الحاقة: الآيات من ١ - ٨ (٢) سورة النجم: الآيات ٥٠ - ٥٢

(٢٧ - النبي محمد)

ولم يكن لرسالة عامة شاملة أن تجيء على غير هذا التدبير والتقدير ، لكي تنجح في مهمتها ، وتبلغ الغاية المرجوة منها .

ولأنك لترى هذا في التشريعات والقوانين الوضعية . . فهي في أحوال الطوارئ تكون إحاسمة قاطعة ، لا تحتل تأويلاً ، ولا تقبل تحويراً ، ولكنها في الأحوال الطبيعية وفي الحياة المستقرة تجيء في صورة تتسع للاحتتمالات المختلفة ، وللتأويلات المتعددة . . التي تفرضها الحياة المتطورة المنتقلة بالناس من حال إلى حال . . ولهذا فإنها لا تتناول إلا الأصول العامة ، وأهميات المبادئ دون الفروع والجزئيات ، التي تختلف صورها وأشكالها ، حالاً بعد حال ، وجيلاً بعد جيل .

والذي ينظر في الشريعة الإسلامية يجد أنها تناولت الحقائق العامة، والأحوال الثابتة التي تعيش في الناس ، ويعيش بها الناس ، في جميع الظروف والأحوال ، ولم تقف عند الحالات التي لا تقع إلا في الفلئات النادرة النادرة من الحياة !

ولك أن تأخذ أي مبدأ من مبادئ الإسلام ، وأي حكم من أحكامه ، وأن تنقل به عبر الأزمان وأن تطوف به في مختلف الأمم والشعوب ، فإن رأيت فيه نبواً عن الحياة ، أو مجافاة لطبائع الناس ، أو تخلفاً عن مواطن الخير والفلاح لمن اعتنقه وعمل به — فلك أن تسوئ الرأي بهذا الدين ، وأن تنضم إلى الجهة المعادية له . . واسكن أنا زعيم لك إن أنت نظرت فأحسنست النظر ، وقدرت فأحسنست التقدير ، وحكمت فعدلت في الحكومة ، ووقفت إلى جانب الحق — أن تعود بعد هذا وملء كيانتك لإيمان بأن هذا الدين هو الدين الحق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد !

وليس من ههنا هنا أن نعرض حقائق الإسلام ، وأن نكشف عن جوهرها الحر الكريم ، فذلك ليس من موضوع هذا البحث ، وإنما يكفي أن نشير إلى بعض تلك الحقائق لإشارات سريعة ، وأن نضعها في إطار البقاء والخلود ، وأن نمنعها بالصلاحية في كل زمان ومكان . . ثم ليقم من يجد في وسعه القدرة على دفعها من مسكانها هذا ، وإخراجها عن صفتها تلك ! فإن

من يقيم لذلك ويجد الدليل عليه — وهيئات — فإن له ، كما قلنا — أن يسـء
الرأى بالإسلام ، وأن يضم إلى الجبهة المعادية له . . والإسلام في هذا أن يخسر
شيئاً ! لأن الذى ينتهى به الأمر مع الإسلام إلى هذا الموقف فهو أحد رجلين :
إما رجل يحمل العداوة الموروثة للإسلام ، ويمتلىء دماغه بما نشئ عليه
وغذى به من صغره من مفتريات على الإسلام ، وطمس لحقائقه . . وإما رجل
أحق مفرور يريد أن يلفت إليه الأنظار فيتعان بأذيال العطاء ، ويندس في
ركب المفكرين . . ليحسب في الرجال . لأنه كالوعل ينطح بقرنيه جهلاً شاحخاً . .
يقف منه موقف الند للند !

ونعرض هنا بعض الأصول التى شرع لها الإسلام ، وبين معالمها وحدودها
فن ذلك : —

١ — الإيمان بالله :

وقد رسم الإسلام إلى التعرف على الله طريقاً واضحاً لا يتعثر فيه إنسان ،
ولا يضل . .

والعقل في شريعة الإسلام هو الذى يهدى إلى الله عن طريق المظر في ملكوت
السموات والأرض . .

فهذا الوجود لا بد له من صانع . . والله هو صانع هذا الوجود ، وهو القائم
عليه . . والله في مفهوم الشريعة الإسلامية إله واحد . . أزلى أبدي . . لا تدركه
الابصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

ذلكم هو الله رب العالمين !

لا يبعد مفهومه عن أحد من الناس .

ولا يحتاج إنسان في طريقه إلى الله إلى أكثر من نظرة يديرها في هذا الوجود . .

فلا أستار ولا حجب بين الله وبين الناس جميعاً . . . !

والعقل هو في كيان الناس جميعاً . . لم تختص به أمة دون أمة ، ولم يستأثر به
جيل دون جيل . . بل إنه في الناس جميعاً . . فرداً فرداً . . لا تزیده الايام
إلا قوة وعمقاً .

فالإسلام يدعو الناس إلى الله ، ويدلهم عليه ، وفي كيانهم جميعاً الدليل الذي يدلهم عليه ، ويكشف معالم الطريق .

٢ — ما يتصل بالإنسان في حفظ حياته :

وفي هذا يقرر الإسلام القصاص في القتلى والجراحات .. قال تعالى : « كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى : فمن نفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » (١) وقال سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأحره على الله » (٢) وقال : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خیر للصابرين » (٣) .

فالقصاص مبدأ من مبادئ الإسلام ، يتولاه ولي الأمر كما أمر الله .. ومن تدبير الإسلام في هذا أنه أبطل التضحية بالنفس الإنسانية ، وتقديمها على مذهب القربان لله .. فقد كان ذلك مباحاً حتى في الشرائع السماوية .. ولكن الإنسان الذي أدركته شريعة الإسلام لإنسان قد بلغ رشده ، وارتفعت قيمته عن أن يكون قرباناً ولو لحالقه .. فإنه وقد بلغ رشده يستطيع أن يتقرب إلى الله بالمعرفة الواعية لجلاله وعظمته ، وهذه المعرفة في ذاتها قربان إلى الله أعظم من التضحية بالجسد ، وأعظم دلالة على حب الإنسان لحالقه !

ومن تدبير الإسلام في هذا أيضاً أنه جعل قتل النفس من أكبر الكبائر ، فلا يتطهر القاتل بأية وسيلة من وسائل التطهير أبداً .. قال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ، إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليماً حكيماً .. ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » (٤) .

(٢) سورة الشورى: آية ٤٠ .

(١) سورة البقرة: آية ١٧٨ .

(٤) سورة النساء: الآيات ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) سورة النحل: آية ١٢٦ .

وليس معنى استبعاد أن يقتل المؤمن مؤمناً أن للمؤمن أن يقتل غير المؤمن .
ولكن المراد بالآية هنا الإطلاق والتعميم ، فلا يقتل المؤمن المؤمن أبداً في جميع
الأحوال ، على حين أنه قد يقتل المؤمن غير المؤمن في حال الحرب بين المؤمنين
وغير المؤمنين . أما في غير هذه الحالة فإن لدم غير المؤمن حرمة مثل دم المؤمن .

٣ — ما يتصل بالإنسان في ماله :

وللبال في الإسلام حرمة كحرمة النفس ، ولهذا وضع الإسلام - حماية للمال -
حداً للسرقة ، والباهب ، والمختلس . كما حرم الإسلام الربا وأكل أموال الناس بالباطل ،
كالغش في البيع ، وتطفيف الكيل ، وسرمان الميزان ، كما حرم الاحتكار ،
والرشوة ، وغيرها مما من شأنه أن تصيب الإنسان في شيء من ماله . . يقول
الرسول الكريم : « كل المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه » .

٤ — ما يتصل في حياته مع الناس :

(١) الرجل والمرأة :

مكان المرأة في الحياة ، وموضعها من الرجل لم تأخذ صورة مستقرة في الحياة ،
وما زال وضع المرأة قلقاً مضطرباً حتى في تلك المجتمعات التي تدعى أنها ساوت
بين المرأة والرجل ، وجعلتها بمنزلة سواء . . فما زالت المرأة هي المرأة . . لأنها غير
الرجل ، وستظل أبداً هكذا . . شيئاً آخر غير الرجل ما دامت تختلف عنه في
تكوينها العضوي وفي وظيفتها لحفظ النوع . . لأنها أنثى . . وليس الذكر
كالأنثى (١) .

ولسنا هنا في مقام الموازنة أو المقاضاة بين الرجل والمرأة ، فذلك ليس في
موضوع بحثنا ، ولا يدخل في مقرراته . . وإنما الذي نريد أن نقرره هو مالا
يشير خلافاً بين أنصار المرأة وخصومها ، وهو أن المرأة غير الرجل . . وأنها وإن
اتفقا في كثير من الصفات فإنها يختلفان أيضاً في كثير من الصفات ، كما أنها
يختلفان فيما اتفقا فيه من صفات كما وكيفاً . . ذلك أمر لا يمارى فيه أحد . .

(١) سورة آل عمران : آية ٣٦ .

وهذا القدر يكفيننا لما نريد أن نقرره ، وهو أن الحياة قد سارت بكل من المرأة والرجل في الاتجاه الذى ينبغى أن يسير فيه كل منهما كي تحقق من سيرها الغاية التى خلقها لها ..

وإن أى انحراف يحدث لهما أو ل أحدهما فى الطريقين الطبيعى يضر بهما ، كما يضر بالحياة التى يعملان فيها .

وإن أى تشريع سماوى أو غير سماوى لا يقوم على هذا التقدير ، ولا يتخذ أساساً فى تحديد العلاقة بين الرجل والمرأة ، وفى وضع كل منهما بالموضع المناسب له — كل تشريع لا يقوم على هذا التقدير لا يمكن أن ينظم به ركب الحياة ، بل لا يمكن أن يعيش فى الحياة ، وإن قدر له أن يقوم فى حال من الأحوال وفى زمن من الأزمان . فلن يكون ذلك إلا أمراً عارضاً لا يلبث أن يزول .

ولا تتخذ لما يبدو اليوم فى المجتمع الغربى ، من إدماج الرجل والمرأة فى كيان واحد ، تبدو فيه الحياة وكأنها أخليت من الرجال ، أو تعرت من النساء .. وأن الناس قد أصبَحوا كائناً واحداً .. لك أن تقول فيهم لأنهم جميعاً رجال أو هم جميعاً نساء ..

لا تتخذ لهذا ...

لا تتخذ لهذا ، فما هو إلا عارض لا يلبث أن يزول ، ويعود كل شيء إلى وضعه الذى لا يصلح شأنه إلا عليه .

والإسلام قد جعل تشريعه فى العلاقة بين الرجل والمرأة قائماً على ما بينهما من ضروب الاتفاق والاختلاف .. فألف بينهما من جهة ، وفرق بينهما من جهة أخرى .. جمعها فى كائن واحد هو الإنسان ، وفرق بينهما داخل إطار الإنسانية: رجلاً وامرأة ، ذكراً وأنثى .

وهو بهذا التدبير الحكيم وضع الأمر فى مكانه الصحيح السليم .

فها من حيث الإنسانية كائن واحد : المرأة والرجل سواء .

يتكافئان فى الدم ، والعرض ، والمال !

فتقتل المرأة بالرجل . ويقتل الرجل بالمرأة فى القصاص عند قتل أحدهما الآخر عن عمد . فإذا قتل رجل امرأة عامداً كان القصاص قتله . وكذلك الشأن فى المرأة . إذا قتلت رجلاً قتلت به . والرجل والمرأة إذا فاحشة أقيم عليهما سعد واحد . . وهو جلد كل منهما مئة جلدة إذا كانا غير محصنين ، أو رجماً إذا كانا محصنين .

وفى المال : يسرق الرجل فتقطع يده اليمنى ، وتسرق المرأة فتقطع يدها . وحرمة ما فى يدها من مال كحرمة مائى يد الرجل من مال ، لا يؤخذ إلا بحق ، والاعتداء على ما بيدها من مال مثل الاعتداء على ما فى يد الرجل من مال ، يقام فيه الحد على السارق ، وتوقع العقوبة على الخاطف والمغتصب .

والقرآن الكريم يوجه أو امره ونواهيته إلى الناس جميعاً ، لم يفرّد النساء بلون خاص من الأمر أو النهى إلا ما كان من مستلزمات طبيعتهن ، وما يقتضيه الحياء الذى ينبض أن يكون سمة بارزة فى المرأة ، ليظل لها مكاناً فى قلب الرجل . وذلك كالتنهي عن التبذل والخلاعة فى الزنى والحركة .

أما فيما عدا هذا الذى تقتضيه طبيعة المرأة فالأوامر والنواهي متوجهة لئليهما معاً وبقدر واحد . فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وقبلها جميعاً الإيمان بالله وبرسوله . هى جميعها للرجال والنساء على حد سواء ، لا يكمل إيمان الرجل أو المرأة إلا بهما . والمرأة والرجل فى موقف الجزاء سواء . الحسنة بهن أمثالها ، والسيئة بمثلها .

وأكثر ما يتوجه الخطاب إلى الرجل والمرأة فى القرآن على صورة الجمع بينهما فى مثل : يا أيها الناس . يا أيها الذين آمنوا ، .

ولكى لا يكون هناك أدنى لبس فى أن المرأة والرجل على حد سواء تجاه أوامر الله ونواهيته . جاء القرآن الكريم بصور من الخطاب يزاوج فيه بين الرجال وبين النساء مثل قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين

والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والداكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا^(١) .

فهذه تسوية مطلقة بين الرجل والمرأة في مجال الطاعات والعبادات ، وفي مقام الجزاء الطيب للعمل الطيب . ويقول سبحانه وتعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها شيء^(٢) » ويقول جل شأنه : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون^(٣) » . هذا هو وضع المرأة مع الرجل في إطار الإنسانية .. هما في مقام واحد ، لهما من نفس واحدة ، كما يقول سبحانه وتعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً^(٤) » .. ويقول سبحانه : « هو خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها^(٥) » .. ويقول سبحانه أيضاً : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة^(٦) » .

فأما في غير المجال الإنساني للرجل والمرأة فهي رجل وامرأة .. ذكر وأنثى .. فليسكل منها طاقاته واتجاهات طبيعته !

فالجهاد - مثلاً - الذي فرضه الإسلام على المسلمين عند اقتضاء دواعيه وقيام أسبابه ، قد أعفى الإسلام منه المرأة أن تدخل ميدان الحرب مقاتلة ، تقتل أو تقتل .. لأن ذلك لا يناسب طبيعة المرأة ، ولا يتفق مع وظيفتها في الحياة . إن الحرب شر بشع الوجه .. دماء تراق ، وأشلاء تتناثر ، وأرواح تزهق .. منظر مفرع مروع .. تطير له نفوس الأبطال شعاعاً وتنخلع قلوبهم ملهاً .. فكيف بالمرأة وما في طبيعتها - منها تكن - من رقة ؟ وما في عذيمتها من خور ؟

- | | |
|----------------------------|-------------------------|
| (١) سورة الأحزاب : آية ٣٥ | (٢) سورة النساء : ١٢٤ |
| (٣) سورة النحل : آية ٩٧ | (٤) سورة النساء : آية ١ |
| (٥) سورة الأعراف : آية ١٨٩ | (٦) سورة الروم : آية ٢١ |

أستطيع المرأة أن تصبر على هذا الموقف ، وأن تتأسك أوصالها فيه ؟ ذلك شيء فوق طبيعتها من غير شك .. وقد دارت الحرب بين الناس والباس في ملحمة متصلة من أول الحياة إلى اليوم ، ولم يشهد الميدان جيوشاً من النساء ، ولا عرف فوارس منهن إلا في فترات نادرة ، وظروف قاهرة — لا تكاد تذكر في هذه الملحمة الطويلة التي عاش فيها الناس محاربين .. وحتى في هذه الفترات كانت المرأة لا تخرج للحرب إلا وقد لبست ملابس الرجال ، وشدت نفسها وعزمها بهذا الثوب المستعار .

ومن جهة أخرى ، فإن المرأة وهي التي كانت مصدر الحياة ومستودعها ، وهي التي حملت الإنسان جنيناً ونشأته في كيانها ، وغذته بدمها ولبنها ، وشاظرته — روحها — هذه المرأة كيف تحمل على أن تغدو إلى ميدان القتال لتهدم ما بذت ، وتقتل أبناءها بيدها . إن ذلك لا يمكن أن يستقيم مع طبيعة المرأة ، وإن استقام — على عوج — عند أفراد في الحياة الإنسانية من النساء .. لا يحسب لمن حساب . وهناك — غير هذا — واجبات كثيرة أعفت الحياة منها المرأة ، وألقت بها على عاتق الرجال ، كالقوامة على الأسرة وتدبير شأنها وحمل أعبائها ، كما أن هناك واجبات أعفت الطبيعة الرجال منها وجعلتها منوطة بالنساء ، كالخل والرضاعة .

(ب) الزوج والزوجة:

وحين يجتمع الرجل والمرأة كزوج وزوجة يسكون للرجل المقام الأول ، والمرأة المركز التالي له .. إن اجتماع الرجل والمرأة كزوجين هو نواة لمجتمع صغير ، ولا بد أن يكون لهذا المجتمع — على صغره — من أمير يقوم عليه ويتولى تدبير أمره وتوجيه شؤونه .

إن الإسلام لا يدع أي مجتمع — مهما صغر — دون أمير يقوم عليه ، ويتولى حمل المسؤولية عنه . يقول النبي الكريم : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمر الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه » .

فلسكل من الرجل والمرأة نصيب من حمل المسؤولية في مجتمع الأسرة الصغير ..
ومع هذا فلا بد - لهذا المجتمع الصغير من مسئول عام ، يتولى - إلى جانب
مسئوليته الخاصة - المسؤولية العامة .. وعلى هذا ، كان لابد أن يكون الرجل -
لا المرأة - هو الذى يتولى القيام على شؤون هذا المجتمع الصغير ، ويكون منه
بمنزلة الرأس من الجسد .. قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله
بعضهم على بعض ، وبما أففقوا من أموالهم » (١) .. ويقول سبحانه : « والرجال
عليهن درجة » (٢) .

ومع هذا ، فقد نبه الإسلام على رعاية الحقوق التى ينبغى أن تكون للزوجة
في هذا المجتمع لئلا يطغى عليها الرجل ويستبد بها ، وتطغيه الإمارة ، فلا يرى
للمرأة مكاناً معه . .

فالقوامه التى جعلها الإسلام في يد الرجل ليست قوامة جبرية ، أو استبداداً ،
واقترافاً ، وإنما هى قوامة ألفة ، وحب ، ومودة ، . قوامة غايته إسعاد أفراد
المجتمع الأسرى ، فرداً فرداً ، لأن في إسعادهم سعادته لرب الأسرة لأنه إنما يسعد
نفسه في أبنائه الذين هم بضعة منه ، وفي زوجته التى هى بعض نفسه كما يقول القرآن :
« خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » (٣)
الرحمة الشاملة أيضاً :

وفعود إلى حديثنا عن حائب الرحمة في الرسالة المحمدية بعد أن عرفنا شمول
هذه الرسالة وعمومها ، وامتدادها عبر الأزمان والأجيال . . وبعد أن عرفنا
أنها لم تكن رسالة طوارئ ترى مهمتها في وقت محدود .

وقد استبان لنا مما تقدم أن الناس في ظل الرسالة المحمدية في أمن من الضربات
المتعاقبة القاصمة ، فلا ينزل بهم ما نزل بأقوام الأنبياء من قبلهم من خسف ،
وإغراق ، ومن صواعق ومهلكات تحملها حجارة من سجيل تملؤها السماء ..
« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » (٤)

ولا شك أن هذا رحمة واسعة وفضل كبير اختتمت به الرسالة المحمدية ،

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢٨

(١) سورة النساء: آية ٣٢

(٤) سورة الأنفال: آية ٣٣ .

(٢) سورة الروم: آية ٢١

التي ما كان غير « محمد » في كماله الكامل أن يحمل مثل هذه الرسالة العامة الساملة .
يقود فيها الإنسانية كلها إلى شطآن السلامة والأمن ، محتملاً ما احتمل من أذى ،
وعنت ، وألم ، دون أن تطاوعه نفسه الرحيمة بالانتقام من آذوه . . . وأودع
دعوة عليهم لتفتحت لها أبواب السماء بالقبول ، وأصبحت المهلكات على أعدائه
صباً . ولكن صبر وصابر ، واحتمل أن يلقي عليه الروث ، وأن يرى بالأسحجار
من سفهاء ثقيف حتى تدمى قدماه ، وأن يتبادره السهام في غزوة أحد حتى يغرز
المخفر في جبهته وتنكسر رباعيته ، ويسيل دمه ، ثم يسأله بعض أصحابه : ألا تدعو
على قريش دعوة تمحقهم وتذهب بهم ؟ فيجيب الرسول الرحيم : « إنا بعثت هادياً ،
ولم أبعث لعاناً . . » ويخفق قلبه الكبير بعواطف الحنو والرحمة بمزوجة
بالإشفاق والأمل ، وتتحرك شفاته ، بهذه الكلمات الخالدة : « اللهم أهد
قومي ، فإنهم لا يعلمون » .

وقد تدافع في صدر الرسول دوافع الغيظ والألم . وتتحرك في نفسه الرغبة
في الانتقام من المعتدين الظالمين . فتصرف السماء هذه الرغبة إلى ما هو أليق
بالرسول العظيم ، وإلى ما هو أنسب لرسالته الرحيمة . . تصرفه إلى التسامح والعفو ،
فالعفو والتسامح من شريعة الإسلام . « وأن تعفوا أقرب للتقوى » . ولئن صبر
وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ، (١)

في غزوة أحد نالت قريش من المسلمين ، فقتل عدد كبير من خيار الصحابة ،
وأصيب الرسول بجراحات في جسده الشريف . . ولم تقف قريش عند هذا ،
بل مثلت بقتلى المسلمين ، وتولت هند بنت عتبة ، وزوج أبي سفيان - كبير هذا
الإثم . وقادت حملة التمثيل ، فبقرت بطن حمزة عم النبي ، وأسعد الله والإسلام ،
وتناولت مزقة من كبده ولا كتها في فمها . . تشفياً وانتقاماً من قتلى بدر ، وفيهم
أبوها عتبة ، وأخوها الوليد بن عتبة .

ولما رأى الرسول الكريم ما فعلت قريش بعمه ، وبصحابته من تقتيل
وتمثيل قال : لئس كان لنا غلبه على قريش لنمثن بقتلاهم أكثر مما فعلوا بنا . . فنزل
قوله تعالى : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير

للسابرين .. واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تلك في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (١)

فانظر إلى أدب السماء مع رسول رب العالمين إلى العالمين .. لأنها ترضى في نفسه جانب البشرية ، فلا تمد عليه منافذ التنفيس لعواطفه وانفعالاته ، فتأذن له بأن يعاقب ولكن بمثل ما عوقب به . فذلك هو شرع الله مع الأعداء والأولياء . وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوفيتهم به .. لا حرج في هذا .. وهنا يتنبه الرسول إلى أنه قد بعد شيئاً عن هذا الأدب السماوى في تلك العزيمة التي عزمها للانتقام من قريش ، لأنه لا يعاقب بمثل ما عوقب به بل بأكثر مما عوقب به ، وهذا ما تأباه شريعة العدل الذى يمسك « محمد » بميزانه المستقيم .. ولو انتهت الآية عند هذا الموقف لكان فيها العظة البالغة للنبي في أن يدع عزمته في الانتقام من قريش حتى بمثل ما كان منهم ، فذلك هو الذى يراه مناسباً لهذا العقاب الخفيف الذى شعر به من الآية الكريمة ، والذى لا يشعر به إلا قلب متعمل بالمالأ الأعلى ، موصول بأنوار السماء ..

ولكن الآية لم تقف عند هذا .. « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به » . بل أظهرت المفهوم الذى فهمه النبي منها .. « وأثن صبرتم لحو خير للصابرين » فجاءت الدعوة عامة للنبي وأتباع النبي بالصبر على أذى الأعداء ، وعلى مبالغةتهم في هذا الأذى بالتمثيل بالقتل .. ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يختص النبي بتوجيه خاص . « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تلك في ضيق مما يمكرون .. عزاء جميل من رب العالمين لنبيه الكريم في هذا الموقف الذى فقد فيه سبعين شهيداً من أكرم صحابته ، وأعز أوليائه !

ثم يحتتم المشهد بهذه الخاتمة التى تدعو إلى التقوى وإلى الإحسان : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .. ومن التقوى والإحسان .. العفو عن الجاهلين وملاقة لإسماعهم بالإحسان ، والغفران .. « ويدرون بالحسنة السيئة .. » « ادفع بالتي هي أحسن » (٢)

(١) سورة النحل: الآيات ١٢٦ - ١٢٨ (٢) سورة الرعد: آية ٢٣ .

(٣) سورة فصلت: آية ٣٤

أرأيت إلى هذا اللطف الذى يحف الله به نبيه فى هذه المحنة القاسية التى مسّت
شعاف قلبه ؟ ثم أرأيت إلى تدبير الله سبحانه وتعالى فى هذه الداخر التى دخل
بها إلى قلب النبى ليتجه به إلى جوانب العفو والمغفرة ؟ لقد عاتب الرسول فى رفق ،
وعزاه فى حكمة ، ودعاه إلى حضرة فى إعزاز وتسكريم .

ويلقى الرسول هذا التوجيه السماوى بالرضا والقبول . فيقول : « بل
نتقى ونصبر » !

• • •

ومن يناييع « الرحمة » التى تفيض بها الشريعة الإسلامية هذا اليسر الذى
تقوم عليه أحكامها . فإنها الشريعة التى اختير لها الطريق الوسط بين الشرائع
السماوية كلها . وهو سمة الإسلام ، وسمة أهله . قال تعالى : « وكذلك جعلناكم
أمة وسطاً » ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، (١) .

والوسط فى كل شىء هو مركز الاعتدال فيه ، ومكان القلب منه .
وطبيعى أن فوق الوسط منزلة أعلى منه ، وأنه ليس هو غاية السجّل .
ولكنه مع هذا هو خير فى مجموعه بما فوقه .. لأنه أثبت وأدوم ، ولأنه أقرب
إلى متناول الناس .. إن لم يكن الناس جميعاً ، فالأغلب الأعم منهم ..

إن الاعتدال فى أى شىء ، وفى كل شىء يحتمله الناس ، ويقدرّون على
الوفاء به ، ويصبرون على مكروهه .. أما ما فوق الوسط فهو أمر لا تحتمله
أكثر النفوس ، ولا تصبر عليه .. وقد يرتفع الإنسان إلى أكثر مما يحتمل ،
فيختل توازنه ، ويسقط فى الهاوية ، ولا تكون السلامة والعافية إلا حيث
الاعتدال الذى يجد فيه الإنسان القدرة على التحرك إلى فوق أو إلى تحت ، وهو
فى تلك الحركة لا يخرج عن المقام الكريم اللائق به حيث يظل بالمنزلة التى
يشرف منها على الأرض ، ويشارف فيها السماء !

قد يقول بعض الناس إن الوسط ، لا طعم له ، ولا ذاتية له .. إنه أشبه
شئ بالخط الوهمي .. إنه ليس شيئاً ، ولا ضد شئ .. إن القسمة في الأمور
إنما هي الشئ وما يقابله : الخير ، والشر .. الأبيض ، والأسود .. الحلو ،
والمر .. الجميل والقبيح .. والوسط الذي يفصل بينهما ليس إلا خطأ وهمياً .
أما الذي يأخذ صفته من هذين الطرفين ، فيأخذ شيئاً من هذا وشيئاً من ذلك
فهو دحيل عليهما ، اصيق فيهما .. يضاف إلى هذا مرة ، وإلى ذلك مرة حسب
الصفة الغالبة عليه من أى منهما .

والشئ الذي على تلك الصفة شئ باهت اللون ، واهى الأساس .. لا يمسك
بشئ ، ولا يمسك به شئ !

انظر .. الماء الفاتر .. وهو وسط بين الحار والبارد .. لا يصلح للاستحمام
ولا يساغ للشرب !

والشراب المز .. وهو وسط بين الحلو والمر .. لا طعم له .. قد جمع بين
الضدين ، وخلط بين المتناقضين .

هذا في الماديات . فإذا ذهبت إلى المعنويات وجدت أن التوسط فيها ،
والوسط منها ليس هو غاية الكمال فيها ، ولا نهاية الخير منها .. بل إنه كلما بلغ
المر فيها منزلة وجد فوقه منازل أخرى أكرم وأفضل .. ولهذا كان التفاضل
بين الفضلاء ، وكان الفضل للمسبق المتقدم ، والحظ الأوفر لمن جد في الطلب .
وتقدم الركب .. فالعلم والتقوى ، والإحسان ، والجهد في سبيل الله ، والصبر
على المكروه ، وغيرها من الفضائل التي يتميز بها الأخيار من الأشرار ، هذه
الفضائل لا ينافع أحد في أن الاستزادة منها استزادة من الخير ، وأن القول
بالتزام حد الوسط منها هو غاية الغايات فيها قول مردود . وكيف وقد علم
الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم أن يدعو فيقول : « رب زدني علماً » (١) . وهو
الذي بلغ غاية العايات من العلم الذي لا يبلغه من البشر غيره ؟ وكيف والله

سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى التسابق في مجال الخير فيقول سبحانه : « ساقبوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » (١) . ويقول : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » (٢) . لقد فتح المجال للتنافس بين المتنافسين على مصراعيه بلا حدود .. فما تأويل هذا ؟

ونقول إنه غير منكر أن فوق حد الوسط منازل كثيرة للفصل ، وأنه غير محجور على الناس أن يرقوا إليها ، وأن يتنافسوا فيها . . . إن الطريق إلى السكك مفتوح للناس جميعاً .. ليس عليه حارس . . فاسلك من وجد في نفسه القدرة ، وأنس منها الاستعداد على مجاوزة « نقطة » المرور أن يضع قدمه على الطريق ، وأن يسير إلى حيث يبلغ جهده !

ولكن هذا شيء ، والتشريع العام شيء آخر ..

التشريع إلزام . وهذا عن تطوع واختيار !

التشريع عقد بين صاحب الشريعة وبين أتباع هذه الشريعة .. فهم مطالبون بالوفاء بها .. إذا قصرُوا حوسبوا على تقصيرهم وأخذوا به ، ولا كذلك ما كان عن تطوع واختيار ! يستطيع الإنسان أن يمتنعه ! وكيف عنه !

والتشريع حين يكون عاماً تقتضي الحكمة فيه أن يكون قائماً على معيار يسع الناس جميعاً . الأقوياء والضعفاء . كما تقتضي رحمة الخالق بعباده أن يكون التكليف مقدرّاً على ما يحتمل الضعفاء لا الأقوياء ، وأن يكون مافي الأقوياء من قدرة على احتمال ما فوق التشريع هو فضل من فضل الله عليهم .. يزدادون به كمالاً فوق الكمال الذي بلغوه بأداء ما كلفوا به .. فإنه « ما على المحسنين من سبيل » !

وهنا يتضح معنى الآية السكرمة « لا يكاف الله نفساً إلا وسعها » (١) ، فإن أي نفس لا تضيق بالتشريع الذي قد على قدر الضعفاء ، وفصل على مدى احتمالهم ! وما تسع نفوسهم .

لهذا كان تشريع الإسلام كله مضبوطاً على هذا التقدير . وكانت سيرة الرسول

في المسلمين ، وأدبه لهم ، قائماً على هذا الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له
مافى السموات وما في الأرض ..

يقول الرسول صلوات الله ، وسلامه عليه : «سيروا بسير أضعفكم» !
فوكب الإسلام موكب ملاحظ فيه جانب الضعفاء في ماديات الحياة
ومعنوياتها ، فلا يوطأ فيه الضعفاء بالآقدام ، ولا يتخطاهم الركب . . !
وهذا إعلان من نور ، وصحيفة مشرقة مسطورة بيد الرحمة والحكمة السماوية
بمكانة الإنسان ، وقيمته عند الله .

فالإنسان شيء عظيم عنده . . ينبغي ألا يضيع بحال أبداً .. وعلى الجماعة ،
أن تتقيد به ، لا أن يتقيد هو بها ، ومن حق الإنسان الفرد أن يحيا في الجماعة ،
وأن ترعى الجماعة هذا الحق ، بل وأن تضحي بالكثير من جانبا لاجله . . !

فأين هذا مما تدور عليه حياة كثير من المجتمعات في هذا العصر، عصر المدنية،
وعصر الثور كما يسمونه ؟

إن الإنسان في كثير من هذه المجتمعات لا يبدو أن يكون أداة من أدوات
الإنتاج ، وأن مكانه في الجماعة على قدر ما يعطى من محصول ! فإن لم يكن من القوى
المنتجة فليلق به في عرض الطريق ، وليذهب طعاماً للجوع والحرمان !

وأين هذا الذي يلقاه الضعفاء في ظل المدنية الحديثة من امتحان وازدراء
من هذا العطف والحنو ، والرعاية التي يلقونها في ظل الدعوة الإسلامية وتحت
جناحها ؟

رأى نبي الإسلام شيخاً من اليهود قد ضعف بصره ، وذهبت قوته وهو
يتكفف ، فقال الرسول الرحيم . . «ما أنصفناك ..» ثم فرض له في العطاء !

وليس هذا شأن الإسلام مع الإنسان وحده ، بل إنه مع كل حي . . من
حيوان وإنسان ..

فقد نهى الإسلام عن تجويع الحيوان ، أو إرهاقه بالعمل . . فإن ذلك ظلم كظلم الإنسان للإنسان . . له جزاؤه السيء عند الله . .

ويكشف نبي الإسلام للناس عن صور من هذا المصير الذى يصير إليه أولئك القساة الذين يؤذون مخلوقات الله . .

يقول النبي الكريم : عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار . . فلاهى أطمعتها ، ولأسقتها ، ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض . .

كما يكشف النبي الرحيم عن المصير الكريم ، والجزاء الحسن الذى يلقيه أصحاب القلوب الطيبة الرحبية فيقول صلوات الله وسلامه عليه : وبيننا رجل يمئى فاستد عليه العطش فوجد بئراً ، فنزل ، فشرب ، ثم خرج . . فوجد كلباً يلهث ، يلعن الثرى من العطش فنزل فملأ خفه ، فسقى الكلب ، فمكرك الله له فغفر له . .

والحيوانات التى أحل الله لنا أكلها بعد ذبحها . يجب أن نرفق بها إلى آخر لحظة من حياتها . . يجب أن تدبج ذبحاً حسناً . فلا يطول لإيلامها وتعذيبها ؛ فيقول النبي الرحيم : « إذا ذبحتهم فأحسنوا الذبحة » .

والحيوان المؤذى كالمقرب والشعبان ، وغيرها مما يتأذى الناس بمقامه بينهم ينبغي إذا قتلناه أن نقتله من غير تعذيب له . . فنقتله لنُدفع أذاه ، لئلا تنسف منه : « وإذا قتلتم فأحسنوا القتل » .

ذلك هو تدبير الإسلام فى رعاية الضعفاء والرفق بهم ، سواء أكانوا من الإنسان أو الحيوان .

فإذا ظهرت فى هذا العصر بعض الدعوات التى تنادى بالرفق بالحيوان ، فإنها على ظاهرها الطيب البهيم - ليست نابعة عن طبيعة أعمىة ، ولا مهادى صورة من صور الشويض عن الجوانب المفقودة فى الإنسان من عاطفة الحب والرحمة ، بحيث استحكمت فى الناس رغبات التحكم والقهر والسطا . من جانب الأقوياء على الضعفاء ، أئماً وأفراداً ، وحيث تجلب هذه النزعات الحيثية الرحبية (٢٨ - الهى محمد)

في تلك الحروب المروعة المدمرة التي تأتي على الأمم ، وتحصد الناس بنير حجاب ، وتغرق في بحورها العميقة الأطفال والشيوخ والنساء بلا رحمة . فكان هذا المطف البادى على الحيوان هو في الواقع تسكين عن هذه الجرائم ، وتبرير لها ، في حال معاً .

وقد يسأل سائل : كيف تمضى الحياة بهذا الركب الذي يدعو الإسلام الناس فيه إلى أن يسيروا بسير أضعفهم ؟ وهل يستطيع مثل هذا الركب « السلحفائي » أن يبلغ غاية : أو يحقق مقصداً ؟ أليس هذا هو سر تخلف المجتمع الإسلامى وسبب ضعفه وتخاذله بين المجتمعات الإنسافية ؟ وماذا يرجى لسائر يسير هذا السير الواهن المتخاذل بينما الناس يشدون وينطلقون ؟ ماذا يرجى لهذا الإنسان غير التخلف والضعف والقصور عن أن ينال شيئاً من طيبات الحياة التي تمتلئ بها أيدي الجادين المطلقين فيها ؟

ونقول : إن الذي يدعو إليه الإسلام في أن يسير المجتمع الإسلامى بسير الضعيف ليست غايته توهين قوى الأقوياء ، وإطفاء جذوة الحماس المتقدة فيهم -- بقدر ما هي بحث للضمفاء على إطلاق القوى الكائنة فيهم ، وبهشها من رقدتها .. عن طريق الغيرة والتنافس والمدوى التي تصيبهم من جانب الأقوياء !

إن تدبير الإسلام في هذا هو أن يجعل من طاقات الأقوياء ، ومن الحرارة والحماس الذي ملأ صدورهم - دفئاً يملأ صدور الضعفاء بالأمل والرجاء ، ويطرد من كيانهن هذا اليأس الذي يقتل كل رغبة دافعة إلى السير في ركب الحياة !

إن الذي يريد به الإسلام بهذا التدبير هو استنقاذ هذا العدد العديد من ضغفاء النفوس . أصحاب الهمم الفاترة ، والعزمات الخائرة ، حين يعطف عليهم الركب القوى فيضمهم إليه ، ويدعوهم إلى السير معه !

ولا شك أن في هذا كسباً كبيراً للجماعة ، وزيادة غير قليلة في رصيدها من القوى العاملة في الحياة ، بهذا العدد الكبير الذي يضاف إليها من الضغفاء الذين لولا هذا التدبير الحكيم لذهبوا مذاهب الضياع .

إن إطلاق أقوياء إنطلاقاً لا التفتات فيه إلى الضعفاء يوقع اليأس في قلوب المتخلمين فيظنون حيث هم ، إذ لا أمل لهم في اللحاق بالناس .

وربما بدا لبيض القائلين أن يقول : ولم لا يقع العكس ، وهو أن تحسب العدوى من الضعفاء إلى الأقوياء ، فيتحول الركب كله إلى دسلخفاء ، لا تتحرك أبداً . أو تتحرك إذا تحركت في تناقل وبطء ؟

ونقول أيضاً : إن هذا القول مردود لأمرور :

منها أن الإنسان مدعو من جانب ذاته وحب تحصيل الخير لخصه أن يسعى ويعمل ، وأنه إذا وجد الجادين العاملين استولى عليه دافع يدفعه إلى مساهمة الناس واللحاق بهم وخاصة إذا وجد أنه لم يفرق في لجج الحياة أبداً إذا اندفع مع المتدفعين وخاتمه قراءه لأنه سيجد أيدياً كثيرة تمتد إليه ، وتستدقده ، ولا تدعه وشأنه يلقى مسيره .

وهذه هي فائدة السير بسير الضعفاء . . لأنه يعطى إحساساً للضعفاء أنهم لو انفعوا وانطلقوا . فإن يتركوا إذا خارت قواهم ، وأدركهم الجهد والاعياء . وهذا لا يترددون عن الإقدام والمناصرة والاندفاع .

ومها أن الإنسان — في الركب الإسلامي — مدعو إلى العمل والسكناج ، وذلك فوق ما في نفسه من دوافع للعمل والسكناج حفظاً لكيانه — وأنه إذا قصر في ذلك عند محالماً لتسريعه ديبه التي تحت على العمل وتدعو إليه . وتجعله ضرباً من ضروب العبادة والقربى إلى الله .

يقول النبي الكريم « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » وليس اتقان العمل في مجرد تجويده ، وإحسان صنعه كما يفهم كثير من الناس ، وإنما من تمام إتقانه الجدة في أدائه . وإفراغ ما في الوعاء لإنجازته في سرعة وفي إتقان .

هذا ، وليست دعوة الإسلام — هذه بالتي تأخذ على الأفراد طريقهم

في الانطلاق إلى غاية ما تحتل طاقاتهم . فإن كل فرد له في مجال عمله أن يطلق كل قواه ، وأن يتحرك في كل مجالاته . ما دام لم يعتمد على أحد ، أو لم يفوت حقاً على أحد . .

فالناس في ظل هذه الدعوة في حرية مطلقة للعمل حسب طاقاتهم واستعداداتهم . ولكن الذي تدعو إليه تلك الدعوة هو أن تنسق حركات الناس حين يكونون في عمل جماعي يقتضى أن يعملوا له جميعاً ، سواء أكان ذلك في شئون الدنيا أم في شئون الدين كالسير إلى الجهاد لملاقاة العدو . فإن واجب الجماعة أن تسير في ركب واحد وأن تنظر إلى الجانب الضعيف منها ، فلا تحمله على ما عند الأقوياء من قوة . . أما إذا لاقوا العدو فعلى كل مقاتل أن يعطى كل ما عنده من قوة . . فلا يقع مثلاً — أن يسير على بن أبي طالب في مضاربة العدو بسير حسان بن ثابت ، وإن كان ذلك واجباً أن يكون في حال السير إلى جهة القتال ، لا في ميدان القتال ، والتحام المعركة .

وفي الصلاة — صلاة الجماعة — ينبغي أن يكون أداء الصلاة على قدر طاقة الضمءاء ، حتى لا يكون في أدائها ما يشق على المرضى والعجزة والشيوخ . . وهذا ما يثير به الحديث : « من أم فليخفف » .

ومن جهة أخرى . . هل مطلوب الحياة من الناس أن يجهروا حتى يلهثوا ، وحتى تقتطع أنفاسهم ؟

إن الأعدال في العمل ، والموازنة بين الحركة والسكون ، وبين العمل والراحة ، فيه الكفاية كل الكفاية لحاجة الإنسان في الحياة ، وتحصيل مطلوباته منها .

ومن جهة ثالثة ، فإن دعوة الإسلام هذه رحمة بالأقوياء أن يشقوا على أنفسهم وأن يجهروا كل طاقاتهم في سكرة الانطلاق وحميا التراحم والتنافس . . فكثيراً ما يذهل الإنسان عن نفسه . وينسى ما ينبغي أن يكون لبدنه ، وعقله

من حق في الدعة والراحة . . وكثيراً ما يكون هذا سبباً في انحلال قوى الإنسان ، انحلالاً مفاجئاً ، فيفسد جهازه ، وتتعطل ملكاته ، ويصبح غير صالح للعمل القليل ، فضلاً عن الكثير . وفي هذا يقول الرسول الكريم : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، . . ولمـل فيما نرى في المجتمعات الأوربية والأمريكية التي جرفت تيارات الحياة المادية ، وألهبتها سياط التنافس ، والتسابق في الحصول على المال — لعل فيما نرى من الآثار السيئة التي أصيب بها الناس من انحلال في القوى الجسدية والعقلية فوق ما أصيبوا به في قواهم الروحية — لعل في هذا شاهداً ودليلاً .

نعود بعد هذا إلى ما في مقررات الدعوة الإسلامية من مظاهر اليسر والرحمة بالناس . . ففي القرآن الكريم ، وفي سنة النبي القولية والعملية منهج واضح متكامل لتربية المجتمع الإسلامي وإقامته على طريق الاعتدال في أموره جميعها ، الديني منها والدنيوي على السواء ففي القرآن الكريم :

يقول الله سبحانه وتعالى: « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (١) ، ويقول سبحانه: « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدره مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » (٢) . لقد كانت الديانات السابقة تأخذ أتباعها بأفواج من العقاب ، لما كان منهم من عناد ، وبغى وظلم ، فتحرم عليهم بعض الطيبات التي كانت من قبل حلالاً لهم ، كما يقص القرآن من أنبياء بني إسرائيل : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ؛ وأكهم أموال الناس بالباطل » (٣) ، وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر

(٢) سورة الأعراف : آية ١٥٧

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦

(٣) سورة النساء : آية ١٦١

والغنى حرمنا عليهم سُجُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ، أَوِ الْحَوَايَا ، أَوْ مَا اخْتَلَطَ
بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَنِيمٍ » (١) .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية فرفعت هذا الحظر ، وأباحَت لِاتِّبَاعِهَا كُلِّ
طَيِّبٍ : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ،
وطعامكم حل لهم » (٢) . « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرراً على طاعم يطعمه
إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحماً خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل
لغير الله به » (٣) . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من
الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » (٤) .

ثم إن القرآن قد حمل إلى المسلمين دعوة يدعون بها الله : « ربنا ولا تحمل
علينا إصراً كما حملته على الدين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » (٥) .
وفي هذه الدعوة الضارعة إلى الله تخفيف ورحمة .

وكثير من آيات القرآن تحمل إلى المسلمين هذه الدعوة إلى الرفق ، وإلى
القصْد في الأمور : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك
قواماً » (٦) . « ولا تجعل يدك مزاولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعبد
ملوماً محسوراً » (٧) .

وهل منهج أعدل وأكمل من هذا المنهج الذي دعا الله إليه فيهِ ، وهل أدب
ينظر هذا الأدب الذي أخذ به في قوله تعالى : « حذوا العفو ، وأمر بالعرف ،
ويعرفوا » (٨) .

فهل رحمة بعد هذه الرحمة التي تحف بالمسلم ، وتوف عليه من ظلال شريعته
السمحاء ؟ إن الذي يستقيم على شريعة الإسلام لا تقعثر خطاه ، ولا يثقل

- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الأنعام آية: ١٤٦ | (٢) سورة المائدة: آية ٥ |
| (٣) سورة الأنعام: آية ١٤٥ | (٤) سورة الأعراف: آية ٣٢ |
| (٥) سورة البقرة: آية ٢٨٦ | (٦) سورة الفرقان: آية ٦٧ |
| (٧) سورة الإسراء: آية ٢٩ | (٨) سورة الأعراف: آية ١٩٩ |

طهره ، لأنه يئب في ركب الحياة نشيطاً قوياً ، لا يثقله قيود ، ولا نوهى نواه أعباء . إذ أن كل ما نكلفه الشريعة به هو فى واقع الامر زاد عقيد ، يعينه على الحياة ، ويثبت أقدامه فيها ، وليست تلك التكاليف مما يهبط الإنسان ويحطم ظهره ، هى حمل على كل حال ، ولسكنها لا تعدو أن تكون ذلك الحمل الذى يحمله المسافر من زاد يزود به ، وعتاد يعينه على الطريق !

الرحمة عزوان الإسلام : والإله الذى يتوجه إليه المسلمون بصلاتهم وولائمهم هو « الرحمن الرحيم » ، وليس « رب الجنود » كما تدعوه اليهود . . !

الإنسان فى القرآن :

الإنسان — من حيث هو ذات لها وجودها الخاص هو فى واقع الامر متوجه الرسالات السماوية ومواط أوامرها ونواميها . . فغاية هذه الرسالات هداية الناس ، وإسعادهم ، وتوثيق روابط الألف والمودة بينهم .

والفرد هو القوة العامة فى الخلقة الإنسانية . فإذا صلح الفرد كان لبنة صالحة فى بناء تلك الخلقة . وعلى قدر ما فى الخلقة من أفراد صالحين يكون حظها من الصلاح ، ومكانتها فى بناء المجتمع الإنسانى !

الحياة تجرى على هذا الناموس . من الذرة يتكون الجبل . ولا تقوم الشجرة العظيمة إلا من البذرة ، ولا النخلة الباسقة إلا من النواة . ولا تكونت الأنهار العظيمة إلا من قطرات المطر . . قطرة قطرة .

كذلك المجتمع الإنسانى . هو مجتمع لم يأخذ هذه الصفة ولم يحىء على تلك الصورة إلا لأنه فرد يقوم إلى جانب فرد ثان إلى جانب فرد ثالث . . وهكذا . إلى ملايين ومئات الملايين من الأفراد .

والإسلام ينظر إلى المجتمع الإنسانى من خلال « الإنسان » الفرد . فلا يرى المجتمع كتلة متضخمة من اللحم ودم . وإنما يراه أفراداً مجتمعة . كل فرد له

وجوده الخاص ، وله حساب المستقل . ثم له حساب آخر فى رصيد المجتمع
الإنسانى الكبير .

يتحدث القرآن عن الإنسان فى أول آية نزل بها جبريل على الرسول الكريم :
« اقرأ باسم ربك الذى خلق . . خالق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم
الذى علم بالقلم . . علم الإنسان ما لم يعلم » (١) .

فإفراد الإنسان هنا غايته الإلفات إلى ذاتية الإنسان الفرد ، وأنه خلق خلقاً
مستقلاً ، خلقاً سبق خلق الناس . فالإنسان هو الأصل . . والناس لامفهوم لهم
إلا بالإنسان . ويتكرر هذا المعنى فى القرآن أكثر من مرة . فيقول تعالى فى
موضع آخر : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » (٢) . « فآله خلق
الإنسان . . ومن الإنسان كان الناس » ويقول سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان
من سلاله من طين » (٣) والإنسان هو مخلوق الله ، والناس من الإنسان . ويقول
سبحانه : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ، نبئليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً » (٤) .

لإفراد الإنسان فى تلك الآيات التى تتحدث عن خلق الإنسانية ونشأتها
لا يمكن أن يكون لغير علة . فما وردت إشارة فى القرآن إلى خلق الإنسان إلا فى
هذه الصورة المفردة ، وحق . حين يخاطب الناس ويلفتون إلى نشأتهم لا يطلق
الخطاب عاماً وإنما يردّه إلى الإنسان الفرد . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر
وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا » (٥) .

فالشعوب والقبائل لم تخلق هكذا شعوباً وقبائل ، وإنما جعلت من المخلوق
الفرد ، وهو الإنسان ، من ذكروأنثى . فالفرد أصل ، والمجتمع وليد هذا الفرد ،
وثمره بذرتة .

(١) سورة العلق : آيات ١ - ٥
(٢) سورة ق : آية ١٦
(٣) سورة المؤمنون : آية ١٢
(٤) سورة الإنسان : آية ٢
(٥) سورة الحجرات : آية ١٣

وبهذا التقدير كانت نظرة الإسلام إلى المجتمع الإنساني . الفرد أولاً ، ثم الجماعة بعد هذا ، فهو يشهد بقاء الفرد ، وقيم وجوده ، ويدعم كيانه ؛ ثم يبعث به عضواً صالحاً يأخذ مكانه في كيان أكبر منه هو كيان الأسرة ، ثم هو مع الأسرة في كيان أكبر .. هو المجتمع .

والتشريع الإسلامي يخاطب الفرد ويوجه إليه أوامره ونواهيه . يخاطبه باعتباره ذاتاً مسؤولة عن أعماله ، محاسباً عليها . ويخاطبه باعتباره حلقة حية في كيان المجتمع ، يصليه ما يصيب هذا المجتمع من خير أو شر .

ثم يكون حصار هذه الأعمال الذي يحصده المجتمع من الخلق الإنساني للحياة موزعاً على العاملين جميعاً . كل حسب ما بذل من جهد ، وما عمل من عمل : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » (١) . « من يعمل سوءاً يجز به » (٢) « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٣) .

وفي القرآن الكريم سورة سميت باسم الإنسان .. وفيها الخطاب موجه إلى الإنسان الفرد في آياتها الأولى ، وموجه إلى الإنسانية في الآيات التالية . « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خالقك ، فسواك فعادل ، في أي صورة ما شاء ركبك .. كلا ، بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون .. » (٤) .

والذي يتدبر آيات الكتاب في هذا الأمر يجد تصريفاً عجيباً في توجيه الأوامر والنواهي هذا التوجيه المردد بين الفرد والجماعة .

فآيات الأحكام كان من شأنها أن تجيء في صورة الخطاب الجماعي ، لأن شريعة الإسلام شريعة عامة لكل من يدين بها من الناس - فالصلاة ، والزكاة ،

(٢١) سورة النساء : آية ١٢٣
(٤) سورة الإفطار : الآيات ٦ - ٩

(١) سورة فصلت : آية ٤٦
(٣) سورة الزلزال : ٧ ، ٨

والصيام ، والحج فرائض عامة على المسلمين جميعاً — هذه الآيات قد جاء فيها الخطاب جمعاً كما جاء مفرداً .. يخاطب الجماعة حيناً ويخاطب الفرد حيناً .. وأحياناً يزوج بينهما ، فيحمل الخطاب في صدر الآية للفرد ، ثم يجعله في آخرها للجماعة ، أو العكس .. فن الآيات التي توجه فيها الخطاب للجماعة ، قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين » (١) . . وقوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » (٢) . وقوله سبحانه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » (٣) .

ومما جاء فيه الخطاب مفرداً قوله تعالى : « ومن يعيش عن ذكر الرحمن نفيس له شيطاناً ، فهو له قرين » (٤) . « من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » (٥) . « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً شقيقاً .. فأما من أتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، ويقلب إلى أهله مسروراً .. » (٦) .

ومما توجه فيه الخطاب إلى الفرد والجماعة معاً على الوجهين تقديمياً وتأخيراً :

قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » (٧) .

وقوله سبحانه : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (٨) .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهم وبئس المصير » (٩) .

- | | |
|----------------------------------|-----------------------------|
| (٢) سورة الحديد : آية ٧ | (١) سورة البقرة : آية ٤٣ |
| (٤) سورة الزخرف : آية ٣٦ | (٣) سورة التوبة : آية ٢٩ |
| (٦) سورة الانشقاق : الآيات ٦ — ٩ | (٥) سورة فصلت : آية ٤٦ |
| (٨) سورة النور : آية ٢ | (٧) سورة المائدة : آية ٣٩ |
| | (٩) سورة الأنفال : آية ١٦ . |

ونقف هما وقفة فمعيه عند تلك الآيات التي زاوجت بين خطابات الفرد وخطاب الجماعة . . نقف للشهد مهداً رائماً من مشاهد الإعجاز القرآني ففي الآيات من روائع الإعجاز ما يملك على الراء مشاعره ، فلا يكاد يدري ما يصنع إزاءها . . ولو جاز الوجود لغير الله لكان هذا القرآن أحق ما يسجد له !

فانظر في قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » !

جاء الخطاب في صدر الآية محدثاً عن المفرد : السارق ، والسارقة ، ثم جاء الحكم موجهاً إلى الجماعة . .

ذلك أن السرقة إنما تقع في أغلب الأحيان من الفرد الواحد ، ولا تقع من جماعة إلا نادراً ، وفي هذه الحال تأخذ صورة غير صورة العرق فتكون غصباً ، أو قطع طريق .

أما تنفيذ الحكم ، وإقامة الحد على السارق ؛ فهو إلى الجماعة التي خرج الفرد على نظامها . وخالف شريعتها !

فإقامة النظام وتنفيذ أحكام القانون — الشرعي أو الوضعي — واجب على الجماعة . . إن فرطت فيه ، أو تخاذلت عنه كانت آثمة في حق نفسها معرضة للفوضى والضياع .

وكذلك الشأن فيما في الآية الثاقبة « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » .

أما الصورة الثالثة : « يأبى الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب من الله . وماواه جنة وبئس المصير » .

ففي هذه الصورة : جاء التوجيه عاماً للذين آمنوا عند لقاء الكفر ، ونهوا عن أن يولوا عدوهم الأدبار . وأن يفروا من ميدان المعركة .

وهذا التوجيه ملزم للمسلمين جميعاً أن يقيموا عليه في ساحة الحرب . .

وقد نصح قيات المسلمين جميعاً ، وينعقد عزمهم على تنفيذ هذا التوجيه الملزم ،
والأخذ به .

ولكن حين تدور رحى الحرب ، ويحمى الوطيس ، قد تنحل بعض العزائم ،
وتستكره بعض النفوس ريح الموت . فيدعوها ذلك إلى التفسكير في الفرار .
أو المسارعة إليه ..

وهنا موقع الإعجاز فيما جاء في الآية من إحكام وتدبير ؛

ومن يولهم يومئذ دبره الامتحرافاً للقتال أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب
من الله . . .

إنها تمسك بالمقتانين من المسلمين فرداً فرداً . لتقول له : اذكر أنك إذا وليت
ظهورك للعدو - إلا متحرافاً للقتال ، متحيزاً مكاناً مناسباً ، أو منضماً إلى جماعة من
إخوانك — إنك إن أعطيت العدو ظهورك فأراً من ميدان القتال ، فقد رجعت
محماً بغضب من الله ، على حين ترجع جماعة المسلمين بثواب عظيم ورحمة
ورضوان . سواء منهم من رجع إلى الله مستشهداً في ميدان القتال ، أو رجع إلى
بيته سالماً أو جريحاً . .

* * *

ونعود إلى موقف القرآن من الإنسان . .

ولسأل بعد هذا ؟

أهناك نظام اجتماعي سليم معافى من أدواء الانحلال والتفسخ — يقوم على
وحدات من الأفراد لا ترابط بينهما . كل فرد فيها عالم وحده . يعيش بنفسه
ولنفسه . أو يقوم على جماعة قد اندمجت فيها الأفراد اندماجاً كاملاً حتى ذابت
ذاتية الفرد . وذمبت معاملته ؟

هل هناك مجتمع على هذه الصورة أو تلك ؟

ربما ؛

يحدث جان جالت روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » عن صورة متخيلة غير محتقة فالمجتمع الأول . . المجتمع الذي تتناثر فيه الأفراد كما تتناثر قطع الأحجار على صدر الصخراء . . كل فرد يعيش مغلقاً على نفسه . لا يشعر بأحد ولا يشعر به أحد . .

يقول « روسو » :

« ولا يبق بعد ذلك سوى دين الإنسان (١) . أو المسيحية . لا مسيحية اليوم ، ولكن مسيحية الإنجيل وهي تختلف عنها تماماً .

« فبمقتضى هذا الدين المقدس السامى يعترف الناس - وهم جميعاً أبناء نفس الرب - بأن الجميع إحوة ، وأن المجتمع الذى يؤلف بينهم لا يحل حتى الموت .

« بيد أن هذا الدين لما لم تكن أية علاقة خاصة بالجسد السياسى - فإنه - يترك للقوانين - السارية - القرة الوحيدة التى تستمدّها من ذاتها ، ولا يضيف إليها أية قوة أخرى . .

« وبذلك تظل رابطة من روابط المجتمع الخاصة - بلا أثر . .

« وأكثر من ذلك . . فبدلاً من أن يربط قلوب المواطنين بالدولة ، يبعدها عنها . باعتبارها من أشياء الدنيا . .

« ولعلت أعرف شيئاً أكثر ثناءً مع الروح الاجتماعية من ذلك .

ويسطر د روسو فيقول :

« ويقرولون لنا : إنه إذا أوجد شعب من المسيحيين الحقيقيين . فلأنهم يؤلفون مجتمعا ، هو أكثر المجتمعات التى نستطيع أن نقصورها كمالا . .

(١) أى النظام الذى يجعل الإنسان وحدة قائمة بذاتها ، لا صلة لها بين حولها .

« وأنا لا أرى في هذا المرض سوى سمعية كبرى واحدة، هي أن المجتمع
المسكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعا من بشر .

« بل وأقول أيضاً إن هـ.ا المجتمع المزعوم لن يكون — رغم كل هذا —
أقوى المجتمعات ولا أدومها .

« فبقدر كماله ستوزع الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكة في كماله ذاته . . .
— أي في هذا المجتمع المثالي .

« فكل إنسان سيقوم بواجبه : يخضع الكعب للقانون ، والرؤساء عادلون
ومنهمون . والحكام مخلصون ولا يفسدون . . والجنود يحترمون الموت .
ولن تكون هناك خيلاء ولا ترف وكل ذلك جميل جداً .

« ولكن دعنا ننظر فيما هو أبعد من ذلك :

« إن المسيحية دين روحاني تماماً . لا تشغله سوى أمور السماء وحدها .
فوطن المسيحي ليس في هذا العالم .

« وصحيح أنه يقوم بواجبه : ولكن يقوم به بعدم مبالاة عميقة بنجاح ما يعمد
به لإليه أو فشله ، فهو إذ لا يجد ما يلوم عليه نفسه . لانه كثيراً أن يسموه
الحال أو يسمون على هذا الأرض .

« فإذا ازدهرت الدولة لا يكاد يجرؤ على انتعج بالبهجة العامة . ويخشى أن
يفتخر بمجد بلاده . وإذا هلكت الدولة يبارك يد الرب التي ألقت ثقلها على
سعيه !

« يستطرو روسو أيضاً هذا الموقف فيقول :

« ويجب في هذه الحالة أن يكون جميع المواطنين بلا استثناء مسيحيين صالحين
على السواء . حتى يعود السلام المجتمع ، ويعم الزفاف .

« ولكن إذا وجد — لسوء الحظ — رجل واحد طموح . . وراء واحد
تأثلينا ميلا — أو كرومويل — فإنه سيوجد بلا ريب سوقاً رائجة في مواطنيه
الأتقياء . فإذا استطاع واحد من أولئك أن يرض نفسه على مواطنيه

ويستولى بخدعة ما على جزء من السلاطة العامة ، فمرعان ما يصير موضع كل
تسكيريم . ففى إرادة الله أن يكون موضع احترام . . وسرعان ما يسير صاحب
سلطان ، وإرادة الله أن يطاع . . ١١٠

ثم يقول روسو :

« بيد أنى أخطىء إذ أتكلم عن جمهورية مسيحية . . فالكمتان متنافيتان . .
« إن المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة . وروحها ملائمة أكثر بما ينبغى للطفانيان .
ويستغل الطغنيان دائماً هذه الحقيقة لصالحه . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا
ليكونوا عبيداً . .

ثم يقول أيضاً :

« ويقال لنا : إن الجنود المسيحيين يمتازون . وأنا أنكر ذلك وأتحدى من
يثبت لى ذلك !

« أما أنا فلا أعرف كتائب مسيحية !

« وسينذكر لى البعض الحروب الصليبية . ولمكنى دون أن أناقش فى قيمة
الصليبيين أقول إنهم لم يكونوا مسيحيين ، بل جنود القساوسة ، ومواطنى
الكنيسة . فالوطن الذى قاتلوا من أجله كان وطناً روحياً ، ولست أدرى كيف
سجلته الكنيسة زميراً (١) ٢٩ ،

وليس بعد قول هذا المكاتب الاجتماعى العظيم الذى أشعل مار الثورة الفرنسية
بكتابات وآرائه — ليس بعد قوله من يقول إن النظرة المتوازنة التى نظر إليها
الإسلام إلى الإنسان ، حين جعل له ذاتية ، ثم جعل هذه الذاتية تعمل بإرادة .
وضهير وعقل فى كيان المجتمع الإنسانى — ليس من يقول بعد هذا إن الإسلام كان
جائراً على الفرد ، محقراً من شأنه . وحاعة أولئك الغربيين الذين يحاولون دائماً
أن ينزلوا من قدر الإسلام بحسبان أن ذلك مما يعلى قدر المسيحية . ويرفع شأنها !

ولكن أكثر هؤلاء القوم يعلنون من أمر الإسلام ما يعلم هذا الكاتب الحر،
إلا أنهم يعز عليهم أن يقولوا كلمة الحق، إذا كان فيها ما يزيح الإسلام. أو
يكشف حقيقة من حقائقه المشرقة.

يقول جرونيباروم في كتابه « حضارة الإسلام » :

« والإسلام .. من بدايته — لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير،
وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله الجسدي، فيصف خلق الفرد وتكوينه
تفصيلاً : « ولقد خلقنا الإنسان من سلاطة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين،
ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا
العظام لحماً » (١).

فإذا يريد هذا السيد من القرآن أن يقول غير هذا في الإنسان ؟ الإنسان الذي
ينسى دائماً أنه من سلاطة يرجع إليها أصل كل إنسان ؟ ماذا يقال للإنسان الذي
يحقر أخاه الإنسان. ويتخذ لنفسه نسباً آخر غير هذا النسب الذي يلتقي فيه مع
الناس جميعاً ؟

أليست هذه حقيقة خلق الإنسان ؟ ثم أليس هذا هو موقف كثير من الناس
من الذهول عن هذه الحقيقة ؟ وتقسيم الشعوب إلى منازل ودرجات، حسب
ما يجري في عروقها من دم، وحسب ما يكون لبشرتها من لون ؟

إن الإسلام لا يكاد يعترف للإنسان عن أصله هذا إلا ليقتل نوازع التفرقة
العنصرية التي عانت البشرية منها ما عانت من ألوان التسلط والقهر، ومن صور
الاستعباد والاستبعاد. . ولا يزال هذا الداء يخامر أهدأ شعوباً إلى يوم
الناس هذا.

يريد الإسلام بهذا أن ينزل الإنسان — كل إنسان — على حكم الآلة

الكريمة : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعرباً وقبائل
لتعارفوا . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . إن الله عليم خبير » (١) . . وأن يكون
سلوك الإنسان — كل إنسان — قائماً على هدى الرسول الكريم : « أيها الناس
إن أباكم واحد وإن أصلكم واحد . . كلكم لآدم . . وآدم من تراب ، لأفضل
لعرقي على عجمي ، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى » .

✽ ✽ ✽

تلك هي الرسالة التي تلقاها « محمد » من ربه ، ونسب نفسه لها ، وجاهد في
سبيلها ، واحتمل ما احتمل من ألوان الأذى والضرر من أجلها . فكان له هذا
النصر المبين ، وكان لرسالة هذه الثمرات الطيبة المباركة في الحياة ، بما غرست في
القلوب من إيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر . وبما سمعت
للناس من مناهج الحق ، والخير والإحسان . . وتلك عقبي الدعوات الصادقة ،
والنيات الخاصة . . لا يخطئها النجاح أبداً ! وإن قامت في وجهها العواصف ،
واعترضت طريقها المعابر ، فإن يد الله قائمة عليها ، تشد أزرها وتثبت خطواتها ،
وتتمكن لها أسباب البقاء في الحياة .

حياة ... ومفتوح !!

ويعد . .

فهل فرغ حديثنا في سيرة الرسول ؟

وهل أخذت النفس بحظها من حديث الميرة ، على الوجه الذى قصدت إليه ،
وتصورته ، وخططت حدوده ومعالجه ؟

والحق أن حديث السيرة النبوية — حسب ما أردت — لم يبدأ بعد . .
 إذ أنى حين أقلب هذه الصفحات الكثيرة التى كتبتها هنا ، والتى تبلغ المئآت
 عدداً — أكاد أنكرها ، لأنها لم تكشف لى من سيرة الرسول بعض ما عرفت من
 آياتها الوضئمة المشرقة ، ولم تقض على من النفحات الزكية الطيبة ما كنت أجد
 حين أمسك بطرف من أطراف السيرة الكريمة ، أو أورد الناضر على منهل
 من مناهلها ۱۱

وأشهد لقد غلبني على أمرى في هذا البحث ما وجدت من مفتريات وأباطيل رى بها المفترون المبطلون في دهاء خبيث وفي حقد أعشى - وهو بهذه المفتريات في ثنايا السيرة الكريمة ، رجاء أن يكشفوا من أضواءها ، أو يحجبوا من أنوارها ، ثم ليكون لهم من ذلك الضلال طريق إلى الشريعة الإسلامية وإلى كتابها الكريم ، حين قدروا ألا قيام للشريعة ولا احترام لكتابها إذا كان في صاحب الشريعة وحامل كتابها ما يريب أو يعاب . وهم في هذا التدمير المصطنع إلى حد بعيد ، لو أنهم بلغوا ما يبغيون ، ونالوا ما يطمنون ، وهيماتهم ، هيماتهم

وَمَا قُلْنَا مِنْ شَيْءٍ: لأنه وإن كانت النبي ذاتيته . والقرآن ذاتيته — فليهما في الواقع الأهر كيان واحد ، وإن أى مثلية نصيب أحدهما — وهيات — هي قسمة سواء بينهما . إذ كان القرآن هو شروعه الإسلام قولاً ، وإذ كان النبي

هو شريعة الإسلام عملاً ، فإذا خالف قول صاحب الشريعة عمله ، أو كذب عمل صاحب الشريعة قوله لم يكن للشريعة ، ولا لصاحب الشريعة سلطان على الناس ، ولا مقام في الحياة . .

ولهذا كان أبلغ وصف وأصدق للنبي ما وصفته به ، « السيدة عائشة » وقد سمّلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه القرآن » أي أنه والقرآن كيان واحد ، فالنبي هو التفسير الحق لما نزل عليه من آيات الله .

ولأن فلم تكن هذه المفتريات التي زحف بها الجهلة والمضللون على سيرة الرسول — لم تكن مقصوداً بها الرسول لذاته ، وإنما كانت غايتها تدمير الشريعة وصاحب الشريعة جميعاً ، ثم يأتي من وراء ذلك تدمير المجتمع الإسلامي كله ، وتضييع أكثر من أربع مئة مليون إنسان يديرون بهذه الشريعة ، ويجعلون مصيرهم إليها !

أرأيت إذن جنائية آثم من هذه الجنائية ، وأغلظ جرماً وشناعة منها ؟ فإلى أين تتجه هذه الملايين ؟ وإلى أي مصاق تساق هذه الأمم إذا صح تقدير هؤلاء المضللين ، فتخلت هذه الملايين عن شريعة الإسلام ونبتتها وراء ظهورها ؟

أتذهب إلى المسيحية ؟ إن أصحاب هذه المفتريات لا يؤمنون بالمسيحية ولا يعترفون بها ، وإن نسبوا إليها ، وحسبوا من أهلها ؛ لأنهم أعداء المسيحية ، وعندو لكل دين !

وما للإسلام عندهم من ذنب إلا أنه دين ! .. دين نزل من السماء ، ولم يخرج من التراب والطين !!

وإذا كان في المسيحية وفي أسرارها ومشتعلات التلث فيها مالا تسليعه فقول هؤلاء الذين كفروا بالمسيحية ولا تفسره فلسفتهم . . فهل كان ذلك شأن الإسلام عندهم ، وهل جاءوا إليه بقلوب سليمة . وعقول صحيحة فوجدوا فيه شيئاً لا يستقيم مع العقل أو يخرج على شرائط التفكير . . في أوسع مجالاته وأعظم أغواره ، وأدق مسائله ؟

هذا هو الإسلام — عقيدة وشريعة — في معرض النظر لكل ناظر ، لا يقوم
دونه سدة أو كهان ، ولا يستأثر بشيء منه أحد دون أحد . فهل جاءوا عليه
بشاهد واحد من القتل يقول فيه قولاً ينسكه عاقل ، أو ترده الحياة ، ويأباه
نظامها وعمرانها ؟

وكذب وافتراء ، وإمعان في الكذب والافتراء أن ينظر في الإسلام ناظر
منصف ، بعيد عن الهوى ثم يجد في الإسلام ما لا يستقيم مع الحياة ، أو ما لا يجرى
مع سن الطبيعة ونواميدها !

لقد بذر الإسلام بذوره الأولى في أفقر مكان وأجده ، وفي أقصى قلوب
وأصلدها ، وفي أظلم عقول وأضلها ، ثم لم يمض جيل من أجيال الناس حتى أثمر
هذا البذر أطيب ثمرات الإنسانية وأكرمها ، نخرج في جيل واحد من العلماء ،
والفقهاء ، والساسة ، والقادة ، أعداداً وفيرة ، يصلح كل فرد فيها أن يكون قائد
ركب الحياة كلها ، إلى مواطن الخير والفلاح !

ولم تكن مغارس الإسلام هذه في أمة من الأمم ، أو في شعب من
الشعوب ، بل كانت مغارسه في الإنسان من حيث هو إنسان . . ففرس في قریش
كما غرس في الفرس ، والروم ، والحبش !! لجمع إبلالا الحبشى مع عمر القرشى ،
مع عمار الفارسي مع صهيب الرومي ، ليقم من ذلك شاهداً على أنه دين الإنسان
— من حيث هو إنسان — مجرداً من الجنس واللون والمواطن ! وأن أي إنسان
يوجه إليه ، ويرد موارده يجد أطيب زاد الدنيا والآخرة جميعاً .

ذلك هو الإسلام ،

أفليس من العذوان على الحق ، والتضييع للخير أن تسكدر موارد هذا المورد
العذب ، وتعمى ضلله ، وتطعن معاملته ، أو يضلل الناس عنه أو يحال بينهم وبينه
ذلك الأراجيف وهذه المبطلات ؟

ثم هذا نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام .

ماذا أخذ من دنيا الناس ، وماذا جمع من أموال ، وحصل من ذهب وفضة ،
وماذا اقتنى من ضياع وقصور ؟

أيحسب في المخادعين ، والكذابين والمذنبين من يرد كل هذه الدنيا التي وقعت
بين يديه ؟ .

وماذا ينبغي المخاتل بختله ، والكذاب بكذبه ، والمنافق بنفاقه ، والمدعى
بإدعائه ، والمنهوذ بشعوذته — ماذا يريد هؤلاء ومن على شاكلتهم إلا أن
يفيدوا مالا . أو يحصلوا ثراء ، أو يستكثروا مما عندهم من المال والثراء ؟

ولقد عرفت الحياة كيف كان طعام محمد ، وكيف كان لباسه ، وكيف
كان مأواه وفراشه .

أما ماخلفه وراءه من طعام الدنيا . . فلا شيء ، إلا درعاً مرهونة عند
يهودى ، فى قوته وقوت أهله .

ثم كان أن حسم الأمر جميعه فيما فرض على ورثته من بعده ألا يرثوا شيئاً
من ممتلكاته إن ترك وراءه مايورث . فقال : « نحن معاشر الانبياء لا نورث ،
ما تركنا فهو صدقة » .

فلن كان هذا الجهاد الذى جاهد ، وهذا الضر الذى وجد ، وهذا الأذى
الذى احتمل ؟

لأنه لله ، وفى سبيل الله ، والحق الذى بين يديه ، وفى سبيل الأمانة التى حملته
السما إلى إياها ، وكلفته أداءها إلى الناس جميعاً . . « قل ما سألكم عليه أجر ، إلا
المودة فى القربى » (١) .

فلولم يكن محمد ، نبياً . . ألما كان من حقه على الإنسانية — كإنسان —
أن يمجده وأن يكرم ، وأن تكون سيرته فى مسمع الحياة وبصرها ، آية
للمؤمنين ، ودرساً للدارسين ، وقدوة للمقتدين . لهذه المعاني الكريمة التى اشتمل
عليها ، ولهذه المثل العالية التى عاش بها ، ولهذا السمو الروحى الذى خلق فيه ؟

فأى خير فى الحياة ، رأى صلاح يرجى للناس إذا كان معظ الماملين المخلصين
الشرفاء الأطهار أن يلقوا من الناس إنكاراً ، وجهوداً . وأن يكون فى الناس
من يلفق لهم الأكاذيب ، ويضيف عليهم الأباطيل ؟

ومع هذا . . . فإن الخير هو خير . حيث كان ، وإن الحكمة الطيبة لاتسعد
أبدأ . . . لأنها كشجرة طيبة . أصابها طيب وفرعها فى السماء توفى أكلها كل حين
بإذن ربها . .

وقد وفى الله سبحانه « محمدأ » أجره ، وأجزل له المثوبة ، فرفع ذكره فى
العالمين ، ومكن لدعوته فى الحياة ، وجمع قلوب الملايين من الناس على حبه
والولاء له ، جيلاً بعد جيلاً ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو
خير الراشدين ؟

ولقد شهد « محمد » بنفسه منزلته فى قلوب أصحابه ومكانته من نفوسهم ،
حيث كان أثر عندهم من أنفسهم ، وأحب إليهم من آبائهم وأزواجهم
وعشيرتهم ، فقر بذلك عيناً ، وطاب نفساً . . . هذا إلى ماقرت به عينه ، وطابت
به نفسه مما له عند ربه من رضى ورضوان ، بشر به الوحي ونطق به القرآن :
« ولستوف يهطيك ربك فترضى » (٢) .

* * *

أقول : إن همى هنا - فى هذا البحث - كان منصرفاً إلى مواجهة تلك
المبطلات ، والمدعىات التى ادعاهما خصوم الإسلام على نبي الإسلام ، وعلى الكتاب
الذى أنزل عليه .

وكنت أقدر أن هذا الموقف لا يصرفنى عن الغاية التى قصدت إليها من هذا
البحث ، وهى الوقوف على موارد السيرة النبوية ، وإرواء النفس من رحيقها
الطيب العاهور . .

ولكن جرى الأمر على غير ما كنت أحسب وأقدر . . فلقد وجدت بين
يدى كثير من المفتريات والباطيل والخرافات التي تحتل مكاناً كبيراً يرحم
الخطائق المعتمدة في السيرة النبوية ، ويكاد يغلبها ، ويحزها عن مواضعها .

ولقد شغلني هذا الموقف ، الذي ربما أكون قد أسرفت فيه بعض الشيء ،
والذي ربما يكون قد حملني فيه الخماس الديني ، والعيرة على حمى الرسول — أن
أشدد الحساب على أولئك المفترين ، وأن أضرب حتى في تلك المفتريات الميئة
التي نسيج الباطل لها أ كفافاً من يوم أن ولدت . . ولم آخذ نفسي فيها بالقول
المعروف : « الضرب في الميت حرام » بل كنت أضربها مرة بعد مرة ، ولم يشفع
لها علمي أنها ميئة بأن أتركها وشأنها . . بل كان هذا العلم عندي داعية للزيد من
توجيه الضربات لها ، إذ كان مما أعلم أيضاً أن التبعة الخبيثة تستمسك بالأرض
الخبيثة . وإن تسكن ما تكون من الفساد والعطب . . .

وهذه المفتريات النكدة وإن تسكن ميئة ، خامدة الانفاس ، فإنها قد
تصادف قلوباً مريضة ، أو عقولاً فاسدة ، فتبيض فيها وتفرخ ، وتنتج أشأم
مواليد . . تتصايح في كيان أصحابها بالمرق من الدين ، وبالتجديف بالكفر
والإلحاد فيه .

من أجل هذا جاء ما كتبت في السيرة ، وإن كان محققاً - على ما أرجو -
لبعض الواجب في الدفاع عن حمى الرسول ورسالته - أقول قد جاء ما كتبت
في السيرة شيئاً أشبه بمن يقف إزاء المجاني الطبية من غسل النحل ، ثم يجد هو لها
جماعات من الزنابير والإفاعى ، فيشغل نفسه بإجلالها عن هذا الرزق الحسن ،
والزاد الطيب ، ليأخذ ما يشاء من رزق ، ويحمل ما يستطيع من زاد . . .
له وللناس !

كان ذلك هو موقعي تماماً !

فلقد جمعت إلى السيرة النبوية الكريمة ، فوجدت رزقاً غدياً ، وزاداً كريماً
طيباً ، ولكن وجدت زواحف كثيرة من الضلالات ، والمفتريات . والجهالات .
تأخذ على الطريق ، وتحول بيني وبين مواردها الصافية ، ومجانيتها الطيبة .

وكفت - والحال كذلك - بين أمرين:

إما أن أمضى في طريق ، متخبطاً بين سحب متكاثفة من الضباب والدخان وأقنع بصحبة السيرة في هذا الجو المظلم العاصف ، وأرضى بما يلوّح لى خلال تلك الصحبة من شعاعات .

وإذا أن أكشف معالم الطريق ، وأجلى هذا الضباب والدخان عنه ! حتى أملأ العين بهذا النور العاوى . . لا يحول بينى وبينه ضباب أو سحاب .

وغير منكور أن علماءنا - قديماً وحديثاً - قد كانت لهم ضربات قاصمة لتلك الضلالات والمفتريات . وأنهم قد استطاعوا أن يحلوا عن حمى السيرة النبوية هذه المنكرات ، وأن يضمنوا على الطريق معالم كاشفة بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال . . وليس على من يرد موارد السيرة الكريمة إلا أن يأخذ طريقه إليها ، وأن يسلك أى طريق من تلك الطرق الكثيرة المستقيمة المهيبة .

وكان يمكن أن آخذ طريقاً من تلك الطرق المهيبة ، وأن أتفقد آثار من سبقوا من الرواد . . كان يمكن أن أفهل هذا ، وأن أوفر الجهد الذى بذلته فى محاربة هذا الباطل ، وإذاقته موتاً بعد موت !

ولكنى آثرت أن أمهد لنفسى طريقاً إلى السيرة النبوية المطهرة ، وأن أجلى ببدي عنه هذه الضلالات وتلك البدع . ليكون لى من هذا العمل ثواب المجاهدين أولاً ، ثم ليكون لى ثانياً من الطمأنينة ما ثبت أقدامى على الطريق ، فلا تهجم على خاطرة من تلك الخواطر السوداء التى تترصد غفلة القلب ، أو ضعف النفس ، فتفسد على صحبى السيرة المطهرة ، وتقطع أمداد النور التى تفيض منها . .

• • •

ولست أزعم أننى شنيت ما بنفسى من الخواطر التى كنت أجدها حيناً الثقيت بهذه المفتريات والباطيل التى تسبّلت لى حمى السيرة المطهرة . .

لا أزعج أفنى شفيت بما بنفسى من هذه الخواطر المزعجة ، فما زلت أجد بين
يدى كثير من هذه الأباطيل ، لم أعرض لها فى هذا البحث ، ولم ألقها لقاء
مباشراً ، ولو وقفت منها هذا الموقف لأنفقت أضعاف هذا الجهد الذى بذلته فى
تلك المحاولة دون أن تباع النفس غايتها من مجاهدة تلك الأباطيل ، وتعريضها من
أساليب الخداع والتويه الملففة فيها !

لهذا ، فقد اكتفيت بهذه الأمثلة القليلة التى سقتها فى هذا البحث ، فإنها على
قلتها تمثل أوجهاً كثيرة من وجوه الباطل التى تظهر شائبة كالحبة فى معرض السيرة
النبوية ، وتطل متلصصة بين أحداثها وشخوصها المشرفة الوضيئة !

• • •

وعلى أى ، فإن ما ضمت عليه فصول هذا الكتاب يمكن أن تكون مدخلا
إلى السيرة النبوية لمن يريد أن يلتقى بها ، وأن يعطىها عقله كله وقلبه كله ، دون
أن يلتفت إلى هذه الأباطيل التى تصادفه ، ودون أن يدخل عليه منها ما يزيغ به
قلبه ، أو يضطرب له عقله ، فقد عرف فيما جاء فى هذه الفصول — إن لم يكن قد
عرف من قبل — عرف مما جاء فى هذه الفصول أن نبي الإسلام فوق الشكوك والريب ،
وأن القرآن أرسخ من الجبال فى مراسيمها ، وأسمى من الكواكب فى مداراتها ..
لأنه كلام الله الذى لا يأتى به الباطل من بين يديه ولا من خلفه « تنزيل من حكيم
حميد » .

فأى كلام ينال من مقام النبي فى عليائه ، وأى كلام يشم منه رائحة الشك فى
أنه كلام الله ، الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب النبي الكريم — إن أى كلام
من هذا أو ذاك هو زور وبهتان ، جاء به عدو منيظ محقق ، أو ولي جاهل أحق .
وما كان للزور أن يصد الحق عن وجهته ، ولا أن يقف له فى طريق إلا كما يقف
النشأ وصغار الحصى فى مجرى السيل العتي المتدفق .

إن الذى يطالع السيرة النبوية المطهرة لا يستطيع أن يخلص إليها إلا بعد أن
يجتاز هذه المرحلة من القلق والأسى لما يجد فى ثنايا هذه السيرة من خاخ منصوبة ،

وشبالت مهبأة ، لاصطياد الجبهة والسذج ، ومن فى قلوبهم مرض — بما يلتقى
لأليهم من مقابله القول ، وما يزين لهم من زور ويمتان .

على أن من كان سليم القلب ، معافى من آفات الضلال والهوى لا يحتاج إلى علم
العلماء وحكمة الحكماء حتى يجتاز هذه المرحلة ، فى أمن وسلام ، وأن يلتقى بالسيرة
كما يلتقى بالقمر فى ليل تمامه ، وقد خرج من وراء السحاب !

وأحسب أن هذا الكتاب « يمثل تلك المرحلة ، التى تجابه قارئ السيرة
النبوية — وهى كما قلنا — مرحلة يعانى فيها المرء أزمات نفسية ، ووجدانية ،
وذهنية ، من هذه الضلالات والمفتريات التى اندست فى نفس مايا السيرة ،
وتلبست بها !

وإذن ، فلينذكر هذا قارئ الكتاب ، وليعلم أنه لم يقرأ فيه سيرة الرسول
السكريم ، ولا بعضاً منها ، وإنما الذى قرأ هو إشارة بالإصبع إلى الطريق المستقيم
إليها ، وإنما هو زاد يقبل به من يزعم لقاء السيرة والقبس من أفواها !

ومن بدرى ؟ فامل كتاباً آخر يحى وراء هذا الكتاب . . يتحدث عن السيرة
حديثاً بعيداً عن هذا الجو الذى انعقدت فيه سحب الخصومة واثرات الجدل . .
حديثاً يقف على حمى السيرة وقفة لإجلال ، وخشوع ، وصلاة .

فإن ييسر الله يكن من وراء هذا الكتاب ، كتاب ، وربما أكثر من كتاب ،
والله المستعان ، وهو ولي التوفيق ؟

(تم بحمد الله)

المراجع

نُتِبَ هنا أهم المراجع التي كانت، تحت نظرنا، إعداد هذا الكتاب

أولاً: الكتب المقدسة

القرآن الكريم . . . التوراة . . . الإنجيل

ثانياً: كتب التفسير والحديث

تفسير ابن كثير . . تفسير الزمخشري . . تفسير البيضاوي

صحيح البخاري . . صحيح مسلم . . باوغي المرام من أدلة الأحكام

ثالثاً: كتب العقيدة والشريعة

الرسالة للإمام الشافعي . . . تحقيق أحمد محمد شاكر - ١٩٤٠

مقدمتان في علوم القرآن . . . (مطبعة السنة المحمدية) .

النبوات لابن تيمية . . . المطبعة الخيرية - ١٣٤٦ هـ .

السياسة الشرعية لابن تيمية . . . المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ .

الإسلام والنصرانية . . للإمام النسيخ محمد عبده .

قضية الألوهية . . لل المؤلف (جزءان) . الناشر: دار الفكر العربي .

رابعاً: كتب في التاريخ والسير

الشفاع بتعريف حقوق المصطفى . . للقاضي عياض . . المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢ هـ .

السيرة لابن هشام (أربعة أجزاء) . . المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٢٢٩ هـ .

السيرة الحلبية . . . طبعة مصر سنة ١٣٢٠ هـ .

الطبقات، لابن سعد . . . طبعة صادر بيروت .

زاد المعاد، في هدى خير العباد، لابن القيم (أربعة أجزاء) مطبعة السنة المحمدية.

محمد رسول الله . . للإيمين دينيه . . . ترجمة الدكتور عبد الحلیم محمود .
حياة محمد ، لإميل در منجم . . . ترجمة عادل زعيمو

خامساً : كتب فلسفية واجتماعية

مقدمة ابن خلدون المطبعة الاميرية سنة ١٣٢٠ هـ
حاضرة الإسلام ، تأليف جوستاف جروندياوم (الألف كتاب) مكتبة مصر .
قصة الحضارة ، تأليف : ول ديورانت . . . طبعة جامعة الدول العربية .
تجديد التفكير الديني الإسلامي . تأليف : محمد إقبال ترجمة : عباس محمود .
رسائل الجاحظ ، مجموعة رسائل . . . (للسندوني) .
الزوميات ، للمعري (طبعة صادر) بيروت .
العقد الاجتماعي ، لجان جاك روسو (الألف كتاب) ترجمة عبد الكريم أحمد .

سادساً : كتب أدبية

نهاية الأرب في فنون الأدب ، للنويري (طبعة دار الكتب المصرية) سنة ١٩٤٩
أدب الكاتب ، للصولي . . . طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .
البيان والتبيين للجاحظ . . . (طبعة السندوني) .

الفهرست

موضوع	صفحة
مقدمة	٢
مقدمة الطبعة الثانية	٨
صلوات وإبتهالات (الكلمة الطيبة)	٩
الباب الأول	
الاسم والمسمى	٢٥
الباب الثاني - النبوة .. والنبي	
هل النبوة ضرورة لإنسانية	٤٦
بشرية الرسل	٥٠
الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس - صفوة الحق	٥٢
الباب الثالث - المعجزة .. والإعجاز	
المعجزة	٥٧
إمكان اتصال الانسان بالملأ الأعلى	٦٥
رأى ابن خلدون	٦٧
اختلاف المعجزات باختلاف الامم	٦٨
الباب الرابع - مصادف الرسالة الإسلامية	
شخصية الرسول	٧٤
تخطيط وهديان	٧٥
عظمة محمد	٧٧
عظمة الانسان .. وعظمة النبي	٧٧
موقف .. وموقف	٧٩
ما أشبه الليلة بالبارحة	٨٠
محمد ... بعد القرآن	٨١

الموضوع

مع الجادين والمنصفين: ٩٣

لامارتين ٩٢ — ول ديورانت ٩٤ — ستانلي لين بول ٩٧

فوستيل ذو كولانتر ٩٧ — بارتلى هيلر ٩٧ — جويستان

لوبون ٩٧ — كارليل ٩٨ — وليم ميود ٩٨ — سبورت

اسم ٩٨

دعوات الحق ونزوات الباطل ١٠٠

النبي والمتنبى ١٠٢

أنبي أم عظيم ١٠٨

الباب الخامس — خاتم النبیین

والله أعلم حيث يجعل رسالته ١١٢

محمد والوحي ١٣١

الحق والباطل ١٣٧

وما صاحبكم بمجنون ١٣٨

ثمر الصرع والجنون ١٤٥

ابن صياد واختبار النبي له ١٤٧

الفرانقة العلى ١٥٠

الباب السادس — الداعى وموطن الدعوة

مفارقات ومقابلات ١٦٣

حساب غير هذا الحساب ١٦٤

ماذا هناك ماعنى هذا التوافق ١٦٥

هذا النبي الالى ١٦٧

النبي العظيم هدفه العاصمة ١٦٨

مولد النبي ١٦٩

الباب السابع — الرسول وخصائص الرسالة

أصحاب النبيل ١٧٢

فداء النبي ١٧٧

الموضوع	صفحة
ماذا في جبين عبد الله	١٨٥
حلم آمنة	١٨٩
قصة الختان	١٩٤
قصة سق الصدر	١٩٥
إرهاصات بين يدي النبوة	١٩٨
دين الجنس	٢٠٢
رجال في الطليعة	٢٠٥
الرهبان والسكبان	٢٠٧
من أنهار والسكبان	٢١٢
معجزات الرسول . . بعد البعثة	٢٢٤

نبع الماء ٢٢٨ — شجرة تتكلم ٢٣٢ — معجزة النبي
 للنبي ٢٣٤ — إنك على الحق المبين ٢٣٥ — انشقاق
 القمر ٢٣٧ — قصة الإسراء ٢٤٢ — مد غير منظر ٢٥١ .

الباب الثامن - الرسول . . والمعجزة الكبرى

« لو أنزلنا هذا القرآن . . الآية »	٢٦٥
الرسول الكريم ٢١٩ — أسلوب القرآن ٢٨٢ — محمد والقرآن	
عند غير المسلمين ٢٨٤ — التشريع في القرآن ٣٠١ —	
صياغة أحكام الشريعة ٣١٤ .	

الباب التاسع - بشرية الرسول

شواهد من أحوال الرسول - القرآن وشخصية الرسول	٢٢٥
ما شهدت به الأعداء	٢٢٦

الباب العاشر - المرأة في حياة النبي

الرجل والمرأة ٢٢٧ - النبي البشري ٢٢٨ - الحقيقة والظل ٢٣٩	
في وجعات النبي	٢٥٢

[illegible][illegible]

ما يتصل بالإنسان في ماله -- ما يتصل في حياته مع الناس .

(ب) الزوج والزوجة ٤٣٥ -- الرحمة الشاملة أيضاً ٤٣٦ .

خاتمة .. ومنفتح

الفهرس

٣٦١ ٥ ٤ ٥ ٨ ٩ ٥ ٤ ٨ ٨ ٢

